

المنهج التربوي ومهارات التواصل

كلية الشريعة

السنة الثالثة

الفصل الأول



منشورات جامعة حلب

كلية الشريعة

المنهج التربوي ومهارات التواصل

الدكتور

نجم العلي

الدكتور

ناصر الرحيل

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

لطلاب السنة الثانية

الفهرس

القسم الأول

المنهج التربوي ومهارات التواصل

مقدمة ١٣

الفصل الأول: مفهوم التربية في الإسلام وأهدافها ومصادرها

المبحث الأول: مفهوم التربية والعلاقة بينها وبين الإسلام ١٧

المطلب الأول: مفهوم التربية ١٧

المطلب الثاني: العلاقة بين الإسلام والتربية ٢٠

المبحث الثاني: أهداف التربية الإسلامية وخصائصها ٢١

المطلب الأول: أهداف التربية الإسلامية ٢١

المطلب الثاني: خصائص التربية الإسلامية ٢٧

المبحث الثالث: مصادر التربية الإسلامية ٣٠

المطلب الأول: القرآن ٣٠

المطلب الثاني: السنة النبوية ٣٢

المبحث الرابع: المنهج التربوي الإسلامي وخصائصه ٣٣

المطلب الأول: تعريف المنهج وأشكاله ومفهومه ٣٣

المطلب الثاني: أسس منهج التربية الإسلامية ٣٩

المطلب الثالث: خصائص المنهج الإسلامي المنشود ٤٢

المطلب الرابع: أهداف المنهج التربوي الإسلامي ٤٥

الفصل الثاني: وسائط التربية الإسلامية

المبحث الأول: الأسرة المسلمة ٤٧

المطلب الأول: أهمية الأسرة المسلمة ٤٧

المطلب الثاني: أهداف تكوين الأسرة ٤٨

٥٢	المبحث الثاني: المسجد
٥٢	المطلب الأول: تمهيد في وظائف المسجد
٥٣	المطلب الثاني: الوظيفة التربوية للمسجد
٥٣	المطلب الثالث: الوظيفة الاجتماعية للمسجد
٥٤	المطلب الرابع: أثر المسجد التربوي، والاجتماعي في حياة الأمة
٥٤	المبحث الثالث: المدرسة
٥٥	المطلب الأول: تمهيد في أهمية المدرسة ونشأتها
٥٦	المطلب الثاني: المدرسة في عصر الرسول ﷺ
٥٧	المطلب الثالث: المدارس في العصر العباسي المتأخر
٥٨	المطلب الرابع: المدرسة المعاصرة
٧١	المبحث الرابع: المربي المسلم
٧١	المطلب الأول: تمهيد حول أهمية المربي
٧٢	المطلب الثاني: صفات المربي المسلم وشروطه
٧٥	المبحث الخامس: المجتمع ومسؤوليته التربوية
٧٦	المطلب الأول: اعتبار الناشئين أبناء أو أبناء إخوة الراشدين
٧٦	المطلب الثاني: التأديب بسخط المجتمع وتعنيفه للمسيء
٧٧	المطلب الثالث: التأديب بالحرمان الاجتماعي أو الهجر والمقاطعة
٧٧	المطلب الرابع: التربية الاجتماعية بالتعاون
٧٨	المطلب الخامس: تربية الناشئين على الحب في الله
٨٠	المطلب السادس: حسن انتقاء الأصدقاء على أساس التقوى والإيمان
	الفصل الثالث: أسس التربية الإسلامية
٨٤	المبحث الأول: الأسس الفكرية
٨٤	المطلب الأول: مميزات التصور الإسلامي عن الإنسان، والكون والحياة

٨٥	المطلب الثاني: نظرة الإسلام إلى الإنسان
٨٨	المطلب الثالث: نظرة الإسلام إلى الكون
٩١	المطلب الرابع: نظرة الإسلام إلى الحياة
٩٤	المبحث الثاني: الأسس التعبدية
٩٤	المطلب الأول: تمهيد في معنى العبادة
٩٥	المطلب الثاني: الأثر التربوي للعبادة
٩٧	المبحث الثالث: الأسس التشريعية
٩٧	المطلب الأول: أثر الشريعة في تربية الفكر
٩٩	المطلب الثاني: أثر الشريعة في تربية الخلق
١٠١	المطلب الثالث: الضروريات الخمس وأثرها التربوي
١٠٤	المطلب الرابع: العقيدة الإسلامية، وأثرها التربوي
	الفصل الرابع: أساليب التربية الإسلامية
١١٧	المبحث الأول: التربية بالقصص القرآني والنبوي
١١٧	المطلب الأول: تمهيد في أهمية القصة التربوية
١١٨	المطلب الثاني: القصص القرآني
١٢٢	المطلب الثالث: القصص النبوي
١٢٤	المبحث الثاني: التربية بضرب الأمثال
١٢٤	المطلب الأول: معنى الأمثال
١٢٥	المطلب الثاني: بعض الأهداف التربوية التي حققتها الأمثال القرآنية النبوية
١٢٨	المبحث الثالث: التربية بالقدوة
١٢٨	المطلب الأول: الحاجة إلى القدوة
١٢٩	المطلب الثاني: التطبيقات التربوية
١٣٠	المطلب الثالث: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة (التقليد)

١٣٢	المطلب الرابع: الأشكال التربويّة للقُدوة
١٣٣	المبحث الرابع: التربية بالممارسة والعمل
١٣٣	المطلب الأول: أهمية العمل في الإسلام
١٣٣	المطلب الثاني: التعليم بالأسلوب العملي (الممارسة والتكرار)
١٣٥	المطلب الثالث: الأثر النبوي للتعليم بالعمل والممارسة
١٣٦	المبحث الخامس: التربية بالعبرة والموعظة
١٣٧	المطلب الأول: التربية بالعبرة
١٤٠	المطلب الثاني: التربية بالموعظة
١٤٣	المبحث السادس: التربية بالترغيب والترهيب
١٤٣	المطلب الأول: تعريف الترغيب والترهيب
١٤٤	المطلب الثاني: مميزات الترغيب والترهيب القرآني والنبوي
١٤٦	المبحث السابع: التربية بتكوين العادات الحسنة
١٤٧	المبحث الثامن: التربية باستغلال الأحداث
١٤٨	المبحث التاسع: التربية عن طريق حل المشكلات
١٤٩	المبحث العاشر: التربية بتفريغ الطاقة وشغل أوقات الفراغ بما ينفع
	الفصل الخامس: نماذج من الجهود التربويّة في الإسلام
١٥١	المبحث الأول: أبو حامد الغزالي وأفكاره التربويّة
١٥١	المطلب الأول: حياة الغزالي وعصره
١٥٣	المطلب الثاني: الغزالي وأفكاره في التربية
١٦٩	المبحث الثاني: أبو حنيفة وأفكاره التربويّة
١٦٩	المطلب الأول: حياة أبي حنيفة وعصره
١٧٢	المطلب الثاني: المبادئ التربويّة عند الإمام أبي حنيفة
١٧٩	المبحث الثالث: ابن خلدون وأفكاره التربويّة

١٧٩	المطلب الأول: اسمه ونسبه ومكانته العلمية
١٨٧	المطلب الثاني: المنهج التربوي عند ابن خلدون
	الفصل السادس: إعداد معلم التربية الإسلامية وطرق تدريسها
١٩٣	المبحث الأول: إعداد معلم التربية الإسلامية
١٩٤	المطلب الأول: صفات معلم التربية الإسلامية ومقومات نجاحه
١٩٥	المطلب الثاني: إعداد معلم التربية الإسلامية
٢٠٢	المبحث الثاني: طرق تدريس التربية الإسلامية
٢٠٣	المطلب الأول: طريقة الإلقاء والمحاضرة
٢٠٤	المطلب الثاني: الحوار والمناقشة والمناظرة
٢٠٦	المطلب الثالث: طريقة التلقين
٢٠٧	المطلب الرابع: الطريقة العملية
٢٠٧	المطلب الخامس: التعلم الذاتي
٢٠٨	المبحث الثالث: خصائص أساليب التربية الإسلامية وطرق التدريس
٢٠٨	المطلب الأول: التدرج في التعليم
٢٠٨	المطلب الثاني: مراعاة خصائص الموقف التعليمي
٢٠٩	المطلب الثالث: الإيجابية واشتراك المتعلم في الموقف التعليمي
٢١٠	المبحث الرابع: طرق وخطوات تدريس أفرع التربية الإسلامية
٢١٠	المطلب الأول: تدريس القرآن الكريم
٢١١	المطلب الثاني: تدريس التفسير
٢١١	المطلب الثالث: تدريس الحديث النبوي
٢١٢	المطلب الرابع: تدريس العقيدة
٢١٣	المطلب الخامس: تدريس العبادات
٢١٤	المطلب السادس: تدريس المعاملات

٢١٤	المطلب السابع: تدريس التهذيب
٢١٥	المطلب الثامن: تدريس السير
٢١٧	الخاتمة
٢١٩	الفهارس العامة للقسم الأول

القسم الثاني مهارات التّواصل

٢٢٩	مقدّمة
٢٣١	مبحث تمهيدي

الفصل الأوّل: التواصل بين التّأصيل والمشروعية

٢٣٥	المبحث الأوّل: التشريع الرّبّانيّ المستفاد من منهج الله في تعامله مع الخلق
٢٣٥	المطلب الأوّل: الاتصال الإلهي بالخلق ومظاهره
٢٣٦	المطلب الثاني: التواصل الإلهي مع الخلق ومظاهره
٢٤٣	المطلب الثالث: العبادة

المبحث الثاني: مشروعيّة التواصل المستفادة من أوامر الله لعباده

٢٤٥	بالتواصل الإنسانيّ فيما بينهم
٢٤٦	المطلب الأوّل: التعارف
٢٤٨	المطلب الثاني: التعاون
٢٥٠	المطلب الثالث: التآخي
٢٥١	المطلب الرابع: النصيحة
٢٥٥	المطلب الخامس: النهي عن التقاطع والأمر بالإصلاح بين الناس
٢٥٧	المطلب السادس: الشورى
٢٥٨	المبحث الثالث: الاحتياج الإنسانيّ للتواصل الاجتماعيّ
٢٦٠	المطلب الأوّل: دور التواصل في تلبية الاحتياجات الجسديّة

٢٦٢	المطلب الثاني: دور التواصل في تلبية الاحتياجات النفسية
٢٦٧	المطلب الثالث: دور التواصل الإنساني في تلبية الاحتياج العقلي للإنسان
	الفصل الثاني: التواصل: عناصره، وشروط نجاحه، وأسباب فشله
٢٧١	المبحث الأول: عناصر عملية التواصل
٢٧١	المطلب الأول: عملية التواصل
٢٧٣	المطلب الثاني: تحليل عناصر عملية التواصل
٢٨٤	المطلب الثالث: التواصل في التحصيل العلمي والمهني
٢٨٥	المبحث الثاني: شروط نجاح التواصل
٢٨٥	المطلب الأول- الشرط العام لنجاح التواصل
٢٩٠	المطلب الثاني- الشروط الخاصة بأركان عملية التواصل
٢٩٧	المطلب الثالث: أسباب فشل التواصل بين المرسل والمستقبل
	الفصل الثالث: أقسام التواصل الإنساني ومهاراته
٣٠٣	المبحث الأول: التواصل غير اللفظي
٣٠٥	المطلب الأول: تعريف لغة الجسد وأساليب التعبير الجسدية
٣٠٧	المطلب الثاني: لغة الجسد في القرآن الكريم والسنة الشريفة
٣١١	المطلب الثالث: الوجه في لغة الجسد
٣٣٠	المطلب الرابع: لغة اليد والأصابع
٣٣٣	المطلب الخامس- الساحات الشخصية أو مناطق النفوذ
٣٣٥	المطلب السادس- استعمال مهارات لغة الجسد في دعم عمليات التواصل
٣٣٧	المطلب السابع: التواصل اللفظي غير اللفظي
٣٣٧	المطلب الثامن: مهارة قراءة لغة الجسد بين المرأة والرجل
٣٣٨	المبحث الثاني: التواصل اللفظي (اللفظي) ومهاراته
٣٣٩	المطلب الأول: التواصل اللفظي

٣٤٢

المطلب الثاني: مهارات التواصل اللغويّ

٣٦٣

فهرس المصادر والمراجع للقسم الثاني

القسم الأول

المنهج التربوي ومهارات التواصل

إعداد الدكتور
ناصر الرحيل

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إنَّ التربية ضرورة بشرية لا بدَّ منها من أجل بقاء الإنسان وبناء الأجيال وتطوُّرها، وتأكيد القيم وصلاح الأخلاق والنفوس، وللتربية منهجها الكامل وطريقتها المتميّزة في بناء الإنسان الصالح روحياً وخلقياً ونفسياً وعقلياً وجسمياً واجتماعياً ليكون إنساناً متوازناً ومواطناً قادراً على النهوض بمجتمعه على أساس علمي وعمل مستقيم.

وقد برز اهتمام الأمم في أنحاء العالم بجميع عناصر ومكونات العملية التربويّة لحاجتها الملحّة إلى التربية السليمة، وازداد هذا الاهتمام مع تطوُّر العالم وتقدُّمه في شتى المجالات الصناعيّة والزراعية والتّجارية وفي ميادين الاختراعات، وفي عالمنا المعاصر اطّردت الحاجة إلى الدّين كضرورة تربوية لتحقيق التوازن بين المادّة والروح ولتنمية الجانب الروحي والخلقي، حيث لن تستقيم الحياة إلّا إذا التزم الإنسان بالدّين وطبّق شريعة الله.

لقد وضع الإسلام للتربية منهجاً متكاملاً ومتوازناً، كما منح الإنسان نظام حياة كاملاً مفصّلاً في القرآن والسنة، إذا اتّبعه الإنسان بقلب سليم ونية صادقة استحقَّ أن يكون خليفة الله في الأرض، ولكي يتّبع الإنسان هذا النظام ويطبّقه تطبيقاً صحيحاً فإنّه يحتاج إلى تربية ينشأ عليها منذ طفولته في البيت وفي المجتمع الذي يعيش فيه، وأن تكون هذه التربية شاملة لروحه وعقله وجميع حواسّه.

إنَّ التربية هي رعاية الإنسان في جوانبه الجسميّة والعقليّة والعلميّة والاجتماعيّة وتوجيهها نحو الصلاح والخير والوصول بها إلى الكمال. وغاية التربية الإسلاميّة تحقيق العبوديّة الخالصة لله على مستوى الفرد والجماعة، وقيام الإنسان بمهامه المختلفة لعمارة

الكون وفق منهج الله، ومفهوم العبادة في الإسلام مفهوم شامل جامع لا يقتصر على أداء الفرائض التعبدية فحسب، بل يشمل أيضاً نشاط الإنسان كلّ ما دام الإنسان يبتغي وجه الله بهذا النشاط، ويلتزم فيه شريعته ومنهجه.

إنّ مادّة التربية الإسلامية هي صمّام الأمان للأمة الإسلامية في حاضرها ومستقبلها، وقد عني بها القرآن والسنة، وبالتالي فهي جزء لا يتجزأ من عموم الشريعة السمحة. وللتربية الإسلامية دورٌ مهم يعود على الأسرة والمجتمع بالاستقرار والسعادة، لذا يجب أن تقوم سياسة التربية الإسلامية على أسس عقائدية مستمدة من الشريعة الإسلامية، مع الأخذ في الاعتبار احترام الإسلام للعقل والفكر ووقوفه مع العلم النافع وتوجيه الإنسان لتسخير الكون لمصلحة البشر وتقدّمه وفق منهج الله.

إنّ التعليم من أفضل الأعمال التي يؤيّد بها الإنسان، ولا يوجد دين حتّى على طلب العلم ونشره بين الناس وجعله أمراً واجباً على كل مسلم ومسلمة كالدين الإسلامي. وقد جعل الإسلام للمعلم مكانة سامية ودعا إلى احترامه وتقديره، قال رسول الله ﷺ: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ".^(١)

ويُعَدُّ المعلم إحدى الركائز الأساسية في عملية التربية والتعليم، وذلك لأنّه العامل الأساسي في إنجاح وتحقيق الأهداف التربويّة والتعليميّة، وانطلاقاً من ذلك الدور الذي يقع على عاتق المعلم فقد تزايد الاهتمام بإعداده وتطوير مستوى أدائه والارتقاء به أكاديمياً ومهنياً.

إنّ الهدف الأساسي من عملية إعداد المعلم هو تمكينه من معرفة حقيقة العملية التربويّة بمدخلاتها الأساسية والضروريّة ثم تحويل تلك المعرفة إلى مهارات فنيّة وتعليميّة يستخدمها المعلم في مواقف التعليم التي تواجهه أثناء تأديته لمهنة التعليم.

(١) البخاري: كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، رقم: ٤٤٧. مسلم: كتاب العلم، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم: ٢٦٩٩.

إنَّ صلاح المعلِّم يكْمُن في صلاح عقيدته وخلقه، وإنَّ موضوع إعداد المعلِّم المسلم الكفاء الصالح والقُدوة لا بدَّ أن يكون شاملاً ومتكاملاً في جميع الجوانب العلميَّة والمهنيَّة والنفسية البدنيَّة والاجتماعيَّة.

إنَّ تطبيق المنهج الإسلامي الشامل والمتكامل بواسطة المعلم المسلم الكفاء والقُدوة هو المدخل الحقيقي للإصلاح وتنشئة أفراد المجتمع على هدي الإسلام وتعاليمه وتأهيلهم لمواجهة تحديات العصر.

د. ناصر الرحيل

الفصل الأول

مفهوم التربية في الإسلام وأهدافها ومصادرها

المبحث الأول

مفهوم التربية والعلاقة بينها وبين الإسلام

المطلب الأول: مفهوم التربية:

يرى العلماء المسلمون أنَّ التربية الإسلامية فلسفة واضحة مستمدة من القرآن الكريم والسنة الشريفة، وهي تتعهد الإنسان بدنياً وعقلياً وروحياً. وقد كثر الكلام في تعريف التربية الإسلامية، وصال العلماء وجالوا حول مفهومها من منظور الإسلام. بداية إذا رجعنا إلى معاجم اللغة العربية، وجدنا لكلمة التربية أصولاً لغوية ثلاثة: الأصل الأول: ربا يربو بمعنى زاد ونما.

الأصل الثاني: ربي يربي على وزن خفي يخفى، ومعناها: نشأ وترعرع.

الأصل الثالث: رب يرب بوزن مد يمد بمعنى أصلحه، وتولى أمره، وقام عليه ورعاه، قال: ورببت الأمر أربه رباً: أصلحته ومنتته.^(١) وقد عرّف الراغب الأصفهاني التربية من خلال هذه الأصول اللغوية فقال: "هي إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام".^(٢) أما التربية اصطلاحاً فقد عرفها بعضهم بأنها "إعداد الفرد أو الكائن الإنساني لحياته في الدنيا والآخرة".^(٣) وبأنّها "تلك المفاهيم التي يرتبط بعضها ببعض في إطار فكري واحد يستند إلى المبادئ والقيم التي أتى بها الإسلام، والتي ترسم عدداً من الإجراءات والطرائق العملية يؤدي تنفيذها إلى أن يسلك سالكها سلوكاً يتفق وعقيدة الإسلام".^(٤) وتدور بعض

(١) انظر مختار الصحاح: الرازي، رب ا، ص ١١٧.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ص ٣٣٦. ٢

(٣) التربية وبناء الأجيال في الإسلام: أنور الجندي، ص ١٥٣.

(٤) أصول التربية الإسلامية: سعيد إسماعيل علي، ص ٢٢.

التعاريف الأخرى حول أنّها نظام تربوي متكامل، يقوم كل جانب فيه على تعاليم الدين الإسلامي، ومفاهيمه، ومبادئه، ومقاصده. ونخلص مما سبق إلى أنّ التربية الإسلامية منهج كامل للحياة، ونظام متكامل لتربية، ورعاية النشء، وهي تحرص على الفرد والمجتمع، وعلى الأخلاق الفاضلة، والقيم المادية والروحية الرفيعة، وتوازن بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

نستنتج ممّا تقدّم أنّ التربية تتكون من عناصر: **أولها:** المحافظة على فطرة الناشئ ورعايتها. **ثانيها:** تنمية مواهبه واستعداداته كلها، وهي كثيرة متنوعة. **ثالثها:** توجيه هذه الفطرة، وهذه المواهب كلها نحو صلاحها، وكما لها اللائق بها. **رابعها:** التدرج في هذه العملية. كما نستخلص ممّا سبق نتائج أساسية في فهم التربية، **أولها:** أنّ التربية عملية هادفة، لها أغراضها وأهدافها وغايتها. **ثانيها:** أنّ المربي الحق على الإطلاق هو الله خالق الفطرة وواهب المواهب، وهو الذي سنن سنناً لنموها وتدرجها وتفاعلها، كما أنّه شرع شرعاً لتحقيق كما لها، وصلاحها وسعادتها. **ثالثها:** أنّ التربية تقتضي خططاً متدرّجة تسير فيها الأعمال التربوية، والتعليمية وفق ترتيب منظم صاعد، ينتقل مع الناشئ من طور إلى طور، ومن مرحلة إلى مرحلة إلى مرحلة. **رابعها:** أنّ عمل المربي تال وتابع لخلق الله وإيجاده، كما أنّه تابع لشرع الله ودينه. وهذا التحليل لمعنى التربية، ونتائجها يؤدّي بنا إلى معنى الشرع والدين؛ لأنّ التربية تستمد جذورها منه، فطبيعة النفس الإنسانية طبيعة متدنية، والإنسان في الحقيقة حيوان متدين.

تقوم التربية الإسلامية على أسس تعبدية وأسس تشريعية وأخرى فكرية، وتتضمّن الأسس الفكرية نظرة الإسلام إلى الإنسان والكون والحياة، والإنسان في نظر الإسلام مخلوق كرمه الله وفضله على سائر مخلوقاته، ووهبه عقلاً يُمكنه من السيطرة على ما يحيط به من الكائنات التي سخّرها الله لمصلحته ومنعه من أن يذلّ نفسه لشيء منها. وفي مقابل ذلك حمّل الإسلام الإنسان مسؤولية كبرى هي تطبيق شريعة الله وتحقيق عبادته. وتتعدّد الآثار التربوية لهذه النظرة الإسلامية إلى الكون، منها ارتباط المسلم بخالق الكون،

وبالهدف الأسمى من الحياة وهو عبادة الله، فالكون كله أقيم على أساس الحق، ووُجِدَ لهدف معين وإلى أجل مسمى عند الله. (١)

وقد نظر الإسلام إلى الحياة على أنها دار اختبار وامتحان وشعور بالمسؤولية، والدنيا ليست غاية الإنسان؛ لأنها متاع مؤقت، يحق للمسلم أن يستمتع بالحياة في حدود الشرع مستهدفاً من وراء كل متعة إرضاء الله، وعليه أن يصبر على بلواء الحياة. وتمثل العبادات إحدى الركائز الأساسية للتربية الإسلامية، وهي ترتبط بمعنى واحد هو العبودية لله وحده. فالعبادات تذكير بصلة الإنسان الدائمة بالله، وهي ذات فوائد تربوية جليلة، فهي تعلمنا الوعي الفكري الدائم الذي يعتمد على إخلاص النية لله. والعبادات التي يؤدّيها المسلم مع الجماعة المسلمة تربيته على الارتباط بالجماعة المسلمة ارتباطاً مبنياً على عاطفة صادقة ووعي مستنير. كما أنها تربيته على المساواة والتعاون والعدالة في المعاملة، وتربي عند المسلم قدراً من الفضائل الثابتة المطلقة. (٢)

وبالإضافة إلى الجانب التربوي للشرعية الإسلامية، فإنها تتميز بجانب تطبيقي يشمل جميع جوانب الحياة، فالشرعية تمثل ضابطاً خلقياً للفرد، والضابط الخلقي هنا غير الوازع التربوي الديني، فالوازع يبعدك عن موضوع المحرمات بالكلية، ولكن الضابط هو الذي يقول لك بدقة: هذه حدود المحرمات في البيوع، فلا تقترب منها. ويبرز الضابط الاجتماعي للشرعية الإسلامية، حيث يُدافع المجتمع المسلم عن كيانه الديني، ويقف موقفاً صلباً من المجاهرة باقتراف المحرمات، وتتبع الشريعة الإسلامية ثلاثة أساليب في التربية: الأول تربوي نفسي مصدره النفس وضابطه الخوف من الله ومحبه، والثاني يقوم على التناصح الاجتماعي والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والثالث يتمثل في وازع الدولة المسلمة التي تنفذ أحكام الشريعة فينعم الناس بالعدل والأمن. (٣)

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: عبد الرحمن النحلاوي، ص ٣٧-٣٨.

(٢) انظر منهج التربية الإسلامية: محمد قطب، ٣٩/١، ٤٠.

(٣) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ١٦، ٦٣.

المطلب الثاني: العلاقة بين الإسلام والتربية:

أولاً. التربية الإسلامية فريضة إسلامية: الإسلام شريعة الله للبشر، أنزلها لهم ليحققوا عبادته في الأرض، وإنَّ العمل بهذه الشريعة يقتضي تطوير الإنسان وتهذيبه، حتى يصلح لحمل هذه الأمانة، وتحقيق هذه الخلافة، وهذا التطوير والتهذيب هو التربية الإسلامية، فلا تحقيق لشريعة الإسلام إلا بتربية النفس والجيل والمجتمع على الإيمان بالله ومراقبته والخضوع له وحده، ومن هنا كانت التربية الإسلامية فريضة في أعناق جميع الآباء والمعلمين، وأمانة يحملها الجيل للجيل الذي بعده، ويؤديها المربون للناشئين، وكان الويل لمن يخون هذه الأمانة، أو ينحرف بها عن هدفها أو يسيء تفسيرها، أو يغير محتواها. إنّها تربية الإنسان على أن يحكم شريعة الله في جميع أعماله، وتصرفاته ثم لا يجد حرجاً في حكم الله ورسوله، بل ينقاد مطيعاً لأمرهما، وخلاص الإنسان من الخسران، والعذاب لا يتم إلا بتربية الفرد على الإيمان بالله والاستسلام لشريعته.

ثانياً- التربية الإسلامية قضية إنسانية، وضرورة مصيرية: إنّ المصائب التي تنزل بالمجتمع الإنساني عامة، والكوارث التي تصيب المجتمعات الإسلامية، وظلم الإنسان للإنسان، واحتكار الدول القوية لخيرات الأمم الضعيفة، كل ذلك نتيجة لسوء تربية الإنسان، والانحراف به عن ابتغاء كماله، وعن فطرته، وطبيعته الإنسانية. ولما كان الإسلام هو المنهج الرباني المتكامل الذي يصوغ الشخصية الإنسانية صياغة متزنة متكاملة، ليجعل منها خير نموذج على الأرض، يحقق العدالة الإلهية في المجتمع الإنساني، ويستخدم ما سخر الله له من قوى الطبيعة، استخداماً نيراً متزاناً، ولما كنا قد رأينا كيف أخفقت الجهود التربوية، والمدارس التربوية الحديثة، والفلسفات التربوية الغربية، في إنقاذ الطفولة، والإنسانية من ظلم القرون الأوروبية الوسطى، وظلامها في أوروبا، بل نقلتها من الظلم، والظلام إلى الدمار والضياع، فكانت البشرية في ذلك "كالمستجير من الرمضاء بالنار". لما كان ذلك كله وجدنا بعد البحث والتمحيص، أنّ التربية الإسلامية أصبحت ضرورة حتمية، وقضية إنسانية، لتخليص الطفولة عموماً من التهديد، والضياع بين شهوات الآباء والأمهات، وتحافتهم على المادة، وبين النظم المادية غير الإنسانية، وبين الإباحة والتدليل والميوعة.

ولإنقاذ الطفولة في الشعوب النامية، والضعيفة من الخنوع والذل، وويلات الجوع. وذلك بما تغرسه التربية الإسلامية في الإنسان من العزة، والشعور بالكرامة، بل الاستماتة في سبيلها، مهما أحاطت به الشدائد، أو أذهلته عنها المغريات.^(١)

المبحث الثاني

أهداف التربية الإسلامية وخصائصها

المطلب الأول: أهداف التربية الإسلامية:

تعاني الإنسانية اليوم من ضياع الطفولة، إما بسبب المبالغة في الإباحة والتدليل، وانعدام الضوابط في معاملة الأطفال، وأما بسبب الإفراط في الشهوات وانعدام ضوابط الغرائز، انعداماً أضاع ملايين الأطفال غير الشرعيين، وإما بسبب الإفراط في ابتذال المرأة إفراطاً جعلها تخالط الرجال في كل شيء، فتفقد أنوثتها ومكانتها الأولى في تربية الأطفال، ومن كل ذلك نشأ تفكك بنیان الأسرة، وضاعت الطفولة، كما ضاعت الأنوثة والرجولة جميعاً، وأصبحت الإنسانية تعيش في بؤس وشقاء. وكان للتربية الغربية الحديثة نصيب لا يستهان به من المسؤولية عن هذا الضياع والبؤس والشقاء، لذلك لا يجد العاقل بداً من البحث عن بديل لها. والإسلام يقدم لنا منهجاً تربوياً متكاملًا.

أولاً. الإسلام والتربية الغربية: إنَّ الاختصار على هذه الغاية لن يقصر جهد الإنسان على العبادة والمسجد كما يبدو للبعض للوهلة الأولى؛ لأنَّ طاعة الله لا تقتصر على العبادة بل تشمل الحياة بكل جوانبها. وعلى هذا فجميع الأهداف التربوية التي تدعيها التربية الغربية اليوم، يشملها هذا الهدف الأسمى للتربية الإسلامية، ويسمو بها ويوجهها الوجهة المثالية التي تبعدها عن الانحراف أو الزلل، وتجعلها في خدمة الإنسانية، وتحقيق السعادة للفرد والمجتمع. ولبيان ذلك لا بد لنا من وقفة عند كل هدف من هذه الأهداف، لنبين معناه في التربية الغربية، وكيف يتحقق في ظل التربية الإسلامية.^(٢)

(١) للتوسع انظر أصول التربية الإسلامية: الثحلاوي، ص ٢٠ وما بعدها.

(٢) انظر من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي: كمال الدين عبد الغني المرس، ص ١٦١.

١. الإسلام وتحقيق الذات: يذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أنَّ الذاتية هي الهدف الأسمى الذي تسعى إليه التربية، ولا خير يمكن أن يصيب هذا العالم إلا عن طريق النشاط المطلق للأفراد، رجالاً كانوا أم نساء، وإنَّ التربية التي تتخذ مبدأ تحقيق الذاتية هدفاً لها، هي التربية الوحيدة التي تسير وفق قوانين الطبيعة، والتي تشهد لها الحقائق المستمدة من علم الحياة. وهذا الهدف يعني أنَّ لكل إنسان بمفرده ذاتية وخصائص تميزه عن غيره من الناس، والتربية الحقة في رأيهم هي التي تُعنى بإبراز هذه الخصائص عن طريق إطلاق حرية كل الناس، وإتاحة الفرص الكافية والأوضاع المناسبة لجميع الناشئين، ليحقق كل ناشئ ذاتيته، في جو اجتماعي يناسب الجميع. يؤخذ على هذا الهدف مأخذان: الأول أنَّ الحرية أو النشاط المطلق للأفراد، يحتاج إلى ضوابط تعصم الأفراد عن الغرور بذاتيتهم أو الطغيان على غيرهم أو استعمال خصائصهم الذاتية في شر الإنسانية وضرر المجتمع. والمأخذ الثاني أنَّ إطلاق الذاتيات يحتاج إلى هدف مشترك أسمى تحققه هذه الذاتيات، مع بقاء مجالات للتمييز الفردي لكل ذاتية. فأصحاب هذا الاتجاه لم يعتمدوا على مبدأ أو معيار للخير أو الشر، وحتى لو أُنههم اعتمدوا معياراً لاختلفوا فيه مع غيرهم من المربين والفلاسفة، ولا يزال الناس يختلفون، فلا بد من معيار إلهي يجمع عليه البشر في هذا الموضوع؛ لأنَّ معايير الناس تختلف باختلاف ظروفهم الاجتماعيّة، والنفسيّة والعائليّة، ولا يصلح واحد منها لتربية جميع البشر. أما كيف يشتمل هدف التربية الإسلاميّة، وهو إخلاص العبادة لله، على هدف "تحقيق الذات"، فإليك تفصيل ذلك:

أ- عندما كلف الله الإنسان بعبادته، كلفه على أساس أنَّه مميّز بين الخير والشر، وقد بين له نتيجة طريق الخير يوم القيامة، ونتيجة طريق الشر، وفي هذا كل التقدير لذاتية الإنسان، ذلك أنَّ الله جعله مميّزاً مختاراً، أي أعطاه حرية الاختيار، ثم بين له مسؤوليته عن هذا الاختيار.

ب- أنَّه ترك مجال التسابق إلى الخيرات مفتوحاً لجميع الناس، وجعل مبدأ الجزاء على حسب العمل، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فالله يحاسب على كل مثقال ذرة، ثم

يضاعف لمن يشاء، لا فرق في ذلك بين ذكر وأنثى، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

ج- أنه جعل الهدف الأسمى وهو طاعة الله وعبادته هو معيار التمييز بين الذاتية الخيرة والذاتية الشريرة، أو التمييز بين تحقيق الذاتية في سبل الخير، وتحقيقها في سبل الشر. وهكذا لم يترك الإسلام هدف تحقيق الذاتية مطلقاً من غير ضابط، بل اعتبر ذلك الهدف وسيلة لهدف أسمى منه، هو مرضاة الله تعالى.

د- أنه ثبت في بعض الآيات، والأحاديث النبوية ضرورة أن يعمل كل إنسان بحسب قابلياته واستعداداته الذاتية، كقوله تعالى: {وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} (التوبة: ١٠٥). فالجتمع المؤمن يرى أعمال أفرادهِ، ويشجع قابلياتهم ويقابلها بالشكر والتقدير، وكقول الرسول ﷺ: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له".^(١) أي أن الله خلق كل كائن، وكل إنسان لهدف أو لمهنة، وزوده بقدرات وكفاءة معينة، ثم يسر له من المجالات ما يناسب ذاتيته وكفاءته ومقدرته، ولذلك أمره بالعمل، والسعي لتحقيق مثله الأعلى حسب قدرته وذاتيته.^(٢)

٢. الإسلام وهدف النمو: يرى بعض علماء التربية أن الهدف الأوحد للتربية هو نمو الإنسان من جميع النواحي العقلية والجسمية والروحية والاجتماعية، ولكن معنى النمو يحتاج إلى إيضاح: هل النمو مجرد زيادة في الحجم، أو الوزن أو المعلومات والتصورات؟ يجمع علماء التربية اليوم أن الزيادة الكمية وحدها ليست هي معنى النمو الذي تهدف إليه التربية، ولكنهم يختلفون في تطوير سلوك الإنسان. فبعضهم يرجعه إلى آليات وردود أفعال منعكسة، فالإنسان كلما أثر فيه مؤثر خارجي سعى إلى تحقيق شهوة من شهواته. وهؤلاء لا يحتاجون إلى كثير من النقاش، ولا يصمدون أما الاحتجاج بإرادة الإنسان، وتغير الاستجابة من إنسان إلى آخر، بحسب تربية كل إنسان وظروفه

(١) البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب فسنيسرهُ للعسرى (الليل: ١٠)، رقم: ٤٩٤٩.

(٢) انظر تحفة المودود بأحكام المولود: ابن قيم الجوزية، ص ١٤٤-١٤٥.

الحالية، أو آماله المستقبلية. فمن المعلوم أنَّ المؤثر الخارجي الواحد، كرؤية الطعام مثلاً يعطي عدة ردود أفعال مختلفة، كعدم المبالاة بالنسبة للشبعان، والصبر بالنسبة للصائم، وكل من هؤلاء يفكر قبل أن يقدم على الاستجابة، وليس آلة تستجيب بدون تفكير أو هدف أو غاية من الحياة. أمَّا الفريق الثاني فيقولون: إنَّ الإنسان ينمو أي يتطور سلوكه، على أثر ما يتكون عنده من خبرات، فإذا كان الطفل بين أهله ووسخ ثوبه الجديد، عابوا عليه ذلك، وأظهروا أمامه من الانفعالات، ما يجعله يعلق في ذهنه ارتباط الألم النفسي بتوسيع الثوب الجديد. هذا الارتباط يسمى خبرة، وهذه الخبرة بالذات، في هذا المثال لما كانت صادرة عن المجتمع، أمكننا أن نسميها خبرة اجتماعية؛ لأنَّها تحصر التعامل مع الجماعة، وتتابع خبرات الطفل الاجتماعية، حول السلوك المعيب أمام الضيف، والسلوك المحبب، كالتحية وألفاظها، فنقول: إنَّ الطفل ينمو نمواً اجتماعياً أي تزداد خبراته الاجتماعية، وتنمو معها مشاعره الاجتماعية، كالأنس بالآخرين، والخوف من بعض الناس أو من بعض المواقف، وهكذا. نقد هذا **الهدف:** لا شك في أن تتابع الخبرات ينمي مدارك الناشئ، ويجعل سلوكه أقرب إلى التعايش مع المجتمع، ومع ظروف الحياة ومتطلباتها. ولكن ليست جميع الخبرات سواء في تحقيق خير الإنسانية، وبالتالي ليس كل نمو يستخدم للخير، فبعض المنحرفين يستخدمون خبراتهم ومهاراتهم في السطو أو الخطف، فهل يُعدُّ هذا هدفاً تربوياً؟ إنَّه في الحقيقة وسيلة للشر، لأنَّ تلك الخبرات والمهارات، لم تكن هي الهدف، بل كانت وسيلة لهدف آخر هو الشراء السريع المفاجئ، من هنا ندرك أنَّ النمو وسيلة لتحقيق هدف أبعد منه، والنمو سلاح ذو حدين، إذا لم يوجه منذ الصغر نحو هدف أسمى، فقد يستخدمه الناشئ بعد خروجه إلى المجتمع، لتحقيق أغراض دنيئة أو أعمال ضارة بالآخرين. والتربية الإسلامية اعتبرت النمو بجميع جوانبه وسيلة لتحقيق مثلها الأعلى، وهو العبودية لله وطاعته، وتحقيق عدالته وشريعته.^(١)

(١) انظر التربية الإسلامية: أصولها ومنهجها ومعلمها: عاطف السيد، ص ٥٤.

ثانياً. موقف التربية الإسلامية: التربية في نظر الإسلام تعني تنشئة الطفل تنشئة سليمة، وتكوينه كي يصبح إنساناً متكاملًا من النواحي البدنية والروحية والأخلاقية في ضوء المبادئ والقيم التي جاء بها الإسلام، وطبقاً لأساليبه وطرائقه التربوية. ويهتم القرآن الكريم والحديث الشريف بتربية ذات فلسفة واضحة تهدف إلى أن يصير كل إنسان عابداً لله، إذ تتحقق تزكية النفس وإصلاحها بالعبادة الصحيحة. والعبادة بمفهومها الواسع تشمل جميع أشكال النشاط الإنساني الروحي والخلقي والعلمي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وهذا هو الهدف الكلي للتربية في الإسلام. كذلك تهدف التربية الإسلامية إلى تنمية قدرة الفرد على التأمل والتفكير بالنظر في الكون وتدبره وتأمل النفس واستبطانها. وتهتم التربية الإسلامية بالدين والدنيا معاً، فالغرض الديني من التربية الإسلامية ذو أهمية فائقة في بناء شخصية الفرد باعتباره عضواً نافعاً في المجتمع، أما الغرض الدنيوي فيتمثل في الغرض العلمي النفعي أو الإعداد للحياة. إنّ الهدف الأسمى للتربية الإسلامية هو إيجاد الفرد المؤمن الذي يخشى الله ويتقيه ويحسن عبادته؛ ليفوز في الآخرة ويسعد في الدنيا.^(١)

ويمكن حصر أهداف التربية الإسلامية في نقاط هي^(٢): بلوغ الكمال الإنساني^٢ وتحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، تنشئة الإنسان الذي يعبد الله ويخشاه، تقوية الروابط الإسلامية بين المسلمين ودعم تضامنهم الإسلامي وخدمة قضاياهم، تربية الإنسان لبلوغ الفضيلة وكمال النفس عن طريق العلم بالله عز وجل، تربية فطرة المسلم على الإيمان الصحيح وخشية الله وعبادته، إيجاد الفرد المسلم السليم العقيدة المؤمن بربه الممارس لعبادته، تربية المواطن الصالح المتفاعل مع بيئته الاجتماعية الذي يقدر المسؤولية، تنمية الفرد من جميع جوانبه جسمياً وروحياً وانفعالياً واجتماعياً وغرس القيم الإنسانية التي يريها الإسلام في نفوس أبنائه لاحترام الإنسان كإنسان والتعامل معه كبشر بغض النظر عن لون أو جنس أو دين. ومن التربويين من يُحمل أهداف التربية الإسلامية في خمسة

(١) انظر التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة: إسحاق فرحان، ص ٣١. ٣٢.

(٢) انظر التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة: عبد الغني النوري، ص ٦٢-٦٤.

أهداف كبرى هي: تحقيق الحياة الكاملة، والإعداد للحياة الدنيا والحياة الآخرة، وتنمية الروح العلمية في المتعلم، وإعداد الإنسان لكسب معيشتة، والإعداد المهني للإنسان.

ثالثاً. مميزات هدف التربية الإسلامية: إنَّه هدف ربّاني، والهدف الربّاني لا يأتي إلّا:

١- كاملاً يستمد كماله من الكمال الإلهي، فهو في كل المجالات، يبعدنا عن النقائص، ويوجهنا نحو الفضائل.

٢- شاملاً يكتنف الحياة من جميع جوانبها، والنفس الإنسانية من كل نواحيها.

٣- عاماً لكل الناس، وليس خاصاً بمصالح أمة معينة أو قوم بخصوصهم.

٤- صالحاً للبقاء والخلود على مر الزمن، وهو يستمد خلوده من أنَّه جاء من عند الله.

٥- موافقاً للفطرة الإنسانية، وفطرة الإنسان لا تتغير على مر الزمن من حيث هو فرد أو بشر من دم ولحم له شهواته وغرائزه. هدف التربية الإسلامية يربي كل هذه الشهوات والغرائز ويوجهها نحو عبادة الله وطاعته.

٦- وهو هدف خصب تتولد عنه الثمرات الطيبة؛ فهو لا يجافي الفطرة، ولا يصد طاقات الإنسان بل يحرّضها على الإنتاج الخير، ويدفعها إليه دفعاً، ويستوفي منها كل خير تستطيع تقديمه للفرد، والجماعة والإنسانية.

٧- وهو هدف واضح يفهمه ويعقله جميع البشر؛ لأنَّه مناسب للفطرة النفسية والعقلية، يعتمد على الإحساس والوعي، يقبله المربي والطالب جميعاً.

٨- وهو هدف يؤدي إلى التوازن والتوافق، وعدم التعارض بين جوانب الحياة والنفس، بل يوفق بينها جميعاً في غاية واحدة مثمرة ذات فروع تضم هذه الجوانب كلها.

٩- وهو هدف مرن يستطيع مسايرة الظروف، والأحوال على اختلافها، كما أنَّه يساير الإنسان في مختلف العصور، والأقطار مهما تعددت سبل عيشه، وأساليب حياته من تجارة وزراعة وصناعة.^(١)

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ٢٩.

المطلب الثاني: خصائص التربية الإسلامية:

للتربية الإسلامية خصائص متميزة تشكل ملامحها وتعبر عن مفهومها الحضاري. ويتصل بعض هذه الخصائص بفلسفة التربية الإسلامية ويتعلق بعضها الآخر بمحتوى التربية الإسلامية.

أولاً. الخصائص المتصلة بفلسفة التربية الإسلامية: (١)

١. **الخلق الهادف:** يعتبر الإسلام التربية صورة من أسمى صور العبادة، فالمعلم يعبد الله بتعليمه الناس، والمتعلم يعبد الله أيضاً. وهذه العبادة ميدانها الكون بما فيها من مخلوقات الله، والإنسان محور التربية؛ لأنه أفضل المخلوقات، ولأنه مناط التكليف، والتربية الإسلامية تؤكد على استمرارية التعليم مدى الحياة.

٢. **الوحدة والشمول:** خلق الله الناس جميعاً للتعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا ما تعبر عنه وحدة الإنسانية. والإسلام يحث على طلب العلم ويطالب الإنسان بالنظر في مختلف المعارف والعلوم التي تقوي الإيمان بالله، وتُحقق الفوائد للناس في حياتهم. ويوجه القرآن النظر إلى الآيات الكونية التي تتدبر العلوم الفلكية، والطبيعة وما فيها من عبر بالغة تهدي الناس إلى الإيمان بالله وحده، يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (آل عمران: ١٩٠). وتتطابق التربية الإسلامية مع شمول نظرة الإسلام إلى الإنسان، كذلك تهتم بالتربية الدينية والخلقية والعلمية والبدنية اهتماماً متوازناً دون إفراط أو تفريط، فهي تعنى بتربية النفس والعقل، والجسم أيضاً.

٣. **التوازن الدقيق:** تحقق التربية الإسلامية التوازن في النظرية والتطبيق، والتوازن في تنظيم المعرفة الإنسانية التي تفيد الفرد والمجتمع، وتعنى التربية الإسلامية بالتطبيق العملي

(١) انظر التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة: إسحاق فرحان، ص ٣٩. ٤٨.

الذي يعود بالفائدة على البشر. ويلوم الله تعالى الذين يقولون ما لا يفعلون بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} (الصف: ٢. ٣). والتربية الإسلامية حريصة أشد الحرص على إيجاد التوازن بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة. قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} (القصص: ٧٧) توازن التربية الإسلامية بين تنمية روحانية الفرد وتلبية حاجاته المادية والاجتماعية، فهي مزيج متوازن بين الدنيا والآخرة بين الفرد والمجتمع، وبين عالم الواقع وعالم المثل.

٤. **المرونة:** تتجلى مرونة التربية في الإسلام في أنَّ القرآن لم يحدّد منهجاً سياسياً، ولم يرسم دستوراً محدداً، فقد أراد الله أن يفتح سبيل الاجتهاد والأخذ بالعلم، واستنباط الأحكام من الظروف المتغيرة دون تكبيل بمنهج سماوي محدد، وقد تأثرت مناهج الدراسة بهذه المرونة، فمنهج التربية الإسلامية المتميز يتسع للتطور والتغيير كلما دعت الحاجة إلى ذلك؛ لأنّه مرتبط بواقع المجتمع وتغيرات الحياة وبحاجاته ومشكلاته المتطورة. (١)

ثانياً. **الخصائص المتصلة بمحتوى التربية الإسلامية:** يجب أن يخضع اختيار محتوى التربية الإسلامية لمعايير تتصف بالخصائص التالية: الإيمان، العلم، العمل، الخلق، والاجتماع. فالتربية الإسلامية تربية إيمانية علمية عملية خلقية اجتماعية؛ لأنها تهدف إلى إعداد المسلم العارف بدينه، الواعي، المدرك لأمر الحياة وتطوراتها، المشارك في بناء مجتمعه وتطويره حسب قدراته. وإذا كانت التربية الإسلامية تُعنى بتربية الفرد تربية روحية ممتازة، فهي تُعنى أيضاً بالجانب المادي حيث تهتم بتفاعل الإنسان مع ظواهر الكون ومجالات الحياة في جوانبها الاجتماعية والطبيعية، إن نظر المؤمن في ملكوت الله يزيده إيماناً، والعبادات تعزز الإيمان، وتؤدي إلى تحقيق الهدف الأكبر للتربية الإسلامية وهو غرس التقوى في النفوس. والتربية الإسلامية تتميز بأنها تربية عملية، فهي توازن بين الجانبين

(١) انظر نحو فلسفة عربية للتربية: عبد الغني عبود وعبد الغني النورة، ص ٢٧٦.

النظري والعملي في تربية الفرد والمجتمع، وقد وجهت التربية الإسلامية جلَّ اهتمامها إلى الناحية العملية لما تضيفه على الفرد والمجتمع من خير وسعادة، كما وعلمتنا الاستعاذة من كل علم لا ينفع.

تركز التربية الإسلامية على الناحية العملية؛ لأنها تحرص على تغيير سلوك الفرد، وتنميته نحو الأفضل، وهذا أحد المقاصد الكبيرة للتربية الإسلامية. ويربط الإسلام مضمون العلوم بتقوى الله وخشيته {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} (فاطر: ٢٨). ويحفل القرآن الكريم بآيات كثيرة تحت على استعمال الملاحظة والنظر كخطوة أساسية في المعرفة العلمية، ثم استخدام التسلسل المنطقي والمناقشة العقلية العلمية للوصول إلى النتائج. وتشكل التربية الخلقية جزءاً كبيراً من محتويات التربية الإسلامية، وفي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إشارات إلى الأخلاق الحميدة، التي يجب أن يتحلى بها المسلم مثل: الصبر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعدل، والأمانة، والصدق، والإخلاص. وقد نهى الإسلام عن التمسك بالأخلاق السيئة.

ورسالة الإسلام ذات طبيعة اجتماعية، لذلك يركز الإسلام على تنمية العادات الاجتماعية السليمة في الفرد، كتنمية الوحدة الاجتماعية والتعاون والتكافل والعدالة الاجتماعية.

قال تعالى: {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا} (آل عمران: ١٠٣). وعلى أن يغرس فيه أنه فرد في مجتمع، وأنه إنسان في عالم البشرية الكبير. وتهتم التربية الإسلامية بالأسرة؛ لأنها من أهم المؤسسات التربوية في الإسلام، فكل فرد في الأسرة له دائرته الاجتماعية التي يعمل من خلالها، وتعنى كذلك بتربية الفرد تربية اجتماعية باعتباره لبنة في صرح المجتمع الكبير، حتى يكون المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، قال رسول الله ﷺ: "مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر أعضاء الجسد بالسهر والحمى".^(١) وبالإضافة إلى ما سبق، فإن

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم: ٢٥٨٦.

الإسلام يدعو إلى التعليم المستمر، ويكفل مبدأ تكافؤ الفرص في التعليم، فكل فرد له حق مقدس في التعليم. والإسلام يميز الذين يحصلون على درجات من العلم أكثر من غيرهم بعد تهيئة الفرص المتكافئة أمام الجميع، قال تعالى: {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (الزمر: ٩).

المبحث الثالث

مصادر التربية الإسلامية

القرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان للتربية الإسلامية، حيث يحتويان على فلسفة تربوية واضحة متكاملة الأسس والأهداف، ثم الإجماع والقياس.

المطلب الأول: القرآن:

أولاً. منهج القرآن الكريم في التربية: يرى القرآن أنَّ العلم نعمة يمنَّ الله بها على عباده، كما قال في حق الرسول ﷺ: {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} (النساء: ١١٣) ويبين القرآن أيضاً فضل العلماء {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} (المجادلة: ١١). وقد أشار القرآن إلى آداب رفيعة؛ ليتأدب بها طلاب العلم منها الدعاء والرجاء أن يزيدهم علماً، وأن يلهمهم ذكراً إذا ما نسوا شيئاً {وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا} (الكهف: ٢٤). ومنها التركيز على القدوة الحسنة. وقد اتبع القرآن عدّة أساليب في التربية من أهمها أسلوب الحوار، وأسلوب الممارسة العملية، وأسلوب ضرب الأمثال. يربي أسلوب الحوار نفوس النشء تربية صالحة تسير مقتضيات العصر وخصائص التربية الإسلامية، ويساعدهم على حسن الاستجابة إزاء المواقف التي يتعرضون لها. أمّا أسلوب الممارسة العلمية فيتضمن القواعد العملية في تناوله لأحوال الناس في الحياة وجميع أنواع النشاط، حتى يستطيع الفرد أن يحقق أهدافه بالطرق السليمة. ويهدف القرآن من أسلوب ضرب الأمثال إلى تحقيق غايات نفسية تربوية من خلال سمو الغرض ونبيل المعنى بالإضافة إلى الإعجاز البلاغي وتأثير الأداء، وتتنوّع الأمثال في القرآن الكريم بالتنوع والشمول بغية دفع الإنسان إلى

قمة الكمال، ويتضمن أسلوب ضرب الأمثال التربية الخلقية والاجتماعية والروحية والعقلية والعملية، لذا فإنه يعتبر من أهم الأساليب في عملية التربية. إنَّ الأمثال القرآنية تسهم في تربية الإنسان على السلوك السليم وتهذيب أخلاقه، فتستقيم حياة الأفراد والمجتمعات.^(١)

ثانياً. أثر القرآن التربوي في نفس الرسول ﷺ والصحابة: التربية الإسلامية هي التنظيم النفسي والاجتماعي الذي يؤدي إلى اعتناق الإسلام، وتطبيقه كلياً في حياة الفرد والجماعة. فهي ضرورة حتمية لتحقيق الإسلام، وهذا يعني بالضرورة أن تكون مصادر الإسلام هي نفسها مصادر التربية الإسلامية، وأهمها القرآن والسنة. فالقرآن قد ترك أثراً لا شك فيه في تربية نفس رسول الله ﷺ، وصحابته وقد شهدت بذلك السيدة عائشة فقالت في وصف النبي ﷺ: "كان خلقه القرآن". وحياة الرسول ﷺ في سلمة وحرية، في حله وترحاله، في داره وبين رجاله، كلها تشهد بما شهدت به السيدة عائشة. أمّا أصحابه رضوان الله عليهم، فقد أخذوا أنفسهم بتطبيق القرآن مع تعلمه حتى قال قائلهم: "كنا في عهد رسول الله ﷺ لا نجاوز السورة من القرآن حتى نحفظها ونعمل بها، فتعلمنا العلم والعمل جميعاً". وكان للقرآن وقع عظيم، وأثر تربوي بالغ في نفوس المسلمين، حتى شغلهم عن كل أمر. والسّر في ذلك أنّ للقرآن أسلوباً رائعاً في تربية المرء على الإيمان، نذكر منها أنّه يفرض الإقناع العقلي مقترناً بإثارة العواطف، والانفعالات الإنسانية، فهو بذلك يربي العقل والعاطفة جميعاً، متمشياً مع فطرة الإنسان في البساطة، وعدم التكلف، وطرق باب العقل مع القلب مباشرة، مع اتخاذ أسلوب الاستفهام أحياناً، إما للتقريع وإما للتنبيه وإما للتحبيب والتذكير بالجميل أو نحو ذلك، مما يثير في النفس الانفعالات الربّانية كالخضوع والشكر، ثم تأتي العبادات تطبيقاً عملياً للأخلاق الربّانية. وهذه أفضل طريقة اهتدى إليها علم النفس لتربية العاطفة، إنّها تكرر إثارة الانفعالات، مع تجارب سلوكية مشحونة بهذه الانفعالات، مصحوبة بموضوع معين، حتى يصبح عند المرء استعداد لاستيقاظ هذه

(١) انظر من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي: كمال الدين المرسي، ص ٢٧ وما بعدها.

الانفعالات كلما أثر هذا الموضوع، وهل العاطفة إلا ذلك الاستعداد الوجداني
الانفعالي؟^(١)

المطلب الثاني: السنّة النبوية:

السنة هي المصدر الثاني للتربية الإسلامية، وقد جاءت بأمور موافقة لما جاء في القرآن، فهي تفسر القرآن وتبينه وتفصل ما أجمل فيه وتوضح معناه وتقيّد المطلق منه وتخصّص العام، وتمس السنة جوهر العملية التربويّة وما يجب أن يراعيه المعلم في تدريسه، وهو مبدأ الفروق الفردية بين التلاميذ، فنحن مأمورون أن نخاطب الناس على قدر عقولهم، وهنا نشير إلى فائدتين كبيرتين للسنّة في المجال التربوي هما: "إيضاح المنهج التربوي الإسلامي المتكامل الوارد في القرآن الكريم، وبيان التفاصيل التي لم ترد في القرآن الكريم، واستنباط أسلوب تربوي من حياة الرسول مع أصحابه ومعاملته الأولاد وغرسه الإيمان في النفوس".^(٢)

وهكذا يجد الباحث في شخصية الرسول ﷺ مربياً عظيماً ذا أسلوب تربوي فذّ، يأمر بمخاطبة الناس على قدر عقولهم، ويراعي الفروق المادية بينهم، كما يراعي مواهبهم وطبائعهم، يراعي في المرأة أنوثتها، وفي الرجل رجولته، وفي الكهل كهولته، وفي الطفل طفولته ويلتمس دوافعهم الغريزية، فيجود بالمال لمن يحب المال حتى يتألف قلبه، ويقرب إليه من يحب المكانة؛ وهو في خلال ذلك كله يدعوهم إلى الله وإلى تطبيق شريعته. وقد أدرك بعض علماء الإسلام هذه الأهداف التربويّة النبوية، فصنفوا بعض أحاديثه ﷺ تصنيفات ذات غاية تربوية مثل كتاب "الترغيب والترهيب"، وهو مجموعة أحاديث تربويّة في النفس دوافع تحب لعمل الخير، وروادع تبعد عن عمل الشر. واشتقّ بعضهم من حياة الرسول ﷺ وأحاديثه موضوعات تربوية ألف فيها مثل "الأدب المفرد" للإمام البخاري،

(١) انظر التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ٢٧.

(٢) انظر المرجع نفسه: ص ٢٣-٢٤. وانظر من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي: كمال الدين المرسي، ص ٢٧.

وهو كتاب نبوي تربوي فيه توجيهات تربوية حول معاملة الأبناء، ومعاملة الأيتام وتربيتهم، وآداب اجتماعية... الخ.

أمّا المصدران الثانويان: فهما الإجماع والقياس، فيجب العمل بالإجماع؛ لأنّه حجة شرعية، أمّا القياس فهو حجة أيضاً عند فقهاء المسلمين، وقد يضاف الاستحسان والمصالح المرسلة إلى الإجماع والقياس.

المبحث الرابع

المنهج التربوي الإسلامي وخصائصه

المطلب الأول: تعريف المنهج وأشكاله ومفهومه:

أولاً. تعريف المنهج: تقوم عملية التربية اليوم، على خطة ترسم فيها أهداف التربية وأساليبها والخطوات التي يجب اتباعها لتنشئة جيل في مرحلة معينة من عمره، في أمة معينة. والمنهج هو الذي يرسم للمدرسة الأساليب التي تُعطى لكل مرحلة، أو لكل مجموعة في كل عام دراسي، ويعين الموضوعات التي تعطى لكل مرحلة، أو لكل مجموعة بحسب أعمارهم أو ثقافتهم، والنشاط الذي يقوم به الطلاب في كل مادة من مواد التدريس. ولو تصفحنا أي منهج مدرسي لوجدناه في مجمله: "مجموعة من الخطط، والأهداف القريبة والأساليب التربوية، وخلاصة عن المواد والمعلومات والمسائل، والمشكلات التي يجب أن تؤثر بها في عقل الناشئ، ووجدانه وسلوكه ونشاطه، لنبلغه تحقيق الأهداف الكبرى الفكرية والاعتقادية والاقتصادية والسياسية والتشريعية، التي رسمتها الأمة لأبنائها وللمستقبلها أو ورثتها عن حضارتها ودينها تحقيقاً تدريجياً يناسب مستوى كل مرحلة من العمر الزمني والعقلي والثقافي، وكل بيئة من البيئات". والمنهج بهذا المعنى هو خطة لمرحلة دراسية في بيئة مدرسية معينة، أو لمجموعة المراحل المدرسية، التي تبلغ الناشئين المستوى التربوي، والسلوكي والفكري المطلوب ليصبحوا أعضاء نافعين صالحين في أمتهم، عاملين على النهوض بمستوى أمتهم، وتحقيق مثلها العليا.^(١)

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ٣٨.

ثانياً أشكال المناهج الحديثة: اختلف المربون في أساليب وضع المناهج، وترتيب المواد الدراسية، باختلاف فهمهم لأهداف التربية ومعناها وأساليبها، وسنستعرض أهم أشكال المناهج لنرى رأي الإسلام فيها مرة واحدة، بعد أن نستعرضها واحدة واحدة.

١. منهج المواد المنفصلة: هو المنهج الذي يكون فيه لكل مادة دراسية شخصية مستقلة، ومعلومات مستقلة تماماً عن كل اعتبارات المواد الأخرى ومعلوماتها. فلا يهتم واضعوا مثل هذا المنهج بإيجاد أي ارتباط أو علاقة بين مادة وأخرى، وهذا المنهج يتنافى مع الوحدة النفسية للناشئ، فهو يعتمد على النظرية النفسية التي سادت أوروبا في القرن الوسطى منحدره عن فلاسفة اليونان وتسمى (نظرية الملكات) التي تؤمن بأنَّ العقل البشري ملكات، تنمو كل ملكة منها مستقلة عن سائر الملكات الأخرى، كملكة التذكر والحفظ، والملكة اللغوية والحسابية والتخيل والمحكمة، كما أنَّها تقول بأنَّ رعاية هذه الملكات تكون بتدريب كل ملكة على انفراد، فإذا كانت المواد الدراسية هي وسيلة تنمية هذه الملكات كان من الطبيعي عند هؤلاء أن توضع في المنهج لكل مادة اعتباراتها ومعلوماتها المستقلة عن المواد الأخرى.

٢. منهج المواد المترابطة: بني هذا الشكل من أشكال المنهج على نظرية نفسية ظهرت في أواخر القرون الوسطى ومطلع عصر النهضة الأوروبية لتحل محل سابقتها، وهي (نظرية الترابطيين)، الذين يعتقدون أنَّ عقل الإنسان إنما يتكون من ترابطٍ وتفاعلٍ بين مدركاته وإحساساته حدث على نحو ما، وأنَّ أيَّ إدراك جديد لا بدَّ له من ارتباط بخبرة سابقة أو بإدراك سابق. يعرض هذا المنهج المواد الدراسية، وكأنَّها سلسلة حلقات متشابكة، كل حلقة منها يجب أن تنسجم مع ما قبلها، أو تبني على سابقتها، فلا بد في كل درس من تذكير بالدروس السابقة، ولا بد في كل عام من تذكير بمواد الأعوام السابقة للبناء عليها؛ وقد ترتبط المادة بغيرها من المواد في نفس العام الدراسي، كارتباط اللغة بالدين، والدين بالتاريخ الإسلامي وعلوم الطبيعة، وهكذا دواليك.

٣. **المنهج المحوري أو المتمركز:** وهو أشد أشكال المناهج تلاحماً واتصالاً بين أجزائه ومواده الدراسية، إذ أن جميع هذه المواد والمعلومات التي يُراد إعطاؤها للطلاب يجب أن تتصل وترتبط بمحور معين، أو بموضوع أو بأمر يميل إليه الطلاب ويهتمون به، وهذا الأمر يسمى (محوراً أو مركز اهتمام). وحين استخدمت كلمة (محور) في المنهج المدرسي، قُصد بها أن تدلّ على وجود مركز معين في المنهج، ترتبط به كل أجزاء المنهج ارتباطاً وثيقاً ويؤثر فيها، وأن تدلّ على وجود مركزي أو رئيسي في المنهج المدرسي يعمل فيه كل التلاميذ.^(١) ولكي يكون هذا المنهج المحوري ناجحاً ينبغي أن يكون محوره أو مركز الاهتمام فيه، موضوعاً يميل إليه الطلاب ويستحوذ على اهتمامهم، وأن يكون أيضاً قادراً على استقطاب جميع المواد الأخرى، وتسخيرها لتحقيقه.

٤. **منهج النشاط:** يمكن اعتبار هذا المنهج تنظيماً لسلسلة من النشاطات كالرحلات والمشاريع العملية، والمحاورات والمحاضرات، وغيرها من الجهود المنظمة المشتقة من حياة الطلاب المدرسية، أو من حياة مجتمعهم المحيط بهم، بحيث تؤدي هذه النشاطات إلى نمو مدارك الطلاب ومعارفهم، وتحقيق أهداف أمتهم، وأهدافهم التعليمية والتربوية. فهناك نشاط لغوي لتربية الطلاب تربية لغوية وتنمية مدركاتهم الكلامية والحوارية عن طريق المحاضرة والصحف والمراسلة، ونشاط ديني لتربية عواطفهم الربانية وتفكيرهم الإلهي وسلوكهم على أساس طاعة الله، كإحياء المساجد ومشروعات جمع الزكاة وتقسيم بعض التركات إذا سئلوا عنها وإقامة الصلاة، إلخ.^(٢)

ثالثاً. أي أشكال المناهج يصلح للتربية الإسلامية: سؤال نطرحه ونجيب عليه، أي أشكال المناهج الأربعة أقرب إلى تحقيق أهداف التربية الإسلامية؟ وقبل الجواب عن هذا السؤال يجب أن ننبه إلى أنَّ التربية الإسلامية ذات طبيعة خاصة، فهي لا تحتاج إلى ثوب

(١) انظر المناهج أسسها وتنظيماتها وتقويم أثرها: ص ٥٧٩.

(٢) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي؛ ص ١٥٧.

يستعار لها لنقول للناشئ مثلاً، أنها هي التربية في أحضان الطبيعة، أو أن منهجها هو المنهج المحوري المبني على اهتمامات الناشئين، أو نحو ذلك مما يفعل مثله بعض الباحثين. فالإسلام هو الإسلام وهو أسمى من أن ينتسب إلى أي مبدأ من المبادئ، وكذلك التربية الإسلامية، هي الأسس والأساليب والأفكار والعقائد التي تأثر بها المسلمون الأوائل، ونشؤوا عليها فنمت عقولهم وعواطفهم، وتألفت قلوبهم ومجتمعاتهم ونظمت حياتهم وعلاقاتهم على العمل بها والتفكير بمقتضاها والحماسة لها والتوجه إليها في كل ظروفهم ومتطلباتهم، عملاً بقوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (الجاثية: ١٨)، وقوله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (يوسف: ١٠٨). غير أن المسلمين، كما وجدوا أنفسهم أمام المدرسة الحديثة التي اجتذبت أبناءهم. وقد بينا رأي الإسلام والتربية الإسلامية فيها. كذلك أصبحوا مضطرين إلى أن يبحثوا في المناهج التي تسير عليها هذه المدرسة ليأخذوا بخيرها ويستبعدوا شرها. وليعرفوا طبيعتها بالنسبة إلى طبيعة التربية الإسلامية، ومدى صلاحها لها.

١. الإسلام ومنهج المواد المنفصلة: قد يظن الباحث الذي يأخذ التربية الإسلامية على أنها ظواهر نظم التعليم في حلقات المساجد، وتحت قباب المدارس التي أنشئت منذ تمرقت الخلافة الإسلامية. قد يظن أن مناهج تلك الحلقات والمدارس، كانت منظمة على أساس تدريس مواد منفصلة، فكل علم حلقاته وعلماءه، ولكل كتاب اختصاص في علم معين، والطالب الذي يريد دراسة عدة علوم كان عليه أن يرتاد عدة حلقات، قد يبدو هذا للوهلة الأولى. ولو تعمقنا في فهم تلك الكتب، وما كان يُدرّس في تلك الحلقات لوجدنا أن أي علم من العلوم الإسلامية، في ذلك الوقت كان ذا صلة وثيقة بالعلوم الأخرى، والكتب الإسلامية التي كانت تدرس ما زالت شاهدة على ذلك. فالتفسير مملوء بالإعرابات النحوية والإعلانات الصرفية، وتفسير الجلالين فيه مئات من هذه الإعرابات والإعلانات، مع أنه من أصغر التفاسير

حجماً، وكتب النحو: جلّ شواهدا من القرآن والحديث والشعر الجاهلي أو الإسلامي الأول، وشرحها يفسّرون تلك الشواهد أو يعزونها إلى قائلها، فيبحثون جانباً من علم التفسير، ومن علم الحديث، ومن الأدب العربي. وكتب الفقه والأصول لها اعتماد كبير على المفاهيم اللغوية، كالباء في آية التيمم: {بِرُّوْوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ} والعطف الذي بعدها. فانفصال المواد الدراسية على إطلاقه ليس من طبيعة الثقافة الإسلامية، ولا من شأن التربية الإسلامية، التي تأخذ بالإسلام كلاً لا يتجزأ، وتعتبر كل العلوم التي انبثقت عنه ما تزال وظيفتها توضيح الشريعة الإسلامية، والحفاظ عليها، فلا بدّ من ربط كل هذه العلوم بهدف التربية الإسلامية.

٢. **المنهج المترابط أم المحوري؟** إنّ هذين الشكّلين لا تنافي بينهما، فكل منهج محوري يجب أن يكون كل مواده مترابطة فيما بينها، ومرتبطة بمحور معين. وإذا كان "هدف التربية الإسلامية" هو المحور الذي يشد إليه كل موادها، وسائر المواد الأخرى، وإليه تتجه كل أهداف النمو اللغوي والاجتماعي والفكري، وبه يحصل التناسق والتكامل التربوي الرائع الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان. فإن ما ظهر للباحث المنصف أنّ التربية الإسلامية يمكن أن توصف بأنها تربية محورية، بهذا المعنى الذي شرحناه، على أن يكون المحور الأساسي هو "إخلاص العبودية لله"، وهذا المحور يمكن أن تدور عليه جميع المواد الدراسية والعملية كما حصل في صدر الإسلام. فتعلّم القراءة والكتابة واللغة وسائر علومها إنّما يهيئ الناشئين لطاعة الله، وذلك بتفهّم كلامه الذي أنزله لنعمل به، وكلام رسوله الذي أرسله ليطيع بإذنه، ومن هذا الأصل الأخير تنبع علوم الحديث والفقه. والعلوم الكونية إنّما ندرسها لنستفيد مما سخّر الله لنا في البرّ والبحر من رياح ومياه وزراعة ومعادن، ونشكر الله على ذلك كما أمرنا كتابه. والعلوم الاجتماعية تدلّنا على سنن الله في الأمم والمجتمعات، وتربطنا بأمّتنا الإسلامية، وتشعرنا بالولاء لله ولرسوله. فإذا تواردت كل الثقافات والعلوم على هذا الهدف العظيم، توحدت المجتمعات الإسلامية في مجتمع واحد، واستقامت نفس

كل ناشئ مسلم، واتحدت نوازعها ومشاربها وتصوّراتها، لصدورها عن أصل واحد، وخضوعها لهدف واحد.

رابعاً مفهوم المنهج التربوي الإسلامي: يشجّع الإسلام كل تطوّر نافع، ويؤساند كل تغير في شتى مجالات الحياة. وقد أخذ المسلمون من الثقافات الأجنبية التي دخلت المحيط الإسلامي في القرن الرابع الهجري ما يتفق وطابعهم، وظل طابع الإسلام قوياً واضحاً في مختلف المجالات. ويمكننا القول: إنّ مناهج التربية الإسلامية ليست مناهج مفصلة، وإنّما هي أطر عامة ومفاهيم شاملة لأمر الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وهي مناهج تستهدف بناء مفاهيم الإنسان عن هاتين الحياتين بمنهج عقلاني تماماً يدفع هذا الإنسان إلى النقاش والاستفهام والاجتهاد في كل أمور الحياة الدنيا، كما يدفعه إلى ملاحظة الكون الطبيعي وانسجامه ودقة صنعه.^(١) وقد وضع الإسلام للتربية منهجاً فكرياً مغايراً لمناهج الأمم الأخرى وعقائدها، كما أنّه أقام منهج المعرفة الإسلامي على أساس عقلي وروحي معاً، فجعل للعقل منطلقه في مجال العلوم والمحسوسات، وجعل للروح منطلقها في مجال الغيبات وما وراء الطبيعة.^(٢) وفي ظل هذا الأساس العقلي والروحي سار العالم في ظلال العقيدة دون فصل بين الدين والعلم كما هو حادث في العالم الغربي. فالمنهج الإسلامي هو الطريق البين السوي، الذي رسمه القرآن الكريم للمسلم؛ كي يتبع مبادئ وتعاليم الإسلام، ويتمسك بأحكامه من أجل سعادته في الدنيا والآخرة. إنّ هذا المنهج الربّاني يشمل كل أمور الحياة، ووظيفته إعداد الإنسان لحياة أفضل، وهذا الإعداد لا يقتصر على العبادات الدينية، بل إنّ كل عمل يتوجه به الفرد إلى الله عبادة، ويمكن تعريف منهج التربية الإسلامية بأنّه: مجموع الخبرات والمعارف والمهارات التي تقدمها مؤسسة تربوية إسلامية إلى المتعلمين فيها، بقصد تنميتهم تنمية شاملة متكاملة: جسمياً وعقلياً ووجدانياً، وتعديل سلوكهم في الاتجاه الذي يمكنهم من عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج

(١) انظر التربية وطرق التدريس: صالح عبد العزيز، ٦٢/١.

(٢) انظر قضايا العصر في ضوء الإسلام: أنور الجندي، ص ١٣.

الله وشريعته.^(١) ويهتدي المنهج الإسلامي بكل ما جاء في القرآن والسنة في تربية وتكوين الإنسان المؤمن، وهو يقوم على فلسفة واقعية متكاملة ومتوازنة وشاملة لكل جوانب الحياة، تدعو إلى المشاركة بالرأي وجدال الآخرين بالحكمة والموعظة الحسنة، وتعمل على تنمية طاقات وقدرات الإنسان مع مراعاة استعداد وقابلية وميول الفرد المتعلم.

المطلب الثاني: أسس منهج التربية الإسلامية:

يقوم منهج التربية الإسلامية على أربعة أسس جوهرية هي: الأساس النفسي، والأساس الاجتماعي، والأساس الفلسفي، والأساس المعرفي. ويعتبر الأساس النفسي ركيزة أساسية في بناء المنهج الإسلامي، ومنهج التربية الإسلامية يربي النفس البشرية؛ ليكون الإنسان عبداً صالحاً قادراً على بناء المجتمع الإسلامي المتكامل، ويتناول الأساس النفسي لمنهج التربية الإسلامية الإنسان واستعدادات المتعلمين والفروق الفردية بينهم وميولهم. فالإنسان هو أفضل مخلوقات الله في الوجود، والنفس في القرآن هي محرك الإنسان نحو تحقيق أهدافه، وقد فُطر الإنسان على الإيمان بوحداية الله، ولا يُفسد فطرته الإنسانيّة إلا عامل خارج عنها، وأنَّ طبيعته الإنسانيّة طبيعة مزدوجة، فقد خلق الله الإنسان من مادة وروح باستعدادات متساوية للخير والشر، وأودع فيه قدرات يمكنها توجيهه إلى الخير وإلى الشر، كما أودع فيه كل وسائل التمييز والتدبّر ووهبه قوى واعية مدركة وموجهة، وهي التي يناط بها التكليف، وبالتالي فإنَّ تبعة أعمال الإنسان ومسؤولياته تقع عليه وحده، كذلك فقد خلق الله الإنسان بقدرة واعية كامنة فيه، قادرة على الاختيار الحرّ، فحرية الاختيار الممنوحة من الله في إطار مشيئته تجعل الإنسان مسؤولاً عن نتيجة أعماله. ويولي المنهج القرآني اهتماماً كبيراً بالنفس البشرية حيث يقول المولى جل شأنه: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} (الذاريات: ٢١).

وقد اهتم الحديث الشريف أيضاً بالنفس البشرية، ويتضح ذلك في كثير من المواقف التربويّة للرسول الكريم في معالجة الطبائع البشرية، وعلى سبيل المثال نذكر الحديث: جاء

(١) انظر منهج التربية الإسلامية: علي أحمد مدكور، ص ٧٨.

ثلاثة رهط إلى أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأثم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأحشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني".^(١) ويحثنا النبي ﷺ على أن نكلم الناس على قدر عقولهم، وتتجلى مراعاة المنهج الإسلامي للفروق الفردية بين الأفراد في وضعه حداً أدنى من الفروض الإسلامية التي يجب أن يتبعها كل الناس ثم وضع بعد ذلك سلماً من التدرج لمن يريد علو المنزلة.

ومن نافلة القول: إنَّ الطلاب تختلف قدراتهم العقلية وصفاتهم النفسية والجسمية وأهمها السمع والبصر، وقد خلق الله كل إنسان مختلفاً عن غيره في كل تلك الصفات؛ لذلك فقد حرص المربون المسلمون على مراعاة استعداد المتعلم عند وضع المناهج الإسلامية، فيقدم المعلم للطالب ما يتناسب مع استعداده. ومراعاة الفروق الفردية بين الطلاب يمكن أن تكون في مجالات كثيرة كطرائق التدريس مثلاً والتي يجب تنويعها باستخدام المحاضرة والإلقاء والحوار والمناقشة والقصة والممارسة العملية وحل المشكلات، حتى يتاح للطالب أكبر قدر من الخبرات لاكتساب المعلومات والمهارات. ومن ميزات المنهج الإسلامي مراعاة ميول المتعلمين، إذ يجب أن يتيح المنهج للمتعلم فرصة التطبيق العملي كأن يتوضأ ويصلي ويمارس بعض النشاطات المدرسية، والمتعلم يميل إلى القصص والحكايات التي تشبع تطلعه إلى عالم آخر يختلف عن عالمه.

الأساس الاجتماعي عنصر جوهري في بناء المنهج الإسلامي، فالعوامل الاجتماعية ذات تأثير كبير على المتعلم وعلى عملية التعليم وعلى المؤسسات التربوية بما تضم من قوى بشرية، وحيث إنَّ التربية تتأثر بالتغيرات الاجتماعية، فقد أصبح إيجاد التوازن بين حاجات الأفراد وحاجات المجتمع إحدى المشكلات الكبيرة، التي يواجهها واضعو

(١) البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم: ٥٠٦٣.

المناهج. وقد راعى المنهج الإسلامي هذا التوازن، فبالنسبة لحاجات الأفراد عني بإشباع حاجات الفرد العضوية والنفسية والاجتماعية والعقلية بالطرق الصحيحة، بهدف إمداد الفرد بالقوة والمتعة اللتين تحققان له التوازن وتساعدانه على عبادة الله. كما أولى المنهج الإسلامي اهتماماً عظيماً بالحاجات النفسية والوجدانية كالإيمان بالله تعالى مثلاً، ومن هنا يتحقق الأمن النفسي الذي هو حاجة أساسية لعطاء الإنسان وإسهامه في عمارة الأرض، كذلك يحث المنهج الإسلامي على المحبة والإخاء بين المسلمين، فعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة أقام المجتمع المسلم على أساس الإخاء والمحبة، وآخى بين المهاجرين والأنصار. قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} (الحجرات: ١٠). وفي الحديث: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" (١) ولكي يشبع المنهج الإسلامي الحاجات العقلية للفرد فإنه يجب أن يوفر له فرصة تلقي إجابات عن أسئلته والتوصل إلى حلول للمشكلات الفكرية التي تواجهه.

أمّا بالنسبة لحاجات المجتمع ومشكلاته فقد حرص المنهج الإسلامي على تنظيم هذه الحاجات وحل هذه المشكلات وتنظيم الاقتصاد في المجتمع بما يكفل الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية. والمنهج الإسلامي ملتزم بحل مشكلات المجتمع مثل الزواج والإرث والتجارة، ففي مجال الزواج يتميز الإسلام بمنهجه التربوي الذي يحافظ على سلامة المجتمع من الانحلال الخلقي والتحلل الاجتماعي، يقول تعالى: {وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} (النور: ٣٣). أما في مجال الميراث، فللإسلام منهج واضح في توزيع الميراث على أفراد العائلة كما جاء في التنزيل العزيز. وفي مجال التجارة، أطلق الإسلام الحرية للأفراد في التعامل التجاري شريطة أن يتبع التاجر منهج الله في تجارته، وأن يراعي في بيعه أمور الحلال والحرام، وألا يستغل الناس ليحقق ربحاً أوفر، كما يحث المنهج الإسلامي التاجر على الامتناع عن الغش في البيع وفي الميزان. نخلص مما

(١) سنن ابن ماجه: أبواب السنة، باب في الإيمان، رقم: ٦٦. قال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

سبق إلى أن المنهج الإسلامي يعنى بحاجات الأفراد، وحاجات المجتمع، كما يعمل على حل مشكلات المجتمع، والتوفيق بين حاجات الفرد وقيم المجتمع.

وفيما يختص بالأساس الفلسفي، فقد أجاب المنهج الإسلامي التربوي عن الأسئلة الكبرى التي تُكوّن الأساس الفلسفي للتربية، وما يتصل بها من قضايا الحياة كلها، وارتباطها بقضايا ما بعد الحياة من بعث وثواب وعقاب، ومن ميزات المنهج الإسلامي وجود فلسفة واحدة شاملة متكاملة ومتوازنة يمكن ترجمتها إلى سلوكيات فضلاً عن إمكان تنميتها في الأفراد، وتهدف هذه الفلسفة إلى سعادة الإنسان والمجتمع كله في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة. ثم نتناول الأساس المعرفي، حيث إن العلم هو شعار الإسلام الأول، وهو فطرة الله في الإنسان، كما أنّه سبيل الإنسان إلى معرفة الله وخشيته، وهو سبيله إلى عمارة الأرض وترقيتها، ويتحقق ذلك بالاستمرار في عملية التعليم والتعلم، حتى يتمكن الإنسان من مواجهة حاجات الحياة المتغيرة المتجددة.^(١) ومن مزايا التربية في الإسلام نظرتها الشاملة لكل حقول وميادين المعرفة، حيث تمتد إلى فروع التخصص المختلفة التي يحتاجها المجتمع الإسلامي وتوفر القوى العاملة في كل ميدان، وهذا يؤدي إلى عمارة الأرض وفق منهج الله.

المطلب الثالث: خصائص المنهج الإسلامي المنشود:

يتميز المنهج الإسلامي بسيادة الطابع الديني والخلقي، وربطه بين الأخلاق والتطبيق العملي. وهذا التميز يمثل جانباً مهماً في تكوين شخصية الإنسان، ومن ثم يجب أن تعمل مناهج التربية الحديثة على تنمية الوازع الديني والخلقي عند الأفراد في جميع مراحل التعليم، من خلال ربط المناهج بالنواحي الإسلامية. والمنهج الإسلامي متعدد الاتجاهات والاهتمامات، شامل في محتوياته وأهدافه، فهو كما يُعنى بتنمية الجانب الروحي في المتعلم من خلال دراسة العلوم الدينية، فإنّه يُعنى أيضاً بتنمية ذهن المتعلم، وحثّه على التعلم وإنكار الخرافة. كما أنّه يؤمن بالملاحظة والتجربة في الأمور المادية، ويحرّص على

(١) انظر منهج التربية الإسلامية: علي أحمد مدكور، ص ١٨٦-١٨٧.

تنمية كل ما يتصل بالعقل من قدرات وميول عن طريق دراسة العلوم العقلية، وممارسة البحث العلمي. كذلك يهتم المنهج الإسلامي بتنمية وحفظ جسم الإنسان عن طريق ما يقدم له من توجيهات صحية تساعد على تحقيق صحته، وعلى الإعداد للجهد في سبيل الله. (١)

وصفوة القول: إنّ المنهج الإسلامي لا يهتم بالعلوم الدينية والعبادات فحسب، بل يهتم كذلك بدراسة العلوم العقلية. كذلك يمتاز المنهج الإسلامي بالتوازن النسبي بين اهتماماته ومحتوياته، وهذا يدفعه إلى الاهتمام بتحقيق النمو الشامل والمتكامل لكل من الفرد والمجتمع، والعناية بجميع العلوم والفنون في شيء من التوازن المعقول، الذي يحفظ لكل علم وكل فن ما يستحقه من الاهتمام والعناية، والمنهج الإسلامي يوازن بين المادة والروح، وبين الإيمان بالواقع المحسوس والإيمان بالغيب، وبين حاجات الفرد وحاجات الجماعة. والمنهج الإسلامي يمتاز بقابليته للتطور والانفتاح، ويستمد هذه القابلية من الدين الإسلامي الذي يشجع كل تطور صالح ومفيد للمجتمع، كما يشجع المنهج الإسلامي الانفتاح الفكري، ويحث على الاجتهاد وإفساح المجال لمنطق الملاحظة والتجربة، فالأمور الدنيوية يتوقف تحقيقها على التجارب، والمسلم مطالب بأن يعمل عقله في كتاب الله وسنة رسوله؛ ليستنبط منهما الأحكام المطلوبة لقضايا العصر ومشكلات الحياة. وهذا المنهج الإسلامي المنشود، يجب أن تتوافر له الصفات التالية: (٢)

١- أن يكون موافقاً للفطرة من حيث ترتيب محتوياته وموضوعاته مما يزكي فطرة الإنسان، ويحفظها من الانحراف.

٢- أن يحقق هدف التربية الإسلامية الكبير وهو إخلاص الطاعة والعبادة لله، بالإضافة إلى تحقيقه أهداف التربية الإسلامية الفرعية، التي ترمي إلى توجيه الحياة لتحقيق هذا

(١) انظر فلسفة التربية الإسلامية: عمر التومي الشيباني، ص ٢٥٦.

(٢) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ١٧٧-١٧٩.

الهدف الكبير في جميع جوانب التربية والثقافة التي يشملها المنهج: كالجانب العقلي والجانب الجسمي والجانب الاجتماعي.

٣- أن يكون متدرجاً في موضوعاته وموافقاً في مستواه للمرحلة التي يوضع لها.

٤- أن تكون تطبيقات المنهج ونشاطاته وأمثله ونصوصه متمشية ومتفقة مع حاجات المجتمع الواقعية وقيمه ومبادئه الإسلامية الرفيعة. ويتأتى ذلك بمراعاة الاختصاصات التي تحتاجها الأمة في كل بيئة وفقاً لظروفها الطبيعية، بالإضافة إلى الاختصاصات اللازمة لرقى المجتمع كالاختصاصات الإدارية والإسلامية والثقافية.

٥- أن يكون المنهج منسجماً ومتسقاً في جميع أجزائه موجهاً وجهة إسلامية واحدة وأن تبنى العلوم والموضوعات بشكل متسلسل يأخذ بعضها بأطراف البعض الآخر.

٦- إمكانية تطبيق المنهج، ويقتضي ذلك أن يكون في حدود إمكانات البلاد ومناسباً لظروفها ومتطلباتها.

٧- المرونة والتكيف مع مختلف الظروف والبيئات التي سيجري تطبيقه فيها، مع مراعاة الفروق الفردية، وحاجات الأفراد والمجتمع.

٨- أن يعنى عناية خاصة بالجوانب الإسلامية السلوكية العملية كالتربية على الجهاد، وإقامة المجتمع المسلم.

نقول أخيراً: يجب أن تحقق المادة العلمية في منهج التربية الإسلامية الأهداف التي وضعت من أجلها، وحتى تحقق أهدافها يجب إعادة صياغة العلوم الحديثة الواردة من الغرب؛ لتواكب نظرة الإسلام إلى الكون والإنسان والحياة، إنَّ العلوم المتصلة بتفسير النشاط الإنساني كالعلوم التي تخص العقيدة، ونشأة الكون، ونشأة الحياة، والقيم التي تحكم المجتمع والمبادئ التي يقوم عليها النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي لا يجوز أن تؤخذ إلا من المصادر الربانية، ولا يجوز التلقي فيها إلا عن مسلم يحظى بالثقة في دينه، أمّا المواد التي تؤدّي إلى تسخير الطاقة المادّية لخدمة الإنسان مثل الطبيعة والكيمياء والأحياء، فيجوز التلقي من المسلم وغيره.^(١)

(١) انظر العدالة الاجتماعية في الإسلام: سيد قطب، ص ٢٠١.

المطلب الرابع: أهداف المنهج التربوي الإسلامي:

لمنهج التربية الإسلامية أهداف ثابتة وأهداف متغيرة، وتنبتق الأهداف الثابتة من القيم الإنسانية الواردة في شريعة الله مثل الصدق والأمانة والعدل والمساواة والحرية، أما الأهداف المتغيرة فتخضع لتغير الزمان والمكان. أمر الله تعالى بالعدل وهذه قيمة ثابتة، ولكنه ترك وسائل تحقيق العدل للإنسان، يقوم به وفقاً لظروف الزمان والمكان والناس، وأمرنا بالشورى، وأمرنا بتحقيق العدالة الاجتماعية لكنه ترك لنا حرية اختيار الأساليب المناسبة لنا ولظروفنا في تحقيق العدالة الاجتماعية.. وهكذا".^(١) يسعى المنهج الإسلامي إلى تحقيق هدف شامل هو إعداد الإنسان الصالح القادر على عمارة الأرض وفقاً لشريعة الله، أمّا الهدف الثاني فيتمثل في تحقيق إيمان الفرد بالعبودية لله بالقول والعمل، بينما ينحصر الهدف الثالث في معرفة الله وتقواه، ويتحقق ذلك بعقد الصلة الدائمة بين الإنسان وخالقه في كل فكر أو عمل أو شعور، والتفقه في الدين والتمسك بمكارم الأخلاق، والقيم الرفيعة. ولعل أهم هذه الأهداف:

١. استكمال تربية الشخصية الإسلامية المتكاملة في جميع أبعاد النمو الروحي والسلوكي والجسمي والعقلي.
٢. ترسيخ وتنمية الإيمان الواعي والولاء لله والانتماء للأمة الإسلامية والاعتزاز بالإسلام معتقداً ونظام حياة.
٣. تقوية السلوك القائم على الالتزام بتعاليم الإسلام.
٤. التأكيد على أن إقامة المجتمع الإسلامي وحمايته ونشر الدين والدعوة فريضة على كل مسلم ومسلمة.
٥. تقديم النموذج الكامل للشخصية الإسلامية المتمثلة بالنبي محمد ﷺ والقائمة على التوازن والاعتدال. واتخاذ المثل الأعلى والقدوة الحسنة من سيرته العطرة وسيرة أصحابه والسلف الصالح من الأمة الإسلامية.

(١) انظر منهج التربية الإسلامية: علي أحمد مدكور، ص ٢٦٨.

٦- التعريف بمصادر التشريع الإسلامي بصورة عامة، وبالقرآن والسنة بصورة خاصة وتوثيق صلة الطالب بها.

٧- التعريف بالآداب الإسلامية، ومجموعة الفضائل، والقيم، والنماذج الأخلاقية الإسلامية، وأنماط السلوك التي نريد أن يتحلى بها المجتمع.

الفصل الثاني

وسائل التربية الإسلامية

تعني وسائل التربية الإسلامية الوسط الذي يعيش فيه المسلم، حيث يتأثر بعوامل توجه تفكيره وميوله، وتشكل عاداته وتقاليده التي يمارسها تلقائياً، وهذه العوامل ترسم الملامح الأساسية لتربية الفرد، وأهم هذه الوسائل:

المبحث الأول

الأسرة المسلمة

المطلب الأول: أهمية الأسرة المسلمة:

تعد الأسرة الوسط الأول الذي يتلقف الإنسان منذ مولده، فإذا كان حال الأسرة صحياً، وخصباً، ومطبّقاً لشريعة الله، ومهتماً بالتغذية الصحية والتغذية الإسلامية للناشئ، ومسيطرّاً على المصادر الصحيحة التي تتم عن طريقها هذه التغذية، نبت الفرد نباتاً حسناً، واستعد استعداداً طيباً لمواجهة ظروف الحياة، وتمكن من التغلب على مشكلاتها ومصاعبها. وهنا يبرز دور الأب والأم، فإذا كانا صالحين، وقدوة حسنة، وتعهدها بالرعاية والتوجيه السليم، وغرسا في نفسه المثل العليا والمبادئ الرفيعة والخصال الحميدة وعمل الخير والابتعاد عن الشر واتباع منهج الله، حذا الابن حذوهما، واقتدى بهما، وسلك سلوكاً طيباً، وتأصلت في نفسه نوازع الخير. وإذا أحسن تربية الإخوة والأخوات كانوا مكملين لدور الأب والأم، وواصلوا القيم والآداب التي غرسها الآباء فيهم، وأسهموا إسهاماً فعالاً في التربية، وكانوا مثلاً يحتذى في المروءة والصدق والأمانة وسائر الخلال الطيبة والصفات الكريمة، كل هذا ينعكس على نفس الصغير، وينطبع في ذهنه، فيتأسى بهم ويتحلى بخصالهم الطيبة وأخلاقهم الحميدة. وعندما نقول: "الأسرة المسلمة"، فمن البديهي أننا نعني الأسرة التي التقى ركنها على تحقيق الهدف الذي شرع من أجله تكوين الأسرة، ولو

تأملنا بعض آيات القرآن، وأحاديث الرسول ﷺ في هذا الموضوع لوجدنا أن أهم أهداف تكوين الأسرة هو.

١

المطلب الثاني: أهداف تكوين الأسرة: (١)

أولاً. إقامة حدود الله: أي تحقيق شرع الله ومَرْضَاتِهِ فِي كُلِّ شَأْنِهِمَا، وعلاقاتهما الزوجية، وهذا معناه إقامة البيت المسلم على تحقيق عبادة الله، وهو الهدف الأسمى للتربية الإسلامية. وقد ورد تعليل إباحة الطلاق حين تطلبه المرأة، بالخوف من عدم إقامة حدود الله، قال تعالى: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ} (البقرة: ٢٢٩) كما أنه سبحانه علل إباحة الرجوع إلى الزوج بعد أن تتزوج المرأة زوجاً غيره، علل ذلك بتوقع إقامة حدود الله، أي إقامة الحياة الزوجية على تقوى من الله، كالتعفف، وحسن المعشر وغيض البصر، قال تعالى: {فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ} (البقرة: ٢٣٠) وهكذا ينشأ الطفل ويتربى في بيت أقيم على تقوى من الله، ورغبة في إقامة حدود الله، وتحكيم شريعته، فيتعلم ذلك من غير كبير جهد، إذ يمتص عادات أبويه بالتقليد، ويقتنع بعقيدتهما الإسلامية حين يصبح واعياً.

ثانياً. تحقيق السكون النفسي والطمأنينة: قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} (الأعراف: ١٨٩) وقال سبحانه: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} (الروم: ٢١) فإذا اجتمع الزوجان على أساس من الرحمة، والاطمئنان النفسي المتبادل، فحينئذ يتربى الناشئ في جو سعيد يهبه الثقة والاطمئنان والعطف، بعيداً عن القلق وعن العقد، والأمراض النفسية التي تضعف شخصيته.

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ١١١.

ثالثاً. تحقيق أمر رسول الله ﷺ بإنجاب النسل المؤمن الصالح: لياهي بنا النبي ﷺ الأمم يوم القيامة، وهذا دليل واضح على أن البيت المسلم يجب عليه أن يربي أبنائه تربية تحقق هدف الإسلام، لأن المباهاة إنما تكون بكثرة النسل الصالح. فعلى الأبوين تقع مسؤولية تربية الأبناء، ووقايتهم من الخسران والشر والنار، التي تنتظر كل إنسان لا يؤمن بالله، أو يتبع غير سبيل المؤمنين. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} (التحریم: ٦)، وجاء لفظ: (أهليكم) بالجمع ليشمل الزوجة والولد. وهذه المسؤولية تزداد أهميتها في أيامنا؛ لأن بعض عناصر الحياة الاجتماعية، خارج الأسرة والمسجد، ليست في كل الأحيان موافقة لهدف التربية الإسلامية، كالمذيع والتلفاز والمجلات الخلية والقصص الماجنة التي تتسرب إلى أيدي الأطفال، فإذا لم يبق الأبوان يقظين حذرين، لم يستطيعا إنقاذ أبنائهما من اجتياح شياطين الإنس والجن.

رابعاً. إرواء الحاجة إلى المحبة عند الأطفال: الرحمة بالأولاد من أهم الغرائز التي فطر عليها الإنسان والحيوان، وتحمل الأسرة، وقوامها الأبوان، مسؤولية رحمة الأولاد ومحبتهم والعطف عليهم؛ لأن هذا من أهم أسس نشأتهم ومقومات نموهم النفسي والاجتماعي نمواً قوياً سويماً. فإذا لم تتحقق المحبة للأولاد بالشكل الكافي المتزن، نشأ الطفل منحرفاً في مجتمعه، لا يحسن التألف مع الآخرين، ولا يستطيع التعاون أو تقديم الخدمات والتضحيات، وقد يكبر فلا يستطيع أن يكون أباً رحيماً أو زوجاً حسن المعشر أو جاراً مستقيماً لا يؤذي جيرانه، وهكذا دواليك. لذلك ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً أعلى في محبة الأطفال ورحمتهم، والصبر على مداعبتهم، فعن أبي قتادة قال: "خرج علينا النبي ﷺ، وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه، فصلّ فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها" (١)، وقد قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس جالساً، فقال الأقرع: "إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً"، فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال: "من لا يرحم لا

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم: ٥٩٩٦.

يُرحم" (١). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: "تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم"، فقال النبي ﷺ: "أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك؟" (٢). وكان رسول الله ﷺ يأخذ أسامة بن زيد فيقعه على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمّهما ثم يقول: "اللهم ارحمهما فإني أرحمهما" (٣). نلاحظ عدة نتائج تربوية، (٤) تستنبط من هذه الأحاديث:

١. تدل هذه الأحاديث على تعنيف النبي ﷺ لكل أبوين لا يرحمان أولادهما ولا يعطفان عليهم، وقد اتهمهم رسول الله ﷺ بانتزاع الرحمة من قلوبهم، كما هددهم بألا يرحمهم الله يوم القيامة: "من لا يرحم لا يُرحم".

٢. إنّ رسول الله ﷺ لم يكن يفرق في ذلك بين الذكور والإناث، فقد رأينا في رواية أبي قتادة كيف حمل رسول الله ﷺ أمامة بنت الحارث، وهو في الصلاة يرفعها على عاتقه إذا وقف، ويضعها إذا ركع.

٣. إنّ الرسول ﷺ لم يكن أيضاً يفرق بين ابن متبناه "أسامة بن زيد"، وبين حفيده من صلبه "الحسن بن علي"، وكان يضع كل واحد منهما على فخذه من فخذه ويضمهما، وهذا يشمل الأيتام، والذين مرضت أمهاتهم، أو غاب آبائهم في الجهاد أو السفر إلخ..

٤. وإذا عرفنا أنّ هذه الحادثة من رواية أسامة بن زيد بن حارثة يتكلم عن نفسه أدركنا أنه كان مميزاً، حين كان الرسول ﷺ يقعه على فخذه. فدلّ ذلك على أنّ العطف على الأطفال لا يقتصر على الرضع بل يشمل من هو أكبر من ذلك؛ لأنّ حاجتهم إلى العطف لا تقتصر على سن معينة من طفولتهم، بل تشمل معظم مراحل الطفولة. وقد

(١) البخاري: نفس الكتاب والباب، رقم: ٥٩٩٧.

(٢) البخاري: نفس الكتاب والباب، رقم: ٥٩٩٨.

(٣) البخاري: كتاب الأدب، باب وضع الصبي على الفخذ، رقم: ٦٠٠٣.

(٤) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي؛ ص ١١٣.

جاءت التجارب العلمية مؤيدة هذا المبدأ التربوي النبوي، فقد ثبت أنَّ الطفل الرضيع لا ينمو على الغذاء فحسب، بل على عطف الأم الذي لا يقل أهمية عن الغذاء بل هو أهم منه تربية شخصية الناشئ، وأن قوام الأسرة هو الحب المتبادل، حتى إذا شب الطفل، استطاع نقل هذا الحب معه إلى خارج الأسرة، إلى المجتمع الإسلامي، فيتراحم المسلمون، ويتحاب أفراد المجتمع.

خامساً. صون فطرة الطفل عن الزلل والانحراف: اعتبر الإسلام الأسرة مسؤولة عن فطرة الطفل، واعتبر كل انحراف يصيبها مصدره الأول الأبوان أو من يقوم مقامهما، ذلك أنَّ الطفل يولد سليم الفطرة، يقول الرسول ﷺ: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟" ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: "فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم".^(١) وقد فهم أبو هريرة أنَّ الفطرة هي استعداد المولود لدين التوحيد، وأنَّ سنة الله لا تتغير في جميع المواليد البشرية، فساق الآية لإيضاح معنى الحديث، لذلك كان من واجب الأبوين والمربين:

١- تعويد الطفل على تذكر عظمة الله ونعمه، والاستدلال على توحيده من آثار قدرته، وتفسير مظاهر الكون من برد وحر وليل ونهار وزلزال وإعصار ونحو ذلك، تفسيراً يحقق هذا الغرض، لإبقاء فطرة الطفل على صفائها، واستعدادها لتوحيد الله وتمجيده.

٢- إظهار الاستياء من انحرافات الضالين ومن تبعهم أمام الناشئ، مما يبدو في أفلامهم وأخبارهم ومظاهر حياتهم التي تسربت إلى وسائل إعلامنا، من ظلم واستهتار وترف وانحياز، والإيحاء إليه بنتائجها الوخيمة عن طريق القصة أو الحوار أو القدوة مما هو مبسوط في أساليب التربية الإسلامية، وبهذا يبعد الطفل عما أشار إليه الحديث من التهويد وغيره، وليس الحديث محصوراً في اليهود والنصارى والمجوس بأعيانهم، بل إنَّ

(١) البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم:

كل أبوين مسلمين يقلدانهم في ضلالتهم وأمور حياتهم، مسؤولون عن انحراف أطفالهم عن الفطرة، أو لأنهم عرضوهم لأسباب الانحراف: كالتلفاز والصحف المنحرفة والقصص وغيرها مما يجب إليهم ضلالات أولئك المنحرفين.

المبحث الثاني

المسجد

المطلب الأول: تمهيد في وظائف المسجد:

يتمتع المسجد بمنزلة كبرى في تاريخ الإسلام، وفي الحياة الإسلامية بوجه عام، فمهمة المسجد تحقيق رسالة الإسلام الكبرى، وهي عبادة الله عز وجل بمعناها الشامل، فالمسجد يعد المدرسة الأولى في الإسلام وقد ازدهر دور المسجد في مهد الدعوة الإسلامية، وفي عهد الخلفاء الراشدين، ثم أخذ دوره يتضاءل تدريجياً، حتى أصبح مكاناً للعبادة فقط، وعلى الرغم من ذلك فطالما يجد المسلم فيه فرصة تربية النفس والتأسي بالأخلاق الفاضلة التي يجدها في بعض من يؤثون المسجد، وفي بيت الله يختلط المسلم بفئات مختلفة من البشر ويلتمس عندهم النصح والإرشاد. وفي المسجد يتحاور المسلمون ويتناقشون ويطرحون المشكلات الدينية التي تواجه المسلمين، وهم في كل ذلك يعملون الفكر ويبحثون عن الحلول، فتشرب خبراتهم وتتسع مداركهم، وقد يجدون فيما يسمعون سبيلاً إلى تعديل سلوكهم وتغيير نظرتهم إلى الأمور واتباع جادة الصواب. ويمكن للمسجد أن يعيد سيرته الأولى، وأن يسهم في التربية إسهاماً كبيراً إذا ما ارتبط به الطفل في وقت مبكر من سنين حياته، وإذا ما كان إمام المسجد ذا ثقافة دينية متميزة وثقافة عامة واسعة، وكان ذا سمعة طيبة وحجة قوية وقدرة كبيرة على الإقناع، حاضر البديهة، رحب الصدر، وإذا ما زود المسجد بمكتبة إسلامية مناسبة تجذب الناس إلى القراءة والاطلاع، وإذا ما أدى المسجد بعض الخدمات المحببة إلى المسلمين، والتي تعود عليهم بالنفع والفائدة، وإذا ما رأى المسلم فيمن يؤثون بالمسجد نماذج طيبة وقدوة حسنة، وإذا ما أعد المسجد إعداداً حسناً من الناحية الإدارية كأن يكون نظيفاً، سليم الجدران، ذا سعة

مناسبة. عاد دوره إليه من جديد وأخذ موقعه الصحيح. لقد كان أول عمل قام به رسول الله ﷺ عندما وصل المدينة بناء المسجد؛ لأنَّ المسجد هو الذي يضم شتات المسلمين، يجمعون فيه أمرهم، ويتشاورون لتحقيق أهدافهم، ودرء المفاسد عنهم.

المطلب الثاني: الوظيفة التربويّة للمسجد:

كانت للمسجد في صدر الإسلام وظائف جليلة أهمل المسلمون اليوم عدداً منها، فقد كان منطلقاً للجيوش، وكان المسجد مركزاً تربوياً يربي الناس على الفضيلة وحب العلم، وعلى الوعي الاجتماعي ومعرفة حقوقهم وواجباتهم التي أقيمت لتحقيق طاعة الله وشريعته، فكان أن انطلقت حملة محو الأمية من مسجد رسول الله ﷺ، وكان المسجد مصدر إشعاع خلقي، يتشبع فيه المسلمون بفضائل الأخلاق، وكريم الشمائل. وبقي الأمر على هذا بين مد وجزر، تطفئ الأغراض الدنيوية حيناً على بعض المنظمين لرواد المساجد ممن كانوا يسمون علماء، فتقلب حلقاته إلى موارد للرزق، ومعاقل للتعصب المذهبي، أو الطائفي أو الشخصي!!

المطلب الثالث: الوظيفة الاجتماعية للمسجد:

حين تعصف بالمسلمين مصيبة، يعتصمون ببيوت الله ليرفعوا راية الإسلام، وليجتمعوا على إعلاء كلمة الله كما حدث عند الغزو الصليبي الأول والثاني، وكما حدث ضد المستعمرين الذين وطئت جيوشهم منذ قرن أو أكثر معظم البلاد الإسلاميّة، فقد انطلقت الثورة السورية ضد الاستعمار الفرنسي من عدد من أكبر مساجد المدن السورية، وكذلك ثورة الجزائر ومعظم حركات التحرر الإسلامي في الباكستان، وأفغانستان وغيرهما. وهكذا يتربى الناشئ في المسجد في ظل مجتمع إسلامي ناهض راق، ينظم شؤونه على أساس الشورى، ويتفقد مرضاه فيعودهم، وفقراءه المعوزين فيعطيهم، وتنعقد أواصر المحبة بين القلوب، فيغدو مجتمعاً قوياً متماسكاً يساهم في تربية الجيل، ونهضته وإنعاشه.

المطلب الرابع: أثر المسجد التربوي، والاجتماعي في حياة الأمة:

عندما يأخذ المسجد مكانه الطبيعي الذي بني من أجله، يصبح من أعظم المؤثرات التربويّة في نفوس الناشئين، فينمو في نفوسهم الشعور بالمجتمع المسلم، ففيه يبدؤون بوعي العقيدة الإسلاميّة وفهم هدفهم من الحياة، وما أعدهم الله له في الدنيا والآخرة، وفيه يتعلمون القرآن ويرتلونه، فيجمعون بين النمو الفكري والحضاري بتعلم القراءة، ودستور المجتمع الإسلامي، والنمو الروحي وهو الارتباط بخالقهم. وفيه يتعلمون الحديث والفقه، وكل ما يحتاجون من نظم الحياة الاجتماعيّة كما أراد الله أن ينظّمها للإنسان. ولكن ما يدعو المسلمين إلى المسجد هو الالتقاء على طاعة الله، فشعار الاجتماع في المسجد لأمر طارئ، أن ينادي مناد في أسواق المسلمين، ومآذن مساجدهم "الصلاة جامعة"، فإذا اجتمعوا كان أول عملهم أن ينتظموا صفوفاً ويصلوا ركعتين، ثم يتداولون أمرهم، هذا إذا اضطروا للاجتماع في وقت لا تحين فيه صلاة مفروضة، وفي الحالات غير الاضطرارية ينتظرون وقت الصلاة المفروضة، فلا يرمون أمراً إلا بعد اجتماعهم على صلاة. فالمسجد على هذا يعلم الناشئين أنّ كل أمور الحياة تابعة للارتباط بالله، وصادرة عن هدف التربية الإسلاميّة الشامل الذي هو إخلاص العبوديّة لله، وينغرس هذا المعنى في نفس الناشئ عفواً من غير قصد ولا تكلف.

المبحث الثالث

المدرسة

في الحياة المعاصرة تعد المدرسة وسطاً أكبر من البيت، بعد أن تخفف البيت من وظيفة التربية لانشغال الآباء وبعض الأمّهات بالعمل، فألقوا بمعظم المسؤولية على المدرسة، وركنوا إليها في إدارة العملية التربويّة، فتحملت العبء الأكبر، فالتلميذ يقضي معظم نهاره في المدرسة وسط جمع من الأقران من مختلف البيئات والطبقات، يتباينون في السلوك ويفتقرون في الأفكار، ويختلفون في الطباع والأخلاق، ويخضع التلميذ في المدرسة لعدد من المؤثرات، لعل أهمها المدرس، ثم إدارة المدرسة، ثم الطلاب والمناهج الدراسية

والنشاطات المدرسية، ومما لا شك فيه أن الاختيار السليم للعناصر البشرية التي يتعامل معها الطالب من الأهمية بمكان، وعلى قدر صلاحهم وحسن سلوكهم يكون صلاح الطلاب وتميزهم بالخلق القويم. وبلي المنهج الدراسي اختيار المدرس في الأهمية، حيث إنّ المنهج أساس العملية التعليمية، ومن ثم يتوقف نجاح العملية التعليمية على مدى كفاءة المنهج وحسن تطبيقه، ولما كانت المدرسة تولي العملية التعليمية اهتماماً أكبر من العملية التربوية، حيث يقاس مستوى المدرسة بمقياس التحصيل العلمي للتلاميذ، فلا مناص من الاعتماد الأساسي على البيت كمصدر للتربية الأصلية بالإضافة إلى الوسائط الأخرى.^(١)

المطلب الأول: تمهيد في أهمية المدرسة ونشأتها:

لم تصل الإنسانيّة إلى إيجاد المدرسة على الشكل الذي نراه اليوم إلا بعد أن مرت بمراحل طويلة وتجارب عديدة، فقد كان الطفل في الحياة البدائية يتعلم من أبويه ومجتمعه كل شيء بأسلوب غير مقصود وغير منظم، تارة عن طريق التقليد وتارة عن طريق التأمل والمحاكاة المقصودة. لكن كان للدين الفضل الأول في إيجاد تربية هادفة مقصودة، وذلك حين أوجد الركنين الأساسيين لعملية التربية المقصودة، وهما: الهدف الواضح المحدود وهو عبادة الله وحده؛ والمنهج أو المادة الفكرية والسلوكية المعينة المقصودة، وهو الاستسلام لتشريع الله، وأوامره التي أنزلها على رسله، ليحفظها الجيل ويعمل بمقتضاها، ثم ينقلها إلى الجيل الذي بعده، وهكذا. وتتابع الأجيال تتناقل شريعة الله وأوامره وأسلوب عبادته، بالتعلم والتقليد والاتباع، فرداً عن فرد، وجمعاً عن جمع، في الساحات والمساجد. ولم يكن التعليم مقصوراً على الصغار، بل كان الصغار والكبار يتلقون التعاليم الدينية من رسل الله وأتباعهم، ويلقنونها لأبنائهم ومن يليهم؛ فكان نشر الدين فريضة دينية لأنّ المجتمع المؤمن الموحد مهاجم، وأهل الحق قلة في أكثر العصور: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} (يوسف: ١٠٣). فإذا لم يدافعوا عن أنفسهم بالدعوة إلى عبادة الله وحده، وبيان الحق والبرهان عليه، غلبوا وغزوا في عقر دارهم، واتهموا في صميم عقيدتهم وأفكارهم، ولم

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ١٠٩.

يخصص للتعليم أماكن خاصة فكان التعليم ممزوجاً بكل ظروف الحياة الاجتماعية، العائلية منها والدينية والاقتصادية والحرية والسلمية والمهنية. وقد وردت في القرآن إشارات إلى تربية بعض الرسل لأبنائهم، وما علموهم من توحيد الله وعبادته، كوصية يعقوب لابنه، ووصية إبراهيم من قبله، كما وردت إشارة إلى تربية بعض الصالحين لأبنائهم كوصية لقمان لابنه؛ والذي يهمننا هنا هو مواقف هؤلاء التربويّة، وما تبعهم عليه أتباعهم من أساليب الدعوة والتبشير بالدين، وما خصصوا من أماكن لتعليم الدين. وهكذا استمر انتشار دور التربية الدينية، وكان ذلك بين مد وجزر؛ لأنّ الصراع كان دائماً بين الكفر والإيمان، بين السحر والكهّان والعرفان، يربون الناس على الباطل، والخرافات الوثنية، وبين الرسل وأتباعهم يربون الناس على التفكير الصحيح، وتوحيد الله، والحرية والمسؤوليّة والعدل والإحسان، وتعليل الأمور تعليلاً منطقياً بعيداً عن الخرافة والشرك.

المطلب الثاني: المدرسة في عصر الرسول ﷺ:

بقي الأمر كما ذكرنا حتى ظهر الإسلام، واستقر حكمه في مدينة الرسول ﷺ، فكان المسجد أول مدرسة جماعية منظمة عرفها العرب، لتعليم الكبار والصغار والرجال والنساء. كان لهذه المدرسة قسم ينام فيه من يأوي إليه من الأرياف، أو من الفقراء كأهل الصفة، فيجمعون بين التعلم الديني والدنيوي، حتى إذا أتقنوا حرفة أو وجدوا عملاً ذهبوا يطلبون الرزق، وبقوا يترددون إلى مدرستهم في النهار لطلب العلم وأداء العبادة، وكانت الألعاب والتمارين الحربية تقام في ساحته أحياناً، كما فعل الأحباش ورسول الله ﷺ ينظر إليهم من حجرته، ومعه السيدة عائشة تنظر إليهم.^(١) وبقي المسجد يؤدي وظيفتي العبادة والتربية الإسلامية، دون تمييز واضح بينهما حتى كان عهد عمر بن الخطاب، فنشأ في عصره إلى جانب المسجد كتاتيب للأطفال يتعلمون فيها. وهنا بدأ بعض التنظيم لتعليم الأطفال، وكان يوم الجمعة يوم راحة أسبوعية استعداداً لصلاة الجمعة، فاقترح عمر أن يصرف الطلاب ظهر يوم الخميس ليستعدوا ليوم الجمعة، فكانت نظاماً متبعاً إلى يومنا

(١) البخاري: أبواب العيدين، باب الحراب والدرق يوم العيد، رقم: ٩٥٠.

هذا، وعم رأيه الأمصار، وربما انتشر وذاع بشكل كفي، دون قصد أو تعميم رسمي، لما كان يتمتع به من شخصية فذة محبوبة، وإيمان قوي جعله مسموع الكلمة. وهكذا كان التعليم يقوم على جهود مؤسسات خاصة يقوم عليها أشخاص يديرونها بجهود شخصية، وقد يتعاطى بعضهم أجراً زهيداً يقيم به أوده لانشغاله بالتعليم عن طلب الرزق. كان المسجد هو مكان هذه الكتابات في أول الأمر، وكان في المسجد حلقات علم بعضها يوازي مستوى المرحلة الثانوية في عصرنا هذا، وكانوا يدرسون كتباً معينة في بعض العلوم، للمبتدئين في هذا العلم كالفقه والحديث، والتفسير، والنحو أحياناً.^(١)

المطلب الثالث: المدارس في العصر العباسي المتأخر:

لما استقلت الدويلات عن الخلافة العباسية، بدأ بعضها يبني مدارس للعلم كل مدرسة تؤوي عشرات من طلاب العلم، وكان نظام هذه المدارس داخلياً يقوم على الانقطاع لطلب العلم، فكان في دمشق وحدها، مثلاً، زهاء ثلاث مئة مدرسة في سفح جبل قاسيون ما تزال آثار كثير منها على شكل قباب تشرف على بعض الحدائق العامة، هذا عدا عن المدارس التي كانت في قلب المدينة، كالمدرسة الظاهرية التي بناها الملك الظاهر، والمدرسة النورية التي بناها نور الدين الزنكي، وبقي التعليم في هذه المدارس حراً لا مركزياً من حيث المناهج، والكتب والأساليب، مع ارتباطها مالياً بالدولة التي تجري لها الجرايات، وتخصص لها الأوقاف، والهبات دون أن تقيدها بنظام معين، أو مناهج محدودة، ثقة منها بالعلماء الأفذاذ الذين كانوا يديرونها، ويغذونها بالعلم. وبقي الأمر كذلك زهاء عشرة قرون حتى جاء الاستعمار الغربي إلى بلادنا، فعمم فيها نظام المدرسة الموحدة، والتعليم المركزي التابع لمركز العاصمة في البلاد، وللمستشارين الأجانب في الأقطار التي استعمرت عسكرياً.

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ١١٨.

المطلب الرابع: المدرسة المعاصرة:

أولاً. أسباب وجود المدرسة الحديثة: يرجع معظم هذه الأسباب إلى تغير نظام الحياة السياسية، فقد هيمنت الدولة على كل أمور الناس واعتبرت نفسها مسؤولة عن غذائه وموارد رزقه وثرواته بالإضافة إلى أمنه واستقراره، وتحقيق حرياته وكرامة أفرادها، وكرامة الدولة نفسها تجاه الدول الأخرى. وهذه الأمور كلها تبنى على التعليم والتربية، فبالترية تنمي الثروة البشرية كما يسمونها، بحيث تكون سبباً لكل أنواع الثراء: ينمي أفراد المجتمع على حب العمل، واستغلال خيرات الأرض وثروات الوطن، بأسلوب تقني يعطي أكبر منتج ممكن، بأقل جهد ممكن وفي أسرع وقت ممكن. وبالتربية يمكن إيجاد المحبة بين جميع طبقات الشعب وطوائفه وفئاته، فيتحقق التجانس والأمن والاستقرار، ويربي الجيل على احترام الأموال والملكيات والأعراض والأرواح، فيستقر بذلك الأمن. هذه مجمل الأسباب السياسية، والاجتماعية التي دعت الدولة إلى الأخذ بزمام التعليم، ووضع مناهجه ونظمه، وتهيئة مدارس ومعلميه. لكن يمكن لنا نقد هذه الأسباب، وبيان موقف الإسلام منها بالقول:

رأينا اهتمام الدولة في تاريخنا الإسلامي بالتعليم، ويمكننا أن نضيف إلى ما تقدم أنه إذا كان شعور خليفة عادل، كعمر بن الخطاب، أو عمر بن عبد العزيز، بالمسؤولية عن كل ما يجري في دولته، حتى عن دابة تزل على جسر أقيم على نهر الفرات، ثم أفسدته الأمطار أو غيرها فغفل المسؤولون عن إصلاحه، فكيف اهتمامهم بأرزاق الشعب وأقواته ونظم حياته، هذا أمر بدهي في الدولة المسلمة: اهتمامها بكل شؤون الشعب، وعلى رأسها التعليم، ولكن الفارق يبدو واضحاً في أسلوب التطبيق، والسهر والتنفيذ، فالدولة المسلمة تعطي حرية كاملة للتعليم على أساس ثقتها بالمشرفين على التعليم، وبأن الشعب كله يؤمن بدستور واحد، وهدف واحد وتراث ثقافي واحد، فالشعب هو الرقيب المباشر على التعليم، وهو الذي يعرف كيف يوفر المؤسسات التعليمية، ويهيئ أسبابها. ضَع للمدرسة هدفاً أساسياً هو تحقيق التربية الإسلامية بأسسها وأهدافها، وَخَرَج لها أساتذتها

والمسؤولين والمؤمنين بهذا الهدف، واتركها تنطلق على أساس هذا الهدف، تجدد كل شيء فيها متناسقاً، وكل نتيجة خيرة يمكن أن ننتظرها من هذه المدرسة في كافة المجالات. وتبقى الدولة مع ذلك رقيباً، إلى جانب الشعب، تشجع التسابق إلى الخير في جميع مؤسسات التعليم، وتقوم كل ما اعوج منها، وتضرب بيد من حديد على كل من يتلاعب بعقيدة الناشئة أو ينحرف بأهدافهم فيغيرها، كما تمول الدولة كل ما تستطيع تمويله من هذه المؤسسات، فتعين الشعب على تربية أبنائه وتعليم أجياله، وتصبح الانطلاقة التربوية ذاتية لا مفروضة، بل نابعة من أعمال المعلمين والمتعلمين، وتصبح المسؤولية التربوية مرتبطة بالنتائج التي يرتقبها المجتمع من كل مؤسسة تعليمية، بل إنها مرتبطة بالمسؤولية أمام الله الذي يحصي كل مثقال ذرة من خير أو شر.

١

ثانياً. وظائف المدرسة الحديثة ()

١. وظيفة التبسيط والتلخيص: إنَّ تعقيد الحضارة المعاصرة واتساع ثقافتها، وتشابك الأمم والشعوب في المصالح والمنافع، واشتراك البشرية في وسائل الإذاعة والاتصال، وانتشار وسائل الرفاهية، والمخترعات التي زادت في سرعة الانتقال بين المناطق، كل ذلك وغيره جعل الطفل الناشئ بحاجة ماسة إلى تقريب المبادئ التي بنيت عليها هذه الوسائل، وتبسيطها بحيث يستطيع فهمها، والتعامل مع هذا الجو الحضاري دون ارتباك أو خوف أو غرور أو استهتار. والتبسيط يجب أن يلتقي مع التلخيص، وهو اختصار هذه المظاهر والعلوم الواسعة المترامية الأطراف، واختزالها في قوانين أو مبادئ يسهل استيعابها، بحيث يستطيع بهذه المبادئ المحدودة أن يحل رموز كل المخترعات التي يحتاج أن يتعامل معها. والتربية الإسلامية تشمل هذا التبسيط والتلخيص لأسباب أهمها:

(١) انظر طرق تدريس التربية الإسلامية: عبد الرشيد عبد العزيز سالم، ص ١١٠.

أ. سخر الله لنا الكون، فعلينا أن نستخدم كل ما سخر لنا، وهذا الاستخدام لا يتم إلا بمعرفة قوانين الطبيعة وسننها، وهذه المعرفة لا يمكن تقديمها للناشئين إلا إذا لخصت وبسطت، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ب. من طبيعة الأسلوب التربوي القرآني مراعاة التدرج والتبسيط، والقرآن إنما اتبع هذا الأسلوب ليكون لنا قدوة في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن مقتضى الحكمة وضع الأمور في مواضعها، وتقديم العلم تقديمًا يتناسب مع حالة المتعلم. كما أن الهدى النبوي التربوي صريح في هذا، والناشئون أشد الناس حاجة إلى تبسيط المعلومات، وتلخيصها لتأتي على قدر عقولهم، وكان أسلوب النبي ﷺ مع الأطفال أكبر شاهد على هذا كما هو معلوم.

٢. **وظيفة التصفية والتطهير:** تمر العلوم أو العقيدة على عقول أجيال متتابعة فلا تبقى على حالها، بل تتحمل كثيرًا من الشوائب والمبالغات والاعتبارات الشخصية أو الاجتماعية في ظروف معينة يكون الناس فيها أميل إلى الإشاعات وسرعة التصديق، فتتغير الحقائق وتنحرف العقيدة عند البعض، فيصبحون أقرب إلى الشرك أو الرياء أو الكذب على رسول الله أو نحو ذلك، وقد يؤلف بعضهم المؤلفات ويكتب هذه الأباطيل في الكتب كما فعل بعض المبتدعة. والمدرسة عندما تقدم العقيدة والعلم إلى الناشئين، تعتمد إلى تصفية الحقائق وتنقيتها من كل الشوائب والمبالغات والأكاذيب، لتبقى عقيدتهم سليمة ومعارفهم صحيحة. هذه الوظيفة هي من طبيعة التربية الإسلامية، وهي من أهم أهدافها ومهماتها التي تقوم على تحقيقها للأسباب الآتية:

أ. أن الإنسان يولد في نظر الإسلام على الفطرة السليمة، ثم يأتي الفساد عن طريق المجتمع الفاسد، فالتربية الإسلامية هي الدفاع عن براءة الفطرة وسلامتها.

ب. أن طبيعة النفس الإنسانية قابلة للخير والشر، قال تعالى: {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} (الشمس: ٨).

ج. أن الله امتحن الإنسان فجعله أمام أمرين، إما أن يختار طريق الخير أو طريق الشر، وقد أمهل الله الشيطان وأعطاه كل مقدرة على الإغراء حتى يتم به ابتلاء الإنسان؛

فكان هذا أكبر داع إلى أن يتخذ المربي عدته للحذر من الانحراف؛ ومن أهم أساليب هذا الحذر تصفية العقيدة والعلوم كلها من شوائب التحريف والتشويه التي توسوس لها الأهواء، أو يوحى بها المنحرفون من عباد الأهواء والشهوات، والمادة في كل زمان ومكان.

د . دعا الإسلام إلى الدفاع عن العقيدة والفطرة من التحريف، وإلى إبعاد الخرافات والتأويلات الباطلة للظواهر الكونية، فنهى عن التشاؤم، ونهى رسول الله عن تعليل الخسوف بموت ابنه، ونهى عن البدع والابتداع والزيادة في الدين، حتى أصبحت مهمة ترك البدع، جانباً قائماً بذاته من جوانب التربية الإسلامية.

هـ . حذر الإسلام من الكذب أو التحريف في نقل الأخبار والحوادث التاريخية وأحاديث الرسول ﷺ، وعلم الإنسان أنه مسؤول عن كل ما يتحدث به قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً} (الإسراء: ٣٦). وقال النبي ﷺ: "كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع".^(١) وهكذا لم تكتف التربية الإسلامية بتقديم المنهج والمواد العلمية للناشئ خالصة من كل تحريف بل ربت الناشئ على الامتناع عن قبول أي شيء دون التثبت منه، وبهذا ربت عنده مناعة ضد كل تحريف أو خرافة، ربت على الأمانة العلمية والتفكير المنطقي، فأصبح لا يقبل حقائق العلم إلا صحيحة والأخبار التاريخية إلا صادقة.

٣. توسيع آفاق الناشئ وزيادة خبراته بنقل التراث: لا تكتفي المدرسة بتنمية خبرات الناشئ الناجمة عن احتكاكه بالبيئة في المواقف التي تضطره ظروفه إليها، بل تكسبه خبرات من تجارب الأجيال الإنسانية الماضية التي سبقته منذ قرون طويلة وخبرات من تجارب الأمم الأخرى المعاصرة. وهذا ما يسميه بعض علماء التربية وظيفية نقل التراث أو إحياء التراث، والوراثة انتقال الثروة من السلف إلى الخلف، ويطلق على ذلك الثروات الفكرية، والمعاني الدينية والكتب السماوية قال تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ

(١) مسلم: مقدمة الإمام مسلم، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، ص ١٠.

خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ } (الأعراف: ١٦٩) والحرص على التراث الفكري والثقافي أمر في غاية الأهمية؛ لأنه ينقل إلينا خبرات عظيمة طالما انقضت أعمار الأجيال وجهودهم في تحصيلها كمخترعاتهم وأبحاثهم العلمية، ولكن ضخامة هذا التراث واندثار القديم منه وتغير كثير من الظروف والأحوال، يجعل من المستحيل أن تحرص كل أمة على تلقين أبنائها جميع تراثهم، لذلك لا بد من انتقاء المدرسة لعناصر التراث الفكري والثقافي الذي يمكن تقديمه إلى الجيل الحاضر، ليكون عوناً له على وحدته النفسية، وعوناً على وحدة الأمة التي يعيش فيها، وعلى تحقيق الخير لهذا المجتمع، وإبعاد الشرور والانحرافات عن أبنائه. ولا بد لهذا الانتقاء من معيار ومقياس، ولا بد لهذا المقياس من هدف يحققه، وعلى ضوء هذا الهدف يمكننا أن نصنف الأهداف التي تُبتغى عند المحافظة على التراث كما يلي: (١)

أ. يحافظ بعض الناس على تراثهم الفكري تعصباً لآبائهم وأجدادهم وحضارتهم ومصالحهم القومية، سواء كانوا على هدى أو في ضلال، بل إنَّ الهدى عند هؤلاء هو المصلحة القومية، لذلك نجد أنَّ ظواهر الاستعمار واستثمار خيرات الشعوب الضعيفة قد كانت من نتائج هذا الاتجاه في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلادي، وقد نعى القرآن على هذا التعصب الأعمى للآباء، فقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ} (البقرة: ١٧٠).

ب. يتلقف بعض الناس ما توصلت إليه حضارة الأقوام المتحضرة سعيّاً وراء المظاهر الحضارية البراقة، وتحقيقاً للرفاهية والتعاضد بالمال، وأملاً في تقليدهم والوصول إلى ما وصلوا إليه من الغنى والترف، وقد بيّن الإسلام أنَّ هذا المقصد لا يستحق أن يكون هدفاً لذاته، بل ربّما كانت مظاهر الترف وسيلة لإغراء الكفار وزيادة تمسكهم بالدنيا وتماديهم في الضلال مما يزيد في مسؤوليتهم وعذابهم، قال تعالى: {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ١٢٤.

النَّاسُ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ جَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ، وَلِِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ، وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ { (الزخرف: ٣٣-٣٥).

ج . أمّا إذا كانت الغاية من الأخذ بأسباب الحضارة، الأخذ بمبادئ القوة، والتمكن في الملك من أجل إقامة شعائر الإسلام والدفاع عنه، فهذا من أعظم المقاصد وأشرفها، قال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَعٍ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } (الحج: ٣٩-٤١).

د . أمّا إحياء العقيدة في نفوس الأجيال، فهذا هو الهدف الأسمى للتربية الإسلامية، وهو عمل أسمى من أن يوصف بأنه نقل التراث، إنّه صون الفطرة التي هي الاستعداد لتوحيد الله والتعرف على عظمته من تأمل مخلوقاته، ولتحقيق ذلك زودنا الله بهذا الدين ليكون دليلاً يبين لنا الطريق لنسلكه للوصول إلى هدفنا، عبادة الله والعمل بشريعته. وقد وصف الرسول ﷺ العلم الذي تركه الأنبياء لمن بعدهم بأنه هو الميراث الذي ورثوه للأمة، وأنّ الله حرّم على الناس أن يرثوا من الأنبياء شيئاً من المال أو المتاع؛ لأنّهم ما أرسلوا لجمع المال. لذا كان إغناء خبرات الناشئين بتعاليم الشريعة وعقيدة التوحيد، أول وظيفة وأهم مهمة تضطلع بها المدرسة في نظر التربية الإسلامية؛ وكل تراث آخر يجب أن يكون تبعاً لهذا التراث الإلهي الذي أورثه الله للذين اصطفى من عباده حتى وصلتنا الشريعة بيضاء لنعمل بها ونحقق عبادة الله وتوحيده. فعلوم الأمم الأخرى وحضارتها، إنّما نأخذ منها ما يُمكننا في الأرض ويعطينا أسباب القوة بكل معانيها (الحربية، الاقتصادية، الإعلامية، التنظيمية)، لندافع عن عقيدتنا وأرضنا وأرواحنا وأعراضنا. بهذا القصد نوسع خبرات النشء العلمية لا يقصد التفاخر والتكاثر والظهور بمظهر المتحضّرين الذين تضاعفت عندهم أعداد المتعلمين أضعافاً خلال ربع

قرن وانتشرت عندهم الكليات العلمية. إن الأمم لا تقاس بالعدد، وإنما تقاس بالنتائج التي تحقّقها في تفوقها الحربي والصناعي والمعنوي، تقاس بما غرست في نفوس أبنائها من الإيمان بالله، والثقة بالنفس وطلب الموت في سبيل الله، ومن الوعي العلمي والثقافي المسلح بسلاح الإيمان وعلوم اللغة العربية وآدابها والتاريخ الإسلامي؛ كل هذه المعارف والعلوم جزء من التراث الإسلامي لأنها ساعدت على فهم القرآن وحفظ الشريعة والعمل بها، لذلك يجب انتقاء ما يحقق هذا الهدف من تلك العلوم، وترك الشوائب والانحرافات التي حصلت على هامش هذا التاريخ الإسلامي العتيق، فضخموها وجعلوا يعرضون الخلافات والحروب الداخلية، والأخبار المأجنة المنسوبة إلى بعض الخلفاء والأمراء، وكأنها هي مقياس هذا التاريخ والأصل فيه، وغفلوا أو تغافلوا عن الهدف الأسمى الذي من أجله فتح أجدادنا الدنيا، وعن الإصلاحات الداخلية العظيمة التي قاموا بها.

٤. **وظيفة الصهر والتوحيد وإيجاد التجانس والتأليف بين الناشئين:** (١) يرتاد المدرسة اليوم مئات الطلاب من البيئات المختلفة في الفقر والغنى والمكانة الاجتماعية والتحضر والتمدن والتدين والشعور بالمسؤولية، ولو أخذنا مجموعة مدارس أي قطر لوجدنا اختلافاً في العادات واللهجات والمفاهيم عن الحياة، ما بين ريف ومدينة وما بين ساحل أو صحراء.... الخ، تُرى ما أثر المدرسة في هذا الاختلاف والتباين، وما موقفها منه؟ يرى فلاسفة التربية الحديثة أن من النتائج العفوية لتواجد الطلاب وتعايشهم في ظل نظام مدرسي واحد صهرهم ومحو الفوارق بينهم، على أن هذا الرأي مبالغ فيه بل إن الواقع يخالفه إلى حد كبير. وإن نظرة إلى المجتمعات العربية والإسلامية، ترينا أن معظم أبنائها تخرجوا من مدارس ذات أنظمة واحدة ومناهج واحدة، ومع ذلك تجدهم في القطر الواحد مختلفين بعد تخرجهم لا تجمعهم راية واحدة ولا يستهويهم هدف واحد، بل تفرقهم المصالح والشهوات. ذلك أن الصهر والتجانس الحقيقي لا يتحقق على المدى البعيد، إلا إذا اجتمعت القلوب والعواطف والأفكار على أسس نفسية عميقة تصلح لتكوين تصورات اجتماعية مشتركة نابعة من أعماق

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ١٢٩.

النفس من غير تكلف أو إجبار. وهذه الأسس يجب أن تبنى على الإيمان بحقائق سليمة مسايرة للفطرة الإنسانية والعقل السليم، توحد نظرة الإنسان إلى أخيه الإنسان وإلى الكون وإلى الحياة وإلى القيم الإنسانية، وذلك بتوحيد خضوعهم إلى خالق الكون وإلى تشريعه وأوامره. ولو تأملت معنى هذه الصفات لما وجدت تنطبق إلا على أسس التربية الإسلامية، ولأدركت مغزى قوله تعالى: {لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ} (الأنفال: ٦٣)، فالتوحيد الذي دعا إليه القرآن، وأثر في نفوس العرب هو الذي صهرهم وألف بينهم. فالتجانس لا يحصل إلا إذا ألف الإيمان الصحيح بين قلوب الناس، وحينئذ تذوب جميع الفوارق، ويتنازل الجميع من تلقاء أنفسهم عن كل الضغائن وأسباب التباعد، سعيًا وراء مرضاة الله. فالمدرسة لا تصهر المواطنين، ولا تحقق التجانس المطلوب بينهم إلا إذا بنيت على أسس التربية الإسلامية، وحققت أهدافها. أما المدارس القائمة على مبادئ المواطنة الصالحة في أمم الغرب، فإنها تصلح أداة لغرس خلق التواطؤ الاستعماري، وطغيان الشعوب القوية على الشعوب الضعيفة؛ لأنه ليس لديها مقياس حقيقي للمواطن الصالح إلا مسايرة قومه على الخير أو الشر، وعلى تحقيق الشهوات والمصالح الدنيوية والقهر والبغي بغير حق.

٥. تنسيق الجهود التربوية المختلفة وتصحيحها: يساهم في تربية الجيل عوامل عديدة كالمنزل والمجتمع ووسائل الإعلام والمسجد؛ على أن هذه العوامل والمؤسسات قد تترك في نفس الناشئ بعض التعارض بين الأفكار والعواطف أو بعض الأخطاء وإن لم تكن صادرة عن أهداف وأسس واحدة، فمبالات بعض الصحف وتحييز بعض محطات الإذاعة في أخبارها وميوعة الأغاني، كل ذلك وغيره لا يتناسب مع الأفكار التربوية السليمة التي تقدمها المدرسة، لذلك كان من واجب المدرسة إما أن تنسق جهود هذه المؤسسات بالتعاون المباشر معها، وإما أن تعقد ندوات للطلاب خاصة بانتقاد كل ما يصدر عن هذه المؤسسات والمؤثرات التربوية، لنشر الآراء السليمة في منازلهم وبين ذويهم. وهذا العمل إنما يؤدي إليه تحقيق أهداف التربية الإسلامية بشكل عفوي،

فالشريعة الإسلامية ضابط أخلاقي للمجتمع، والمدرسة أحق مؤسسة اجتماعية بأن تتولى هذا الضبط.^(١)

٦. **التكامل لمهمة المنزل التربوية:** تعد المدرسة بحق أداة مكمل؛ لأن تربية الناشئ تبدأ في أحضان أبويه، يلقنانه مفاهيم الحياة ويغرسان في قلبه الإيمان الصحيح. لذلك لا بد من إقامة تعاون صريح بين المنزل والمدرسة، وأن تخصص المدرسة جهازاً لتنسيق الاتصال بالأولياء، ومعرفة هواتفهم وعناوينهم وعملهم وكل ما يمكن معرفته من الظروف التي يرى فيها الناشئون في منازلهم، لتصحيح الخاطئ منها وإكمال الصالح، والتعاون مع الأولياء على إصلاح الناشئين وحسن تربيتهم ليكمل كل من المنزل والمدرسة ما بدأ به الآخر، من غرس الإيمان الصحيح والسلوك القويم وتقويم الانحرافات، وحل المشكلات، ولكيلا يحدث تعارض بين أسلوب المنزل التربوي، وأسلوب المدرسة. وهذه الوظيفة التربوية للمدرسة إنما تتحقق على الوجه الأكمل حينما تتبنى مبدأ التواصل بالحق، وهو من أهم مبادئ التربية الإسلامية، فتتعاون المدرسة مع المسجد والمنزل والمجتمع، ويكون هدف الجميع تحقيق العبودية لله، وتطبيق شريعته.

ثالثاً. **مزالق المدرسة الحديثة، وعلاجها:**^(٢) رغم العبء الكبير الذي تحمّله المدرسة اليوم في تربية الأجيال، نجدها وقعت في مزالق رهيبة، كادت معها أن تودي بالأمة الإسلامية، وتسلم أجيالها إلى الخذلان والاستسلام، والإباحية والإلحاد في كثير من الأقطار العربية والإسلامية. ومن أهم هذه المزالق:

١. **الانعزالية:** كانت الكتابات وحلقات المساجد على صلة دائمة بالشعب، فلم تكون طبقة مهنية معزولة، بل كانت تعالج دائماً مشكلات المجتمع الإسلامي، وكان طلاب العلم المخلصون نقاداً لأخطاء والتجار والأمرء وأصحاب المهن، ينصحونهم ولا يبالون

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي؛ ص ١٣١.

(٢) انظر المرجع نفسه: ص ١٣٢.

في الله لومة لائم، وكانوا يشاركون الشعب أفراحه وآلامه وحروبه، ذلك أن علمهم، وتربيتهم الإسلامية قد هيأتهم لخدمة مجتمعهم وأمتهم. بيد أن المدرسة الحديثة اليوم أصبحت في معزل عن الحياة الاجتماعية قلما تشعر بحاجات مجتمعها فتحققها أو بأخطائه فتقومها، لقد أصبح معظمها يعيش في عالمه المغلق على نفسه، همه إنهاء المناهج وتنظيم الطلاب، وتهيئة الجو المدرسي الملائم، والسمعة الطيبة والنتائج المدرسية المرجوة، ونسبة النجاح المرموقة. وتعالص صيحات بعض المربين لجعل المدرسة مجتمعاً مصغراً، لكن هذا لم يكن كافياً. أما التربية الإسلامية فتهدف إلى تخريج مصلحين حقيقيين، تدعو المدرسة إلى المشاركة الفعلية في النصح للمجتمع، والمساهمة في إصلاحه، ولترسل من طلابها وعازلاً إلى المساجد مساهمين في الحض على نظام السير مثلاً أو نظافة المدينة، والحض على جمع التبرعات، والعمل على محو الأمية، وكل ما يحتاجه المجتمع. ولتحقيق ذلك، يجب على المدرسة أن تستقي مناهجها وكتبها، ومقرراتها ونشاطها من صميم عقيدة الأمة وتاريخها وأهدافها ومتطلباتها وآمالها وآلامها، حتى تخرج جيلاً يحس بمشكلات مجتمعه، ويعمل على حلها، فتحيا في نفسه المثل العليا فيعمل على تحقيقها منذ نشأته مخلصاً لها طيلة حياته. وتلتقي المدارس كلها على ذلك بالتقاء العاملين فيها على الإخلاص وصدق الإيمان، وتنظيم المشرفين لأمر المدارس ومناهجها ونشاطها على هذه الأسس، والتعاون مع الأساتذة والعاملين بوعي وجد وتفان وإخلاص للمصلحة العامة، التي لا تتحقق إلا باستهداف مرضاة الله، فهذا هو ما تجتمع عليه قلوب المخلصين ومسايعهم.

٢. **التبعية لثقافة الغرب وفلسفتها المبنية على الإلحاد:** لو تأملنا معظم كتبنا المدرسية بمختلف العلوم كالتاريخ والعلوم الطبيعية من فيزياء وكيمياء وغيرها، وكذلك سائر العلوم الإنسانية من تربية وعلم نفس وعلم اجتماع... الخ، لوجدناها مأخوذة عن مراجع مترجمة حرفياً أو بالمعنى عن المراجع والثقافات الغربية. ولقائل أن يقول: ماذا يضير المسلم لو أخذ الحكمة من أعدائه ما دام بحاجة إليها وما داموا قد سبقونا إلى

اكتشافها بعد أن وضع أجدادنا أسس البحث العلمي لاكتشافها؟ قد يكون هذا صحيحاً لو أمكن أن نأخذ هذه العلوم دون أن تززع عقيدة الناشئين وتعيثُ فساداً وتخريباً في كيان الأمة الاجتماعي، فقد غير هؤلاء الغربيون كل المبادئ التي بنى عليها أجدادنا بحثهم، وأخذوا بالأساليب المنطقية والتجريبية دون الأسس الدينية والفكرية. وهكذا أصبح لهذه العلوم الغربية منطلقات عقائدية تعارض عقيدة التوحيد فهي تنطلق من تصور خاطئ للوجود كله يغاير الأسس الفكرية الإسلامية، ملخص هذا التصور أن الوجود كله منحصر في الطبيعة والإنسان، والإنسان جزء منها ونوع من أنواعها، والطبيعة وُجدت هكذا بنفسها وكذلك سننها وقوانينها، والعقل وحده طريق معرفة الحقائق وليس ثمة طريق آخر، وليست المثل الأخلاقية والقيم إلّا حوادث كالحوادث الطبيعية، نشأت وتطورت، فهي ليست ثابتة، والإنسان نفسه إنما هو حيوان اجتماعي مفكر فحسب، وليست النفس الإنسانية إلّا مجموعة من الغرائز.

ليس في هذه الفلسفة الغربية أو التصور الوجودي للكون مكان للإله وصلته بالإنسان وبالكون ونظامه السبي، ولا بالوحي والنبوات، ولا للجزاء والحياة الخالدة، ولا لسائر الغيبيات. إن هذه المفاهيم منبثة مفرقة في مختلف العلوم التي تعلم في نظم التعليم السائدة في العالم الإسلامي، ويتكون من مجموعها مركب فكري عقائدي يخالف الإسلام مخالفة جذرية. هذه هي الكارثة التي أدخلتها المدرسة الحديثة على أمتنا الإسلامية، كارثة لم تعرف أمتنا في تاريخها أشد هولاً وأفظع في نتائجها منها، ولا تعدلها كارثة التتار ولا الحروب الصليبية، ولا حروب الاستعمار، بل إن جميع المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والتربوية التي نعانيها فروع لهذه المشكلة الأساسية. إن حل هذه المشكلة ليس بطرد هذه العلوم، وإيصاد الأبواب أمامها، وإنما الحل الذي نطرحه، وندعو إلى الأخذ به هو صياغة العلوم جميعاً صياغة إسلامية، أو بعبارة أدق إقامتها على أسس إسلامية، وبنائها على التصور العام للوجود كما يقدمه الإسلام.^(١)

(١) انظر مجلة البعث الإسلامي: محمد المبارك، المجلد ٢١، العدد ١٠، ص ٣٢.

٣. انشطار شخصية الناشئ، وانفصام عرى وحدتها: هذا المنزلق نتيجة لما قبله، وذلك أن غالبية الشعوب الأوروبية لم تستطع الانسلاخ نهائياً من العقيدة الدينية، ومن الاعتقاد بوجود الخالق وبالיום الآخر، فلم يجد أرباب الفكر والثقافة الغربية بدءاً من الفصل بين العلم والدين، وانتشر المبدأ الخاطئ الذي يقول: "دع ما لله الله، وما لقيصر لقيصر"، وكان من نتيجة ذلك ترسيخ دعائم الاتجاه الإلحادي الذي قامت عليه الثقافة الغربية في جميع المدارس والمنشورات العلمية وميادين العلم المختلفة، بدعوى أنها علوم وضعية تدرس الواقع ولا علاقة لها بالدين، مع أن الاستدلال على عظمة الله جزء من الواقع الذي يعيشه كل عاقل يفكر تفكيراً منطقياً، وينطلق من المحسوس الذي حوله إلى الأسباب. ولم تحدد التربية الغربية الحديثة لها موقفاً منطقياً من هذا الصراع، مع أنها تؤمن في مجال النفس والعمل التربوي بوحدة النفس الإنسانية وبوحدة الخبرة التي يقتبسها الناشئ مهما اختلفت وجوه هذه الخبرة، ولكنها تنازلت عن هذه الوحدة واستسلمت لهذه الفلسفة التي تقسم النفس إلى شقين متنازعين أحدهما يؤمن بالله الخالق والآخر يؤمن بالطبيعة التي هي - في زعمهم - مصدر الطاقات والقوى. تلك هي الفلسفة التي تسود معظم مدارس الأقطار الإسلامية اليوم، من غير أن نشعر، فترى أستاذ الطبيعة أو الجغرافية مثلاً إذا سأل طالب عن حكمه الخالق في أمر من أمور العلم الذي يقرره يحوله إلى أستاذ الدين بدعوى أنه لا علاقة له بالأمور الدينية، ويتكرر مثل هذا الموقف، فيعتقد الناشئ أن التصور الإسلامي للكون لا علاقة لها بالعلوم الكونية أو الجغرافية أو حتى التاريخية، وأن مكانها هو كتب الدين فقط وزمانها هو دروس التوحيد والفقه والحديث والتفسير، وربما ظن أن هذه العلوم الإسلامية لا تفسر وقائع الكون بنفس الوضوح الذي تفسره دروس العلوم والجغرافيا التي تقتصر على القوانين الوضعية الطبيعية دون نسبتها إلى تنظيم الخالق وتربيته لسنن الكون وقواه. إن هذه الفلسفة التي تفصل الدين عن الدولة والعلم عن الأخلاق في الكيان الإنساني الواحد هي فلسفة مبيلة تدعُ الناشئ حيران لا يقين عنده ولا ثقة له بشيء،

بل تعلمه النفاق وانتحال شخصيات متناقضة متعددة. وعلاج هذه المشكلة، كعلاج سابقتها يقوم على إعادة تأليف مناهج، وكتب لسائر المعارف والعلوم من منطلق إسلامي، ولكن بشرط القيام بدورات تربوية إسلامية تدرب المعلمين والمدرسين على تحقيق هذه المنطلق في جميع جوانب التربية، والتعليم المدرسي.^(١)

٤. وثنية الشهادات والامتحانات وجعلها غاية في ذاتها: كانت الإجازة العلمية قديماً عند أسلافنا شهادة من عالم جليل يشهد بها لأحد طلابه بالقدرة على تدريس كتاب معين ويسمح له بذلك، ويكتب ما يفيد هذا المعنى: "أجزت فلاناً بتدريس الكتاب الفلاني في العلم الفلاني"، ولم تكن الإجازة تُعطى إلا بعد شعور صحيح بقدرة هذا المدرس الجديد وبعد مرافقته لشيخه مدة كافية ومناقشته لجميع قضايا الكتاب مع فهم، ويبقى المجاز بعد ذلك على صلة بشيخه، وهكذا كانت الشهادة نقطة بداية للدراسة والبحث العلمي، أما اليوم فقد أصبح الطالب يقصر همهته على نيل الشهادة، فإذا حصل عليها انتهت حياته العلمية ونسي كل شيء، وصارت قيمة الشهادة تقدر بمقدار ما تتيح لصاحبها من عمل يدر عليه الأرباح الطائلة بأقل جهد ممكن، وكأنها صكٌ يحمله المتخرج يطرق به أبواب الشركات والدوائر الحكومية ليحصل على مركز اجتماعي، ويقبض راتباً شهرياً كبيراً.

٥. تخريج موظفين آليين: هكذا صارت جامعاتنا تخرج شباباً قليلة ثقافتهم سطحياً تفكيرهم لا هم لهم إلا الوصول إلى الشهادة، لا يؤمنون بالحقائق العليمة لذاتها، ولا يستمتعون بنتائجها الفكرية والتطبيقية، إنما همهم أن يصبوا حروفاً وعبارات على ورقة الامتحان ثم ينسوها إذا تخرجوا، فإذا تسلموا عملاً في دائرة أو شركة، أصبحوا موظفين كآلة الصماء يتحركون حسب الأوامر المعطاة لهم، فاقدين كل قدرة على المبادرة والأصالة وابتكار الحلول الشخصية للمشكلات التي تعترضهم، ولا هم لهم إلا أن

(١) انظر التربية وطرق التدريس: عبد الرحمن نحلاوي وعبد الكريم عثمان ومحمد خير عرقسوسي، ص ٨٠.

يعدوا الأيام ليقبضوا رواتبهم، والأشهر أو السنوات لينتظروا علاواتهم وترفيعهم. وتحل هاتان المشكلتان باتباع أو تحقيق الأمور الآتية:

أ. تدريب الشبان في حياتهم الدراسية بمختلف مراحلها على استعمال معارفهم والعلوم والفنون التي يتلقونها في حل مشكلات مجتمعهم، أي الإكثار من البحوث والتجارب العلمية الميدانية والدورات الصيفية، يقضونها في بعض الأعمال من النوع الذي يناسب تخصصهم الفني، أو العلمي الجامعي.

ب. إيقاظ الوازع الرباني والوعي التربوي الإسلامي عند الشبان حتى يشعروا بمسؤوليتهم عن علمهم، ماذا عملوا به تجاه خالقهم يوم الجزاء، وبهذا يشعرون بأن تعلمهم في سبيل إعلاء كلمة الله عن طريق إصلاح مجتمعهم، والنهوض بواقع أمتهم الإسلامية.

ج. غرس الثقة عند الشبان، والإيمان بالكرامة التي كرم الله بها الإنسان، والاعتقاد بأن الذي يشرف الشاب هو علمه وبجته وما يتقنه من مهارات وما يقدم من أعمال مخلصاً، وأن الشهادة إنما هي رمز لاجتياز مرحلة وليست دليلاً على التأهيل لعمل، فكم من حامل شهادة أخفق في حياته، وكم من عالم نحرير شهادته مؤلفاته وأبحاثه وإخلاصه في بث العلم والعمل به، وكم من خبير طبقت شهرته الآفاق، قبل أن يحمل الشهادات العليا.

المبحث الرابع

المربي المسلم

المطلب الأول: تمهيد حول أهمية المربي:

أشار القرآن إلى دور المعلمين من الأنبياء وأتباعهم، وإلى أن وظيفتهم الأساسية دراسة العلم وتعليمه، وذلك بقوله تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} (آل عمران: ٧٩) وأشار جل جلاله إلى أن من أهم وظائف

الرسول ﷺ تعليم الناس الكتاب والحكمة وتركية الناس أي تنمية نفوسهم وتطهيرهم بقوله تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ} (البقرة: ١٢٩) وقد بلغ من شرف مهنة التعليم أن جعلها الله من جملة المهمات التي كلف بها رسوله ﷺ، قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (آل عمران: ١٦٤) ويتضح من هذه الآيات أن للمربي وظائف أهمها: التركية أي التنمية والتطهير، والسمو بالنفس إلى بارئها وإبعادها عن الشر، والمحافظة على فطرتها. والتعليم أي نقل المعلومات، والعقائد إلى عقول المؤمنين، وقلوبهم ليطبقوها في سلوكهم وحياتهم.^(١)

المطلب الثاني: صفات المربي المسلم وشروطه:

أولاً. أن يكون هدفه وسلوكه ربانياً كما في الآية: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ} أي تنتسبون إلى الرب تعالى بطاعتكم إياه واتباعكم لشريعته ومعرفتكم لصفاته، وإذا كان المعلم ربانياً استهدف من كل دروسه أن يجعل طلابه أيضاً ربانيين، يرون آثار عظمة الله ويستدلون عليها في كل ما يدرسون ويخشعون لله ويشعرون بإجلاله عند كل عبرة من عبر التاريخ أو سنة من سنن الحياة أو الكون، وبدون هذه الصفة لا يمكن للمعلم أن يحقق هدف التربية الإسلامية؛ لأن عبادة الله يجب أن تعم نظرنا إلى الكون، وأعمالنا كلها في الحياة وتفكيرنا كله.

ثانياً. أن يكون مخلصاً، وهذا من تمام صفة الربانية وكمالها، فمقصده الأول من علمه وتعليمه مرضاة الله والوصول إلى الحق وإحقاقه أي نشره. فإذا زال الإخلاص حل محله التحاسد بين المعلمين، فيصبح كل منهم يتعصب لرأيه أو طريقته، ويسود الغرور والأثرة عوضاً عن التواضع للحق وإيثاره على الهوى، وهكذا بدون إخلاص يصبح مجال التعليم

(١) انظر معالم أصول التربية الإسلامية: عبد الرحمن الأنصاري، ص ٤٣.

مسرّحاً للمهاترات أو بثّ الدعوات المغرضة أو تضليل عقول الناشئين بدعوتهم إلى مذاهب مضلّة أو مظاهر براقة كالفنّ للفنّ، والعلم للعلم، ونحو ذلك من الشعارات التي لا هدف لها. ولا مجد لهذه الأمة إلا بتربية أجيالها على تحقيق مرضاة الله وشريعته، واستهداف ذلك في كل المجالات التعليمية والتربويّة بإخلاص ينبعث من أعماق النفس عن قناعة، وأن يصبر المعلم على تحقيقه وبلوغه.

ثالثاً. أن يكون صبوراً على معاناة التعليم وتقريب المعلومات إلى أذهان الطلاب؛ لأنّ ذلك يقتضي مراساً وتكراراً وتنوعاً للأساليب ومكارهة للنفس على تحمل المشقة ولأنّ الناس ليسوا سواء في القدرة على التعلّم، فلا يستطيع المعلّم أن يُسائر هوى نفسه، فيتعجّل رؤية نتائج عمله قبل نضج المعلومات في نفس الناشئ نضجاً تصبح معه قابلة للتطبيق العملي.

رابعاً. أن يكون صادقاً فيما يدعو إليه، وعلامة الصدق أن يطبقه على نفسه، فإذا طابق علمه عمله اتبعه الطلاب وقلدوه في كل من أقواله وأفعاله، أما إذا خالف عمله ما يدعو إليه فإن طلابه يشعرون بعدم إيمانه بما يقول، وقد عاتب الله المؤمنين على عدم صدقهم فيما يقولون بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} (الصف: ٢-٣) وعدم صدق المربي، قد يعلم الرياء للطلاب بدون أن يشعر بذلك؛ لأن الطلاب يتأثرون بسلوك معلّمهم كما يتأثرون بكلامه، فهو قدوتهم في كل ما يقول ويعمل، وهو بعدم الصدق قد يسيء إلى نفوس طلابه وينحط بها بدلاً من أن يزيكها.

خامساً. أن يكون دائم التزويد بالعلم والدراسة له، وقد رأينا كيف أمر الله أتباع الرسل بأن يكونوا ربانين بتحقيق دراسة الكتاب وتعليمه، فقال: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} (آل عمران: ٧٩) وأن يكون على نصيب وافر من المعرفة بالعلم الذي يدرسه، من علوم إسلامية شرعية أو تاريخ أو جغرافيا أو لغة أو علوم كونية طبيعية أو علوم رياضية؛ لأن تعليم العلم وتبسيطه للناشئين لا يأتي إلا بعد هضمه

والتعمق في فهمه. ولأن كثرة الأخطاء العلمية عند المعلم تقلل من ثقة الطلاب بمدرسهم وتؤدي إلى استهتارهم به وبما يدعوهم إليه من الفهم، وقد يؤدي ذلك إلى شك الطلاب بما يعلمهم إياه فلا يستفيدون منه شيئاً. فيجب على المدرس المسلم أن يكون على سعة من العلم وقوة في الحافظة وعمق في الفهم، حتى يكسب احترام طلابه وثقتهم به وحتى يفيدهم الفائدة المرجوة. وأن يتفنن في تنوع أساليب التعليم، عارفاً بالأسلوب الذي يصلح لكل موقف من مواقف التدريس ومواده. فلا يكفي الإتيان العلمي؛ لأنه ما كل عالم يستطيع تبسيط معلوماته ونقلها إلى عقول الناشئين، فذلك يحتاج إلى خبرة خاصة ومران وحسن تدريب.

سادساً. أن يكون قادراً على الضبط والسيطرة على الطلاب، حازماً يضع الأمور في مواضعها، ويلبس لكل حالة لبوسها فلا يشتد حيث ينبغي التساهل، ولا يتساهل حيث تجب الشدة، وهذه من صفات القائد، فهو قائد الفصل به يقتدي الطلاب وبأمره يأتمرون. وأن يكون محبوباً من الطلاب رحيماً بهم من غير تفريط، حريصاً على مصلحتهم، يسامحهم أحياناً دون أن يترك لهم مجالاً للشطط والتراخي. وأن يكون عارفاً بأساليب العبث والشغب عند بعض الطلاب فلا تفوته، متنبهاً لكل حركات الطلاب ومقاصدهم.

سابعاً. أن يكون دارساً لنفسية الطلاب في المرحلة التي يدرسها، حتى يعاملهم على قدر عقولهم واستعداداتهم النفسية، وهذا يحصل بدراسة مراحل الطفولة في علم نفس الطفل أو علم النفس التكويني أو التربوي.

ثامناً. أن يكون واعياً للمؤثرات والاتجاهات العالمية وما تتركه في نفوس الجيل من أثر على معتقداتهم وأساليب تفكيرهم، فاهماً لمشكلات الحياة المعاصرة وعلاج الإسلام لها، مرناً كيّساً، يستمع لكل اعتراضات الطلاب واستفساراتهم وشكوكهم، فيتتبع أسبابها ويعالجها بحكمة وروية. والمعلم لا يكفيه أن يعرف الخبر فيدعو إليه، بل لا بد له أن يطلع على ما يبته دعاة الشر والكفر من الكيد لهذه الأمة لأنه يتعامل مع نفوس غضة معرضة للتأثر بالفتن والأهواء والتيارات السائدة في هذا العصر، وهي تيارات غير مؤمنة. وقد تنبأ رسول

الله ﷻ بهذه التيارات، فذكر أن أمته ستفترق بضعاً وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وأنها ستتبع اليهود والنصارى: "لتتبعن سنن من كان قبلكم شيراً بشيراً وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه"،^(١) وإنما قال الرسول ﷺ ذلك ليحذرننا مما سيقع لمعظم الناس. وأشار القرآن إلى ذلك في فاتحة الكتاب التي يقرأها المسلم كل يوم بضع عشر مرة: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} (الفاتحة: ٧)، وقد أجمع المفسرون على أن المراد بالمغضوب عليهم اليهود، والمراد بالضالين النصارى. تاسعاً. أن يكون عادلاً بين طلابه لا يميل إلى أي فئة منهم، ولا يفضل أحداً على أحد إلا بالحق وبما يستحق كل طالب حسب عمله ومواهبه، فقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالعدل بقوله مخاطباً نبيه: {وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ} (الشورى: ١٥).^(٢)

المبحث الخامس

المجتمع ومسؤوليته التربوية

تتجسد مسؤولية المجتمع الإسلامي عن تربية أبنائه في أمور وأساليب تعد من أفضل أساليب التربية الاجتماعية أهمها أن الله جعله أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (آل عمران: ١٠٤) وقال: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} (آل عمران: ١١٠) وتربية الناشئين على هذا الأساس معناه أن نصون فطرتهم الطاهرة عن التدنيس وارتكاب الأخطاء، أو عن أن تستهويهم الرذيلة لأن مجرد استحسانها سيعدهم لارتكابها إذا كبروا وأصبحوا قادرين عليها، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن من واجب الراشدين أن يغرسوا معاني الإيمان في قلوب الناشئين بشتى المناسبات، بأن يلفتوا نظرهم إلى كل ظاهرة من ظواهر الكون

(١) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم: ٣٤٥٦.

(٢) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي؛ ص ١٤٠.

الدالة على قدرة الله وعظمته، وأن يوجهوا ويهذبوا سلوكهم بآداب الإسلام، وأن ينصحوهم إذا دخلوا المسجد ويعلمونهم آدابه.

المطلب الأول: اعتبار الناشئين أبناء أو أبناء إخوة الراشدين:

جميع الناشئين في المجتمع الإسلامي هم أبناء أو أبناء إخوة لجميع الراشدين، فكل راشد ينادي أي ناشئ مسلم يا ابن أخي، وكل ناشئ ينادي أي راشد بلفظ يا عم، عملاً بقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} (الحجرات: ١٠)، وقد شعر المسلمون منذ فجر الإسلام بهذه المسؤولية المشتركة عن تعليم الناشئين، فعن أنس قال: "كنت خادماً للنبي ﷺ، قال: فكنت أدخل بغير استئذان، فجئت يوماً فقال: كما أنت يا بني، فإنه قد حدث بعدك أمر، لا تدخلن إلا بإذن، فقد علمه الرسول الاستئذان، وكان يناديه يا بني"^(١)، وهكذا نرى أن العطف على الناشئين وإشعارهم بصلة العقيدة من أهم أساليب التربية الاجتماعية في الإسلام.^(٢)

المطلب الثاني: التأديب بسخط المجتمع وتعنيفه للمسيء:

اتخذ رسول الله ﷺ المجتمع وسيلة لتأديب الرجل يؤذي جاره، فقد ورد عن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله: "إن لي جاراً يؤذيني، فقال: انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق، فانطلق فأخرج متاعه، فاجتمع الناس عليه، فقالوا: ما شأنك؟ قال: لي جار يؤذيني، فجعلوا يقولون: اللهم العنه، اللهم اخزه، فبلغه فأتاه فقال: ارجع إلى منزلك فوالله لا أؤذيك"^(٣)، وفي هذا دليل على أن النقد الاجتماعي اللاذع من أساليب التربية الاجتماعية في الإسلام، ولكن لا نلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى.

(١) الأدب المفرد: البخاري، ص ٢١٥.

(٢) انظر طرق تدريس التربية الإسلامية: عبد الرشيد عبد العزيز سالم، ص ٥٦.

(٣) الأدب المفرد: البخاري، ص ٢١٦.

المطلب الثالث: التأديب بالحرمان الاجتماعي أو الهجر والمقاطعة:

اتخذ الرسول ﷺ المجتمع بأمر من الله وسيلة لتأديب مَنْ تَخَلَّفَ عن الحرب، فأمر الصحابة بمقاطعة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك حين أعلن النفي العام، فكانت هذه التربية بواسطة الضغط الجماعي الواعي المقصود من أبلغ الوسائل وأشدّها تأثيراً في النفوس؛ وقد وصف الله تعالى بعض نتائجها النفسية وصفاً بليغاً حيث قال: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ، وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} (التوبة: ١١٧-١١٨) فأشار إلى الأثر الذي بلغه المجتمع المسلم من نفوس أفرادهِ، فأحاطها من كل جانب، حتى أن أحدهم تضيق به الدنيا عندما يقاطعه ويهجره جميع أفراد المجتمع من أجل مرضاة الله. وهكذا نرى أن الرجوع إلى أمر الله وتحكيم شريعته في تنظيم المجتمع، من أهم مصادر الروابط والتصورات والأهداف الاجتماعية، فيحق للمجتمع بل يجب عليه أن يربي الناشئين، ويؤدبهم بطلب مرضاة الله، فإذا زاغ الفرد عن هذا الهدف هجره المجتمع أو زجره أو اتخذ معه شتى الأساليب التربوية، حتى يعود إلى حظيرة الإيمان والتوبة، والندم على الخطأ والعمل بمقتضى الشريعة وآدابها. وهذا يدل على أن مؤدب الناشئين، يحق له بل يجب عليه أحياناً أن يحرم المخطئين من معاشرّة زملائهم فترة من الزمن، عقوبة وردعاً لهم حتى يشعر بندمهم وتوبتهم ورجوعهم إلى الصواب، أو يأخذ عليهم العهد بذلك، شريطة أن يعرفوا أخطاءهم، وسبب إنزال هذه العقوبة بهم، وأن يتوسم فيهم الاستفادة من هذه العقوبة، فقد ترك رسول الله ﷺ عدداً من المنافقين لم يعاقبهم على تخلفهم، وخص هؤلاء الثلاثة بهذه العقوبة، لعلمه بأنها هي الأنفع لهم، وأنهم أجدر أن يتعظوا بها.

المطلب الرابع: التربية الاجتماعية بالتعاون:

تقوم التربية الإسلامية على اعتبار المجتمع المسلم كياناً حياً واحداً، فقد شبه رسول الله ﷺ هذا المجتمع بالجسد حيث قال: "ترى المؤمنين في توادهم، وتراحهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى" (١). وعلى هذا الأساس العظيم

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم: ٦٠١١..

رغب القرآن بالتعاون، فقال تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (المائدة: ٢) تدل الآية على أن أواصر المحبة التي يقوم عليها التعاون بين أفراد المجتمع المسلم، إنما تقوم على تحقيق الخير والبر والتقوى أي الخوف من ارتكاب معصية الله أو الشرك به أو البعد عن شريعته أو الإيذاء بغير حق، ولذلك نهى الله عن أن يكون التعاون في الإثم والعدوان. وهذا ما يميز التربية الإسلامية التي تربي المواطن المؤمن على تحقيق الخير والبر والعدل دون تعصب، هذا ما يميزها عن التربية القومية التي تستهدف إيجاد المواطن الصالح، الذي يتعصب لقومه ووطنه دون أن يستهدف خيراً أو عدلاً أو يبعد شراً عن الآخرين. ومما يحقق معنى التعاون في التربية الاجتماعية الإسلامية قضاء حاجات الناس والتفريج عنهم، وستر عيوبهم ونصحهم على انفراد، إن كانت من العيوب التي يمكن تركها. عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم فرج الله عنه بما كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة" (١)، وهكذا يدرج الناشئ في مجتمع قائم على الإيثار بعيد عن الأثرة، مبني على مساعدة الآخرين من أجل الحق والخير وإدخال السرور وإبعاد الكروب. (٢)

المطلب الخامس: تربية الناشئين على الحب في الله:

تُبنى التربية الاجتماعية على أساس عواطف اجتماعية أهمها المحبة، وتنبع المحبة من تربية الأبوين للناشئ، فإن وهباه ما يحتاج من الحب والعطف، والعناية أصبح عنده استعداد لمحبة الآخرين، وإن لم يرويا عنده الحاجة إلى أن يحب، ظهر عنده الشذوذ والترم، والسخط على الآخرين. على أن التربية الإسلامية أضافت إلى محبة الأبوين ينبوعاً لا ينضب من ينابيع العاطفة الصادقة، إنها محبة الله الذي أنعم علينا، والذي يرحمنا في

(١) البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم: ٢٤٤٢. ومسلم: كتاب البر

والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم: ٢٥٨٠.

(٢) انظر من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي: كمال المرسي، ص ٤٨.

الشدائد عندما نلجأ إليه وندعوه في المحن فيكشف السوء. وعلى أساس محبة الله يحب المؤمن كل من يشاركه في الولاء لله، ومحبة الله وطاعته والانقياد لشريعته، والاعتزاز بالسير تحت لوائه، وهذا ما يسمى "الحب في الله"، وله في النفس أثر عظيم وسعادة نفسية قال فيها بعض الزهاد: "لو يعلم الملوك ما نحن فيه لحاربونا عليه"، وهذا اقتباس لطيف وتصديق واقعي لما رواه أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار).^(١) وقد جعل رسول الله ﷺ محبة قوم ثبتت نصرتهم لله، ورسوله من علامات الإيمان، وبغضهم من علامات النفاق، كما جعل مصير الإيسان يوم القيامة، مرتبطاً بمصير من يحبهم ويتعلق بهم، ويرتبط بهم برباط اجتماعي في الدنيا، ويعمل بعملهم ويذل من أجلهم. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن من عباد الله عباداً ليسوا بأنبياء، يغبطهم الأنبياء والشهداء، قيل: من هم لعلنا نجهم؟ قال: هم قوم تحابوا بنور الله من غير أرحام ولا أنساب، وجوههم نور، على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (يونس: ٦٢).^(٢) وعن أنس أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: "متى الساعة؟ قال: "وما أعددت لها؟" قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله"، قال: "أنت مع من أحببت".^(٣) وبعد الذي ذكرنا نقول: يجب على المري أن يذكر الناشئ بهذه المعاني عندما يصطحبه، أو يرسله لزيارة أخ له في الله، أو عيادة مريض، أو اجتماع على ذكر الله أو طلب العلم، وأن يبي

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم: ١٦. ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم: ٤٣.

(٢) مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم: ١٨٢٧.

(٣) البخاري: كتاب الأدب، باب علامة حب الله تعالى، رقم: ٦١٧١. مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم: ٢٦٣٩.

النشاط الاجتماعي المدرسي على هذا المعنى، وبهذا تربي تدريجياً عند الناشئين عاطفة الحب في الله فيجدون لذتها، ولا يستطيعون تركها.^(١)

المطلب السادس: حسن انتقاء الأصدقاء على أساس التقوى والإيمان:

بعد الرفاق والأصدقاء وسطاً تربوياً ذا تأثير قوي وفعال على النشء، فالطفل يؤثر في نظيره، والأنداد يميل بعضهم إلى بعض، وقد تؤثر جماعة في جماعة أخرى، فتتألف الجماعتان وترتبطان ارتباطاً وثيقاً، وقد يتوافق الأقران في الميول والاتجاهات والرغبات، فيتألفون، وفي الحديث الشريف: "الأرواح جنود مجندة ما توافقت منها ائتلف وما تنافرت منها اختلف".^(٢) وكثيراً ما يختلط الفرد بأكثر من جماعة، فله في المدرسة أصدقاء وفي الحي الذي يقطنه أصدقاء، وقد يكون له أصدقاء من أقاربه ومعارف أسرته، وقد يكون الفرد زاهداً في الأصدقاء ومنطوياً على نفسه، فلا يجد إلا أسرته وبعض من يثق بهم، وحتى تكون التربية سليمة والصدقة مفيدة يجب على الأسرة أن تنتقي الصديق الطيب الذي يصاحب ابنها، وأن تلاحظ سلوك أقرانه وتصرفاتهم، حتى تعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، وتصحح المسار إذا ما بدا انحرافهم عن الطريق السوي، وأن تكون الشريعة الإسلامية الغراء هي الفيصل في كل الموضوعات والمشكلات التي تواجه الأقران، وأن يكون أحد أفراد الأسرة مرشداً وناصحاً لهم فيما يصادفهم من مشكلات يتعذر عليهم حلها بمفردهم، وأن تتاح أمام الأقران فرصة الحوار والمناقشة، وأن تتوافر لمن يتصدى لهما قوة الحجّة والقدرة على الإقناع، حتى تكون له الغلبة عليهم بالحجة والدليل. وقد أوصانا رسول الله ﷺ بذلك، وحذرنا القرآن من قرين السوء في حوار قرآني أجراه على لسان أحد أهل الجنة يوم القيامة، قال تعالى: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ، يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ، إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ، قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ، فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ،

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ١٤٩.

(٢) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة، رقم: ٣٣٣٦.

وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ { (الصفافات: ٥٠-٥٧). وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي". (١) وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة". (٢) ينتج مما تقدم أنه لا يكفي الاعتماد على المجتمع المؤمن الذي يحيط الناشئ عادة، بل يجب تحذيره من جليس السوء، وأن نختار له مجالس الصالحين، والرفقة المؤمنة، والأنداد الذي ربوا تربية صالحة، مع إشغال مجالسهم ومجتمعاتهم بما يرضي الله ويزكي نفوسهم، وتحذيرهم مما يندس نفوسهم، أو يضيع أوقاتهم في غير ما طاعة أو فائدة علمية، أو كسب دينوي حلال، عملاً بقوله تعالى: { لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } (النساء: ١١٤). (٣)

ختاماً ننوه إلى أمر غاية في الأهمية وهو دور الإعلام في التربية: فلا شك أن للإعلام دوراً كبيراً في تشكيل خلق الإنسان منذ أن وجد على الأرض واختلف تأثيره باختلاف وسائله وطرائقه، وفي الزمن الحاضر ازداد تأثير الإعلام لتعدد وسائله، وللإعلام دور فعال في تربية الأفراد بوجه عام والصغار بوجه خاص. والعلاقة بين الإعلام والتربية علاقة قوية متبادلة؛ لذا يجب حسن استغلال وسائل الإعلام في غرس السلوك السوي والأخلاق الفاضلة، ويزداد تأثير وسائل الإعلام على الناشئ بصفة خاصة؛ لأنها حين تركز على أحد الجوانب ينطبع ويترسخ هذا الجانب في عقول الصغار بحيث يصعب انتزاعه من

(١) سنن الترمذي: أبواب الزهد، باب ما جاء في صحبة المؤمن، رقم: ٢٣٩٥. قال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٢) البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم: ٥٥٣٤. ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم: ٢٦٢٨.

(٣) انظر طرق تدريس التربية الإسلامية: إبراهيم محمد عطا، ص ٧٨-٨٥.

أذهانهم في المستقبل، وتنوع وسائل الإعلام لتشمل الإعلام المكتوب كالصحف والمجلات، والإعلام المسموع كالإذاعة، والإعلام المرئي كالتلفاز.

وخلاصة القول: إن البيت هو الأساس في عملية التربية، وإن البيت هو المصدر الأساسي لإمداد الطفل بالقيم وتزويده بالصفات الحميدة، كما أن المدرسة ذات دور مؤثر وفعال في التربية، حيث إن التلميذ يعيش مدرسيه وأقرانه فترة طويلة، كذلك يجب مراجعة المناهج الدراسية بين الحين والحين، والسيطرة على النشاطات المدرسية بالقدر الذي يحقق الهدف من التربية، وتعويد الطفل على الارتباط بالمسجد، وتشجيع الأفراد على حفظ القرآن أو ما يتيسر منه، كما لا يغيب عنا أهمية التزام وسائل الإعلام بالإطار العام الذي حدده الإسلام، والحفاظ على القيم والمبادئ الإسلامية.

الفصل الثالث

أسس التربية الإسلامية

التربية الإسلامية هي تنمية فكر الإنسان وتنظيم سلوكه وعواطفه على أساس الدين الإسلامي، بقصد تحقيق أهداف الإسلام في كل مجالات الحياة. فالتربية الإسلامية على هذا عملية تتعلق قبل كل شيء بتهيئة عقل الإنسان وفكره وتصوراتهِ عن الكون وعن دوره وعلاقته بهذه الدنيا، وعن غاية هذه الحياة المؤقتة التي يحياها والهدف الذي يجب أن يوجه مساعيه إلى تحقيقه.^(١) وقد قدم الإسلام كل هذه الأفكار في منظومة من التصورات مترابطة متينة البنيان. كما قدم لنا العقائد التي يجب على الإنسان أن يؤمن بها لكي تحرك في نفسه المشاعر وتغرس العواطف الجديرة بأن تدفعه إلى السلوك الذي نظمت الشريعة له قواعده، السلوك التعبدية الذي يحقق الهدف الذي خلق من أجله الإنسان، سواء كان هذا السلوك فردياً أم جماعياً.

فالجانب الاعتقادي من الدين يقدم لنا أساساً راسخاً من العقيدة الثابتة والتصورات الواضحة والخوافز الدافعة إلى السعي الباعثة على التفاؤل والجد والوعي. والجانب التشريعي يقدم لنا قواعد وضوابط نقيم عليها سلوكنا وننظم بها علاقاتنا. والجانب التعبدية هو سلوك المسلم الذي يحقق به كل تلك التصورات والأوامر التشريعية. وعملية التربية، هي تنمية شخصية الإنسان على أن تتمثل كل هذه الجوانب، في انسجام وتكامل، تتوحد معه طاقات الإنسان، وتتضافر جهوده لتحقيق هدف واحد تتفرع عنه، وتعود إليه جميع الجهود والتصورات.

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ٢٨.

المبحث الأول

الأسس الفكرية

المطلب الأول: مميزات التصور الإسلامي عن الإنسان، والكون والحياة:

أولاً. وضوح الأفكار التي بني عليها نظام حياة المسلم، فاعتنقها ودعا إليها على بصيرة، وآمن بها وتابع تذكرها؛ لأنها هي الضابط لجميع سلوكه وتصرفاته، والرقيب على أعماله وحياته.

ثانياً. منطقية هذه المعتقدات ومعقوليتها، وملاءمتها للفطرة العقلية والوجدانية والنفسية.

ثالثاً. تمتاز المعتقدات الإسلامية بعرضها عرضاً مقنعاً إذ يستنبطها القرآن من لفت الأنظار إلى الواقع المحسوس، للتأمل فيما حولنا وفي أنفسنا تأملاً يوصلنا إلى معرفة الله وفقاً لطبيعتنا النفسية وفطرتنا الدينية، فالباحث المنصف إذا تأمل كلام الله يلاحظ كيف يلفت القرآن نظر الإنسان إلى نفسه ليرى كيف أن الله خلقه من علق وكونه في رحم أمه أطواراً حتى تكامل خلقه، ثم وُلد لا يعلم شيئاً، فشب حتى أصبح خصيماً مبيناً.

رابعاً. ولو تساءل الإنسان لماذا اتخذ القرآن هذا الأسلوب الاستجوابي الحسي العاطفي الذي يخاطب العقل والوجدان، عندما كرر آيات الله في الآفاق، وفي أنفسنا؟! لأجابنا القرآن بأنه لم يقصد بهذه الصور التي رسمها لنا عن الكون والإنسان وكرها ونوع أساليب عرضها في مواطن عديدة، لم يقصد مجرد المعرفة الثقافية ولا مجازة الثقافات الأخرى ليثبت تفوقه المنطقي وقدرته البلاغية عليها فحسب، بل أراد أن تتحول هذه المعرفة إلى حركة فكرية وعاطفية، ثم إلى قوة دافعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع أي لكي نحقق عبوديتنا لله الذي ما جعل هذه الصور الكونية إلا تذكراً لمن يخشى، حتى نتجه إلى العبادة وإعمار الكون، وتحقيق عدل الله وشريعته في الحياة. وأراد من عرض آياته في الآفاق أن ترجع البشرية إلى ربها، وإلى منهجه الذي أراد لها، وإلى الحياة الرفيعة الكريمة التي تتفق مع الكرامة التي كتبها الله للإنسان، والتي تحققت في فترة من فترات التاريخ، على ضوء هذا

التصور، عندما استحال واقعاً في الأرض يتمثل في أمة تقود البشرية إلى الخير والصلاح والنماء.^(١)

المطلب الثاني: نظرة الإسلام إلى الإنسان:

من الثابت في علم النفس أن نظرة الإنسان إلى نفسه من أقوى المؤثرات في تربيته، فما زال الإنسان منذ وُجد مأخوذاً بسوء الفهم لنفسه يميل إلى جانب الإفراط حيناً، فيرى أنه أكبر وأعظم كائن في العالم، وينادي بذلك وقد امتلأ أنانية وغطرسة، كما نادى قوم عاد: {وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} (فصلت: ١٥)، وكما نادى فرعون في قومه: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي} (القصص: ٣٨) ويربأ بنفسه أن يعتقد أنه مسؤول أمام أحد، ويتحول إلى متأله يستهدف القهر والجبروت والظلم والطغيان.^(٢) ويميل إلى جانب التفريط حيناً آخر، فيظن أنه أدنى كائن في العالم، فيطأطئ رأسه أمام كل شجر أو حجر أو حيوان، ولا يرى السلامة إلا في أن يسجد للشمس والقمر والنجوم والنار، وما إليها من الموجودات التي يرى فيها شيئاً من القوة أو القدرة على ضرره أو نفعه. وقد عرض الإسلام الإنسان على حقيقته وبَيَّن أصله وما فضل به، ومهمته في الحياة، وقابليته للخير والشر.

أولاً. حقيقة الإنسان وأصل خلقه: ترجع حقيقة الإنسان إلى أصلين: الأصل البعيد: وهو الخلقة الأولى من طين حين سواه الله ونفخ فيه من روحه، والأصل القريب: وهو خلقه من نطفة، وإيضاح هذين الأصلين معاً قال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} (السجدة: ٧-٩) ولفت القرآن نظر الإنسان إلى حقارة ذلك الماء الذي خلقه منه في رحم أمه،^(٣) ليندد بغطرسته فيجعله

(١) انظر خصائص التصور الإسلامي ومقوماته: سيد قطب، ص ٨-٩.

(٢) انظر الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها: أبو الأعلى المودودي، ص ١١.

(٣) فهو ماء مهين وماء دافق. قال تعالى: {مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ} (السجدة: ٨) وقال: {خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} (الطارق: ٦-٧)

متواضعاً واقعياً في حياته، ثم بين له عناية الله به في ظلمات الرحم حينما أنشأه جنيناً حتى أتم خلقه: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} (الزمر: ٦) وذلك ليشير عنده عاطفة الشكر للخالق والخشوع لله، فكان من نتيجة هذه التربية القرآنية، دعاء الرسول ﷺ في السجود: "سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين".^(١)

ثانياً. الإنسان مخلوق مكرم: وفي مقابل ذلك كله، بين الإسلام للنوع البشري أنه ليس من الذلة والمهانة في درجة يتساوى فيها مع الحيوان والجماد وغيرها، فقال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} (الإسراء: ٧٠)، رزق الله الإنسان قدرة جعله بها يسيطر على ما حوله من الكائنات وسخرها الله له فمنعه من أن يذل نفسه لشيء منها، وجعله آمناً من كل المخاوف إزاء هذه الكائنات، بل أشعره بأنها طوع يده مسخرة لمصلحته، وهذه خطوة تربوية ربانية يُعوِّدُ بها القرآن الإنسان على الشعور بالكرامة، ويُشعره في الوقت ذاته بفضل الله، فإذا ركب شيئاً مما سخر الله له ذكر قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} (الزخرف: ١٣-١٤).

ثالثاً. الإنسان مميز مختار: مما كرم الله به الإنسان، أن جعله قادراً على التمييز بين الخير والشر، فألهم الله النفس الإنسانية فجورها وتقواها، وغرس في جبلتها الاستعداد للخير والشر، وجعل عند الإنسان إرادة يستطيع بها أن يختار بين الطرق المؤدية للخير أو الطرق الموصلة إلى الشقاء، وبين له أن هدفه في هذه الحياة أن يترفع بنفسه عن سبل الشر، وأن يزكي نفسه أي ينميها ويطهرها ويسمو بها نحو الفضيلة، قال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (الشمس: ٧-١٠) ولعن الله تعالى قوماً دعاهم غرورهم إلى أن يكذبوا بهذه الحقيقة، فزعموا أن النفس الإنسانية لا تطغى، قال تعالى في تمام الآيات السابقة: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا، إِذِ انْبَعَثَ

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم: ٧٧١.

أَشْقَاهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا، فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا { (الشمس: ١١-١٤) فكان جزاء طغيانهم أن سوى الله بهم وبمدينتهم الأرض؛ لأنهم اختاروا طريق الشر، ومعصية الله ورسوله.

رابعاً. ومما كرم الله به الإنسان وفضله: أن وهبه القدرة على التعلم والمعرفة، وزوده بكل أدوات هذه القدرة، قال تعالى: { أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } (العلق: ٣-٥) وقال: { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا } (البقرة: ٣١-٣٢) أما أدوات القدرة على التعلم، فمنها السمع والبصر والفؤاد، فالسمع معناه إحرار المعرفة التي اكتسبها الآخرون، والبصر معناه تنميتها بما يضاف إليها من ثمرات الملاحظة والبحث، والفؤاد معناه تنقيتها من أدرانها ثم استخلاص النتائج منها، وهذه القوى الثلاث إذا تضافرت نجمت عنها المعرفة التي من الله بها على بني آدم، والتي بها وحدها استطاع الإنسان أن يسخر سائر المخلوقات لإرادته.^(١) وندد الله بالذين لا يستفيدون من سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم، فقال: { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ } (الأعراف: ١٧٩) ومن أهم أهداف التفكير والتعلم عند الإنسان أن يتعلم الناس شريعة الله وأن يتفكروا في خلق السموات والأرض وفي أنفسهم، قال تعالى: { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } (الذاريات: ٢١) وقال: { أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ } (الغاشية: ١٧) تدل الآيات على أن الله خلق لنا السمع والبصر والفؤاد لتفكر ونلاحظ ما حولنا، ثم نمحص ذلك بعقلنا لنستخدم ما سخر الله لنا، أي لتربي تربية علمية على الملاحظة والمناقشة والاستنتاج والتفكير، فنجمع أكبر قسط من المعرفة وحينئذ نظفر بميزة الزعامة على الإنسانية كما ظفر بها أسلافنا، ثم أضعناها لأننا تركنا الاستفادة الحقة من سمعنا وأبصارنا وأفئدتنا كما يريد الله منا.

(١) انظر المنهج الإسلامي الجديد: أبو الأعلى المودودي، ص ٤٥.

خامساً. مسؤولية الإنسان وجزاؤه: لم يكتف الإسلام بتكريم الإنسان وتفضيله على الكائنات، بل حمّله مقابل ذلك مسؤولية عظيمة وكلفه بتكاليف كثيرة ورتب عليها الجزاء. حمّله مسؤولية تطبيق شريعة الله وتحقيق عبادته، تلك المسؤولية التي أبت سائر المخلوقات أن تحملها وأشفقت من حملها، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} (الأحزاب: ٧٣) وكما جعل الله للإنسان حرية، وإرادة وقدرة على التمييز بين الخير والشر، كذلك جعله مجزياً يوم القيامة بما اختار من خير أو شر. قال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} (الزلزلة: ٧-٨) وكذلك جعل الله الإنسان مسؤولاً عن سمعه وبصره وجميع جوارحه، فلا يجوز له أن يستعملها إلا في الخير، وهذا الشعور بالمسؤولية يربي في نفس الإنسان الوعي واليقظة وعدم الاستسلام للأهواء، والعدالة والبعد عن الظلم، والاستقامة في كل شؤون الإنسان، وكذلك قرر رسول الله ﷺ مسؤولية الإنسان عن ماله وعن عمره وعن شبابه وعن علمه. وجماع كل هذه المسؤوليات، مسؤولية الإنسان عن عبادة الله وتوحيده أي إخلاص العبادة له وحده، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات: ٥٦).^(١)

المطلب الثالث: نظرة الإسلام إلى الكون:

تتماز نظرة الإسلام إلى الكون بأنها ليست نظرة عقلية محضة، ولكنها تعمل على تحريك عواطف الإنسان وشعوره بعظمة الخالق وبضرورة الخضوع له، إلى جانب البراهين العقلية القاطعة على وحدانية الله وألوهيته.

أولاً. فالكون كله مخلوق لله خلقه لهدف، وما كان العبث باعثاً على الخلق. قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (الدخان: ٣٨-٣٩) وأما تحريك عواطف الإنسان فبالاستفهام والحض على

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ٣٨.

العبادة وتوحيد الله بعد تأمل مخلوقاته، قال تعالى: {الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون، قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون} (الزمر: ٦٢-٦٤) ولهذه النظرة الإسلامية إلى الكون آثار تربوية منها:

١. ارتباط المسلم بخالق الكون وبالهدف الأسمى من الحياة، وهو عبادة الله.
٢. تربية الإنسان على الجدية، فالكون كله وجد لهدف معين وإلى أجل مسمى عند الله، وليس العبث من شأنه تعالى، وهذا يعلم الإنسان أن يبحث عن غاية كل ظاهرة من ظواهر الكون، وأن يبعد تفكيره عن اللهو والعبث، وأن يكون تأمله لهذا الكون تأملاً منطقياً علمياً، ولتحقيق هذا واستكمال له لفت القرآن نظر المتأمل إلى أمرين آخرين غير الجدية والغاية، سنراها في الفقرتين التاليتين:

ثانياً. خضوع الكون لسنن سننها الله وفق أقدار قدرها، قال تعالى: {وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} (يس: ٣٧-٤٠)، فدورة الشمس والقمر في فلك لا يحيدان عنه وفي مواسم لا تتخلف، كل ذلك يجري حسب سنن كونية سننها الله ومقادير قدرها. وكذلك جميع الأحياء التي على الأرض جعل الله لها معاش مقدرة مقننة ما ينزلها إلا بقدر معلوم. وقد علم الله الإنسان الحساب بتكرار الليل والنهار وتقدير الفصول الأربعة والأشهر القمرية. وما يزال الإنسان يضبط أوقاته على هذا الميقات الرباني. ومما تقدم نجد أن القرآن ربي عقل المسلم على مبدئين آخرين علميين غير مبدئي السببية والغائية والتفكير الجدي المنطقي هما:

١. تكرار حوادث الكون حسب سنن سننها الله لها، هو وحده يملك أن يغيرها، وهذا هو المبدأ الذي بنيت عليه اليوم جميع القوانين العلمية وهو أساس التفكير العلمي، الذي به اكتشف الإنسان واخترع كل مظاهر الحضارة.

٢. إن سنن هذا الكون وجميع ظواهره وكائناته من أصغر ذرة إلى أكبر جرم قد خلقها الله وسيرها بقدر معلوم، لا يزيد ولا ينقص ولا يتعدى شيء فيه فيحتل توازنه، ومن هذه المبادئ التي استوحاها علماء المسلمين من القرآن، وارتقوا بها في العلوم الطبيعية استقت أوروبا مبادئ التفكير العلمي ووحدة قوانين العلم الحديث، وهذا هو المبدأ الثاني من مبادئ المنطق العلمي وهو إقامة الملاحظة العلمية على أساس القياس الكمي لا على أساس الوصف الكيفي، إنه المبدأ الذي يربي العقل على الدقة ليأخذ كل شيء بمقياس.

ثالثاً. الكون مسير ومدبر دائماً بقدره الله: فالله الذي رتب سنن الكون بقي وما زال قائماً على تسييره وتدبير أمره، يمدّه بقوته، قال تعالى: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ} (السجدة: ٥) والإنسان جزء صغير من هذا الكون، فلا جرم أنه خاضع في كل شؤونته وحياته وموته، لتقدير العزيز العليم، ولسنن سننها الله.

رابعاً. كذلك الإنسان فقد رتب الله سنناً اجتماعية لحياته، فأرسل على أساسها الرسل وعذب الأمم وأهلك بعضها، ورتب آجالها وغير أحوالها. قال تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} (آل عمران: ١٣٧) وقد تأثر، بل توجه ابن خلدون بهذه السنن الاجتماعية المذكورة في القرآن عند وضع معظم نظرياته الاجتماعية، بل وضع أساس علم الاجتماع في مقدمته المشهورة.

خامساً. الكون كله قانت لله: مما سبق ينتج معنا أن كل ما في الكون خاضع لله، قال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (البقرة: ١١٧) إذا كانت كل الكائنات والجمادات تخضع لبارئها وتشهد بعظمته فأجدر بالإنسان العاقل المفكر أن يعترف لربه بالنعمة ويستشعر عظمته، وهذا من أهم النتائج التربوية الناجمة عن عرض الإسلام للكون ولخصائصه، بهذا الأسلوب التربوي.

سادساً. كل ما في الكون مسخر للإنسان زاهر بالنعمة: يمتاز الدين الإسلامي، بأنه جعل الإنسان يستخدم ما حوله من الكائنات وقوى الكون، ولفت نظره إلى أنه مسلط عليها

بإذن الله وأن الله قد سخرها له، من أكبر الأجرام التي تؤثر في حياته كالشمس، إلى أصغر الكائنات التي يستطيع الاستفادة منها كالنحل. قال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} (إبراهيم: ٣٢-٣٤)، هذه الآية وكثير أمثالها، ترقق قلب الإنسان وتربي عواطفه، وتجعله يخشع لله ويستشعر فضله وعنايته ورحمته، وتدفع الإنسان إلى حمد الله وشكره، وهي تربي العقل على مبدأ علمي عملي، كان آخر ما اهتدى إليه الفكر الغربي، هو مبدأ التقنية واستخدام القوانين العلمية وقوى الكون لرفاهية الإنسان. هذا من الناحية العلمية والاجتماعية والحضارية، أما من الناحية التربوية، فقد ربانا القرآن التربية التي لا يطغى فيها الإنسان ولا يتجاوز حده في استخدام هذه الأمور، فلا يفسد ماء الأنهار، ولا يقتل كائنات البحار، ولا يسفك الدماء، ولا يظلم أخاه الإنسان. والتربية الإسلامية هي التي ضمنت هذا الجانب، فالإنسان، تحت رايته، إنما يستخدم ما سخر الله له باسم الله وفي حدود شريعته، فإذا ذكر الإنسان اسم الله على كل سلوكه، وتصرفاته وعلى كل ما يستخدمه أصبح سلوكه مثالياً، وامتنع عن كل بغي، وعدوان وإفساد وبهتان. (١)

٢

المطلب الرابع: نظرة الإسلام إلى الحياة: (٢)

تختلف التربية باختلاف نظرة المربين إلى الحياة، من تفاؤل إلى تشاؤم إلى شعور بالمسؤولية، لذلك لا بد من توضيح أهمية الحياة، ودورها في الإسلام.

أولاً. مبدأ الحياة وكيف جعلها الله دار اختيار وامتحان: نظر الإسلام إلى الحياة نظرة جدية ملؤها الشعور بالمسؤولية، ومنذ مبدأ الحياة البشرية ميّز الله الإنسان عن الملائكة وسائر المخلوقات بميزتين: الأولى العلم والعقل والإرادة والاختيار والتمييز بين الخير والشر. والثانية: أنه مخلوق من طين ثم من دم ولحم، وأنه تبعاً لذلك مجبول على الشهوات

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي؛ ص ٤١.

(٢) انظر التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها: عاطف السيد، ص ١٥ وما بعدها.

والدوافع الغريزية، وما يتفرع عنها من الجهل والقتل والإفساد والطمع. قال تعالى: {وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} (العصر: ١-٣) {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} (البقرة: ٣٠) {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا} (المعارج: ١٩-٢٠) وفيه معنى غريزة الطمع وحب التملك، والانقياد، والتسرع وعدم الصبر. وقد جمع الله للإنسان هاتين المجموعتين من المميزات والصفات الإنسانية المتقابلة، وجعل عنده مقابل كل صفة من هذه النقائص قدرة عقلية على الضبط والاعتدال والخوف من الله وعبادته، وفي مقابل ذلك كله، ولكي ندرك كمال التصور القرآني للنفس والكون والحياة، وترابط هذه التصورات وتكاملها، نتأمل وصف القرآن للحياة، فنجد أن الإسلام قد جعل هذه الحياة الدنيا دار امتحان، يمر بها الإنسان ليصل إلى الآخرة، وهي حياة دائمة لا موت بعدها، فهناك الحساب، فإما نعيم أبدي وإما عقاب وعذاب. ولكن فيم يمتحننا الله، وما الهدف الذي يجب علينا أن نحققه؟

ثانياً. بدء الامتحان، والاختبار الإلهي لأول البشر: منذ البداية الأولى لحياة الإنسان ابتلى الله عبده آدم، وكلفه بالامتناع عن الأكل من شجرة عيَّنها له في الجنة، وسلط عليه إبليس فوسوس له وزين له معصية ربه، حتى عصى ربه، وعاقبة ربه فأهبطه من الجنة، ونشأت العداوة بين إبليس ونسله وبين آدم وذريته، وتاب الله على آدم وهداه وأنزل عليه وحياً وشريعة له ولذريته. وبدأ الامتحان منذ ذلك الوقت، وما يزال كل أبناء آدم يمتحنون، واستمر الصراع في نفس الإنسان بين الخير والشر، بين الإيمان والكفر، بين أتباع الهوى وأتباع الشريعة، بين إبليس وأتباعه وبين الرسل والأنبياء وأتباعهم. حتى ختم الله الشرائع والأديان، بهذه الشريعة الإسلامية، وتعين على جميع البشر أن يتبعوها. وقد لخص الله لنا هذا الصراع الطويل بنداءات وجهها إلى بني آدم، منها قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَائِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ} (الأعراف: ٢٧) ثم يصف الله لنا نتيجة المفتونين ونتيجة الناجين الذين استجابوا لربهم، فأدخلهم الجنة، والحوار الذي دار بينهما.

ثالثاً وصف القرآن للحياة الدنيا: الدنيا متاع مؤقت يستمتع به الإنسان فليس له أن يجعلها هدفاً وغاية له، فيغتر بها وينسى الهدف الذي خلق من أجله، وأن الآخرة هي دار البقاء وأن الدنيا هي دار الفناء. قال تعالى: {أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ} (التوبة: ٣٨) من هذه الآية وعشرات الآيات الأخرى في هذا الموضوع نأخذ أهم صفات الحياة الدنيا، وعلاقة الإنسان بها فهي:

١. متاع مؤقت ومكان عبور، ووسيلة إلى الآخرة، ولا يجوز اتخاذها غاية.
٢. الدنيا مملوءة بالزينة والزخرف والشهوات والملذات، وهذا من تمام الابتلاء والاختيار.
٣. يجوز للمسلم، بل يحق له أن يستمتع بالحياة الدنيا وزينتها في حدود الشرع، ويشترك بها مع غيره من الكفار والملحدين، ولكن بشرط إلا تلهيه عن طاعة الله، أي يجب عليه أن يبتغي بها الدار الآخرة، وأن يسخرها في طاعة الله، فيستمتع بالمال ليؤدي زكاته، ويستمتع بالولد، ليربيه على طاعة الله وشريعته، وهكذا.
٤. الدنيا عالم له قوانينه الاجتماعية والبشرية التي سنّها الله بين الشعوب والأمم، فمن سعى في الدنيا استوفى نتيجة سعيه في الدنيا، ومن سخر الدنيا لإرضاء الله ربح في الدنيا والآخرة.

٥. الحياة الدنيا قصيرة الأمد، لا تعدو أن تكون ساعة أو يوماً من أيام الآخرة، وهي دار تعب، وكدح وجد، ولعب ولهو، وتفاهر وتكاثر.

٦. وهكذا نجد أن هذه الصفات التي وصف الله بها الحياة تدعو المسلم إلى أمور وتُرِيّه على عادات أهمها:

أ. ألا يغتر بها ويغفل عن الهدف الذي أوجدت من أجله بل يحاسب نفسه، ويعمل فيها على أنها دار امتحان مؤقت.

ب . ألا يحرم نفسه من خيراتها، بل يتمتع بها على أن يحقق بهذا التمتع عبوديته لله، ويستهدف من وراء كل متعة إرضاء الله. وأن يصبر على بلواء الحياة لأنه عرف مسبقاً أنها دار ابتلاء، فلا ييأس ولا يتذمر بل يصبر.

ج . أن يجند الفرد والمجتمع كل عدته لمنازلة أعداء الفضيلة والخير، من الجن والإنس، وأن يعلم أن الله ينصر المؤمنين إن هم حققوا إيمانهم في سلوكهم، وأخذوا بأسباب القوة كما أمرهم الله.

المبحث الثاني

الأسس التعبدية

المطلب الأول: تمهيد في معنى العبادة:

لكل نظام فكري يراد له البقاء، رياضات وأساليب سلوكية تغلب عليها في هذا العصر الصفة الجماعية، وتكون عادة مصحوبة بجهود وحركات جسمية منظمة يؤدونها جماعات جماعات، كل جماعة بحسب عمرها وثقافتها، وذلك ليواكبوا بين انطباعات الإنسان النفسية والفكرية وبين طاقاته الجسمية، اعترافاً منهم بأن الكائن البشري وحدة لا تتجزأ، بجسمه وعقله وروحه. بيد أن الإسلام قد سبق إلى هذا الاعتبار، وأوجد تكاملاً تربوياً لم يتوصل إليه أي نظام من هذه الأنظمة، فبينما تبدو رياضات اليوم وتجمعات الناس نوعاً من العبث وإضاعة الوقت، ليس بينها وبين الفكر والمنطق والفطرة النفسية رابط حقيقي، تظهر لنا العبادات الإسلامية أعمالاً تعبدية ورياضيات روحية ترتبط بمعان سامية، وتقوم بتنظيم حياة المسلم اليومية بالصلاة، وحياته الغذائية السنوية بالصوم، وحياة المجتمع المسلم الاقتصادية المتكافلة بالزكاة، كما تقوم بتنظيم وإحياء وحدة المجتمع الإسلامي الكبير وتمتين الروابط والمشاعر الاجتماعية للأمة الإسلامية كلها في شتى أصقاع الأرض بالحج. يكمن السر في هذه العبادات في أنها ترتبط بمعنى واحد، هو العبودية لله وحده، وتلقي الأوامر منه وحده في أمري الدنيا والآخرة، قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}

(الأنعام: ١٦٢-١٦٣) وما هذه الساعات أو الأيام التي تشغلها العبادات في حياة المسلم، إلا تذكيراً بهذه الصلة الدائمة بالله، وترويضاً للنفس على الخضوع الدائم لأوامر الله.

١

المطلب الثاني: الأثر التربوي للعبادة: (١)

أولاً. تعلمنا العبادات في الإسلام الوعي الفكري الدائم، فلا تُقبل العبادة إلا إذا اتصفت بشرطين: أولهما إخلاص النية لله، وثانيهما الإتيان بالطاعة على الشكل والأسلوب الوارد بالشرع، ثم الاستمرار على هذين الشرطين حتى تنتهي العبادة، وما دامت كل أعمال المسلم عبادات يقصد بها وجه الله، فإن هذا الوعي الفكري يجعل المسلم إنساناً منطقياً واعياً في كل أمور حياته، منهجياً لا يقوم بعمل إلا ضمن خطة ووعي وتفكير.

ثانياً. تربي العبادات المسلم على الارتباط بالمسلمين حيثما كان ارتباطاً واعياً منظماً متيناً مبنياً على عاطفة صادقة، وهو ليس طاعة عمياء للمجتمع. إن الأعمال التعبدية التي يأتيها المسلم مع المسلمين تكسبه لذة الشعور بقوة الجماعة إلى جانب لذة المناجاة الفردية، والشعور بقوة الذات المسلمة التي تستمد قوتها من خالقها بالدرجة الأولى، فإذا انفرط عقد المسلمين أو منعوا من الاجتماع لسبب طارئ، عادوا إلى التجمع من جديد على أساس عقيدتهم، لعلمهم بأن عباداتهم منفردين لا تكون كاملة ما داموا قادرين على التجمع.

ثالثاً. تربي العبادة في الإسلام النفس المسلمة على العزة والكرامة، هذه المعاني وأمثالها يرددها المسلم دائماً في عباداته اليومية والسنوية، فإذا استيقظت وعاشت في نفوس المجتمع المسلم وفي حياة أفرادهم وعلاقتهم، استقام كل إنسان، فلا ظلم ولا استعلاء ولا استغلال، ولا استعباد، ولا تفريق بين الطبقات.

(١) انظر منهج التربية الإسلامية: محمد قطب، ٣٩-٤٠. وانظر التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها: عاطف السيد، ص ١٩ وما بعدها.

رابعاً. يؤدي المسلمون عباداتهم في جماعة واحدة، فإذا فرغوا تعارفوا وتناصحوا وتشاوروا، قبل أن ينفضوا من اجتماعهم. كل ذلك يعلم المسلمين الحياة القائمة على المساواة أمام القانون لأنهم متساوون من حيث المبدأ أمام الله، كما أن العبادة تربيههم على العدالة في المعاملة بإعطاء كل ذي حق حقه، وحقه في المجتمع هو العمل اللائق به وبقدراته بغض النظر عن نسبه.

خامساً. تربي العبادة في الإسلام عند المسلم قدراً من الفضائل الثابتة المطلقة التي لا تقف عند حدود الأرض أو القوم، ولكنها تعم التعامل مع البشرية جمعاء، فالمسلم هو المسلم بأخلاقه وإنسانيته حيثما حل؛ لأن ربه واحد يراقبه حيثما كان.

أما غير المسلم فإنه قد لا يسرق ولا يكذب ولا يغش، ولكن ذلك كله يكون منه في حدود منطقته، أما إذا انتقل خارج حدوده فهنا تفجّعك منه أخلاق لم تعهدها منه أنانية بغیضة وجشع وغش وخداع، وربما قتل الناس ونهب أموالهم: قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر... وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر...! وفي هذا خير مثل على الفارق الحاسم بين منهج التربية الإسلامية والمناهج غير الإسلامية، وفيه أوضح دليل على عظمة منهج الإسلام التربوي حين يقيمه الإسلام على أساس عبادة الله بمعناها الواسع الشامل، وعلى أساس الصلة الدائمة بالله، لا على أساس الأمور الوضعية البشرية والاعتبارات الأرضية الدنيوية.

سادساً. التربية على أساس العبادة تزود الإنسان بشحنات متتالية من القوة المستمدة من قوة الله، والثقة بالنفس المستمدة من الثقة بالله. هذه الشحنات تدفع المسلم دائماً إلى الإمام. يحرص الإسلام على استمرار هذه الشحنة الحية التي تنير له الطريق في أصعب الظروف، فينهض كلما تعثر، حتى يقصد عبادة الله في كل أعماله، ومعاملاته. والإسلام صريح في اعتبار العمل هو العبادة، ما دام القلب يتجه فيه إلى الله، هذا هو منهج العبادة الذي يرسمه الإسلام ويقيم عليه منهجه التربوي مشروطاً فيه الصدق مع الله وتقواه، أي الصلة الدائمة به.

سابعاً. إن تربية المسلم بالعبادة تجدد نفسه باستمرار، لا بما تمنحه العبادة من شحنات النور والقوة والعاطفة فحسب. بل بالتوبة التي تزيل عن قلبه وتصورات ما قد يعلق بهما من أدناس، وتمحو من جوارحه أثر ما قد يكسب من آثام. واكتساب الإثم يعني انحراف الإنسان عن طاعة الله، والتوبة هي الرجوع عن ارتكابه والعزم على تركه وأن يستبدل به عملاً صالحاً؛ وهي جزء من العبادة لأنها تقوم على تذكر رقابة الله، هذا التذكر يدعو إلى الندم على التفريط في جنب الله.

إن التوبة عبادة يومية ندب إليها رسول الله ﷺ، فقد كان يستغفر بعد كل فريضة وكان يستغفر كل يوم سبعين مرة. وقد أمر بها القرآن قال تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (النور: ٣١). وقد ثبت لدى علماء النفس أن التوبة تشفي كثيراً من الأمراض النفسية لأنها تعين على إعادة تكوين الإنسان مع نفسه ومع مجتمعه، كما أنها تربي المجتمع على التسامح بين أفراده، كان أبو بكر قد أقسم ألا يعود إلى إعطاء مسطح الذي روج حادثة الإفك، وألا يتصدق عليه بعد ذلك، وكان قبل ذلك يتعهده بالصدقة، فنزلت آيات في حق أبي بكر وأمثاله جعلتهم ينادون: بلى نحب أن يغفر الله لنا، وعفى وصفح عمن تكلم في عرض ابنته.

المبحث الثالث

الأسس التشريعية

الشرع هو بيان العقيدة التي يجب الإيمان بها وعبادة الله على أساسها وإصدار الأوامر والنواهي التي تحقق ذلك كله، وهو من خصائص الله تعالى، وكل من شرع لنفسه أو أطاع غيره في غير ما شرع الله فقد أشرك مع الله إلهاً آخر، وفي هذا المعنى يقول تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ} (التوبة: ٣١).

١

المطلب الأول: أثر الشريعة في تربية الفكر: ()

الشريعة الإسلامية أساس عظيم من أسس التربية الإسلامية، فهي بمعناها القرآني الواسع بيان للعقيدة، وللعبادة، ولتنظيم الحياة، ولتحديد تنظيم جميع العلاقات الإنسانية.

() انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ٥٥.

أولاً. فهي أساس فكري تشمل التصورات الفكرية عن الكون والحياة والإنسان، وعلاقة المسلم بذلك كله. وهي بهذا ترسم للمسلم صورة متكاملة ليتصور علاقته بالكون، وليعرف مصيره وقيمه، ووظيفته، وهدفه، وهي بهذا تصوغ عقل المسلم صياغة خاصة، تجعل قدرته على العطاء أعظم من طاقاته، وأمله أوسع من إمكانياته.

ثانياً. تقدم للمسلم نظاماً سلوكية تجعل حياته مثلاً للدقة، والنظام والأمانة، والخلق الرفيع، والمنهجية، والوعي السليم، والتفكير في كل ما يعمل أو يريد عمله قبل الإقدام عليه، وهذا يربي عند المسلم عادة عظيمة ومفيدة، هي أن يفكر دائماً قبل أن يعمل، وأن يكون هادفاً ومتقناً، ومنتجاً في كل ما يعمل.

ثالثاً. تربي الشريعة الإنسان على التفكير المنطقي عن طريق استنباط الأحكام، غير أن أحكام الشريعة بعمومها وشمولها لم توضع لعلاج مواقف فردية أو حالات جزئية بخصوصها، بل وضعت ليُستفاد منها في كل العصور، ولذلك قال العلماء: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب". ومن ذلك كانت مرونة الشريعة الإسلامية وحيويتها وقدرتها الدائمة على العطاء؛ ومن هذه المرونة نشأت مرونة عقل المسلم وقدرته النادرة على حسن المحاكمة والاستدلال لأنه يتعلم ذلك منذ أن يحفظ في طفولته آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ ويفهمها، فيفكر في تطبيقها على واقعه، فإذا كانت الآية أو الحديث قاعدة عامة حصل القياس، أو ما يسميه المناطق بالاستنتاج، وقام به العقل دون تصنع أو عناء.

رابعاً. الشريعة تخرج شعباً متحضراً حضارة راقية: فهم الشريعة الإسلامية يحتاج إلى تعلم القراءة والكتابة، وإلى تلاوة القرآن وتدبر أحكامه ومعانيه، وإلى تعلم الحساب لعلم الفرائض، والتاريخ لفهم السيرة وآيات الجهاد، وإلى معرفة جغرافية الجزيرة العربية وغيرها لمعرفة مواطن الأقوام البائدة. وقد حض القرآن على التفقه والتعلم، قال تعالى: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} (التوبة: ١٢٢) جمعت هذه الآية مطلبين: التعلم والتعليم، فكان من خصائص هذه الشريعة توسيع الآفاق الفكرية، والحض على طلب العلم وجعلته فريضة، فبلغت

الأمة الإسلامية درجة من الحضارة العلمية لم تبلغها آنذاك أمة غيرها. وكانت الشريعة الإسلامية، والرغبة في فهمها وتطبيقها هي المنبع الذي انبجست منه كل هذه العلوم، هذه بعض الخصائص الفكرية للشريعة الإسلامية، وهذه أهم نتائجها في تربية عقل المسلم:

١. على الشمول فهو ينظر إلى نفسه وحياته نظرة كلية متعلقة بتصوره الشامل لهذا الكون، ولجميع جوانب الدنيا والآخرة، كما علمه القرآن.
٢. وعلى الوعي الفكري لكل ما يعمل أو يقول أو يريد أو يكتب.
٣. وعلى التفكير المنطقي، والقدرة على المحاكمة والاستنتاج، والاستقراء كما علمه القرآن.
٤. وعلى الرغبة في التعلم والوصول إلى الحقائق العلمية، مما يؤدي إلى مجتمع ذي حضارة فكرية، ونظم تعليمية وتربوية لم توجد عند غيره. وهنا لا بد أن نبحت في الأثر المباشر للأحكام الشرعية، وإحاطتها بحياة الفرد، وحياة المجتمع، وما تركت فيهما من توجيه سليم، وما رسمته من أطر وخطوط كبرى لحياة آمنة مستقرة، قائمة على العدالة ينشأ في ظلها الفرد، ويتعايش بل يتراحم، على أساسها المجتمع.

١

المطلب الثاني: أثر الشريعة في تربية الخلق: (١)

الشريعة الإسلامية لها جانب تربوي يتضح في أسلوبها حين تعرض على طريق الترغيب والترهيب، أو أخذ العبرة من التاريخ، أو الحض على التقوى، لذلك نجد كثيراً من الأحكام يعللها القرآن بالتقوى أو التطهير أو التزكية، وللشريعة جانب تطبيقي يتجلى في الأمر والنهي، والحدود والعقوبات، والبيع والزواج وغير ذلك كثير.

أولاً. الشريعة ضابط خلقي للفرد: عندما تتمكن تعاليم الشريعة من نفس الفرد تصبح بمثابة ضابط خلقي يحاكم المرء نفسه إليه إذا وقف أمام أمور مشتبهاة، كبعض أساليب البيع والشراء ونحو ذلك، والضابط الخلقي هنا غير الوازع الديني، فالوازع يبعدك عن

(١) انظر طرق تدريس التربية الإسلامية: عبد العزيز سالم، ص ٢٥٣.

موضوع المحرمات بالكلية، ولكن الضابط هو الذي يقول لك بدقة: هذه حدود المحرمات في البيوع، فلا تقترب منها، والنظرة سهم مسموم فصن نفسك عن النظر إلى الأجنبية. كانت تربية هذا الضابط تتم في حلقات العلم، والدافع الحقيقي لهذا الضابط هو الخوف من الله، فلا يحاول المسلم التهرب من الشرع أو الاحتيال عليه، وهذه هي الميزة الأساسية التي تميز الشرع عن القانون.

ثانياً. الشريعة ضابط اجتماعي: عندما يكثّر تداول أحكام الشريعة على المستوى الاجتماعي في حلقات الوعظ وخطب المنابر، تصبح بعض هذه الأحكام أعرافاً ومصطلحات اجتماعية، فقد كان بعض الناس في دمشق يعيرون الرجل آكل الربا بأنه "فوايزي"، وكانت هذه اللفظة بغیضة مقيتة، إذا أطلقت على شخص تحاشاه الناس، وهذا يدل على أن المجتمع يدافع عن كيانه الديني حين يمنع المجاهرة باقتراف المحرمات، فيحتقر السكير والفاسق، والمجاهر بالمعاصي، والمرأة المومس. وقد ربي الإسلام هذه الفطرة الاجتماعية، فنظم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحض على ذلك، وجعل تركه من علل انخيار المجتمع، قال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} (المائدة: ٧٨-٧٩) وعن أبي بكر عن رسول الله ﷺ: "إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه". (١)

ثالثاً. الشريعة ضابط سياسي: عندما تتولى السلطة تنفيذ أوامر الشريعة، تصبح تعاليم الشريعة سلوكاً سياسياً تسلكه الدولة مع جميع رعاياها، فتقطع يد السارق، وترجم الزاني، وتمنع الخمر والتبرج والخلاعة والظلم، وتمنع الغش والاحتكار، وتنشر العلم، وترسل الدعاة إلى الله، وترفع راية الإسلام، وتوجه وسائل الإعلام توجيهاً إسلامياً. يتربى الناشئ في هذا الجو على المعاني الإسلامية يستقيها من المنزل والمدرسة والمساجد، ومن الإذاعة والتلفاز،

(١) سنن ابن ماجه: أبواب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم: ٤٠٠٥. قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

ومن كل شيء يحيط به، فلا يقع بصره إلا على معروف، ولا يطرق سمعه شيء يغضب الله، ولا تحدثه نفسه بمعصية، ما دامت الدولة المسلمة والمجتمع المسلم يردعانه عن ذلك. فإذا وقع في معصية، سترها وندم وتاب، وهكذا نرى أن الشريعة الإسلامية تربي الناس بثلاثة أساليب:

١. أسلوب تربوي نفسي ينبع من داخل النفس، ضابطه الخوف من الله ومحبه والرغبة في ثوابه والخوف من عقابه، هذا الأسلوب قد تخبو جذوته أحياناً عند بعض الناس أو يفقده من لم يتمكن الإيمان من قلبه، فتسول نفسه له العبث بجرمات الناس، أو الطمع بالمال المحرم أو الشهوات المحرمة، فتعالجه الشريعة بالأسلوب الثاني.

٢. التناصح والتواصي بالحق وبالصبر، فالجتماع الغيور على شريعة الله لا يدع منكراً، ولا يقر على ترك أصل من أصول الإسلام كالصلاة والزكاة بل يأمر المقصر ويأخذ بيده، ليعينه على نفسه أو على تربية أولاده.

٣. وازع السلطة التنفيذية أي الدولة المسلمة التي تنفذ أحكام الشريعة فيسود سلطان الشرع وينعم الناس بالعدل. هذه الأساليب الثلاثة تتعاون على تحقيق المعاني الإسلامية وتطبيقها في حياة الفرد والجماعة والدولة، فتصبح الحياة أقرب إلى الكمال والرخاء. وتنبع أصالة الشريعة الإسلامية من اعتمادها على الإيمان بالله، وعن هذه الأصالة يصدر المجتمع في تقاليده الإسلامية، كما يصدر الفرد في سلوكه وأمانته، وإقباله على تعلم الشريعة وتطبيق أحكامها على نفسه، دون حاجة إلى رقيب، يدعُّه إلى تنفيذ الأوامر دعاً، كما يحدث لدى الأمم ذات القوانين الوضعية. وهذه هي أعظم ميزة تميز الشرع الإسلامي عن القوانين البشرية الوضعية.

المطلب الثالث: الضروريات الخمس وأثرها التربوي:

يرى جمهور الفقهاء أن الشريعة الإسلامية تدور أحكامها حول حماية أمور هي أمهات لكل الأحكام الفرعية، ويسمونها الضروريات الخمس وهي: حفظ الدين والنفس والمال والعرض والعقل.

أولاً. حفظ الدين: لا يحق لمسلم أن يعيش ذليلاً تحت إمرة دين آخر، ولا لدولة مسلمة أن تتخلى عن الحكم بالشرع، أو تسمح بجرية الإلحاد والردة والكفر، أو تحمي الزندقة ولا أن تقرها وتسمح بوجودها، ولو سمو ذلك زوراً وبهتاناً، حرية اعتقاد أو تسامحاً؛ لأنّ في ذلك تجرأ على حرّيات الله، وتلاعباً بعقائد الناس. وأحكام هذه الأمور مبثوثة في الأبواب الفقهية. والنتيجة التربويّة لتدريس هذه الأبواب إعداد الجيل لمحاربة أعداء الله دفاعاً عن دينه وعقيدته وشعوره بالعزة والكرامة، والاعتزاز بالشرعية الإسلاميّة ورفع رايته.

ثانياً- المحافظة على النفس: حرم الله قتل النفس بغير حق وأنزل أشد العقوبة بمرتكب ذلك، وذكر الله قصة قتل قابيل لهابيل وكانت أول حادثة قتل على الأرض، ثم عقب عليها بقوله: {مَنْ أَجَلْ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} (المائدة: ٣٢) وحرم الله الانتحار فقال: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} (النساء: ٢٩) وفي الفقه الإسلامي أحكام القتل والدية والقصاص، ودراساتها تزرع في النفوس احترام الأرواح والبعد عن التفكير بالثأر أو الاعتداء أو أي جريمة من هذا النوع، كما تزرع العدالة، وحب القصاص، وما ينتج عن ذلك.

ثالثاً- المحافظة على المال: المال وديعة في أيدي العباد، قال تعالى: {وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} (النور: ٣٣) استودعهم الله إياها ليؤدوا زكاتها، وليشملوها بالطرق المشروعة دون ظلم أو إسراف أو مفسدة؛ ولا يجوز تبديد المال بوضعه بين أيدي السفهاء الذين لا يعرفون قيمته، قال تعالى: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا} (النساء: ٥) فاعتبر أموال اليتامى السفهاء ملكاً للأمة وفيه قوام شؤونها الاقتصادية، فلا يجوز السماح لهم بتبذيرها. والفقه الإسلامي اعتنى بأحكام المال عناية فائقة، في أبواب البيوع والإجارة والزكاة وغيرها، وحرم الربا، فترك بذلك أثراً تربوياً طيباً جعل الناشئ اقتصادياً يخشى الله في المال، فلا يسرف ولا يبذر ويحترم أموال الآخرين فلا يفكر في اغتصابها أو الاحتيال في أخذها. كما ربى الإنسان على احترام العمل، وشرع الميراث للولد صغيراً كان أم كبيراً، خلافاً للأنظمة المنحرفة التي تجعل الميراث للولد الأكبر.

رابعاً- المحافظة على العقل: أشاد الدين بذوي العقل المفكر في العديد من الآيات، وقد نهي الإسلام عن الخمر لما فيها من أضرار وأشار إلى ضررها العقلي فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} (النساء: ٣٤)، وفي هذا إشارة إلى أن الخمر يؤدي إلى اختلاط عند الإنسان حتى إنه لا يدري ما يقول، وأنه بدئ تحریمها لهذا السبب. وقال سبحانه مندداً بالذين لا يستعملون عقولهم في الخير والمعرفة: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} (الأنفال: ٢٢) وقد عرض القرآن آيات الله في الكون عرضاً ربى العقل على حسن المعرفة والمنطق العلمي، والفكر الاستدلالي، والنهج التجريبي.

خامساً- المحافظة على العرض: من عظمة الإسلام التربوية أنه حمى الطفولة وأحاطها بحصن اجتماعي متين، حين جعل علاقة الأبوين على درجة من المتانة لا يتطرق إليها أي خلل أو شك أو ريبة تنغص على الأسرة حياتها، وجعل ميثاق الزوجية ميثاقاً عظيماً، قال تعالى: {وَأَخْذُنْ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً} (النساء: ٢١). فقد حمى العلاقة الزوجية من أية خيانة تصدر عن أي من الزوجين، وجعل عقوبة الموت رجماً بالحجارة لأي طرف تثبت عليه خيانة صريحة بشهادة أربعة شهداء. فكما أن الأمة تدافع عن كيانها بإعدام من يخونها، كذلك الأسرة ذلك المجتمع الصغير الذي هو نواة الأمة، قد دافع الله عنها بهذا التشريع العادل العظيم فتنبأه المجتمع وأحاطه بهالة من الاحترام والتقديس والاهتمام؛ فتوفر بذلك للطفل الانتماء إلى نسب شريف وانعدام وجود الأبناء غير الشرعيين في المجتمع المسلم على حين نجد الغرب يعاني منهم بنسبة كبيرة تهدد بخطر اجتماعي جسيم. وقد تمهياً للطفل كل ذلك بما شرع الله من أحكام تحفظ الأسرة من الضياع، وتحفظ المرأة من الابتذال، وترفع مكانتها من أن يجعلها الفساق مضغة في أفواههم، فيحطمون مكانتها باهتمامات باطلة، ووضع الإسلام حدوداً وعقوبات لذلك كله، حتى لا يقترب أحد من ذلك السياج الزوجي بسوء. وكان من نتيجة ذلك أن حفظت الأنساب وعرف الناس بآبائهم وقبائلهم، وتعارفوا بالنسب أو المصاهرة. من أجل ذلك وجدنا كتب الفقه

تخصص جانباً كبيراً لأحكام الرضاع والزواج والطلاق والحدود وما إلى ذلك من فروع وأحكام.

المطلب الرابع: العقيدة الإسلامية، وأثرها التربوي:

العقائد هي الأفكار التي يؤمن بها الإنسان، وتطلق العقائد الإسلامية على أركان الإيمان وما يتفرع عنها من توحيد الألوهية، وعلى الإيمان بالغيب، وبالرسل، والكتب، والملائكة، واليوم الآخر. فالإيمان إذن هو أساس العقائد، ولكي نفهم أهمية العقيدة، ولماذا كانت الركن الأول الذي بنيت عليه التربية الإسلامية، لا بد لنا من وقفة عند كلمة الإيمان، لنحلل معناها ونوضح أهميتها.

أولاً. أهمية الإيمان وضرورته كأساس من أسس التربية (١)

١. المراد بإيمان الإنسان بشيء، أنه قد استقر في ذهنه تصديقاً و يقيناً، ولم يعد بعده يخاف أن يتسرب إلى ذهنه شيء يخالفه، وهو لغة التصديق، وشرعاً "ما وقر في القلب، وصدقه العمل".

٢. فإذا قوي إيمان امرئ فقد قامت سيرته على ما صدقه واطمأن قلبه إليه من الأفكار أي على أسس قوية رصينة، فالإيمان الصحيح أساس متين لتربية ثابتة مضمونة النتائج، وبهذا يكون للإنسان المؤمن سيرة معلومة، ويكون في حياته النظام والترتيب والانسجام. لذلك كانت التربية المبنية على الإيمان أفضل من التربية المبنية على عدم الإيمان، لأنَّ غير المؤمن لا سيرة له في حياته، إذ أن له أن يظهر بمظهر الشيطان متى شاء أو بمظهر الملك متى أحب، ولا يستبعد عنه في أي وقت من أوقاته أي لون من ألوان الأفعال ما دام لا يلتزم فكرة معينة.

٣. غير أن الإيمان لا يكون لدى جميع الناس مصدر خير، فربما بني الإيمان في بعض الأديان كالوثنية على الخرافات والأساطير، لذلك لا بد من ضابط لكل عناصر

(١) انظر الحضارة الإسلامية: أبو الأعلى المودودي، ص ٩٠-١٠٤.

الإيمان وتصورات المؤمن وأفكاره، أي لا بد أن يكون كل ما يؤمن به حقاً وصحيحاً. والقرآن عندما يدعو إلى الإيمان بمعتقدات معينة، يلجأ إلى العقل فيرشده إلى ما يجب أن يؤمن به، أي أنه يبرهن بأسلوب عقلي حسي على صحة هذا المعتقد، فيبدأ أولاً بالبرهان على عظمة الله، ثم يتفرع عن ذلك باقي العقائد.

٤. وكما أن سيرة الفرد وحياته تنتظم وتستقيم إذا كانت صادرة عن إيمان صحيح، كذلك فإن مجموعة الأفراد، عندما يخضعون لعلاقاتهم فيما بينهم إلى الإيمان بفكرة مشتركة بينهم، مشتملة على أمور روحية ربانية صحيحة، فإنهم يؤلفون أمة ذات حضارة متجانسة متجاوبة مع عقيدتها، وتكون العقيدة المشتركة في الوقت ذاته هي الموجه لحياة الأفراد الشخصية، فيحصل تناسق بين حضارة الأمة ونظمها الاجتماعية، وفي هذا كمال الحياة النفسية الصحيحة، فيصبح المجتمع المؤمن كالبنان يشد بعضه بعضاً، وهكذا تكون التربية الاجتماعية المرتكزة على الإيمان هي التي تنتج مجتمعاً قوياً حضارياً مستقيماً سليماً من كل الأمراض والانحرافات.

ثانياً أركان الإيمان: إن أركان الإيمان في نظر الإسلام كل لا يتجزأ، وكل من كفر بواحد منها، فقد حبط عمله ولا يقبل منه إيمانه بباقي الأركان، لأنها سلسلة مترابطة الحلقات ولأن الإسلام كله بناء فكري متشابك الأجزاء، يتهدم أو يختل إذا انهدم أحد أركانه. لذلك يرى المتتبع لآيات القرآن التي تتحدث عن الإيمان أن الحجر الأساسي لنظام الإسلام كله هو الإيمان، وبالتالي فإن التربية الإسلامية التي تعنى بتنشئة الإنسان المسلم يجب أن تبنى على أساس الإيمان بكل أركان الدين إيماناً واضحاً. وكل تربية تهمل ركناً من أركان الإيمان تصبح تربية ناقصة لا فائدة منها، إذ كيف يؤمن بالقرآن من لا يؤمن بالملائكة، ثم كيف يتبع تعاليم القرآن من لا يؤمن بأن محمداً رسول الله؟ من ذلك تعرف أن أركان الإيمان سلسلة لا ينفك بعضها عن بعض، ولا تصلح حلقة منها دون سائر الحلقات. والآن سنستوضح كل ركن من أركان الإيمان، فنتبين أهميته التربوية.

١. الإيمان بالله: يخطئ من يعتقد أن مجرد التسليم أو الاعتقاد بوجود الله وبكونه خالقاً لهذا الكون، عقيدة كافية تنجي صاحبها من عذاب الله، فقد كان كفار قريش يسلمون بهذا ومع ذلك عذبهم الله منصرفين عن إجابة الحق؟ فالإيمان الصحيح بالله تعالى يجب أن يشتمل على ثلاثة عناصر أساسية: أولها: معرفة معنى الإله ذلك المعنى الذي أبى المشركون أن ينسبوه لله وحده وينفوه عن معبوداتهم الأخرى. العنصر الثاني: إثبات معنى الألوهية لله تعالى. العنصر الثالث: نفي معنى الألوهية عن كل كائن سوى الله. (١) فما معنى الألوهية؟ جميع الأديان التي وصلت إلينا عدا الإسلام، كان تصورهما عن الألوهية إما خاطئاً وإما ناقصاً وإما ملوثاً بالتشبيه أو التجسيد. والكتاب الوحيد الذي صحح هذه التصورات الخاطئة عن الألوهية هو القرآن، الذي ذكر أنه لا يجوز أن يكون الإله إلا من يكون صمداً حياً قيوماً أزلياً عالماً رحيماً قادراً لم يلد ولم يولد، منزهاً عن أي نقص، محاسباً لكل من سواه. ثم إن القرآن بعد هذا البيان يدل بالأدلة العقلية المنطقية، على أن هذا العالم ليس فيه قوة يصدق عليها هذا التصور للألوهية، ثم لا يثبت الألوهية إلا لذات واحدة هي ذات الله. لقد آمن العرب بهذه المعاني، وربوا أنفسهم على مقتضاها، فأخرجوا البشرية من ظلم الملوك إلى عدالة الله، ومن جور الأديان وخرافاتهما، إلى سماحة الإسلام وسمو تعاليمه، وإليك سر المعجزة التي أجراها الله على أيديهم: معجزة الفتح الإسلامي، وتثبيت حضارته في أكبر رقعة عرفت حضارة في التاريخ، هذا السر يتجلى في:

لآثار التربوية والمعنوية لعقيدة التوحيد، والإيمان بالله:

تنظم عقيدة التوحيد حياة الإنسان النفسية، وتوحد تفكيره وأهدافه، وتجعل كل سلوكه وعاداته، قوى متعاونة ترمي إلى تحقيق هدف واحد هو الخضوع لله، والشعور بألوهيته وسائر صفاته. وكل صفة أساسية من هذه الصفات يقابلها في النفس الإنسانية

(١) انظر الحضارة الإسلامية: أبو الأعلى المودودي، ص ١٣٧-١٣٩.

جانب من جوانب الحياة النفسية فلا سعادة للنفس ولا استقامة إلا إذا ارتبط كل جانب من جوانبها بما يناسبه من معاني الألوهية.

١. على سبيل المثال: ميل الإنسان الفطري إلى الرفاهية وحب البقاء، يقابله من ناحية الترويح الأمل في رحمة الله وجنته، ومن ناحية الضبط يقابله الشعور بأبدية الله، وفناء هذه الدنيا. فترى المؤمن يعمل من جهة، يجد وتفاؤل في هذه الحياة لأنها مزرعة الآخرة، ومن جهة أخرى يبقى حذراً من الموت لا يغتر ولا يغفل عن ترقب المصائب، فإذا وقعت لم تفت في عضده فهو ينتظر لقاء ربه.

٢. مثال آخر: طمع الإنسان وحبه للمال: فترى المؤمن يستخدم المال وهو يعلم أنه مال الله، وأن كل ما في الكون ملك لله، وهو واهب الرزق لمن يشاء، فالمؤمن يثمر المال، ولكن المال لا يستعبد قلبه، فإذا احتاجت الأمة ماله لمصلحة عامة بذله بسخاء، وهو يعلم أن الله هو الرزاق، وقس على ذلك حب الإنسان للزعامة وشهوته للنساء، وميله وحنوه على الأولاد، وغيره من جوانب الحياة النفسية.

٣. وقد ضرب الله لنا مثلاً في القرآن يبين فضل عقيدة التوحيد في تحقيق وحدة النفس الإنسانية، قال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (الزمر: ٢٩) فشبه الله النفس الموحدة لربها بالعبد الذي يملكه رجل واحد، فجميع تصرفات هذا العبد تأتي حسب رغبة سيده، وبهذا تهدأ نفسه وتستقيم حياته وتنسجم تصرفاته وفق نظام معين. أما العبد الذي يملكه عدة شركاء لا يؤمن أن يتصرف اليوم على نمط يعاكس تصرفاته بالأمس، وتبقى نفسه نهباً للمخاوف. كذلك المشرك الذي يعلم بفطرته عظمة الله ويشارك معه آلهة أخرى، فتراه تارة ينافق للناس، وتارة يتخذ إلهه هواه، وتارة يستعبد المال، وتارة يتعلق بالحياة، وهو في كل ذلك قلق، لا يطمئن على نفسه ولا على ماله ولا على شيء من ملذاته؛ لأنه لا يؤمن بمصير معين، ولا يخضع لإله واحد. ولتحقيق هذا الأثر التربوي العظيم، يجب على المربي أن يربط كل جوانب التربية

بتوحيد الله وصفاته، فدراسة الكون مثلاً، يجب أن يكون هدفها استحضار عظمة الله الحي القيوم الذي يقوم بكل شؤون الكون.

٤. تربي عقيدة التوحيد والإيمان بالله، عقل الإنسان على سعة النظر وحب الاطلاع على أسرار الكون، والطموح إلى معرفة ما وراء الحس، فكل ما في الكون مما نرى وما لا نرى ملك لله، وكل كائن صغير أو كبير يسبح بحمده ويشهد بعظمته، وقد أمرنا القرآن أن نتأمل ذلك كله، ويبين لنا أنه ما من شيء إلا يعلمه الله، قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} (الأنعام: ٥٩).

٥. كما تربي عند الإنسان التواضع وعدم التطرف أو الغرور بأي صفة من صفاته الإنسانية، فإذا اغتر بقوته وأراد البطش أو الظلم ذكر قدرة الله عليه، وإذا اغتر بماله ذكر أن الله هو الغني الذي وهبه المال فعاد إلى السخاء، وإذا اغتر بعلمه فظن أنه بلغ الكمال نظر إلى الكون الكبير الذي هو جزء صغير من علم الله فعاد إلى نفسه صاغراً متواضعاً يطلب المزيد من المعرفة. وقس على هذا كل ما وهب الله الإنسان.

٦. يتسلح الإنسان إذا آمن بالله حقاً بالطمأنينة والرجاء مع السعي وعدم التواكل، فهو مطمئن بعد أن عرف أن الله قريب مجيب، يتوب على التائبين وينصف المظلومين، وسعت رحمته كل شيء. قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} (البقرة: ١٨٦) وقال: {قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} (الأعراف: ١٥٦) وفي هذا توازن بين إبعاد الغرور عن النفس والتسلح بالأمل والرجاء، فالمؤمن يخاف عذاب الله إن قصر ويرجو رحمته إن أخطأ. وبهذا يصبح الإنسان أبعد ما يكون عن اليأس أو الانتحار. وقد صرح القرآن أن اليأس من صفات غير المؤمنين قال تعالى: {وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} (يوسف: ٨٧) فإذا زل جدد عزمه بالتوبة والاستغفار، قال جل جلاله: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً} (الزمر: ٥٣).

٧. الانتماء إلى الله وموالاته والانضواء تحت لوائه، فالمؤمنون هم حزب الله وهو وليهم، والكافرون لا مولى لهم، قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} (المائدة: ٥٦) وقال: {اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ فَأَنزَاَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أَوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} (المجادلة: ١٩). وهذا الولاء يربى النفس دائماً على أن تكون في حرب مع الشيطان وأتباعه، أولئك الذين يزينون للناس معصية الله واتباع الشهوات كما يربي الانتماء إلى الأمة الإسلامية والاعتزاز بها من غير تعصب عنصري أو تحيز مصلحي استعماري غايته استغلال الشعوب وامتصاص خيراتها. فكل من آمن بالله على أساس القرآن فهو من حزب الله أياً كان جنسه أو عرقه أو لونه، وكل من كفر بالله وقاوم دعوته فهو من حزب الشيطان أياً كان لونه أو عرقه، قال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} (يونس: ٦٢-٦٣) ولكي يتم الانتماء إلى الله وحزبه لا بد من محاربة حزب الشيطان وعدم الركون إليهم، لئلا يقع الشقاق والخلاف في صفوف الأمة. وهذا المعنى من أهم أركان التربية الإسلامية، لذلك يجب أن تبني عليه أهداف التربية الاجتماعية، في جميع مراحل التدريس والحياة.

٢. الإيمان بالملائكة: الملائكة كائنات خلقها الله وسخرها لأعمال ومهمات معينة لا يحيدون عنها، وهم عباد الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. ومن أشرف هذه الوظائف النزول بالوحي على الأنبياء، ومن الملائكة من كلفه الله بحمل العرش، ومنهم من تكلف بحفظ الإنسان.. الخ.

أهمية الإيمان بالملائكة، وآثاره التربوية:

يظهر لنا مما أوردنا أن الإيمان بالملائكة متمم للإيمان بالله أو هو من لوازمه، ويدلنا على جانب من جوانب الألوهية، فمن تمام عظمة الله أن له جنداً وموظفين يعملون بأمره. وهذا يربي في النفس النظام والطاعة، فالله القادر على كل شيء قد نظم شؤون الكون، ووكل بعضها لبعض ملائكته فأطاعوه وعملوا بأمره. كما أن الملائكة في تسبيحهم

لله يمكن اعتبارهم قدوة للبشر، وأقواهم عند الله من يستغفر للمؤمنين وهم حملة العرش. وهذا يزيد من عزة الإنسان وكرامته، ومعرفته منزلته عند الله. (١)

٣. الإيمان بكتب الله المنزلة: التي تحتوي على شريعة الله وأوامره وكلامه، إلا أن الله لم يكلفنا أن نؤمن بما فيها تفصيلاً، بل ذكر الإيمان بها جملة. أما القرآن فالبشرية مكلفة أن تعمل بكل ما ورد فيه تفصيلاً مع الإيمان بأنه منزل من عند الله، ويمتاز القرآن بميزات أهمها:

أ. أنه إنساني عالمي خوطبت به البشرية عموماً، وكانت الكتب السماوية من قبله تخاطب أقواماً معينين. كما أن كل كتاب كان يتناول بعض جوانب الحياة، على حين نجد القرآن يتناول كل جوانب الحياة.

ب. وصل إلينا القرآن سالماً من التحريف، قرآنًا واحدًا أجمعت الأمة على صحته، وثبت نقله بالسند الصحيح، ولم يصل أي كتاب سماوي آخر كاملاً صحيحاً.

ج. كل كتاب كان يأمر أتباعه باتباع القرآن إذا أدركوه، ولكن القرآن لم يأمر باتباع الكتب السماوية السابقة تفصيلاً، بل ضرب منها أمثلة، وأمر بالإيمان بها جملة.

الآثار التربوية للإيمان بالقرآن، وتلاوته والعمل به: لو تتبعنا الآيات التي وصفت القرآن لوجدنا فيها بعض الأوصاف التي تدل على أهميته التربوية كقوله تعالى:

١. قال تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ} (الإسراء: ٩) فالقرآن يربي الإنسان على الحياة المستقيمة، والأخلاق القويمة، لما فيه من العبر والتشريع، وكفى به أنه من لدن حكيم عليم يضع التشريعات في مواضعها، عليم بطباع الناس وما يصلحهم، والإيمان بأن القرآن من عند الله هو الذي يجعله مقوماً لحياة الفرد والمجتمع، قال تعالى: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} (النساء: ٨٢).

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ٧٥.

٢. قال تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} (محمد: ٢٤) وهذا المعنى تكرر عشرات المرات، وهو المطالبة بالتدبر والتفكير، وفي هذا تربية الإنسان على إعمال عقله وتربية ذهنه على التأمل والاستنتاج والقياس والاستقراء، كما أنه يربي الفكر على عدم قبول شيء بغير حجة أو علم. قال تعالى: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (البقرة: ١١١) وقال: {أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ} (الأنبياء: ٢٤).

٣. التروي والتأني وعدم التسرع في الفهم أو الحكم، وتثبيت القلب بالتدرج في الفهم، قال تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} (الإسراء: ١٠٦).

٤. تعويد اللسان على الفصاحة والبيان: وهذا معروف لدى كل مشغل بالقرآن، فهو بإعجازه وفصاحته يطبع قلب الإنسان على حسن البيان، والأسلوب اللغوي المبين، فيصبح واضح القصد موضحاً لمراده.

٥. تربية العواطف الربانية من خوف وخشوع ورغبة ورهبة، فالقرآن ما يزال دائماً يوقظ هذه العواطف، وقد يصف آثارها عند من يتلون القرآن حق تلاوته، قال تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَتَشَعَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ} (الزمر: ٢٣) ومن حسن تلاوة القرآن أنه إذا قرأ القارئ فيه دعاء دعا به، وإن قرأ تهديداً أو عذاباً استعاذ بالله منه، وإن قرأ آيات تدل على عظمة الله خشع قلبه. ولا يكتفي القرآن بتربية العواطف المنظمة بل يربي أيضاً العواطف المرغبة التي تربي الأمل، والإقبال على العمل الصالح، ومحبة الله تعالى. وفي القرآن آداب سلوكية عظيمة تعلمنا غض البصر، والقصد في المشي، وبر الوالدين، والتواضع للمسلمين، وإخفاء الصدقات وعدم إبطائها بالمن والأذى، وكثيراً كثيراً مما لا يحصى في هذا المقام.^(١)

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ٧٦.

٤. **الإيمان بالرسول:** الرسول هو القدوة، فالأساليب العملية للتربية الإسلامية يمكن اقتباسها من حياة الرسول محمد ﷺ، وقد أمرنا الله أن نؤمن بجميع الرسل لأن كل رسالاتهم تطالب بإخلاص العبودية لله والاعتراف له بالألوهية بكل معانيها. ولكن نجاح الأثر التربوي للرسول يتوقف على الإيمان بأنه مؤيد بالوحي من عند الله، فلا يقره الله على خطأ، وأنه أمين قد بلغ رسالات ربه. فإذا تم هذا الإيمان شعر الإنسان بسعادة عظيمة كلما اقتدى بأمر من أوامر الرسول. أما الفلاسفة والزعماء وعلماء التربية، فإنما يتبعون الظن ويضعون نظريات مؤقتة يجربونها على الأجيال، وكلما فشلت عدلوا فيها، بعد أن يكونوا قد ضحوا بجيل كامل. ثم إن رسالة الرسول عندما تكون إنسانية عالمية تؤدي إلى أخوة بين البشر، وتربي الشعور بالوحدة الإنسانية تحت ظل لواء خالق البشر. وقد ختم الله النبوة بمحمد ﷺ، فلا نبي بعده، لذلك امتازت رسالته بأنها بالكمال والشمول والعموم فأرسله الله رحمة للعالمين. فالتربية التي وضع أسسها تربية عالمية تناسب فطرة الإنسان أينما كان، وقد نقلت إلينا أخباره بالسند الصحيح، وحفظ الله سنته، فبين علماء الحديث الضعيف والصحيح. ونسخ الله برسالته سائر الرسالات التي سبقته، وكان قد أمر جميع الأمم قبله أن يتبعوه إذا أدركوا رسالته. ()

٥. **الإيمان باليوم الآخر:** الدنيا مرحلة مؤقتة، والكون كله ما خلقه الله عبثاً بل خلقه إلى أجل مكتوب عنده. فإذا انتهى هذا الأجل أفناه الله وأهلك كل شيء فيه، ثم خلق عالماً آخر غير هذا العالم له نظام ومقومات تختلف عن نظام هذا الكون، وحياة أبدية لا موت بعدها، ليقدر الله أعمال العباد ويزنها بالقسطاس المستقيم، قال تعالى: {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ} (الأعراف: ٨-٩) ويومئذ لا يخفى شيء نوايا البشر وأعمالهم، حيث تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وينشغل كل امرئ بنفسه: {يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَحْيِهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} (عبس: ٣٤-٣٧) ويومئذ

() انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ٨١.

لا تنفع الشفاعة، ولا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فإذا انقضى الحساب تجلت رحمته على المؤمنين فأدخلهم الجنة خالدين فيها، وتجلى غضبه على الكفار فأدخلهم جهنم خالدين فيها. أما النتائج التربويّة للإيمان باليوم الآخر فهي:

أ. تربية الشعور الحقيقي بالمسؤوليّة: يلاحظ من وجهة النظر التربويّة أن الإيمان باليوم الآخر هو الوازع والدافع الحقيقي الذي يكمن وراء الشعور بالمسؤوليّة، وأن الشعور بالمسؤوليّة حقاً بدون هذا الإيمان، ولذلك لاحظنا أن ميزة التشريع الإسلامي تكمن في تقبل الناس له بطوعية ودون أي تهرب أو احتيال على هذا القانون الإلهي، ما دام الملائكة الحفظة يكتبون وما دام يوم الحساب والجزاء ينتظرنا بالمرصاد، فكل من ربي تربية إسلامية يشعر بتمام المسؤولية عن كل أعماله، خوفاً من الوقوف للحساب بين يدي الله في يوم تشخص فيه الأبصار.

ب. تحقيق الأخلاق الفاضلة في سلوكنا وحياتنا تحقيقاً فعلياً بلا نفاق ولا رياء، لا يكون إلا نتيجة الإيمان باليوم الآخر، فالأناة والتضحية والصبر على الشدائد، كل ذلك يتحلى به المؤمن لأنه ينتظر جزاءه عند الله، لا عند المجتمع ولا عند الناس، ويوم الجزاء آت لا ريب فيه، في مواعده الذي قدره الله له، لا يتزحزح، لذلك فإن أخلاق المؤمن ثابتة لا يززعها شيء من أعراض الحياة الزائلة.

ج. وانضباط جميع والغرائز إنما يتم خوفاً من الله وطمعاً في جنته، وقد وضع الإسلام لكل دافع غريزي من الترغيب والترهيب ما يخضعه لشريعة الله، فيجعله طاقات مثمرة في حياة الفرد والمجتمع، بدلاً من أن يعاكس الإنسان هذه الدوافع، فتتقلب إلى طاقات مبددة عندما يصطدم بالكبت والإحباط، فتوجيه الدوافع في الإسلام خير من كتبها أو تناسيها، كما في العقائد الأخرى التي تبالغ في الزهد ولا تراعي الفطرة الإنسانيّة.

د. إيثار الآخرة على الدنيا، والصبر على الشدائد؛ فمغريات الحياة وما يقابلها من المصائب التي تصيب المسلم، لا علاج لها إلا ما يربيه القرآن في النفوس من إيثار الآخرة على الدنيا. فنساء رسول الله على عظم فضلهم اجتمعن ليطالبن رسول الله

ﷺ، بأن يتمتعن بزينه الحياة الدنيا كما تتمتع نساء الملوك، فنزل فيهن قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً، وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً} (الأحزاب: ٢٨-٢٩) فاختزن الله ورسوله والدار الآخرة، وبقين في كنف رسول الله يصبرن على شظف العيش.

هـ - تربية العقل على الفطرة السليمة، ذلك أن كل إنسان يتفكر في هذا الكون يصل إلى النتائج التالية:

١. إن كل ما في الكون من حياة وموت وغير ذلك، يدل على أنه صائر إلى الزوال ومسير بغير إرادته.

٢. إن هذا الإنسان الذي يقضي عمره في كدح وجد، وهو يتمتع بالعقل والتمييز، إذا به يموت ويفقد كل حركة أو حياة، ومن الناس ظالم ومحسن وصالح وطالح، فهل يستوي ذلك كله؟ وهل تكون كل أعمال الناس إلى فناء، من غير تمييز بين المحسن المسيء؟ إن العقل الصحيح والفطرة السليمة لا تستسيغان ذلك.

٣. الكون الذي يدل على خالق حكيم، يدل على أن وراء وجوده غاية من أجلها أوجده الله، وهذه النتيجة يتوصل إليها العقل السليم بفطرته.

٤. بالقياس المنطقي على خلق الله لهذا الكون وللإنسان، يستلزم العقل الصحيح أن الذي خلق الكون أول مرة قادر على إعادته خلقاً جديداً، وكذلك الذي خلق الإنسان. هذه السلسلة من التفكير، هي التي بنى عليها القرآن أدلته على وجود الله، ثم على اليوم الآخر، والتربية الإسلامية تنمي عقل الإنسان دائماً على هذا التفكير والارتباط المنطقي بين المقدمات والنتائج، كما تربيته على ألا يستسيغ العبث والخضوع للمصادفة، فكل ذلك ليس من الفطرة العقلية السليمة في شيء. لذلك قال تعالى: {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} (الزمر: ٧)؛ لأنَّ الكفر بوجود الله وباليوم الآخر، معناه خضوع العقل للعبث والمصادفة، وعدم التعليل الصحيح. (١)

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ٨٢.

٦. الإيمان بالقدر خيره وشره: هذا الإيمان من لوازم الإيمان بالله؛ لأن الله هو الذي قدّر كل ما سيقع في الكون، ولكن رسول الله ﷺ جعل هذا الإيمان ركناً مستقلاً؛ لأنّ جانباً هاماً من حياة الإنسان، وتربيته يرتكز على هذا الركن، فما هي الآثار التربويّة للإيمان بالقدر:

أ. العزم والقضاء على التردد: ليس في المجتمعات البشرية أمضى عزيمة من المؤمن بالقدر، فهو إذا ناقش الأمور ورجح بينها واستشاره غيره واستخار ربه، يمضي قدماً فيما عزم عليه دون تردد أو خوف، ليقينه بأن جميع الظروف والاحتمالات التي يمكن أن تكون غير واقعة في حسبانها، هي مما وقع في علم الله وقدره، وأن الله مؤيده، فإذا يسر له ما عزم عليه، فهو الخير المقدر له، أو ليصرف الله عنه شراً كان محتملاً.

ب. عدم الندم أو الحسرة على ما فات، فالمؤمن لا ينوح على الماضي؛ لأنّ ذلك لن يرد عليه شيئاً مما فات؛ ولأنّه إنما حصل على ما كتب الله له، ولا اعتراض على قدر الله ولكن له أن يعتبر فيتوب من الخطأ أو الذنب.

ج. الجرأة أمام الموت: فلا يمكن لنفس أن تموت إلا بإذن الله وبعد أن تستوفي أجلها الذي كتبه الله لها: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا} (آل عمران: ١٤٥) لذلك لا يحق للمؤمن أن يقول بعد أن يموت له قريب لو فعلنا كذا لما مات، فإذا تربى المؤمن على الجرأة أمام الموت فقد أصبح جريئاً أمام كل شيء، أمام فقد مال أو ولد أو جاه، أو أمام مرض أو أي مصاب آخر، ما دام يؤمن بأنه مقدر من الله.

د. التفاؤل الرضا وعدم التشاؤم، كالتشاؤم من صوت البوم، أو تشاؤم الكفار بأنبيائهم، مع أن كفرهم هو الذي كان شؤماً عليهم، كما قص الله علينا قول الكفار لأنبيائهم: {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ، قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ إِنَّ دُكْرَكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} (يس: ١٨-١٩) وعن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا طيرة، وخيرها الفأل، قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة

يسمعهما أحدهما". (١) وكالتشاؤم من المرض مع أن له فوائد معنوية أهمها تهذيب النفس وتكفير الخطايا، فقد دخل رسول الله ﷺ على أم السائب فقال: "مالك يا أم السائب تزفرين؟" قالت: الحمى لا بارك الله فيها، فقال: "لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد" (٢) كذلك نهى الرسول ﷺ عن التشاؤم من الريح: فقال: "لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: الله إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها، وشر ما أمرت به". (٣)

هـ- وهذا كله يربي المؤمن على العقل، وعدم تعليل الأمور حسب هواه ومصلحته، بل يجب أن يعرف أن لكل ظاهرة كونية فوائد ومضار، فيطلب فوائدها ويستبعد مضارها. (٤)

(١) البخاري: كتاب الطب، باب الطيرة، رقم: ٥٧٥٤. مسلم: كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم، رقم: ٢٢٢٣.

(٢) مسلم: كتاب البر ولصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، رقم: ٢٥٧٥.

(٣) الترمذي: أبواب الفتن، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، رقم: ٢٢٥٢. قال الترمذي: حديث صحيح.

(٤) انظر أهداف التربية الإسلامية: ماجد الكيلاني، ص ٢٣٠.

الفصل الرابع

أساليب التربية الإسلامية

يمكن للباحث أن يهتدي إلى بعض ما وُجد في القرآن والسنة من أساليب مؤثرة بليغة، ربت النفوس، وارتقت بالهمم، ومكنت المتأثرين بها في الأرض ما لم يتح لغيرهم أن يتمكنوا فيه. ولعل أهم هذه الأساليب:

المبحث الأول

التربية بالقصص القرآني والنبوي

المطلب الأول: تمهيد في أهمية القصة التربوية:

لل قصة في التربية الإسلامية وظيفة تربوية لا يحققها لون آخر من ألوان الأداء اللغوي، ذلك أنها تمتاز بميزات جعلت لها آثاراً نفسية وتربوية بليغة، مع ما تثيره من حرارة العاطفة ومن حيوية في النفس تدفع الإنسان إلى تغيير سلوكه بحسب مقتضى القصة وتوجيهها وخاتمتها والعبرة منها، وتتجلى أهم هذه الميزات فيما يلي:

أولاً. تشد القصة القارئ وتوقظ انتباهه، فتجعله دائم التأمل في معانيها والتتبع لمواقفها والتأثر بشخصياتها وموضوعاتها حتى آخر كلمة فيها؛ ذلك أن القصة تبدأ غالباً بالتنويه بمطلب أو وعد أو الإنذار بخطر أو نحو ذلك مما يسمى عقدة القصة، وقد تتراكم، قبل الوصول إلى حل هذه العقدة مطالب أو مصاعب أخرى، تزيد القصة حبكاً، كما تزيد القارئ أو السامع شوقاً وتلهفاً على الحل أو النتيجة. ففي مطلع قصة يوسف مثلاً، تعرض على القارئ رؤياه يصحبها وعد من الله على لسان أبيه بمستقبل زاهر ونعم من الله يسبغها على هذه الأسرة الفقيرة الداعية إلى الله، وتتابع المصائب والمشكلات على يوسف عليه السلام، ويتابع القارئ اهتمامه ينتظر تحقيق وعد الله، ويتروى انتهاء هذه المصائب، والمشكلات بتلهف.

ثانياً. تتعامل القصة القرآنية والنبوية مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة، متمثلة في أهم النماذج التي يريد القرآن إبرازها للكائن البشري، ويوجه الاهتمام إلى كل نموذج بحسب أهميته، فيعرض عرضاً صادقاً يليق بالمقام ويحقق الهدف التربوي من عرضه، ففي قصة يوسف يعرض نموذج الإنسان الصابر على المصائب في سبيل الدعوة إلى الله في شخص يوسف، ونموذج المرأة المترفة تعرض لها حبائل الهوى، فيملأ قلبها الحب والشهوة، ثم إلى سجن إنسان بريء لا ذنب له إلا الترفع عن الدنيا والإخلاص لسيده ومراعاة أوامر ربه، ونموذج إخوة يوسف: تدفعهم هواتف الغيرة والحسد والمؤامرة إلى محاولة قتل أخيهم، ونموذج يعقوب: الوالد المحب والني المطمئن؛ يعرض القرآن كل هذه النماذج البشرية عرضاً واقعياً نظيفاً من غير إفحاش كما يفعل مؤلفو القصص التي يسمونها واقعية. ذلك أن من أهم غايات القصة القرآنية: التربية الخلقية عن طريق علاج النفس البشرية علاجاً واقعياً، فالقصة القرآنية ليست غريبة عن الطبيعة البشرية، لأنها إنما جاءت علاجاً لواقع البشر، علاجاً ينهض بالهمم، ويدفع بالنفس للسمو إلى أعلى القمم، حيث تنتهي القصة بانتصار الدعوة الإلهية، ووصف النهاية الخاسرة للمشركين الذين استسلموا إلى النقص، ولم يستجيبوا لنداء ربهم فيزكوا أنفسهم.^(١)

المطلب الثاني: القصص القرآني:

أولاً. ميزات القصص القرآني:

١. تربي القصة القرآنية العواطف الربانية وذلك عن طريق:

أ. إثارة الانفعالات كالخوف والترقب، وكالرضا والارتياح والحب، وكالتقزز والكراهة، كل ذلك يثار في طيات القصة بما فيها من وصف رائع ووقائع مصطفاة، فقصة يوسف مثلاً تربي الصبر والثقة بالله، والأمل في نصره، بعد إثارة انفعال الخوف على يوسف، ثم الارتياح إلى استلامه منصب الوزارة.

(١) انظر من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي: كمال المرسي، ص ١٤٢. وانظر التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها: عاطف السيد، ص ٦٣.

ب . توجيه جميع هذه الانفعالات حتى تلتقي عند نتيجة واحدة هي النتيجة التي تنتهي إليها القصة، فتوجه مثلاً حماسة قارئ القصة نحو يوسف وأبيه، حتى يلتقيا في شكر الله في آخر القصة، ويوجه بغض الشر الذي صدر عن إخوة يوسف حتى يعترفوا بخطئهم، ويستغفر لهم أبوهم في آخر القصة، وهكذا..

ج . المشاركة الوجدانية حيث يندمج القارئ مع جو القصة العاطفي حتى يعيش بانفعالاته مع شخصياتها، ففي قصة يوسف يعتري القارئ قلق عندما يراد قتل يوسف، ثم تسرح العواطف قليلاً مع انفراج الكربة عنه، ثم يعود القارئ إلى الترقب عندما يدخل يوسف دار العزيز، وهكذا يعيش القارئ مع يوسف في سجنه، وهو يدعو إلى الله، حتى يفرج بإنقاذه، ثم بتوليته وزارة مصر، وهو في كل ذلك رسول الله والداعية إلى دينه.

٢. تمتاز القصة القرآنية بالإقناع الفكري بموضوع القصة:

أ . عن طريق الإيحاء والاستهواء والتقمص، فلولا صدق إيمان يوسف لما صبر في الحب على الوحشة، ولما ثبت في دار امرأة العزيز على محاربة الفاحشة، هذه المواقف الرائعة توحى للإنسان بأهمية مبادئ بطل القصة وصحتها، وتستهويه صفات هذا البطل، وانتصاره بعد صبر ومصابرة طويلة، فيتقمص هذه الصفات حتى إنه ليقلدها، ولو لم يقصد إلى ذلك، وحتى إنه ليردد بعض هذه المواقف ويتصورها، ويسترجعها من شدة تأثره بها.

ب . عن طريق التفكير والتأمل: فالقصص القرآني لا يخلو من محاورات فكرية ينتصر فيها الحق، ففي قصة يوسف تجد حواراً يدور بينه وبين فتيتين عاشا معه في السجن فدعاهما إلى توحيد الله، حوار منطقي مدعوم بالحجة والبرهان يتخلل القصة، ثم تدور الدوائر على أهل الباطل، ويظهر الله الحق منتصراً في نتيجة القصة، أو يهلك الباطل وأهله، فيتظاهر الإقناع العقلي المنطقي والإثارة الوجدانية، والدافع الفطري إلى حب القوة وتقليد الأقوياء، تتظاهر كل هذه العوامل وتتضافر، يؤيدها التكرار مرة بعد مرة، فما أكثر تكرار بعض قصص القرآن، حتى تؤدي مجموعها إلى تربية التصور الرباني للحياة

وللعقيدة واليوم الآخر، وإلى معرفة جوانب الشريعة الإلهية معرفة إجمالية، وبهذا تحيط القصة القرآنية نفس الناشئ بالتربية من جميع جوانبها العقلية، والوجدانية والسلوكية.

ثانياً. أغراض القصة القرآنية^(١): ليست القصة القرآنية عملاً فنياً مطلقاً مجرداً عن الأغراض التوجيهية، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق أغراضه الدينية الربانية، فهي إحدى الوسائل بإبلاغ الدعوة الإسلامية وتثبيتها. والتعبير القرآني مع ذلك يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني، وبهذا امتازت القصة القرآنية بميزات تربوية وفنية، فهي تجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، وإثارة الانفعالات، وتربية العواطف الربانية. وسنعرض بعض أغراض القصة القرآنية لكي يكون المربي على بينة من هذه الأغراض، فيوجه الطلاب بالاستجواب عن كل غرض إلى معرفة هذا الغرض، وتحقيقه في نفوسهم أو في سلوكهم، أو في تربية عقولهم ووجدانهم وعواطفهم، وأهم هذه الأغراض:

١. إثبات الوحي والرسالة، وتحقيق القناعة بأن محمداً ﷺ هو النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا عُرف عنه أنه جلس إلى أحبار اليهود والنصارى، يتلو على قومه القصص من كلام ربه، وقد جاء بعضها في دقة وإسهاب، فلا يشك عاقل في أنها وحي من الله، وأن محمداً رسول الله يبلغ رسالة ربه، والقرآن ينص على هذا الغرض نصاً في مقدمات بعض القصص أو في أواخرها، قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} (يوسف: ٢-٣) وقال: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا} (هود: ٤٩).

٢. التأكيد على أن الله ينصر رسله والذين آمنوا ويرحمهم وينجيهم من المآزق والكروب، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة. وكثيراً ما وردت قصص عدد من الأنبياء مجتمعين في سورة واحدة، معروضة عرضاً سريعاً بطريقة خاصة لتؤيد هذه الحقيقة، كما في سورة الأنبياء، حيث ورد ذكر: موسى وهارون، ثم لمحة موجزة عن قصة إبراهيم ولوط، وكيف نجاهما الله

(١) انظر التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، ص ١١٧-١٢٨.

وأهلك قومهما، وقصة نوح، وجانب من أخبار داود وسليمان، وما أنعم الله وكلهم من الصابرين الصالحين، وذكر الله لنا قصة يونس الذي التقمه الحوت فنأدى فى الظلمات أن لا إله إلا الله إني كنت من الظلمين، فاستجاب الله تعالى له وأنجاه، ثم قصة زكريا، ويختتم الله هذه السلسلة من الأنبياء بنجر مريم وابنها عيسى ثم يخاطب الله جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم بقوله: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} (الأنبياء: ٩٢). فتبين بهذه الآية تقرير الغرض الأصيل من هذا الاستعراض الطويل وهو أن جميع الأنبياء يدينون ديناً واحداً يخضعون لرب واحد يعبدونه وحده. وعندما نستعرض خبر كل نبي نجد أن الله قد شد أزره ونصره ونجاه من الكرب الذي نزل به، وأنه دائماً ينعم على رسله والذين آمنوا إذا صبروا وصدقوا.

٣. شد أزر المؤمنين وتسليتهم لما يلاقون من الهموم والمصائب، وتثبيت لرسول الله ومن تبعه من أمته، وتأثير في نفوس من يدعوهم القرآن إلى الإيمان وأنهم إن لم يؤمنوا لا محالة هالكون، وموعظة وذكرى للمؤمنين، وقد صرح القرآن بهذا المعنى في قوله تعالى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} (هود: ١٢٠). وعلى المربي أن يستحضر مكان الموعظة، والذكرى من كل قصة، ليحاور الطلاب حواراً يوجههم إلى معرفتها، والتأثر بها والعمل بمقتضاها.

٤. تنبيه أبناء آدم إلى خطر غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم إلى أن تقوم الساعة، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة في النفس تدعو إلى الشر، ولما كان هذا موضوعاً خالداً، فقد تكررت قصة آدم في مواضع شتى، مما يدعو المربي إلى الإلحاح على هذا الموضوع، وتوجيه الطلاب إلى الحذر من غواية الشيطان في كل مناسبة ملائمة.

٥. بيان قدرة الله تعالى، بياناً يثير انفعال الدهشة، والخوف من الله لتربية عاطفة الخشوع، والخضوع والانقياد ونحوها من العواطف الربانية، كقصة الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه وقصة خلق آدم وقصة إبراهيم والطير الذي آب إليه.^(١)

(١) انظر التربية الإسلامية أصولها ومنهجها! عاطف السيد، ص ٦٤.

المطلب الثالث: القصص النبوي:

لا يختلف القصص النبوي من حيث أهميته وميزاته التربوية عن القصص القرآني، ولكننا قد نجد فيه تفصيلاً، وتخصيصاً من حيث الأهداف، فللقصص النبوي، بالإضافة إلى الأهداف الأصلية التي رأينا للقصص القرآني، أهداف فرعية وأخلاقية نذكر منها على سبيل المثال:

أولاً: أهداف القصص النبوي:

١. بيان أهمية إخلاص العمل الصالح لله، والتوسل به إلى الله لتفريج الأزمات، وفيه جاءت قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، فأنحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا لله بصالح أعمالكم، فدعا الأول بموقف بر عظيم مع أبويه فانفجرت قليلاً، ودعا الثاني بامتناعه عن ابنة عمه بعد أن تمكن منها رغم به الشديدها فانفجرت قليلاً، ودعا الثالث بتثميده أجره أجير ترك أجره يوماً وانصرف حتى صار وادياً عظيماً من المواشي فأعطاه إياه لما حضر فانفجرت فخرجوا من الكهف ناجين.^(١) من هذه القصة نجد أن القصص النبوي يمتاز ببساطة الأسلوب وتفصيله ووضوحه، مما يجعله مناسباً للأطفال والكبار، ويمتاز بتكرار بعض الألفاظ والعبارات للإلحاح على الغرض من الحديث، أو القصة كتكرار قول كل واحد: "اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه". وهكذا سنرى أن لكل قصة من القصص النبوي موضوعاً جديداً وأسلوباً طريفاً، واتجاهاً مغايراً للقصص الأخرى.

٢. الحث على الصدقة، وشكر نعمة الله، وفي هذا المعنى عدد من القصص النبوي: منها قصة الأقرع والأبرص، والأعمى وقد أرسل الله ملكاً إلى كل منهم وقف بطريقة فمسحه فعافاه الله، وأعطاه مالاً ثم أرسل الله الملك ذاته يطلب من كل صدقة، فرفض الأقرع والأبرص وأنكرا نعمة الله إذ ذكرهما بها الملك فأذهبها الله، ورضي الأعمى واعترف

(١) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم: ٣٤٦٥.

بنعمة الله، فقال للملك السائل: خذ ما شئت، فأبقى الله عليه النعمة.^(١) ومنها قصة السحابة التي أمرت أن تسقي حديقة شخص إكراماً له على صنيعه فقد كان ينظر إلى ما يخرج منها فيتصدق بثلثه، ويأكل وعياله ثلثه، ويرد فيه ثلثه.^(٢)

ثانياً. **القصص النبوي التاريخي**: يستطيع الباحث أن يميز بين ثلاثة أشكال لقصص الرسول التاريخية:

١. كان بعض القصص النبوي التاريخي تكميلاً وتوضيحاً وتوسيعاً لما ورد في القرآن من إشارات إلى قصص مختصرة اقتصر القرآن منها على ما يحقق غرضه من إيرادها، كقصة إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام إذ يرفعان القواعد من البيت، وإذ ترك إبراهيم زوجته وطفله، ثم أنعم الله عليهما ببئر زمزم، وقصة الخضر وموسى عليهما السلام، ومثل هذه القصص النبوية منثورة في كتب الحديث، وخاصة في أبواب التفسير.

٢. والبعض الآخر ليس كله من كلام الرسول ﷺ، ولكنها قصص فيها عبرة، وفي عرضها فائدة عظيمة، فهي وقائع بارزة من حياة بعض الصحابة في عهد الرسول ﷺ، كان لها وقع عظيم، وربما نزل فيها قرآن. كقصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد، ثم قاطعهم الرسول والصحابة، حتى أنزل الله توبتهم في القرآن. وقصة الإفك حيث اتهم المنافقون عائشة رضي الله عنها حتى أنزل الله براءتها في القرآن. وقصة المرأة التي ظاهر منها زوجها وراحت تشتكي إلى الله حتى نزل فيها قرآن.

٣. أما الوقائع التاريخية وغزوات الرسول ﷺ، فهي قصص متتابعة أخذ بعضها بأطراف بعض، يجدها المربي في كتب السيرة ولا يستغني عنها لما فيها من عبرة وفقه نبوي، وبيان لأسباب النزول، وتاريخ التشريع الإسلامي، ولحياة الرسول القدوة يقتدي الجيل بسجاياء الحميدة.^(٣)

٣

(١) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم: ٣٤٦٤.

(٢) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب الصدقة على المساكين، رقم: ٢٩٨٤.

(٣) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ٩٧.

المبحث الثاني

التربية بضرب الأمثال

المطلب الأول: معنى الأمثال:

مثَلُ الشيء بالتحريك، صفته التي توضحه وتكشف عن حقيقته، أو ما يراد ببيانه من نعته وأحواله،^(١) وضرب المثل عبارة عن^١ إيقاعه وبيانه، وهو في الكلام أن يذكر لإيضاح حال من الأحوال ما يناسبها ويشابها ويظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفياً، واختير له لفظ "الضرب"؛ لأنه يأتي عند إرادة التأثير وتحييج الانفعال، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره إلى قلبه، ولكن في الكلام قلباً حيث جعل المثل هو المضروب، وإنما هو مضروب به،^(٢) وإذا كان الغرض التأثير، فالبلاغة تقتضي أن تضرب الأمثال لما يراد تحقيره والتنفير عنه بحال الأشياء التي جرى العرف بتحقيرها كتشبيه معبودات المشركين وأوليائهم ببيت العنكبوت أو هن البيوت. ولكن بعض المشركين وأمثالهم لم يروا في القرآن شيئاً يعاب، فقالوا: لا يليق بالله ضرب هذه الأمثال كالذباب والعنكبوت، ولذلك رد الله عليهم بقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} (البقرة: ٢٦). ينتج معنا مما تقدم أن للأمثال في القرآن واللغة معان أهمها: تشبيه شيء يراد بيان حسنه أو قبحه بشيء مألوف حسنه أو معروف حقارته. وذكر حال من الأحوال ومقارنتها بحال أخرى مع وجود جامع بينهما لبيان الفارق كقوله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَاهُمْ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} (محمد: ١-٣) أي يبين أحوالهم، فالكافر يحبط عمله والمؤمن يغفر زلله، والجامع

(١) انظر مختار الصحاح: الرازي، م ث ل، ص ٣٩٠.

(٢) تفسير المنار: رشيد رضا، ١/ ١٦٧. ٢

بين الفريقين أن كلاهما بشر، قد وهبه الله عقلاً وأرسل إليه رسولاً، ومع هذا التماثل كان الفارق كبيراً من حيث النتائج. **وبيان استحالة التماثل** بين شيئين يزعم المشركون أن بينهما جانباً من التماثل، فآلهة المشركين لا يعقل بحال أن ترقى إلى المماثلة مع الخالق فتعبد معه، لذلك ضرب الله المثل الآتي: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} (الحج: ٧٣)، فكيف يعبدون هذه الآلهة التي بلغ بها الضعف هذا المبلغ، مع الله خالق كل شيء؟! (١)

المطلب الثاني: بعض الأهداف التربوية التي حققتها الأمثال القرآنية النبوية:

لم تكن الأمثال القرآنية والنبوية مجرد عمل فني يقصد من ورائه الرونق البلاغي فحسب، بل إن لها غايات نفسية تربوية حققتها نتيجة لنبل المعنى، بالإضافة إلى الإعجاز البلاغي، ومن أهم هذه الأهداف التربوية:

أولاً: تقريب المعنى إلى الأفهام فقد أَلَفَ الناس تشبيه الأمور المجردة بالأشياء الحسية، ليستطيعوا فهم تلك الأمور المعنوية أو الغيبية، وقد بلغت الحكمة النبوية غاية في روعة الوضوح، كما حصل حين مر رسول الله ﷺ بالسوق، ورأى تهافت الناس على الدنيا، فأراد أن يبين لهم هوانها، فمر ﷺ بجدي صغير الأذن ميت فتناولوه فأخذ بأذنه، ثم قال: "أيكم يجب أن يكون له هذا بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما تصنع به؟ ثم قال: أتحبون أنه لكم؟ أي بدون عوض: قالوا: والله لو كان حياً كان عيبه أنه أسك فكيف وهو ميت؟ فقال: فو الله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم." (٢) ومن الأمثال النبوية المعروضة بأسلوب الحوار الخطابي أيضاً، قوله ﷺ: "أرايتم لو أن نهرأ بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه، قال:

(١) انظر التربية الإبداعية في منظور التربية؛ خالد الحازمي، ص ٤٨١.

(٢) مسلم: كتاب الفتن وأشرط الساعة، كتاب الزهد والرقائق، رقم: ٢٩٥٧.

فذلك مثل الصلوات الخمس يحو الله بهن الخطايا". (١) أما الأمثال القرآنية فقد بلغت ذروة الإعجاز والبلاغة من حيث أداء المعنى وتقريبه للأفهام نذكر منها على سبيل المثال المعنى الذي ضربه الله مثلاً للحق والباطل: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ} (الرعد: ١٧)، فالباطل يضمحل كالزبد الذي يحتمله السيل، وإن علا على الحق في بعض الأوقات كما يعلو الزبد، والحق ثابت باق يمحث في القلب فينتفع به المؤمن، فيثمر عملاً صالحاً كما يمحث الماء، وأسباب الإنبات في الأرض فيثمر زرعاً ونخلاً وأعناً.

ثانياً: إثارة الانفعالات المناسبة للمعنى وتربية العواطف الربانية، واختيار المشبه به أكبر الأثر في إثارة الانفعال المناسب، فاختيار العنكبوت يثير انفعال التقزز والاحتقار تجاه المشركين، والشعور بضعف عقولهم وازدراء أفكارهم. واختيار الحمار لتشبيهه من يقرأ كتاب الله ولا يعمل به، يثير انفعال الاشمئزاز من هؤلاء والشعور بتفاهتهم وضياع عقولهم، وفي الوقت ذاته يلاحظ أن إثارة انفعالات التقزز والكره والاحتقار لمعاني الشرك والكفر، ولضياع التفكير السليم عند المشركين أو الضالين، يقابله إثارة انفعال الارتياح لمعاني الإيمان لدى المؤمن، والاعتزاز بالولاء لله لمجرد شعور المؤمن بالخلاص مما وقع فيه هؤلاء، والترفع عن أحوالهم بما هداه الله إليه. وقد جمع القرآن بين الإثارتين في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ، وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا، وترفع به الدرجات، رقم:

لَمْ يُصِْبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ { (البقرة: ٢٦٤-٢٦٦) فهذا المثل القرآني العظيم يثير في النفس نوعين من الانفعالات: ففي الآية الأولى والأخيرة، يثير المثل انفعال الخوف من الخسران وإحباط العمل وخسارة الثواب في حال لا يستطيع فيها الإنسان الاستغناء عن ثمرات أعماله، كما لا يستطيع الأب العاجز الضعيف الاستغناء عن ثمرات جنته، وفيها تنفير من الرياء الذي يؤدي إلى هذا الخسران المبين، أما الآية الثانية ففيها إثارة انفعال الرغبة في ثواب الله والاعتزاز بكرم الله، والشعور بفضله، وبهذه الإثارات، إذا تكررت تربى عاطفة الشكر لله، والشعور بقدرته وعظمته.

ثالثاً. تربية العقل على التفكير الصحيح والقياس المنطقي السليم: تنطوي معظم الأمثال على قياس تذكر مقدماته ويطلب من العقل أن يتوصل إلى النتيجة التي لا يصرح القرآن بها في كثير من الأحيان بل يشير إليها فقط، فعندما ضرب الله مثلاً للحق والباطل وصف الباطل بالزبد، والحق بما ينفع الناس فيمكث في الأرض، ثم اكتفى بإشارة سريعة إلى النتيجة، وترك للعقل أن يكتشف أن الحق يبقى وأن الباطل يذهب جفاء، كما يذهب الزبد بعد انتهاء السيل، ويشعر الإنسان بلذة الظفر بالوصول إلى اكتشاف اللغز الذي أشارت إليه الآية.

رابعاً. الأمثال القرآنية والنبوية دوافع تحرك العواطف والوجدان، فيحرك الإرادة ويدفعها إلى عمل الخيرات واجتناب المنكرات، وبهذا تساهم الأمثال في تربية الإنسان على السلوك الخير وتهذيب نزعاته الشريرة، فتستقيم حياة الأفراد والمجتمعات، وتسير الأمة الإسلامية نحو حضارة مثلى تحقق للإنسانية الرخاء والعدالة، والتحرر من كل خرافة.^(١)

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ٢٠١.

المبحث الثالث

التربية بالقُدوة

المطلب الأول: الحاجة إلى القدوة:

أولاً. مهما يكن من أمر إيجاد منهج تربوي متكامل، ورسم خطة محكمة لنمو الإنسان وتنظيم مواهبه وحياته النفسية والسلوكية واستنفاد طاقاته على أكمل وجه. مهما يكن من ذلك كله، فإنه لا يغني عن وجود واقع تربوي يمثله إنسان مرب يحقق بسلوكه وأسلوبه التربوي كل الأسس والأهداف التي يراد إقامة المنهج التربوي عليها. لذلك بعث الله محمداً ﷺ ليكون قدوة للناس يحقق المنهج التربوي الإسلامي: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} (الأحزاب: ٢١). ولقد سئلت عائشة رضي الله عنها، عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: "إن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن". (١) وحقاً كان رسول الله ﷺ بشخصه وشمائله وسلوكه وتعامله، ترجمة عملية بشرية حية لحقائق القرآن وتعاليمه، وآدابه وتشريعاته، ولما فيه من أسس تربوية إسلامية، وأساليب تربوية قرآنية. (٢)

ثانياً. ولقد فُطِرَ الناس على افتقاد القدوة والبحث عن الأسوة، ليكون لهم مثلاً حياً يبين لهم كيف يطبقون شريعة الله، لذلك لم يكن لرسالات الله من وسيلة لتحقيقها على الأرض إلا إرسال الرسل يبينون للناس ما أنزل الله من شريعة قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (النحل: ٤٣-٤٤).

ثالثاً. وتتجلى هذه الفطرة عند الناس في مواقف غريبة عليهم لم يألفوها بل ربما ألفوا غيرها، كما حصل عندما أراد الله لرسوله أن يتزوج امرأة زيد الذي كان رسول الله ﷺ قد تنبأه، ليبين للناس عملياً أن زيدا ليس له شيء من حقوق النبوة الطبيعية أو تشريعاتها،

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، رقم: ٧٤٦.

(٢) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي؛ ص ٢٠٥.

قال تعالى: { فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجٍ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا } (الأحزاب: ٣٧).

رابعاً: كما تتجلى في المواقف التي تحتاج إلى التضحية بالحروب والإنفاق ونحو ذلك، كان رسول الله ﷺ يتقدم الصحابة في الغزوات أو يوجههم من مركز القيادة، وكان في غزوة الخندق يربط الحجر على بطنه، ويحفر الخندق مع الصحابة، فكان مثلاً للمربي القدوة يتبعه الناس ويعجبون بشجاعته وصبره. وكان قدوة في حياته الزوجية، والصبر على أهله وحسن توجيههن، فقال: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي".^(١) وكان قدوة في حياته الأبوية وفي حسن معاملته للصغار ولأصحابه ولجيرانه وكان يسعى في قضاء حوائج المسلمين، وكان أوفى الناس بوعده، وأشدّهم ائتماناً على الودائع، وكان أفضل داعية إلى الله يصبر على الشدائد الناجمة عن كيد أعداء الله، وكان حازماً لا يفقد حزمه في أشد المواقف هولاً لأنّ ملجأه إلى الله يستلهم منه القوة والصبر: وموقفه من ثقیف في الطائف عندما ذهب لدعوتهم خير دليل على ذلك.^(٢)

المطلب الثاني: التطبيقات التربوية:

يلاحظ من الناحية العلمية أن للقدوة آثاراً، وأساساً تربوية أهمها:

أولاً: إن حياة المربي المسلم هي حياة الداعية إلى الله، يحتاج أن يكون قدوة أمام طلابه، يسارع إلى المفاداة والتضحية، ويمتنع عن سفاسف الأمور. فالطفل لا بد له من قدوة في أسرته لكي يتشرب منذ طفولته المبادئ الإسلامية، وينهج على نهجها الرفيع. والتلميذ في المدرسة لا بد له من قدوة يراها في كل معلم من معلميه، ليقتنع حقاً بما يتعلمه، وليرى فعلاً أن ما يطلب منه من السلوك المثالي أمر واقعي ممكن التطبيق، وأن السعادة الحقيقية الواقعية لا تكون إلا في تطبيقه.

(١) سنن ابن ماجه: أبواب النكاح، باب حسن معاشره النساء، رقم: ١٩٧٧. قال الأرناؤوط: صحيح لغيره وهذا إسناده ضعيف.

(٢) انظر كتب السيرة النبوية، وكتب الحديث والتفسير، التي تزخر بتلك المواقف.

ثانياً. وقد جعل الإسلام القدوة الدائمة لجميع المربين الرسول ﷺ قدوة متجددة على الأجيال، كلما قرأنا أخباره ازددنا حباً له واقتداء به، والإسلام لا يعرض هذه القدوة للتأمل التجريدي إنه يعرضها ليحققوها في ذوات أنفسهم، كل بقدر ما يستطيع أن يقتبس، وكل بقدر ما يصبر على الصعود. وهكذا تظل القدوة في الإسلام، شاخصه ماثلة للعيان تتدفق حيوياتها، ولا تتحول إلى خيال مجرد تقيم في حبه الأرواح، دون تأثير واقعي.

المطلب الثالث: الأسس النفسية لاتخاذ القدوة (التقليد):

إن حاجة الناس إلى القدوة نابعة من غريزة تكمن في نفوس البشر هي التقليد، وهي رغبة ملحة تدفع الطفل والضعيف والمرؤوس إلى محاكاة سلوك الرجل والقوي والرئيس، كما تدفع غريزة الانقياد في القطيع جميع أفرادهم إلى اتباع قائده. ولكن التقليد الغريزي في القطيع أحد أنواع التقليد، ويرتقي التقليد بارتقاء المجتمع، حتى يبلغ في التربية الإسلامية ذروته من الوعي والسمو، ويتضح لنا ذلك إذا عرفنا عناصر التقليد وأساسه وهي:

أولاً. الرغبة في المحاكاة والافتداء، فالطفل مدفوع برغبة خفية لا يشعر بها نحو محاكاة من يُعجب به في لهجة الحديث وأسلوب الحركة ومعظم عادات السلوك دون أن يقصد، وهذا التقليد غير المقصود لا يقتصر على حسنات السلوك بل قد يتعداها إلى غيرها، ولذلك كان من الخطورة بمكان ظهور المساوئ في سلوك القدوة؛ لأنه بذلك يحمل وزر من يقلده فيها. لذلك نبه القرآن الآباء إلى أن الاستمتاع بالأطفال والعطف عليهم، يجب ألا يشغلهم عن أن يكونوا قدوة صالحة لهم، فقال في وصف عباد الرحمن: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} (الفرقان: ٧٤)، كما نبه النبي ﷺ البشرية عموماً إلى ما يتحملة كل من يؤثر في سلوك الآخرين من النتائج حين يقلدونه بخير أو شر، قال ﷺ: "من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيء".

وقد كان سبب ورود الحديث أنه جاء قوم إلى النبي ﷺ يبدو عليهم الفقر، فدعا ﷺ الصحابة ليتصدقوا فلم يتقدم أحد، فأعاد الدعوة حتى قام صحابي: فجاء بوسق من تمر، ثم قلده الصحابة فتتابعوا يجلبون مما عندهم فذكر الحديث.^(١)

ثانياً. العنصر الثاني الاستعداد للتقليد: فلكل مرحلة من العمر استعدادات وطاقات محدودة، لذلك لم يؤمر الأطفال بالصلاة قبل سبع سنين، ولا يمنع ذلك من ترك الطفل يقلد أبويه بحركات الصلاة قبل ذلك، ولكن لا يؤمر بكل أذكارها. وعلى العموم يجب أن نحسب حساباً لاستعداد الطفل وطاقاته عندما نطلب منه تقليد أحد أو الاقتداء به. ومن الظروف التي تهب الناس عموماً استعداداً للتقليد الأزمات والكوارث، هناك يخرج المجتمع مكسوراً فيفتقد القدوة ليحاكيها في كل سلوك وفكرة، ومن تلك الأسباب: الشعور بالضعف أمام القوة، فالمغلوب يقلد غالبه بعد أن يخضع لحكمه، والطفل يقلد أباه، وقد حذرنا النبي ﷺ من مغبة هذا التقليد إذا كان بغير هدف فقال: "لتبعن سنن من قبلكم شراً وذراعاً بذراع.." ^(٢).

ثالثاً. العنصر الثالث من عناصر التقليد، الهدف: لكل تقليد هدف قد يكون معروفاً لدى المقلد وقد لا يكون، والهدف الحيوي الغامض ^(٣) الأول من غريزة التقليد والانقياد لدى الأفراد والجماعات هو غرض دفاعي، إنه الدفاع عن الكيان الفردي وكأنه انضواء في ظل الشخص القوي يقلده شخص أضعف منه لعله يستمد من هذا التقليد قوة من جنس قوة الشخص الذي حاز إعجابه فراح يقلده في كل شيء. فإذا ارتقى الوعي عند المقلد، عرف الهدف من التقليد، فأصبح هذا التقليد عملية فكرية ويصبح لهذا بصيرة أي معرفة بالغاية والأسلوب، وفي هذا المعنى يقول تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (يوسف: ١٠٨) فيعرف الناشئ أن في

(١) مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمر، أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، رقم: ١٠١٧.

(٢) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم: ٣٤٥٦.

(٣) أي الذي قد لا يشعر به الطفل أو الحيوان.

تقليد قادة المسلمين الأوائل الفلاح والقوة والبأس وطاعة الله، ويدعو الله في كل صلاة أن يرزقه الاقتداء بهم: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} (الفاتحة: ٦-٧).^(١)

المطلب الرابع: الأشكال التربوية للقدوة:

أولاً. التأثير العفوي غير المقصود: هنا يقوم تأثير القدوة على مدى اتصافه بصفات تدفع الآخرين إلى تقليده، كتفوقه بالعلم أو الإخلاص مثلاً، وفي هذه الحال يكون تأثير القدوة عفوياً غير مقصود، وهذا يعني أن على كل من يرجو أن يكون قدوة أن يراقب سلوكه، ويعلم أنه مسؤول أمام الله في كل ما يتبعه الناس، وكلما ازداد حذراً وإخلاصاً ازداد الإعجاب به، فتزداد فائدته، وأثره الطيب في النفوس.

ثانياً. التأثير المقصود: إن تأثير القدوة قد يكون مقصوداً، فيقرأ المعلم قراءة نموذجية ليقلده الطلاب، ويجود الإمام صلاته ليعلم الناس الصلاة الكاملة، وهكذا. وقد تعلم الصحابة كثيراً من أمور دينهم بطلب من رسول الله أن يقتدوا به، فكان يقول لهم: "صلوا كما رأيتموني أصلي"،^(٢) ويقول: "لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه"،^(٣) ثم كان الصحابي يقول للتابعين: ألا أصلي لكم صلاة رسول الله ﷺ؟ وهكذا علمنا رسول الله ﷺ رائد التربية الإسلامية أن يقصد المربي إلى تعليم طلابه بأفعاله، وأن يلفت نظرهم إلى الاقتداء به؛ لأنه إنما يقتدي برسول الله ﷺ، وأن يحسن صلاته وعبادته، وسلوكه بهذا القصد.^(٤)

(١) انظر التربية الإبداعية في منظور التربية: خالد الحازمي، ص ٤٥١. وانظر التربية الإسلامية أصولها ومنهجها: عاطف السيد، ص ٥٣.

(٢) البخاري: كتاب الأذان: باب الأذان للمسافر، إذا كانوا جماعة، والإقامة، وكذلك بعرفة وجمع، رقم: ٦٣١.

(٣) مسلم: كتاب الحج، باب استحباب رمي جَمْرَةِ الْعَقْبَةِ يوم النحر راكباً، وبيان قوله صلى الله عليه وسلم «لتأخذوا مناسككم»، رقم: ١٢٩٧.

(٤) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي؛ ص ٢١٠.

المبحث الرابع

التربية بالممارسة والعمل

المطلب الأول: أهمية العمل في الإسلام:

لم يكن الإسلام ديناً كهنوتياً مقتصرًا على الطقوس والألفاظ الفخمة التي لا يعرف المتدين معناها، بل هو دين يقوم على علاقة متينة بين الإنسان وربّه، هو دين يطالبنا بالأعمال الصالحة، وأن نوجه سلوكنا وغرائزنا توجيهاً يحقق الآداب والتشريعات الإلهية تحقيقاً عملياً. لذلك كان من شرار الناس الذي يعلم ولا يعمل بعلمه، يقول رسول الله ﷺ: "يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أفتابه، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجمع أهل النار عليه فيقولون: يا فلان ما شأنك؟ أألمت كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن الشر وآتية"،^(١) وقد حكي عن بعض علماء السلف أن العلم ينقص أو يُنسى بترك العمل به أو الدعوة إليه أو نشره، ويزداد متانة بالعمل به والدعوة إليه وتعليم الناس، وهذه حقيقة من حقائق التربية، وقد سبق إليها الإسلام بقرون عديدة. فمن البدهي أن التعليم بالأسلوب العملي أو بقصد التطبيق، أوقع في النفس وأدعى إلى إثبات العلم، واستقراره في القلب والذاكرة.

المطلب الثاني: التعليم بالأسلوب العملي (الممارسة والتكرار):

كان من أسلوب رسول الله ﷺ أن يعلم الصحابة بالممارسة العملية، ومن الأدلة على هذا الأسلوب النبوي حديث المسيء صلاته وهو أن رجلاً دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس في ناحية المسجد فصلى، ثم جاء فسلم عليه، فقال له رسول الله ﷺ: "وعليك السلام، ارجع فصل، فإنك لم تصل، فصلى ثم جاء فسلم، فقال: وعليك السلام، ارجع فصل، فإنك لم تصل فقال في الثانية أو في التي تليها: علمني يا رسول الله، فقال: إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن،

(١) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، وأنها مخلوقة"، رقم: ٣٢٦٧.

ثم اركع حتى تطمئن راکعاً، ثم ارفع حتى تستوي قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها" (١) ومن البدهي أن الصحابي عاد فصلى كما علمه رسول الله ﷺ بقرينة تكرار صلاته قبل ذلك وتلهفه على التعلم، ولكن رواية الحديث اكتفوا بإرضاء رغبتهم في وصف رسول الله ﷺ للصلاة كما يجب أن تُصلى، ويؤخذ من هذا الحديث من الناحية التربوية نتائج أهمها: تشويق الرسول ﷺ لهذا المتعلم، تركه يحاول تصحيح خطئه بنفسه أو يعجز فيسأل، وهذا أصل انبثق عنه أسلوب التعلم بالمحاولة والخطأ كما يسمونه في التربية الحديثة. كما أن الرسول ﷺ لم يبين له الصلاة الصحيحة حتى سأل عنها بنفسه، فكان هذا الأسلوب أوقع في نفس المتعلم وأدعى إلى قبوله وانطباع أعمال الصلاة في ذاكرته. ومن التعلم بالعمل والممارسة: تعلم الصحابة وضوء الرسول ﷺ، وتصحيح الرسول لهم أو تصحيح بعضهم لبعض، وقد نقلت إلينا كتب الحديث جانباً من هذه الأساليب التربوية، منها على سبيل المثال عن عثمان بن عفان: أنه دعا بماء فتوضأ، ثم ضحك فقال لأصحابه: ألا تسألوني ما أضحكني؟ فقالوا: ما أضحكك يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ كما توضأت ثم ضحك، فقال: ألا تسألوني ما أضحكني، فقالوا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: إن العبد إذا دعا بوضوء فغسل وجهه حط الله عنه كل خطيئة أصابها بوجهه، فإذا غسل ذراعيه كان كذلك، وإذا طهر قدميه كان كذلك، فإذا مسح رأسه كان كذلك" (٢) وفي هذا الحديث تعليم بالاقتران العملي، وفيه أيضاً تمثيل عملي للناحية العاطفية: أي تمثيل أقوال الرسول وانفعالاته كالضحك، وقد يتابع الصحابي على ذلك سائر الرواة، فيضحك كل راو ليقول لتلاميذه الرواة: "ألا تسألوني ما أضحكني؟" ويتوضأ أمامهم ليقول لهم:

(١) البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت، رقم: ٧٥٧. ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم: ٣٩٧.

(٢) مسند أحمد ابن حنبل: مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند الخلفاء الراشدين، مسند عثمان بن عفان، رقم: ٤٣٠، ٤٨٦/١.

رأيت فلاناً تَوْضُأً وقد رأى فلاناً تَوْضُأً.. كما تَوْضُأُ رسول الله. وهذا النقل لحركات الرسول راوياً عن راوٍ قد جمعت فيه أحاديث سميت بالأحاديث المسلسلة.^(١)

المطلب الثالث: الأثر النبوي للتعليم بالعمل والممارسة:

يربي هذا الأسلوب في النفس أخلاقاً تجعل حياة الفرد أكثر استقامة، وتجعل المجتمع أشد تماسكاً وأكبر إنتاجاً:

أولاً. الإتيان العملي خير مقياس للتعليم، سواء في ذلك الاستحفاظ أو أداء العبادات، لذلك كان من نتائج هذا الأسلوب، تعوُّد الدقة وتوخي صحة النتائج، فكل متعلم يمارس العمل أمام معلمه، ثم يناظره المعلم ويصحح له أخطائه كما صحح رسول الله ﷺ صلاة المسيء صلاته.

ثانياً. شعور الإنسان بالمسؤولية عن صحة العمل، وهذا يجعل منهجية التربية الإسلامية منهجية حركية فكرية عاطفية مبنية على الوعي والدقة التي تتجلى في إخلاص النية وتوجيه العمل نحو إرضاء الله تعالى بلا رياء ولا استكبار، فلا تقبل العبادات إلا ضمن منهجية حركية لفظية معينة وصفها لنا رسول الله ونقلها لنا الصحابة فالتابعون فالفقهاء المتأخرون إلى يومنا هذا. وقد جمع بين الأمرين في بلاغة، وإيجاز قوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} (الكهف: ١١٠) فُسِّرَ الصلاح بموافقة السنة، وعدم الشرك في العبادة بالرياء وغيره، وبإخلاص النية لله تعالى في العبادة.

ثالثاً- التواضع وحب العمل واستبعاد الغرور، وترك الكسل والتواكل، فكل إنسان مؤاخذ بعمله لا يغني عنه نسب ولا جاه ولا مال ولا مجرد الانتساب إلى دين معين. وقد تفاخر أفراد من اليهود والنصارى، وأفراد من مشركي قريش، وأفراد من المسلمين، فقال المشركون: إنا لا نبعث، وقال كل من أتباع الأديان أنهم أفضل، فنزل قوله تعالى: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيٍّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا، وَمَنْ

(١) انظر التربية الإسلامية أصولها ومنهجها! عاطف السيد، ص ٧٤.

يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ مَنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ
نَقِيرًا^(١).

رابعاً: شدة الاقتناع وبلوغه أعماق النفس: أراد رسول الله ﷺ أن يعطي الصحابة درساً عملياً في ترك التسول والاعتماد على النفس في كسب الرزق، فقص علينا أنس رضي الله عنه ذلك بقوله: إن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ، فسأله، فقال: أما في بيتك شيء؟ قال: بلى جلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه الماء، قال: ائتني بهما، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: من يشتري هذين؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين، وأعطاهما الأنصاري، وقال: اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فأتني به، فأتاه به فشد فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال: اذهب فاحتطب وبع، لا أرينك خمسة عشر يوماً، ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوباً وبيع بعضها طعاماً، فقال رسول الله ﷺ: هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة^(٢). فهذا الدرس لا ينساه الأنصاري، ولا جميع الصحابة الذين رأوا صنع رسول الله ﷺ معه؛ لأنهم رأوا النتائج الطيبة للعمل بأعينهم بشكل واقعي، فعلى المربي أن يقتدي بهذا الأسلوب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

المبحث الخامس

التربية بالعبارة والموعظة

كثيراً ما تستعمل هاتان الكلمتان وكأنهما لفظان مترادفان. والحق أن بينهما اختلافاً في المعنى، ولكل منها نتائج تربوية خاصة بها، عدا النتائج المشتركة؛ لذلك أثرت أن أبحث كلاهما على انفراد.

(١) انظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٧٧٤هـ)، ٣٦٩/٢.

(٢) سنن بي داود: كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة، رقم: ١٦٤١. قال الأرناؤوط: صحيح لغيره، وهذا إسناده ضعيف.

المطلب الأول: التربية بالعبرة:

أولاً. المعنى اللغوي والقرآني: العبرة على وزن فِعْلة، عَبَّرَ الرؤيا فَسَّرَهَا وعَرَفَ ما تَوَوَّل إليه في حياة صاحبها أو بعد موته، وَعَبَّرَ الوادي النهر تجاوزه من طرف إلى طرف يقابله،^(١) والاعتبار والعبرة: الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، والمراد منه التأمل والتفكير، فالعبرة والاعتبار حالة نفسية توصل الإنسان إلى معرفة المغزى والمآل لأمر ما، يشاهده الإنسان ويتبصر فيه، فيصل إلى نتيجة مؤثرة يخشع لها قلبه، فيدفعه ذلك إلى سلوك فكري واجتماعي مناسب، والغاية التربوية من العبرة في القرآن الوصول بالسامع إلى قناعة فكرية بأمر من أمور العقيدة، تربي عواطف ربانية كما تغرس وتنمي عقيدة التوحيد والخضوع لشرع الله والانقياد لأوامره.

ثانياً. أنواع العبر في القرآن والسنة: اختلفت أساليب الاعتبار في القرآن الكريم والسنة المطهرة باختلاف موضوع العبرة، وها هي ذي أهم الموضوعات الباعثة على التأمل والاعتبار:

١. العبرة بالقصص: لكل قصة قرآنية أو نبوية هدف تربوي سبقت من أجله، والعبرة بالقصة إنما يتوصل إليها صاحب الفكر الواعي الذي لا يطغى هواه على عقله وفطرته، بل يستنبط من القصة المغزى الحق وفي ذلك يقول الله تعالى بعد ذكر قصة يوسف: {إِنَّ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (يوسف: ١١١) ووجه الاعتبار بهذه القصة: أن الذي قدر على إنجاء يوسف بعد إلقاءه في الحب، وتمليك مصر بعد أن بيع بالثمن البخس، وجمع شمله بأبويه بعد المدة الطويلة. إن الذي قدر على ذلك لقادر على إعزاز محمد ﷺ، وإظهار دينه.^(٢)

(١) مختار الصحاح: الرازي، ع ب ر، ص ١٩٨.

(٢) انظر تفسير ابن كثير: ٣٦٥/٤.

٢. العبرة بمخلوقات الله ونعمه التي سخرها للإنسان، ومنها قوله تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ، وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (النحل: ٦٦-٦٧) ولما كانت العبرة مبنية على تفكير عميق وملاحظة دقيقة، أمكننا أن نعرف الحكمة الربانية من الإشارة إلى أمور تثير الدهشة وتدعو التأمل فيما أنعم علينا، كما أشار هنا إلى اللبن الأبيض الخالص من كل الشوائب مع أنه مستخلص من بين فرث ودم، وأشار أيضاً إلى ثمرات النخيل والأعناب، التي تستخلص غذاءها من الماء والتراب، وتعطي الإنسان سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، فيخزنها ويحتفظ بها على مدى أيام السنة بجميع فصولها، ويستخلص منها المادة السكرية التي تشكل نصف غذاء البشرية في بعض القارات أو الأقطار. يجب أن تشمل التربية بالعبرة جميع مواقف الحياة وحوادث الكون، ومظاهر القدرة والعناية الإلهية، كما تشمل معظم الدروس والمواد الدراسية دون تفريق بين مواد دينية أو غير دينية، فالتربية الإسلامية تربية شاملة تحيط الحياة التعليمية من جميع جوانبها. (١)

٣. الاعتبار بالحوادث التاريخية: أشار القرآن إلى حوادث تاريخية بارزة كان لها ما بعدها وأشار إلى العبرة منها كغزوة بدر التي قال الله فيها: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ يَكُونُ نُجُشًا وَنُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ، قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ} (آل عمران: ١٣) فالكفار على كثرتهم كانوا يرون المسلمين القليلين مثليهم وكان هذا من تدبير الله فتزلزلت قلوبهم، ووجه العبرة أن هناك قوة فوق جميع القوى تؤيد المؤمنين وتخذل الكافرين فهذه سنة الله ما زالت، وستبقى ماضية إلى يوم القيامة، فوعد الله بهزيمة الكفار قائم في كل لحظة، ووعد الله بنصر المؤمنين ولو قل عددهم قائم كذلك في كل لحظة، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ} (النور: ٤٤)

(١) معالم أصول التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان لابنه: عبد الرحمن الأنصاري، ص ٢٥٤.

وهكذا يوجهنا القرآن إلى أن الهدف من ذكر الحوادث التاريخية أو تعليمها، ليس التعصب لقوم أو ملة معينة، ولا مجرد التباهي والتفاخر بالأنساب، ولكن الهدف هو الاعتبار، ومعرفة المغزى:

أ . كمعرفة سنة الله في إهلاك المفسدين بسبب فسادهم وظلمهم، وإبقاء الصالحين. {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} (هود: ١٠٢)، {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ} (هود: ١١٧).

ب . ومعرفة: أن تأجيل التوبة إلى حين نزول الهلاك أو استيلاء الأعداء، لا ينفع الذين كانوا منغمسين في الشرك أو موالين لأعداء الله: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} (غافر: ٨٤-٨٥).

ج . ومعرفة سنة الله في نصر عباده المؤمنين حقاً العاملين بشريعته: {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْوَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا، سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} (الفتح: ٢٢-٢٣).

د . ومعرفة سنة الله في إهلاك المنافقين ومرضى القلوب إذا تهادوا في إفساد المجتمع وإنشاء الفتن والإشاعات الكاذبة، بقصد الإيقاع بين المسلمين: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا، مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَفْتِيلًا، سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} (الأحزاب: ٣٣-٦٢). وإن المترفين والأغنياء، كثيراً ما يكونون سبباً في إهلاك قومهم وأمتهم إذا فسقوا عن أمر ربهم. {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} (الإسراء: ١٦).

٤. أهم أهداف تدريس التاريخ في نظر التربية الإسلامية:

أ . البحث عن العبرة من كل واقعة تاريخية تدرس، ويجب توجيه كتب التاريخ ومدرسيه هذه الوجهة.

ب . البحث عن تحقيق سنة من سنن الله في الأمم، وكيف يداول الله الأيام بين الناس، وليست تلك السنن قاصرة على الأقوام البائدة بل إنها من السنن التي لن تجد لها تبديلاً، فيجب أن نحاول معرفة تحقيق بعض هذه السنن في كل ما ندرس من انهيّار الدول أو انتصارها أو نشوئها أو ارتقائها.

ج . البحث عن أثر إصلاح النفس البشرية وتربيتها في مجرى الحوادث التاريخية {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (الأنفال: ٥٣).

د . البحث عن حكمة الله، وتدبيره في ضرب الظالمين بعضهم ببعض لإراحة المؤمنين من شرورهم: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَادَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحج: ٤٠).

هـ . معرفة أن الغاية من التمكن في الأرض إقامة شرع الله، وتحقيق الصلاح ومحو الفساد: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} (الحج: ٤١).

و . وبالجملة يجب أن يكون تدريس التاريخ وسيلة لتثبيت العقيدة وترسيخها بحيث يشعر الطالب بأن هذا الكون الذي تتابعت فيه الأمم، والأحداث على هذا النسق المدهش، لا بد له من موجد مهيمن عليه قوي قادر جبار قاهر عليم حكيم، بحيث يكون تدريس التاريخ توضيحاً طبيعياً لهذه الصفات.

المطلب الثاني: التربية بالموعظة:

أولاً. معنى الموعظة اللغوي والقرآني: الموعظة لغة: وعظه يعظه وعظاً وموعظة: ذكره ما يلين قلبه من الثواب، والعقاب فاتعظ.^(١) أما المعنى القرآني فالوعظ هو النصيح والتذكير

(١) القاموس المحيط: مجد الدين الفيروز آبادي (٨١٧هـ)، باب الظاء فصل الواو، ص ٦٩١.

بالخير والحق على الوجه الذي يرق له القلب ويبحث على العمل؛ مقروناً بالترغيب والترهيب يوعظ به أهل الإيمان بالله، فإن هؤلاء هم الذين يتقبلونه ويتعظون به فيتحررون العمل به قبولاً لتأديب ربهم، وطلباً للانتفاع به في الدنيا، ورجاء في ثبوته ورضوانه في الآخرة. وأما الذين لا يؤمنون بما ذكر الذين يقولون آمنا بأفواههم؛ لأنهم سمعوا قومهم يقولون ذلك، ولم تؤمن قلوبهم؛ لأنهم لا يتلقوا أصول الإيمان بالبرهان القرآني أو النبوي الذي يملك من القلب مواقع التأثير ومسالك الوجدان، فإن وعظهم به عبث لا ينفع، وقول لا يسمع.^(١)

ثانياً. أهم معاني الوعظ، وأشكاله:

١. النصح وهو بيان الحق والمصلحة، بقصد أن نجنب المنصوح الضرر وندله على ما يحقق سعادته، ودليل النصح ألا يتوخى الناصح مصلحة شخصية دنيوية مادية لنفسه، ولذلك وجب على المربي الناصح أن يتنزه أثناء أداء واجبه التربوي عن كل رياء وعن كل ما يوحى للآخرين بأن له في فعله مصلحة خاصة، لئلا يشوب إخلاصه وسمعته فيفقد هيئته التربوية وتأثيره في نفوس طلابه، وقد بين الله ذلك عند ذكر الحوار الذي جرى بين الرسل وأقوامهم، فقال مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} (الفرقان: ٥٧) وقال على لسان نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء: ١٠٩) فتكررت هذه الآية خمس مرات في هذه السورة، لتؤكد إخلاص الرسل وتنزههم عن المصالح المادية الشخصية في دعوتهم إلى الله. ومن شروط النصح الأمانة، وهي هنا تبليغ الحق والشرع وأخبار الغيب، كما وردت بدون تحريف ولا تشويه، مع تحري الصحة في الأسانيد إن كان العالم يستدل بأحاديث نبوية.

٢. التذكير: وهو أن يعيد الواعظ إلى الذاكرة معان وذكرات تستيقظ معها مشاعر وانفعالات تدفع للمبادرة إلى العمل الصالح، وهذا يقتضي أن يكون في ذكريات

(١) تفسير المنار: رشيد رضا، ص ٤٠٣. ١

الموعوظ ووجدانه ما يعتمد عليه الواعظ من إيمان بالله وخوف من الحساب ورغبة في الثواب، وللتذكير وسائل من أهمها التذكير بالموت، كان عمر بن الخطاب يخاطب نفسه قائلاً: كفى بالموت واعظاً يا عمر، وكان الخوف من الله ومن الحساب بعد الموت بين يدي الله قد أسال دموع هذا الخليفة الصالح حتى ترك الدمع أثراً واضحاً في خديه، أصبح يعرف به بين أصحابه، ومما يتبع الموت التذكير بعذاب القبر وسؤال الملكين في القبر، وتنشأ العظة بالموت عن أنه آت لا محالة، وأنه لا يأتي في الوقت الذي يريده الإنسان، فهو من صنع الله وتقديره، استأثر الله وحده بعلمه، وقد شرع الله لنا تغسيل الميت وتجهيزه، وتشيعه وزيارة القبور لنزداد عظة بالموت. وفي هذا موعظة لمن يعقل ويفكر في هذه الحياة ليرجع إلى الله. لذلك شرع لنا زيارة المرضى لنشكر الله على الصحة من جهة، ونواسي المريض من جهة أخرى، وأدبنا رسول الله ﷺ أن ندعو للمريض بالقول: "أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك" (١). (٢)

٢ ١

ثالثاً. النتائج التربوية: يعتمد الوعظ من الناحية النفسية، والتربوية على أمور أهمها:

١- إيقاظ عواطف ربانية بطريق الحوار أو العمل والعبادة أو غير ذلك كعاطفة الخضوع لله، والخوف من عذابه أو الرغبة في جنته، وكذلك يربي الوعظ هذه العواطف وينميها، وقد ينشئها من جديد.

٢- الاعتماد على الجماعة المؤمنة التي توجد جواً يكون فيه الوعظ أشد تأثيراً وأبلغ في النفوس، لذلك جاءت معظم المواعظ القرآنية والنبوية بصيغة الجماعة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (النساء: ٥٨).

(١) سنن أبي داود: أول كتاب الجنائز، باب الدعاء للمريض عند العيادة، رقم: ٣١٥٦. قال الأرناؤوط: صحيح.

(٢) انظر التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية: محمد منير مرسي، ص ١٠.

٣. ومن أهم آثار أسلوب الموعظة تزكية النفس وتطهيرها وهو من الأهداف الكبرى للتربية الإسلامية، وتحقيقه يسمو المجتمع ويتعدى عن المنكرات، فلا ينبغي أحد على أحد ويأتمر الجميع بأمر الله بالعدل والإحسان وقد جمعت هذه المعاني في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النحل: ٩٠).

المبحث السادس

التربية بالترغيب والترهيب

بني هذا الأسلوب التربوي الإسلامي على ما فطر الله عليه الإنسان من الرغبة في اللذة والرفاهية، والرغبة من الألم وسوء المصير. ومع أن جميع الكائنات الحية تبتعد عما يؤذيها حال شعورها به وتقبل على ما يلذها ويحق استمرار الحياة لها أو لجنسها إلا أن الله ميز الإنسان بالقدرة على التعلم والتفكير لما بعد الفترة التي يعيشها، والعمل والتحضير للمستقبل والتمييز بين الضار والنافع. ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن الفتى تستيقظ عنده الرغبة الجامحة في الزواج منذ بلوغه الحلم، لكنه يؤجل ذلك إذ يجد نفسه عاجزاً عن نفقات الحياة الزوجية، فيفضل لذة ومتعة مؤجلة، ولو كان التأجيل مديداً، لكنها مكفولة الاستقرار بحسب ما يبدو له، على لذة عاجلة ينغصها الحرمان والنكد، أو خراب البيوت وسوء السمعة، أو نقمة المجتمع، إلخ.. وهكذا يرغب مجتمعه بزواج هانئ مستقر إن هو صبر وقدر على الكسب لإعالة الزوجة وتأمين المسكن. كما يرهبه المجتمع كالأبوين والأصدقاء من النتائج الوخيمة إن هو اقترب لذة غير مشروعة، أو تسرع في زواج غير مناسب ولا ملائم.

١

المطلب الأول: تعريف الترغيب والترهيب: (١)

الترغيب وعد يصحبه تحبيب وإغراء بمصلحة أو متعة آجلة مؤكدة خالصة من الشوائب مقابل القيام بعمل صالح أو الامتناع عن عمل سيئ ابتغاء مرضاة الله، وذلك

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ٢٥٧-٢٥٨.

رحمة من الله لعباده. والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اعتراف إثم أو ذنب مما نهي الله عنه أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده، وإظهار صفة من صفات الجبروت ليكونوا دائماً على حذر من ارتكاب المعاصي.

المطلب الثاني: مميزات الترغيب والترهيب القرآني والنبوي:

يمتاز الترغيب والترهيب في التربية الإسلامية عما يسمونه في التربية الغربية بالثواب والعقاب، بميزات صادرة عن الطبيعة الربانية المواتية لفطرة الإنسان التي تتسم بها التربية الإسلامية، وأهم هذه المميزات:

أولاً. يعتمد الترغيب والترهيب القرآني والنبوي على الإقناع والبرهان، فليس من آية فيها ترغيب أو ترهيب إلا وفيها توجيه خطاب إلى المؤمنين. وهذا معناه تربوياً أن نبدأ بغرس العقيدة الصحيحة في نفوس الناشئين ليتسنى لنا أن نرغبهم بالجنة أو نرهبهم من النار، وليكون لهذا الترغيب والترهيب ثمرة عملية سلوكية.

ثانياً. يكون الترغيب والترهيب القرآني والنبوي مصحوباً بتصوير فني رائع، لنعيم الجنة أو لعذاب جهنم بأسلوب واضح يفهمه جميع الناس. لذلك يجب على المربي أن يستخدم الصور والمعاني القرآنية والنبوية في عرضه لعقاب الله وثوابه، كتصوير مواقف القيامة بالصور القرآنية مدعومة بالتفاصيل النبوية كقصة الشفاعة يطلبها الناس في موقف الحشر من جميع الأنبياء فيعتذرون، إلا نبينا ﷺ، ونحو ذلك من القصص النبوي عن مواقف القيامة.

ثالثاً. يعتمد الترغيب والترهيب القرآني والنبوي على إثارة الانفعالات وتربية العواطف الربانية، وهذه التربية الوجدانية مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية:

١. كعاطفة الخوف من الله التي أمر الله بها ومدح عباده الذين يخافونه ووعدهم بالثواب العظيم، بل أمرنا أن ندعوه خوفاً من عذابه وطمعاً في ثوابه، وعلى تربية هذه العاطفة الربانية بنيت بعض العبادات كالصوم وتحريم الصيد في الحج، كما بني كثير من المعاملات عليها كإعانة اليتيم وحسن معاملته الزوجية، والعدل بين الأولاد.

٢. الخشوع ومعناه الخضوع والشعور بالانقياد والعبودية لله وهو ثمرة للخوف، فنحن نرى في الدنيا أنَّ الناس إذا خافوا من بعض الطواغيت سارعوا إلى الانقياد لأوامرهم والخضوع لها ولو ظاهرياً، ولكن الخشوع لله يمتاز عن الخضوع الظاهري بأنه مصحوب بشعور حقيقي بالتبعية لله تعالى وبالإذعان لعظمته إذعاناً ناتجاً عن الإعجاب بآثار إبداعه وتدبيره في هذا الكون وفي أنفسنا. وكما أن في النفس عواطف سلبية ترافق التربية بالترهيب كالخوف والخشوع كذلك في النفس عواطف إيجابية ترافق التربية بالترغيب أهمها:

٣. المحبة: فطر الإنسان منذ طفولته على الميل إلى أن يحب ويكون محبوباً، وقد ورد الحب في القرآن في عدد من الآيات، والحب في الأصل تعلق المحب بالمحبوب وتتبع آثاره ودوام تذكره وعمل ما يرضيه ويحقق سروره. وإذا تتبعنا حياة الرسول ﷺ وأصحابه نرى أن محبة الله من أهم الدوافع التي تجعل الإنسان حريصاً على تحقيق شريعة الله في حياته، دون أن يكون عليه رقيب من البشر.

٤. الرجاء وهو الطمع في رحمة الله والأمل في ثوابه، وقد كان هذا الرجاء دافعاً إلى طلب الموت في سبيل الله، فكان الصحابي والمجاهد يقول: "بخ، بخ، هل بيني وبين الجنة إلا أن أقاتل فأقتل في سبيل الله؟ ويهجم على الأعداء حتى يستشهد. فانظر إلى أثر هذا الرجاء ما أعظمه في نفوسهم، لقد كانوا حقاً يرجون رحمة الله. وغرس هذا الرجاء في نفوس الناشئة يبني على الإيمان بالله واليوم الآخر، وعلى الإكثار من وصف الجنة، ونعيمها وربطها بضرورة التقيد بأوامر الله وترك نواهيه.

رابعاً. تعتمد التربية بالترغيب والترهيب على ضبط الانفعالات والعواطف والموازنة بينها: فلا يجوز أن يطغى الخوف على الأمل والرجاء فيقنط المذنب من رحمة الله، وقد نهي الله عن هذا اليأس فقال: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (الزمر: ٥٣)، كذلك لا ينبغي أن يطغى الفرح بزوال الشدة، فينسى الإنسان عقاب الله وقدرته، ويجعله فخوراً بنفسه معتداً

بحوله وقوته مما يدعوه للعودة إلى المعاصي، بل ينبغي أن يجمع الإنسان بين الخوف والرجاء، الخوف من عقاب الله وعظمته فلا يطغى ولا يتملكه الغرور، والرجاء في رحمة الله فلا ييأس من عفوه. وكل من اليأس والغرور يؤدي إذا تمادى بصاحبه إلى الكفر أو الفسوق والطغيان.

ولو استجمع الإنسان في ذهنه صفة من صفات الكمال الإلهي مع ما يقابلها من تلك الصفات، لما وقع في شيء من التناقض، أو الإفراط والتفريط في جنب الله، فاستشعار غضب الله يجب ألا ينسينا رحمته، وإرادته المطلقة ينبغي ألا تنسينا حكمته،^(١) وهكذا يقول الله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} (الأعراف: ١٦٧) ويقول رسول الله ﷺ: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد"^(٢)، ويقول ﷺ أيضاً: "الجنة^٣ أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار كذلك".^(٤)

المبحث السابع

التربية بتكوين العادات الحسنة

تلعب العادة دوراً كبيراً في حياة الإنسان، والإسلام يستخدم العادة كوسيلة من وسائل التربية، وذلك عن طريق تحويل الخبرة والقيم الثابتة إلى عادات يقوم بها الفرد دون مجهود، وقد سار منهج التربية الإسلامية في اتجاهين من أجل تكوين العادات الجديدة عند المسلمين الأوائل، الاتجاه الأول يتمثل في تخليصهم من العادات القديمة السيئة، والاتجاه الثاني ينحو إلى تثبيت العادات الجديدة والقيم العليا.

(١) انظر أصول التربية الإسلامية: النحلاوي؛ ص ٢٣٦.

(٢) مسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم: ٢٧٥٥.

(٣) البخاري: كتاب الرقاق، باب: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»، رقم: ٦٤٨٨.

ولتخليص الجماعة الإسلامية الأولى من العادات السيئة فقد اهتمدى المنهج إلى طريقتين أيضاً: الطريقة الأولى: هي الاستئصال والحسم منذ اللحظة الأولى، وذلك تجاه الشرك بكل عاداته وتصورات، وعادة وأد البنات،

وكذلك عادات الكذب والغيبة والنميمة، وهذه كلها عادات فردية، والطريقة الثانية: وهي طريقة التدرج في تكوين العادات، خاصة العادات الاجتماعية التي لا تقوم على مشاعر الفرد وحده وإنما ترتبط بأحوال اجتماعية واقتصادية متشابكة، مثل الخمر والزنى والرق والربا. ويقوم المنهج الإسلامي في التغيير الاجتماعي على إثارة الوجدان وبعث الرغبة في العمل وتكوين الميل، ثم تحويل الرغبة والميل إلى عمل وسلوك واقعي فيتطابقان، ولنأخذ الصلاة مثلاً لذلك، فالصلاة تتحول بالتعود إلى عادة ثابتة تلح على الإنسان ولا يستريح حتى يؤديها، ويسري ذلك على الصوم والزكاة وكل الآداب وأنماط السلوك الإسلامي كآداب الطعام والشراب، وآداب النوم، وآداب التحية، وآداب الحديث، وتجدر الإشارة إلى أن القدوة عامل مهم في تكوين العادة فضلاً عن التشجيع والتلقين والإلزام باللطف أو بالشدة.^(١)

المبحث الثامن

التربية باستغلال الأحداث

تعد التربية باستغلال الأحداث أحد الأساليب المجدية والفعالة للتربية، فالحياة تفاعل دائم مع الأحداث، وأحياناً ما يُستَعَلَّ حدث معين لإعطاء توجيه أو تغيير سلوك معين، وفي هذه الحالة يكون التوجيه والتغيير في السلوك أكثر عمقاً وأطول أمداً في التأثير إذا ما أتيا في أعقاب هذا الحدث، لا سيما إذا كان حدثاً مؤثراً يهز النفس هزاً شديداً، والمربي الناجح المستنير يستغل الأحداث لتربية النفوس وتهذيبها، فتنطبع فيها ولا يكون أثرها موقوتاً سريع الزوال. وقد تقع الأحداث بسبب تصرفات الناس الخاصة أو لأسباب

(١) انظر من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي: كمال المرسي، ص ١٧٠. وانظر منهج التربية الإسلامية: علي أحمد مدكور، ص ٣٥١.

خارجة عن إرادتهم وعن تقديرهم، وقد تكون منظمة ومخططة مسبقاً ليمر بها الناس على اختلاف أعمارهم بقصد إثارة مشاعرهم وتحريك عواطفهم حتى يسهل تغيير سلوكهم في الاتجاه المرغوب وما زال الحدث قريباً وفعالاً. وقد وفق الإسلام في استغلال الأحداث في تربية الأمة الإسلامية، فكانت تلك الأمة الفريدة في التاريخ، التي شهد لها الله سبحانه وتعالى بالخيرية، ومن أجل هذا الهدف كانت التربية بالأحداث يوم معركة أُحُد للذين فتنهم غنائم المعركة فأغفلوا الهدف الأصيل؛ وقد كان الدرس قاسياً يوم حنين حين اغتر المسلمون بكثرتهم، فكان الدرس البليغ هو ردهم إلى الله يستمدون منه القوة، ويدركون أن قوة إيمان المسلمين بالله هي العامل الحاسم في المعركة، كما كانت التربية بالأحداث للذين تخلفوا عن القتال مع رسول الله في موقعة تبوك.^(١)

المبحث التاسع

التربية عن طريق حل المشكلات

تنشأ المشكلة عندما يقابل الإنسان موقفاً جديداً لم يألفه ولم يتعود على مواجهته بينما تنقصه المهارات أو المعلومات أو لا تتوافر عنده الطرق والأساليب الجاهزة للتصرف فيه بطريقة سليمة، ويقتضي ذلك أن يعيد الإنسان تشكيل معلوماته السابقة وصيها في قالب جديد، قد يمكنه من التصرف في الموقف، وإذا أخفق في ذلك فقد يسعى إلى اكتساب معارف ومهارات جديدة تقوده إلى التصرف الصحيح في الموقف الجديد الشائك. وتختلف طريقة مواجهة المشكلات من فرد إلى آخر طبقاً لدرجة وعيه وثقافته ومهارته وخبرته وقدرته على التصرف، وبينما يُشكل موقفٌ مشكلةً لفرد فإنه لا يشكل مشكلةً لفرد آخر.

وتتجلى أهمية أسلوب حل المشكلات في التعليم والتعلم في أنها تزود الفرد بمهارات وأفكار وقيم جديدة نتيجة قيامه بعدد من العمليات العقلية والوجدانية، والمعلم الناجح

(١) انظر التربية الإسلامية: أصولها ومنهجها: عاطف السيد، ص ٦٠.

الفطن يستخدم أسلوب حل المشكلات من أجل تطبيق وإيضاح مفهومات سابقة، وأيضاً لاكتشاف مفاهيم جديدة، ويدفع أسلوب حل المشكلات المتعلم إلى تطوير أفكاره ومفاهيمه السابقة واستخدامها في موقف أو مشكلات جديدة، فضلاً عن أنه يثير الرغبة عند المتعلم في البحث عن الحل، وينمي الثقة بقدراته الفعلية ويوفر له الفرصة المواتية للمناقشة والتفكير النقدي.^(١)

ويرى بعض علماء التربية أن عملية حل المشكلات التي تعتمد على الطريقة العلمية تمر بالمراحل التالية: تحديد المشكلة، ثم التعرف على الظروف المحيطة بالمشكلة عن طريق جمع المعلومات المتصلة بها، وتحديد العوامل المؤثرة وهذا يؤدي إلى فهم المشكلة وتحديد بصورة أكثر دقة، ثم وضع فرضيات للحلول الممكنة لهذه المشكلة، ثم الدراسة الدقيقة لكل فرضية على أساس القيمة المحتملة لكل منها.

وأخيراً اختبار صحة كل فرضية أو حل على ضوء النتيجة المحتملة ثم اختيار الفرضية التي تنتج الحل الأمثل.^(٢)

المبحث العاشر

التربية بتفريغ الطاقة وشغل أوقات الفراغ بما ينفع

يُولدُ جسم الإنسان طاقة يستهلك بعضها ويدخر بعضها، وهي جهد فائض، كما يتاح للإنسان بعض أوقات الفراغ وهي وقت فائض، ومن أساليب الإسلام في تربية الفرد العمل على تفريغ الجهد الفائض وشغل الوقت الفائض بما ينفع الفرد، وينبغي أن يستنفد الجهد الفائض في عمل طيب، سواء أكانت له منفعة مادية كما يتوقع من الشباب أو لم تكن كما هو الأمر بالنسبة للأطفال، فليس المهم بالنسبة للطفل الصغير النفع المادي، بقدر ما يهم البناء النفسي السليم. إنَّ الجهد الفائض طاقة حيوية محايدة يمكن استثمارها في الخير كما يمكن استثمارها في الشر، فإن لم يستنفذها الإنسان في الخير فإنَّه سوف

(١) انظر طرق تدريس التربية الإسلامية نماذج لإعداد دروسها: عبد الرشيد عبد العزيز سالم، ص ٤٦.

(٢) انظر منهج التربية الإسلامية: علي أحمد مدكور، ص ٣٦٣.

يئذها في الشر، وينطبق ذلك على الوقت، فإن لم يستهلك في الخير فإنه سوف يستهلك في الشر، يقل الحسن البصري: "نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل".^(١) وقد حظي كلاهما باهتمام منهج التربية الإسلامية. وفيما يختص بالوقت الفائض المتمثل في وقت الفراغ فيجب استثماره في الذكر والعبادة التطوعية بعد أداء الفرائض في تدارس القرآن وحفظه، وفي القراءة الحرة والمشاركة في النشاطات التربوية وفي ممارسة الرياضة، وفي زيارة الأقارب والأصدقاء وعيادة المرضى منهم.^(٢)

٢

(١) انظر علو الهمة: محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، ص ٣٤٨.

(٢) انظر إحياء علوم الدين: الغزالي، ٧٥/٤.

الفصل الخامس

نماذج من الجهود التربويّة في الإسلام:

المبحث الأول

أبو حامد الغزالي وأفكاره التربويّة

كان الغزالي من أشهر علماء القرن الخامس الذي تميز بكثرة التناقضات، وازدحم بالأحداث السياسية والاجتماعيّة والثقافية التي كان لها أبلغ الأثر في حياته، وكانت له مساهمات واضحة وآثار أحدثها في مجال المعرفة التربويّة أولها: الكتابة بصورة تأصيلية في قضايا التربية المختلفة بدرجة تقترب من وضع نظريات عامة صالحة للتطبيق، وثانيهما التركيز على مفهوم العبودية وربط العبادة بالتربية والتعليم. يعتبر الغزالي الفقيه الشافعي الصوفي الأشعري من أعلام العرب والإسلام، ومن أعلام الفكر الإنساني، تحدثت عنه المصادر على مختلف مشارب أصحابها في العلوم والمعارف الإسلاميّة من تصوف وفقه وأصول وكلام وفلسفة ومنطق وأخلاق... ومن ناحية أخرى أحد أقطاب التصوف والمجاهدة الروحية ورجال التربية والدعوة إلى الله.

المطلب الأول: حياة الغزالي وعصره:

عاش الغزالي في عصر مضطرب يعج بالخلافات الفقهية والمناظرات الكلامية والمحاورات الفلسفية والعصبيات المذهبية والأهواء السياسية، حيث تكون في فترة الانقلاب الأشعري على المعتزلة، وهو الانقلاب الذي حدث مع تولي نظام الملك الوزارة في الدولة السلجوقية خلفاً للوزير أبي مضر منصور بن محمد الكندري الذي كان حنفياً معتزلياً.^(١) فكيف استطاعت هذه الظروف أن تجعله يجاور بل يزاوج بين الفقه والتصوف؟

(١) انظر تكوين العقل العربي: محمد عابد الجابري، ص ٢٨٢.

أولاً. **عصر الغزالي:** عاش الغزالي في العصر العباسي الثالث، عصر ضعف الخلافة العباسية التي اقتصر أمرها على السلطة الروحية تقريباً، وهو زمن استفحال فضائح الباطنية ونفوذ السلاجقة، إلا أن السلاجقة قد تمكنوا من إزالة أثر الدعوة الفاطمية في الشام وتنشيط عملية إنشاء المدارس، وقربوا العلماء؛ ونتيجة اتساع هوة الخلاف بين أهل السنة وبين الشيعة أيد نظام الملك مذهب أهل السنة وعمل على نشره. كان عصر الغزالي عصر دراسات إسلامية، فالتقى صفاء التعبد بنزاعات الكفر والإلحاد وحيرة الشك. فكان المجتمع الإسلامي مختبراً لتفاعل فلسفة اليونان وزهد الهنود وحكمة الصين وزندقة الفرس وتقنين الرومان، فظهر الفساد وقام العلماء للإصلاح السياسي والديني، وظهر إلى جانب الترف المادي ترف فكري، فنشأت فوضى فكرية كان من نتائجها: تعدد الفرق والمذاهب الدينية والفلسفية والكلامية وضعف سلطان الدين.^(١)

ثانياً. **حياة الغزالي:** هو محمد بن محمد بن أحمد الطوسي المكنى بأبي حامد وشهرته الغزالي، تتلمذ في الفقه على أستاذه أحمد بن محمد الطوسي، ثم ارتحل إلى جرجان ليتصل بإسماعيل بن مسعدة ويأخذ عنه التعليقة في الفقه الشافعي، ثم رجع إلى طوس وفي طريق عودته اعتزله العيارون فسرقوا تعليقته، ولذلك قرر تثبيت العلم في صدره بحيث لو قطع عليه الطريق بعدها لن يتجرّد من عمله. فشد الرحال إلى نيسابور (٤٧٣هـ) لطلب العلم على إمام الحرمين الجويني أحد الأساتذة بالمدرسة النظامية، وبعد تخرجه في دراسة العلوم الشرعية ساعد أستاذه في التدريس بالنظامية. وقد اتسمت هذه المرحلة بنزعة تحصيل العلم لا نزعة النظر فيه، لأجل ذلك ضاقت نفسه من كثرة خلافات وصراعات الفقهاء فلم يطمئن إلى تفريعاتهم بما فيها من تكلف، وراح وهو لا يزال شاباً ييدي عدم اطمئنانه إلى أدلة المتفقهين الملفقة^(٢) فتشكك في قيمتها. دخل مسرح الشهرة عندما شد الرحال إلى العسكر، فملاً وقته بالمطالعة وعمل على تجديد الأصول والفقه والكلام والفلسفة والمنطق

(١) انظر تاريخ دمشق: ابن عساكر، ٣٤٠/٣.

(٢) انظر الغزالي: عبده الحل، ص ١١.

والتصوف وقد خضع له العلماء والوزراء،^(١) توفي بطوس سنة ٥٠٥ هـ ودفن بظاهر الطابران.

المطلب الثاني: الغزالي وأفكاره في التربية:

تناول الغزالي موضوع التربية بفكر واضح يبدو فيه تأثره بأرسطو وأفلاطون، ففي كلامه عن الفضيلة يقول: إنها الاعتدال والتوسط بين أركان النفس الأربعة وقواها، وهي قوة الغضب واعتدالها الشجاعة، قوة الشهوة واعتدالها العفة، قوة الحكمة والإفراط فيها مضر، قوة العدل والإفراط فيها أيضاً مضر. وفي كلامه عن القلب يخلط بينه وبين النفس والعقل يقول عنه: إنه لطيفة ربانية روحانية لها تعلق بالقلب، وهذه اللطيفة هي حقيقة الإنسان لأنها الجزء المدرك فيه. وفي كلامه عن العقل يقول عنه: إنه القلب نفسه أو تلك اللطيفة الربانية. ويقول عنه أيضاً: أنه صفة للقلب؛ لأنه جزء من النفس الناطقة، التي تنقسم إلى عقل عملي يرتبط بالدوافع والانفعالات والقوى المحركة للجسم، وعقل نظري هو آلة الإدراك. لقد ارتكزت المعرفة التربوية عند الغزالي على أصول متينة وثابتة تنطلق من الرؤية الإسلامية لكل من الكون والإنسان والحياة والمجتمع القيم الأخلاقية حيث قامت المعرفة التربوية عنده على أرض التوحيد والعبودية وهدفت إلى غاية سامية هي رضا الله سبحانه وعبادته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة، وسقت تلك الأصول بالوحي المتمثل في آيات القرآن والسنة التي أمرت الإنسان بالتفكير في آيات الله ومخلوقاته لتحصيل العلم والمعرفة، حيث جعلت للعلم والمعرفة مكانة عظيمة وجعلت العلماء ورثة للأنبياء، ومن خلال هذا المنطلق جاءت نظرية الإمام الغزالي التربوية مؤصلة نقية على مستوى الركائز والمضامين، وعلى مستوى التطبيقات، وفيما يلي بعضاً من جوانب تلك النظرية المعرفية التربوية لديه:

أولاً. فلسفة التربية والتعليم عند الغزالي: لقد قامت العقيدة التي يقوم عليها فكر الغزالي على تكامل المادة والروح باعتبارهما مظهرين متكاملين للكون والحياة، لذلك تركز فلسفة

(١) انظر الغزالي: أحمد الشرباصي، ص ٤٠.

الغزالي التربويّة على إيجاد الشخصية الإسلاميّة المتميزة التي تتخذ من رسول الله قدوة لها، والتي يحركها الإيمان بالله فكراً وممارسة، لذلك قامت فلسفة الغزالي في التربية على المبادئ المنبثقة من هذا الإيمان، واعتبرت الأساس الذي تقوم عليه فلسفة التربية والتعليم هو تحقيق السعادة للإنسان، ووضّح مفهوم السعادة وكيفية تحقيقها في مواضع كثيرة في كتبه، وخصها بمؤلف سماه "كيمياء السعادة"، ووضح الغزالي أن السعادة حصيلة مجاهدة القلب وتطهيره من الأخلاق المذمومة، وسر هذه السعادة أن أساسها الرجوع إلى الله في الدنيا ومعرفته، ومفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس؛ فمن عرف نفسه فقد عرف ربه. والسعادة المقصودة هنا هي السعادة الأخروية لأنّها شاملة لكل ما هو مرغوب فيه، وبلوغ السعادة المنشودة لا بد له من تضافر العلم والعمل، ولهذا كانت مهنة التعليم من أشرف المهن، كما وضح الغزالي أن السعادة الأخروية المنشودة وثيقة الصلة بالمجتمع الدنيوي وهذا أمر يستدعي أن يكون التعليم وثيق الصلة بحاجات المجتمع بحيث يعد أفراداً يجتهدون في تحقيق حياة اجتماعيّة تتوفر فيها متطلبات الحياة الدنيوية ويراعون فيما يعملون أوامر الله، بحيث يقبل كل فرد على القيام بما أعد له دون الشعور بالحرص لأنّ المكافأة على درجة الإتيان وليست على نوع العمل وهذا يعني أن تتنوع الكفاءات وتتساوى القيم والمقاييس؛ إذ لو لم يعتقد الخياط مثلاً في صنعه ما يوجب ميله إليه لتركها وأقبل الكل على أشرف الصنائع، وبطلت الصنائع الأخرى، ولو عرف الكناس ما في صنعه لتركها ولاضطر العلماء والخلفاء والأولياء أن يتولوها بأنفسهم، وكذلك الدباغة والحداة والزراعة وجميع الأمور، فلولا أن الله تعالى حب علم الفقه والنحو ومخارج الحروف والطب في قلوب طوائف لبقيت هذه العلوم معطلة ولتشوش النظام الكلي.

١. مفهوم التربية عند الإمام الغزالي: يبيّن الغزالي مفهومه للتربية على معاني التربية الأخلاقية والسلوكية بما فيها من تخلية وتحلية، فهي معبرة عن تهذيب الإنسان وتعليمه وإصلاح شؤونه. لخص الغزالي التربية بأنها عمل الشيخ المرشد على إخراج الأخلاق السيئة من المتعلم بتربيته ويجعل مكانها خلقاً حسناً. ويلخص الغزالي التربية والتعليم في

عنصرين هما: التخلية والتحلية؛ حيث اعتبر المعلم شيخاً ومربياً لكي يخرج الأخلاق السيئة وهي (التخلية) ويجعل مكانها خلقاً حسناً وهي (التحلية)، وكأن الغزالي يعتبر الخلق اسماً جامعاً لكل الفضائل التي يجب أن يتحلى بها الإنسان سواء كانت علوماً يتعلمها أو سلوكيات يروض نفسه عليها.

٢. أهداف التربية عند الإمام الغزالي: يعتبر الغزالي الغاية من التربية هي التقرب إلى الله تعالى والدليل على ذلك طلب العلوم ومحاسن الأخلاق. ومن الواضح أن تصور الغزالي لأهداف التربية انطلق من نظريته الواضحة لوجود الإنسان وحياته، فقد ركز على غاية سامية للتربية والتعليم وهي طلب رضا الله وعبوديته وطاعته من خلال طلب العلم، وجميع السلوكيات المؤدية إليه؛ حيث ركز على النية والقصد في طلب العلم ووجوب توجيهها لله الذي يعتبر عنصراً مفقوداً في تربيتنا المعاصرة مما أفقد التعليم جودة ثمرته وبركتها. وقد لخص الغزالي هدف التعليم في تحقيق الكمال الإنساني الذي غايته التقرب من الله ومن ثم سعادة الدنيا والآخرة، ووظيفة التعليم تهيئة الفرد للمساهمة في تحقيق الحياة الاجتماعية، بحيث يقبل كل فرد على القيام بما أعد له دون شعور بالحرَج أو التردد، لأنَّ المكافأة على درجة الإتيان وليست على نوع العمل. ولم يرفض الغزالي الهدف التربوي والتثقيفي من التعلم ففي كلامه عن قيمة دراسة العلوم يذكر مدى منفعتهما للإنسان في حياته الدنيا، ويمثل لنا بعلم الطب والحساب وغيرها، ومدى منفعتها للإنسان وتدخلها في حياته الاجتماعية، ومثلها الشعر والتاريخ والسياسة، فقد جعل العلم طريقاً للإيمان، ففي كلامه عن الإيمان يقسمه إلى ثلاث مراتب: المرتبة الأولى: إيمان العوام الذين يصدقون ما يسمعون مثل من قيل لهم: فلان بالدار فصدقوا. والثانية: إيمان العلماء، وهو مبني على الاستنباط، ومثاله: أنهم سمعوا فلاناً بالدار فصدقوا. والثالثة: يقين العارفين الذين يشهدون الحق دون حجاب، ومثاله: هم الذين دخلوا الدار ورأوا بأعينهم، وهم الأنبياء والرسل ومن في مرتبتهم.

٣. المنهاج التعليمي عند الغزالي: المنهاج عند الغزالي بناء متكامل تتكامل فيه العلوم الدينية والمهن الدنيوية، فإذا اشتغل المتعلم بالعلوم المادية والنظرية كعلم الكلام والمنطق والطب والأشعار وغيرها، واقتصر عليها دون علوم الدين فإنه يضيع عمره فيما لا ينفعه في الآخرة. ومن يقتصر على علوم الدين وحدها لا يفهم في الدين إلا قشوره بل خيالاته وأمثله دون حقيقته، فلا تدرك العلوم الشرعية إلا بالعلوم العقلية، فإن العقلية كالأدوية للصحة والشرعية كالغذاء. وهذا التكامل لا يعني التخصص في جميع ميادين المنهاج، وإنما معناه أن يتزود المتعلم بثقافة عامة تمده بتكامل معرفي، لأن العلوم مرتبطة ببعضها، ثم يتبحر في علم معين. والمقياس الذي يميز علماً من آخر يتقرر بشيئين: ثمرة العلم ووثاقته دلالاته؛ فمثلاً علم الدين ثمرته الحياة الأبدية التي لا آخر لها، وعلم الطب ثمرته حياة البدن حتى الموت ولذا فعلم الدين أشرف منه. والمنهاج عند الغزالي واسع يغطي مختلف جوانب المعرفة والمهن، لقد بنى الغزالي منهجه الدراسي بوحى من روح الإسلام وتعاليمه درءاً للضرر الذي قد يلحق بالفطرة التي فطر عليها الإنسان والغزالي بذلك إنما يريد القرب من الله تعالى لأن كمال الآدمي في قربه من الله تعالى وقربه بالصفات لا بالمكان وإنما يقرب بصفة العالم، فما دام علمه أكمل وأكثر فهو من الله أقرب وبملائكته أشبه. يأخذ الغزالي في منهجه بعين الاعتبار الفروق الفردية بين التلاميذ على ضوء استعداداتهم وقدراتهم، غير غافل عن مراعاة مبدأ التدرج والترابط بين مواد المنهج وأوجه نشاطه المختلفة. ولقد جاء منهج الغزالي ليعكس مبدأ إلزامية التعليم انسجاماً مع قول الرسول ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم». (١) لذلك كان من الطبيعي أن يرى في بعض العلوم فرض عين وفي بعضها الآخر فرض كفاية، فالعلم الذي يعتبر فرض عين معناه العلم بكيفية العمل الواجب فمن علم العمل الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين،

(١) سنن ابن ماجه: أبواب السنة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم الحديث: ٢٢٤. قال الأرنؤوط: حديث حسن بطرقه وشواهده.

وتعلم هذا العلم لا يكون دفعة واحدة وإنما بالتدرج. ويعكس رأي الغزالي قناعته بأن فروض العين هي علوم الدين التي يجب على كل مسلم معرفتها سواء أكان ذلك فعلاً أم تركاً أم اعتقاداً. أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يُستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، والحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواثيث وغيرهما، وهذه العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها سببت حرج لأهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين. وتنقسم علوم فرض الكفاية إلى قسمين: شرعية وغير شرعية؛ والعلوم الشرعية وهي التي اعتبرها الغزالي محمودة قليلها وكثيرها، ويقيد الغزالي الشرعية منها بما استفيد من معارف على أيدي الأنبياء صلوات الله عليهم وهذه العلوم يقسمها إلى:

- أ. الأصول: القرآن، السنة، إجماع الأمة، آثار الصحابة.
- ب. الفروع: ومنها ما يتعلق بمصالح الدنيا، ومنها ما يتعلق بمصالح الآخرة.
- ج. المقدمات: مثل علم النحو.
- د. المتممات: وهي نوعان: نوع متعلق بالقرآن ونوع متعلق بالأخبار والآثار.
- هـ. العلوم المحمودة: هي تلك العلوم المتفرعة عن فروض الكفاية.
- و. العلوم المباحة: هي العلم بالأشعار وتواريخ الأخبار وما يجري مجراها.
- ز. علوم يُحمد منها قدر معين ويذم التعمق فيها: وهي التي تتسبب في ارتباك الناس وتشككهم مثل الفلسفة.
- ح. العلوم المذمومة قليلها وكثيرها: وهي كعلم السحر والطلسمات والشعوذة، إضافة إلى بعض فروع الفلسفة التي اعتبرت بدعة أو كفراً. وبناء عليه فقد قسم الغزالي الفلسفة إلى ستة علوم هي: الرياضة، المنطقيات، الطبيعيات، الإلهيات، السياسيات، الخلقيات.

كما لخص الغزالي ميادين المنهاج إلى أربعة ميادين: (بناء العقيدة الإسلامية، ميدان التزكية: وهي عملية تربوية تستهدف الارتقاء بالإنسان. دراسة القرآن الكريم وما اشتمل

عليه من أنظمة ومبادئ. ميدان الإعداد الوظيفي الذي يعبر عنه في القرآن بالحكمة). وينصح الغزالي بالبدء بالعلوم الأساسيّة القرآن والسنة ثم التفسير وعلوم القرآن، وبعد ذلك الفروع كالفقه ثم أصول الفقه.. وهكذا.

٤. طرق التدريس عند الغزالي: اعتنى الغزالي بالبيئة التي يتم فيها التدريس وطبق بعض طرق التدريس ونصح بها ومن أشهر هذه الطرق ما يلي:

أ. القدوة: وهي من أهم الطرق على الإطلاق فالمربي يجب أن يكون عاملاً بعلمه، وإلا فلن تكون له مصداقية.

ب. ضرب الأمثال: استفاد الغزالي من هذه الطريقة، ومن يرجع إلى كتبه وخاصة الإحياء يجد مهارة في استخدام هذه الطريقة فقد استخدمها حتى يكون للمعنى وقع في قلب المستمع، ولتقريب المعاني لإفهام الناس، ولتأكيد فكرة يؤمن بها.

ج. القصص: هنا حذر الغزالي من شطح القصاصين وحدد طريقته في القصص وهي الالتزام بما جاء فيه القرآن الكريم أو ما نهج نهجه بعيداً عن الكذب، أو ما قد يؤدي إلى اللبس وسوء الفهم.

د. العادة في اكتساب الأخلاق الحسنة والتخلص من العادات السيئة.

هـ. الممارسة والعمل: أكد الغزالي في مواضع كثيرة على أهمية الممارسة والعمل، فذهب إلى أنه لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها ولم يعمل بها، لا تفيده إلا بالعمل.

و. المسائلة والمناقشة والحوار: تمكن الغزالي من توظيف هذا الأسلوب لخدمة أهدافه التربويّة والمتتبع لكتاباتة يلحظ مدى عنايته به فقد كانت السبب في كتابة كثير من رسائله وخاصة رسالة أيها الولد، التي كانت رداً على تساؤلات تلميذه.

ز. العظة والنصح: أدرك الغزالي أهمية هذه الطريقة في رسالته التربويّة فالناظر لكتاب الإحياء يجد أنه يقوم في معظمه على الوعظ الهادف إلى بناء الإنسان من جميع الجوانب.

ح . الثواب والعقاب: أباح الغزالي العقوبة إلا أنه يؤثر الشفقة في تعامله مع المتعلمين حتى وإن كان لا بد من عقوبة فهو يجذب العقوبة المعنوية أولاً، وفي حال استنفذ المعلم سبله لا يرى مانعاً من إنزال العقوبة بالمتعلم، وأن يكون هدف العقوبة حماية التلاميذ المسلمين من المشاغبين، ويلفت النظر إلى مراعاة ظروف المتعلم البدنية والنفسية والعقلية أثناء عملية العقاب بحيث يكون دون إسراف في الضرب، أو صراحة في التأنيب.

٥. المعلم والمتعلم عند الغزالي: يؤكد الغزالي أهمية الاشتغال بالتعليم ويعلي من قدر أصحابها ويعظم من شأن المسؤولية الملقاة عليهم، فمن علم وعمل بما علم فإنه كالشمس تضيء لغيرها، ومن اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آدابه. والمعلم في نظره متصرف في قلوب البشر ونفوسهم، وهو يمارس أشرف الصناعات بعد النبوة، وعلى من يتصدى لتعليم غيره وإصلاحه أن يبدأ بتعليم نفسه وإصلاحها، ولا يشتغل إلا بالعلم الذي هو فرض عليه بحسب ما تقتضيه حاله. (١)

أ. واجبات المعلم: أوصى المعلم بعدة أمور من أهمها: (٢)

١. أن يجري المتعلم منه مجرى أبيه: وحق المعلم أكبر من حق الأب فإنه سبب حياته الباقية والأب سبب حياته الفانية، وكما أن من حق بني الأب الواحد أن يتحابوا فكذلك حق بني المعلم، بل حق بني الدين الواحد، لأن أخوة الفضيلة فوق أخوة الدين، ومنشأ التباغض بين طلبة العلم إرادتهم المال والرياسة.

٢. نصح المتعلم وتوجيهه: ألا يدخر المعلم شيئاً من نصح المتعلم وزجره عن الأخلاق الرديئة، ومنعه أن يتشوف إلى رتبة فوق استحقاقه، وألا يطلب العلم لأغراض الدنيا.

(١) الاقتصاد في الاعتقاد: الغزالي، ص ١٧.

(٢) ميزان العمل: الغزالي، ص ١٤٥-١٥١.

٣. مراعاة استعداد المتعلمين: أن يقتصر على قدر أفهامهم، ويراعي التدرج من الجلي إلى الخفي على قدر استعداد المتعلم، على أن إمساك العلم عمن يفسده أولى من نشره، فليس الظلم في منع المستحق بأقل من الظلم في إعطاء غير المستحق.

٤. عدم تقبيح العلم في نفس المتعلم: من يتولى تدريس علم لا ينبغي له أن يقبح في نفس المتعلم الذي ليس بين يديه، كمن يقبح العلوم العقلية وهو يدرس الفقه، بل على المعلم أن ينبه على قدر العلم الذي فوّقه ليشغل به عند استكمال ما هو بصدد.

٥. أن يكون المعلم عاملاً بما يعلمه: فعلى المعلم ألا يكذب سلوكه قوله، فينفر الناس من الاسترشاد والرشد، فلتكن عنايته بتزكية أعماله أكثر منه بتحسين علمه ونشره، وكيف يستوي الظل والعود أعوج؟

٦. أن يعوّد الصبي على الأخلاق الكريمة فيقوم احتراماً لمن هو أكبر منه، كما يعوده على ألا يبصق في المجلس، ولا يتمخط ولا يتشاءب وغير ذلك.

٧. يجب ألا يرفع المعلم التكليف بينه وبين التلميذ حتى لا يتجرأ عليه وحتى لا يفسد خلقه وأن يبتعد به عن التدليل، ويعوده الخشونة حتى لا يغلب عليه الكسل وأن يراعي التوسط والاعتدال في معاملته.

٨. ألا يطلب المال وأغراض الدنيا بالعلم: يدعو المعلم أن يقتدي بصاحب الشرع، فلا يطلب على إفادة العلم أجراً وجزاء، فالعلم منزّه عن الأغراض الدنيوية، وطلب المعلمين للرياسة منشأة قصور علمهم. والنزوع الصوفي هنا في آراء الغزالي لا يحتاج إلى دليل. وقد عيب على الغزالي هذا الرأي من جانب دارسي التربية الإسلامية؛ لأنّه رأي لا يتفق مع الواقع، بل إنه في هذا الرأي خالف سابقه من علماء المسلمين الذين قالوا بجواز أخذ أجر عن التعليم، بل اعتبروا ذلك ضرورة لنشر العلم بين الناس.

ب. دور المتعلم ووظائفه: لقد حدد الغزالي دور المتعلم في عشر وظائف: (١)

(١) ميزان العمل: الغزالي، ص ١٣٠-١٤٣. ١

١. طهارة النفس من الأخلاق الرديئة: العلم عبادة ولا تصح إلا بطهارة القلب عن خبائث الأخلاق، ونور العلم الحقيقي يحسن الأخلاق، والمعاصي سموم مهلكة مبطلة للحياة الأبدية، لأن منشأها الصفات الرديئة.

٢. أن يقلل علائقه من الأشغال الدنيوية: العلائق صارفة وشاغلة للقلوب، وقد قيل: إن العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك.

٣. أن لا يتكبر على العلم وأهله: بل يلقي إليه بزمam أمره في تفصيل طريق العلم، ويدعن لنصحه إذعان المريض للطبيب. أما التكبر على العلم فهو عين الحمق فالحكمة ضالة كل حكيم، فحيث يجدها ينبغي أن يغتنمها فلا بد من التواضع، وحسن الإصغاء، وهذا لا ينفي السؤال والبحث عن الحقيقة.

٤. الانطلاق من القوانين العامة: لا ينبغي أن يخوض منذ البداية في الاختلاف الواقع بين الفرق والشبه المشككة المحيرة، فإن ذلك يدعو إلى الفتور واليأس، فلتكن الانطلاقة من الأصول حتى يسهل الخوض في تعريف الشبه وتعقبها.

٥. تنوع المعرفة: للمتعلم أن لا يدع فناً من فنون العلم، ونوعاً من أنواعه، إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على غايته ومقصده وطريقه، ثم إن ساعده العمر وأتته الأسباب طلب التبحر فيها. فلا ينبغي أن يستهين بشيء من أنواع العلوم، بل ينبغي أن يحصل كل علم، ويعطيه حقه ومرتبته.

٦. مراعاة الترتيب والتدرج في طلب العلم: فيبدأ بالأهم فالأهم، ولا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً، وبعضها طريق إلى بعضها الآخر.

٧. الأخذ من كل شيء أحسنه: إن العمر إذا يتسع لجميع العلوم فينبغي أن يأخذ من كل شيء أحسنه.

٨. يطلب ما شرف من العلم: بعض العلوم أشرف من بعض، وشرف العلم يدرك بشيئين: أحدهما بشرف ثمرته، والآخر بوثاقة دلالاته، وذلك كعلم الدين وعلم الطب،

فإن ثمرة علم الدين الحياة الأبدية التي لا آخر لها، فكان أشرف من علم الطب الذي
ثمرته حياة البدن إلى غاية الموت.

٩. معرفة أنواع العلوم بصورة مختصرة: وهي ثلاثة: علم يتعلق باللفظ من حيث يدل على
المعنى كعلم اللغات ولواحقها كعلم الاشتقاق، والإعراب، والنحو. وعلم يتعلق بالمعنى
من حيث يدل باللفظ عليه كعلم الجدل، والمناظرة، والخطابة. وعلم يتعلق بالمعنى
المجرد وهو قسمان: قسم علمي ومنه علم معرفة الله تعالى: النبوة، الكواكب، والقيامة.
وقسم عملي: يتعلق بالأحكام الشرعية، والعلوم الفقهية، والسنن النبوية، ومن ذلك
معرفة سياسة النفس مع الأخلاق، ومعرفة تدبير أهل البيت، والولد، والمطعم، وكيفية
المعيشية والمعاملة.

١٠. غاية العلم كمال النفس: أن يكون قصده في كل ما يتعلمه في الحال كمال نفسه
وفضيلتها، وفي الآخرة التقرب إلى الله عز وجل، ولا يكون قصده الرئاسة، والمال،
ومباهاة السفهاء، وممارسة العلماء.

ثانياً. أصول التربية في فكر الغزالي:

١. ارتباط حياة الغزالي العملية والعلمية بالتربية والتدريس: فقد مارس الغزالي التعليم وتعلق
به، وتميز به، وآثاره العلمية دالة على منحاه التعليمي التربوي. وقد شهد عصره إنشاء
المدارس في حواضر إسلامية عديدة، وظل هو معلماً في بغداد خلال المرحلة الأولى في
حياته، يلتف حوله ثلاثمائة تلميذ.^(١)

٢. التربية عند الغزالي من أهم الأمور وأوكدها: وتلك عبارته في إحياء علوم الدين، فالتربية
عنده ضرورة وجود لا تقوم سعادة بشرية بدونها، وتجد الغزالي بعد أن هضم ثقافة
عصره يواجه التيارات الفكرية المعاصرة له، ويرسم خطة لتكوين شخصية سوية تخوض

(١) المنقذ من الضلال: الغزالي، ص ٦١.

معتزك الوجود، مزودة بقيمتها وهويتها حتى لا تجرفها تلك التيارات، ومن أجل هذا حدد مشروعه الإصلاحي القيم التي ينبغي ترسيخها في النفس البشرية.

٣. مشروعه الإصلاحي ترسيخ للقيم الإسلامية في نفوس المؤمنين: يحدد الغزالي في مشروعه معالم رؤية تربوية تصمد أمام المناهج المختلفة المتصارعة في عصره، ولنجاح هذا المشروع الإصلاحي درس الفلسفة ودرس النفس الإنسانية، فعرف نزعاتها وخبائها، ووجد في رحلته الروحية أن السعادة لا تنال إلا بتزكية النفس، وتكميلها باكتساب الفضائل كلها، وأن الشعور الديني أساس بناء الشخصية وقوام انسجامها وتكاملها. وحياء الغزالي العلمية ارتبطت بالبحث عن الحقائق، وتميزت منهجيته بالملاحظة الدقيقة للأحداث، والقدرة على التأمل في خطرات النفس وأحوالها، فقد اعتبر العلم نوراً إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف.^(١)

ثالثاً. تربية الأطفال عند الغزالي:

١. أهمية الطفولة في تصور الغزالي:

أ. الطفولة معطى فطري يكتمل بالتربية: يقرر الغزالي أن الطفل يولد صحيح الفطرة، وبالاعتقاد والتعليم تكتسب الرذائل، وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالتربية والغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم.^(٢) وهذا يدل على أن الغزالي يرى أن الفطرة الإنسانية قابلة لكل شيء، وأنه ليس لها قبل التربية أي لون، فالخير إذن يكتسب بالتربية والشر بالتربية، وليس للإنسان بفطرته ميل خاص إلى أحد منهما، وإنما يسعد أو يشقى بما يقدمه إليه معلموه.^(٣)

(١) انظر المنقذ من الضلال: الغزالي، ص ١٢-١٣.

(٢) انظر إحياء علوم الدين: الغزالي، ٢٦٦/٣.

(٣) انظر الأخلاق عند الغزالي: ص ١٦٣.

ب . الطفل جوهرة نفيسة، خالية من كل نقش وقابلة لكل نقش: نظراً لأهمية الطفولة في مراحل تطور الكائن البشري، اعتبر الغزالي لحظة الطفولة لحظة حاسمة في حياة الإنسان، بها يتقرر مصيره وتشكل حياته، إما سعادة وإما شقاء في ضوء ما يعود عليه وينشأ. وإذا دققنا النظر في نظرة الإمام الغزالي إلى براءة الطفولة، إلى قلب الطفل؟ نستنتج جملة حقائق نذكر منها ثلاثة: أولها: أن قلب الطفل جوهرة نفيسة خالية من كل نقش ولكنها قابلة لكل نقش. وثانيها: أن الطفل مادة قابلة للتغيير والتعديل، تتشكل في ضوء ما تتعود عليه. وثالثها: استعداد الطفل لتقبل التوجيه والتعلم، فالرجل المثالي . كما تتصوره . كامن في قلب الطفل، يمكننا أن نعمل على تشكيله في ضوء ما نتصوره. (١)

ج . الطفل أمانة ومسؤولية: يذهب الغزالي إلى أن الصبي أمانة عند والده، فالأب مدعو إلى صيانة تلك الجوهرة وحفظها، فلا يُهمل الأب ابنه فليقتي به في درك البهيمية ويعرضه للشقاء، لأنَّ إهماله خطر جسيم يتحمل وزر إهماله؟ ثم إن الأب يشارك ابنه الثواب إن هو رباه وصانه ورعاه، وكيف يهمل الإنسان جزءاً من نفسه؟

د . الطفل جزء من نفس أبيه: اعتبر الغزالي الطفل بعضاً من أبيه، فهو يحفظه بنفسه ويخاف عليه كما يخاف على نفسه، وقد أورد قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾ (التحريم: ٦). قال بعض العلماء: دخل في "أنفسكم" الأولاد لأنَّ الولد بعض من أبيه، فلم يفرد بالذكر أفراد سائر القربات، يعلمه الحلال والحرام، ويجنبه المعاصي. (٢) وعلق الغزالي على هذه الآية بقوله: "ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا، فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانتها بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق". (٣)

٣

(١) إحياء علوم الدين: الغزالي، ٣/٦٠-٦١، ٧٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ١٧/١٤٧. والبحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي، ٣/٨٧.

(٣) إحياء علوم الدين: الغزالي، ٣/٧٨، وعن المسؤولية عن الطفل يقول: "والقيام بتربية الأولاد رعاية وولاية، والأهل والولد رعية، وفضل الرعية عظيم، فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله". ٣٦/٢. وقال: "والصبر على العيال، مع أنه رياضة ومجاهدة، تكفل لهم، وقيام بهم، وعبادة في نفسها. ٣٧/٢. وروى أن

هـ . التربية تكتسب بالمجاهدة: يرى الغزالي أن الأخلاق تكتسب بحمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب، أي أنها تكتسب بالمجاهدة في تربية النفس وتوجيهها، فمن أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه، ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له، وطبعاً فيتيسر عليه. ويرى أن الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة، فالإنسان يتكلفها في بداية الأمر لتصير طبعاً في نهايته.^(١)

و. الطفل روح وعقل وجسم: قدم الغزالي نظرة تكاملية لتربية الطفل، ووجد أن تلك التربية لا تقوم إلا إذا غُنينا بروح الطفل وعقله وجسمه، وذكر أن إهمال أي واحد من هذه العناصر ينتج نقصاً في التربية قد ينتقل أثره إلى العنصرين الآخرين. فوظيفة التربية عند الغزالي هي تقوية الروح حتى تتغلب على شهوات الجسد، وتسترد مكانتها وسيطرتها عليه.

ز. مراعاة الفروق بين الأطفال: يدعو الغزالي إلى استعمال الأسلوب الأنسب لكل متعلم، ونراه يهتم بأصناف المتعلمين ويراعي الفروق بينهم ويؤكد هذه الحقيقة كلما تناول ما يعترى النفوس من أحوال وما يحدث للأشخاص من مواقف تترتب عنها أنواع شتى من السلوك.^(٢)

٢. منهج الغزالي في تربية الطفل: يقدم لنا الغزالي منهجاً عملياً في تربية الطفل تربية إسلامية صحيحة، فبعد أن أكد أن الطفل قابل لكل نقش وصورة، نصح الوالد بأن يؤدب ابنه وينشئه على محاسن الأخلاق، وأن يحفظه من قرناء السوء، وأوصى الأب

الهارب من عياله بمنزلة العبد الهارب الآبق، لا تقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع إليهم. ٣٨/٢. وانظر الاقتصاد في الاعتقاد: الغزالي، ص ١٠.

(١) إحياء علوم الدين: الغزالي، ٦٣/٣. ٦٥. ويقول: ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكْتساب، قرب صبي خلق صادق اللهجة سخياً جرياً، وربما يخلق بخلافه، فيحصل ذلك فيه بالاعتقاد ومخالطة المتخلفين بهذه الأخلاق، وربما يحصل بالتعلم. ٦٣/٣.

(٢) انظر مقدمة عادل العوا لكتاب الغزالي "الاقتصاد في الاعتقاد": ص ١٠. وانظر فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية: محمد موسى، ص ١٩٦.

بأن لا يحب ابنه في أسباب الرفاهية حتى لا يتعود نعيم العيش فيصعب تقويمه بعد ذلك، وعليه أن يعود على اللباس المحتشم الوقور، وأن يمنعه من النوم نهاراً وتعويده الحركة والرياضة، وأن يمنعه من الافتخار على أقرانه بما يملكه هو أو والده، وتعويده التواضع وطيب الحديث، وتعويده على العطاء لا الأخذ حتى ولو كان فقيراً، وأن ينهائه عن القسم صادقاً أو كاذباً تأكيداً لقول الله: {وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ} (البقرة: ٢٢٤) وأن ينهائه عن الأعمال غير المستحسنة كالبصاق والتثاؤب لا سيما في المجالس، وأن يعود على الإقلال من الكلام إلا للحاجة وبقدر ما تتطلبه هذه الحاجة، وأن يخوفه من السرقة وأكل الحرام وغيرها من الأخلاق المذمومة، وأن يعود على الصبر، وأن يأذن له باللعب بعد الدرس حتى يستريح ويتجدد ذكاؤه ونشاطه ويروح عن نفسه مشقة العلم. وقد أشار إلى أن أول ما يغلب على الطفل شره الطعام وطالب الأب أن يؤديه في ذلك، وأن يعود أخذ الطعام بيمينه والبدء باسم الله والأخذ بما يليه، وأن يقبح عنده كثرة الأكل بطريق غير مباشر كأن يذم الطفل الشره ويمدح المتأدب قليل الأكل، كما طالب الأب بأن لا يتساهل مع ابنه إذا بلغ سن التمييز في كل ما يحتاج إليه أمر الشرع؛ ويقدم لنا الغزالي أسلوب الثواب والعقاب لتأديب الصبي إلا أنه يرى ألا يكون العقاب لكل أمر بل من الأفضل التغاضي عن بعض الأمور إذا خجل الطفل منها وتستر بإخفائها، ولا يكون العقاب علناً حتى لا يشجع الطفل على تعود الخطأ، ويجب أن يُقل من العقاب حتى لا يتعود الطفل المهانة ويهون عليه سماع اللوم والتأنيب، ويؤكد الغزالي في كلامه عن تعليم الأطفال عدة مبادئ تربوية هامة من أبرزها:

أ. البدء بالتعليم في الصغر: فالتعليم في الصغر كالنقش على الحجر، ويؤكد الغزالي نفس المعنى عندما يذهب إلى أن قلب الصبي طاهر جوهره نفيسة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابض لكل ما نقش عليه. وقد ردد هذا القول جون لوك بعد حوالي ثلاثة عشر قرناً من الزمان عندما ذهب إلى أن عقل الطفل صفحة بيضاء تنقشه الخبرة والتعليم، ويؤكد الغزالي إلى أن التربية والتعليم عملية تتعاون فيها طبيعة الصبي مع بيئته.

ب . مراعاة طبيعة الصبي: يؤكد الغزالي ضرورة فهم المعلم لطبيعة الصبي، وهذا يتأتى من دراسته لنفسية الصبيان الذين يعلمهم فهم ليسوا سواء، وهذه الدراسة تساعد من ناحية أخرى على إيجاد الصلة الإنسانية بينه وبينهم، وعلى المعلم أن يتدرج في تعليم الصبي وأن يبدأ معه من السهل إلى الصعب.

ج . التدريج في التعليم: إلى جانب ما أشار إليه الغزالي من التدرج في تعليم الصبي والبدء بالأشياء السهلة، ثم الانتقال منها إلى ما هو أصعب، يطالب الغزالي المعلم ألا يخوض في العلم دفعة واحدة بل يتدرج فيه مع مراعاة الترتيب ويتدئ بالأهم وكذلك ينبغي عليه ألا يخوض في علم إلا بعد أن يستوفي ما قبله فالعلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق بعض.

د . ضرورة الترويح واللعب في تربية الولد: يشير الغزالي إلى ضرورة الترويح عن الصبي وأشار إليه بموضوع اللعب الذي له ثلاث وظائف يروض جسم الصغير ويقويه، ويدخل السرور على قلبه ويريح الصبي من تعب الدروس ويروح عن تعب النفس كللها ومللها، وإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه في التعليم دائماً يمت قلبه ويبتل ذكائه، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه.^(١)

٣. دور الأب: يعتبر الغزالي تربية الطفل أهم الأمور وأؤكد لها على حد تعبيره في الإحياء، فكيف يقوم الأبوان بهذه المهمة؟ بين لنا الغزالي أن المراد بصيانة الولد أن يؤدَّب ويُهذَّب ويُعلَّم محاسن الأخلاق، كما بين لنا أن الطفل خُلِق قابلاً للتغيير، فكيف يصنع الأبوان هذه القابلية، وكيف يرسمان طريقة التغيير وهي مجال التربية؟ وما هي واجبات الأب أو الأسرة في تنشئة الطفل وتربيته؟ حاولت تصنيف هذه الواجبات، كما أوردتها الغزالي في كتاب الإحياء، على الشكل الآتي:

أ. أدب الأكل عند الطفل: أول ما يغلب على الطفل شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه، يأخذ الطعام بيمينه بعد البسملة، والأخذ بما يليه، وألا يبادر إلى الطعام قبل غيره،

(١) <https://sites.google.com/site/altrbytealaslamy/te/Home/alghzaly-wfkrh-altrbwy>

وَأَلَّا يَحْدُقَ النَّظْرَ إِلَى مَنْ يَأْكُلُ، وَأَنْ يَجِيدَ الْمَضْغَ وَيُوَالِيَ بَيْنَ اللَّقْمِ، وَلَا يَلْطَخَ يَدَهُ أَوْ ثَوْبَهُ، وَأَنْ يَجِبَ إِلَيْهِ الْإِثَارَ بِالطَّعَامِ، وَالْقَنَاعَةَ بِالطَّعَامِ الْحَشَنِ.

ب . لباس الطفل ورفاهيته: أن يُعود الطفل على اللباس المحتشم الوقور، ولا يعود على التنعم ولبس الثياب الفاخرة، وألاَّ يجب إليه أسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها، ويعسر تقويمه بعد ذلك. ومن هنا يمنع من الافتخار على أقرانه بشيء مما يملكه والده من مطاعمه وملبسه، ويعود التواضع والإكرام.

ج . جلوس الطفل: يعلمه كيفية الجلوس فلا يستدبر غيره، ولا يضع رجلاً على رجل، ولا يضع كفه على ذقنه، ولا يعمد رأسه بساعده، فإن ذلك دليل الكسل، ولا يبصق في مجلسه ولا يتمخط، ولا يتشاءب بحضرة غيره.

د . كلام الطفل: يوجه الطفل ألاَّ يكثر من الكلام وألاَّ يبتدئ به، وأنَّ يمتنع عن اللغو والفحش والسب، ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك، وأنَّ يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سناً.

هـ . لعب الطفل: اللعب راحة الطفل، راحة تحيي قلبه وتقوي ذكائه، وبها يلذ عيشه، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه بالتعلم يميئ قلبه ويبطل ذكائه، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه، فينبغي أن يعود الطفل على الحركة والرياضة.

و . تخويف الطفل من الرذائل: يخوفه من السرقة وأكل الحرام، والخيانة، والكذب، والفحش.

ح . صيانة الطفل من رفقاء السوء: يحفظ الطفل من قرناء السوء، ومن الأطفال الذين عودوا التنعم والرفاهية، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء، وصيانة الطفل تعني تأديبه وتعليمه محاسن الأخلاق.

ط . ملء وقت فراغ الطفل: يشغل وقت الطفل بالأمر النافعة، ويبعده عن كل ما ييذر في قلبه الفساد.

ي . طاعة الوالدين والمعلم، واحترام الكبير: يعلم الطفل طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه، وأن يحترم من هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي، وأن يقوم لمن هو فوقه ويوسع له المكان، ويجلس بين يديه، ويحسن الاستماع إليه.

ك . عقوبة الطفل ومكافأته: يمدح الطفل عن خلقه الجميل أمام الناس ويجازى، وإن خالف مرة واحدة يتغافل عنه، وإن عاد يعاتب سراً، ولا نكثر عليه العتاب فإنه يهون عليه سماع الملامة، وإذا كان هذا هو دور الأب، والأسرة عامة، فما هو دور الذي يتولى تربية الطفل، وتأديبه، وما هي الشروط التي ينبغي أن تتوفر في المربي؟

٤. دور المعلم المربي: سبق ذكرها عند كلامنا عن المعلم والمتعلم عند الغزالي.

وخلاصة القول: إن الغزالي يعتبر الطفل جوهره نفسية، وجزءاً من النفس، وأمانة تترتب عليها مسؤوليّة، وتربية ذلك الطفل قضية وجود أو عدم بالنسبة للإنسان في هذه الحياة، وجاءت رؤيته لتربية الطفل رؤية نفسية، أخلاقية، واقعية، تكاملية إسلامية. ولا غرابة أن نجد أن فهمه للتربية والأخلاق يطبعه نزوع صوفي، إذ أنه ألف كتاب "الإحياء" في نهاية حياته، وهذا هو المأخذ العام على هذه الرؤية التربويّة التي قدمها الإمام الغزالي، إذ أراد طفلاً قوياً طموحاً يقتحم ويواجه. واليوم تدخل الأمة الإسلاميّة الألفية الثالثة وهي تبحث عن فلسفة تحدد ملامح طفل يستجيب لمتغيرات تلك الألفية، وتسعى إلى تحديد فلسفة تربوية تضع القيم والهداف داخل هذا الغليان الأخلاقي، في معترك التبعية للغرب، والانصهار في بوتقته، والانبهار بتحولاته التكنولوجية والإعلامية.

المبحث الثاني

أبو حنيفة وأفكاره التربويّة

المطلب الأول: حياة أبي حنيفة وعصره:

أولاً. نسب أبي حنيفة ومولده: هو النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه الفقيه الكوفي مولى تيم الله بن ثعلبة.^(١) اتسم عهده بكثرة العلماء فأخذ عن كثير منهم وهو يصف

(١) انظر وفيات الأعيان: ابن خلكان، ٥/٥٠٤.

عصره فيقول: "كنت في معدن العلم والفقه فجالست أهله ولزمت فقيهاً من فقهاءهم يقال له حماد فانتفعت به".^(١) ولأبي حنيفة سند علمي رفيع فهو عن حماد عن ابراهيم عن أصحاب عمر وعلي وابن عباس، وقيل بأنه التقى بعدد من الصحابة كأنس بن مالك وجابر بن عبد الله ووائل بن الأسقع وغيرهم. أما من التابعين فأخذ العلم عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب والأعرج وعكرمة وعمرو بن دينار وقتادة بن دعامة وأبرزهم كما قلنا حماد بن سليمان. أما تلاميذه فما أكثرهم ولعل أبرزهم الإمام أبو يوسف قاضي القضاة ومحمد بن الحسن والحسن بن زياد وزفر بن الهذيل كان أبو حنيفة سخيّاً كريماً قوي الحجّة عذب المنطق واسع المعرفة حاد الذكاء، قال عنه الإمام مالك: "رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته".^(٢)

ثانياً. عصره: عاش أبو حنيفة سبعين عاماً قضى منهم اثنتين وخمسين سنة في ظل الدولة الأموية فعاصر كل مراحلها من النشأة إلى القوة إلى الضعف، وأدرك من العصر العباسي ثماني عشرة سنة كانت فترة قوة الدولة العباسية ولإعطاء صورة واضحة عن عصر أبي حنيفة لا بد لا من أن نستعرض الحياة السياسية والعلمية والاجتماعية والتربوية التي كانت في عصره.

١. الناحية السياسية: لم تكن حرب صفين التي أحدثت شرخاً عظيماً في كيان الأمة الإسلامية بعيدة عن عصر أبي حنيفة وما كان بعدها من ظهور الخوارج وقتالهم علياً ثم قتلهم له ﷺ وتولية معاوية الذي جعل الحكم ملكياً وراثياً، وقد عاصر أبو حنيفة الفتن والأحداث التي وقعت بين الشيعة والخوارج والمعتزلة؛ كل ذلك ترك أثراً عظيماً في نفسه. كان رحمه الله ينكر على الأمويين استيلاءهم على الخلافة دون حق، وكان ميالاً بقلبه نحو العلويين وظل على ولائه لهم، وقد تجلّى هذا الولاء برفضه تولي أي منصب في

(١) مناقب أبي حنيفة: الموفق المكي، ٥٢/١.

(٢) انظر مناقب أبي حنيفة: الموفق المكي؛ ٧٩/١. وانظر مناقب أبي حنيفة: الذهبي، ص ١١. وانظر الجواهر

المضيئة في طبقات الحنفية: أبو الوفا الحنفي، ص ٥٦.

الدولة الأموية، وقد طلب منه والي الكوفة ابن هبيرة تولي القضاء فرفض فحبسه حتى هرب بمساعدة أحد الحراس إلى مكة وبقي فيها إلى قيام الدولة العباسية فعاد إلى الكوفة. (١)

٢. **الناحية الاجتماعية:** توسعت الدولة الإسلامية توسعاً عظيماً ودخل العرب والعجم والروم والموالي في دين الله فأصبح المجتمع خليطاً من أجناس مختلفة أدى ذلك إلى ظهور مسائل لم تكن معروفة من قبل، فظهرت آراء المذاهب التي تتفق في الأصول والعقائد وتختلف في الفروع، وقد غلب على العراق منهج أهل الرأي بينما غلب على المدينة منهج أهل الحديث. (٢) وفي هذه الفترة ظهر الوضع في أحاديث النبي ﷺ وظهرت الفرق وعظمت الفتن، ونتيجة ظهور المسائل الجديدة كثر الاجتهاد والقياس وظهرت المدارس الفقهية المعروفة اليوم.

٣. **الناحية الفكرية:** كان العراق موطناً للفرق المختلفة ففيه عاش الشيعة والمعتزلة والجهمية والقدرية والمرجئة، وكان العراق أصلاً ومنذ القدم موطناً للأفكار العقلية المختلفة فقد سكنته عدة طوائف من نحل مختلفة وظهر في العصر الأموي وأوائل العصر العباسي مزيداً من الأفكار والمذاهب التي كانت تنتشر بين المسلمين كالبحث في القضاء والقدر وإرادة الإنسان، وكانت هذه المحاولات والأفكار تدس بين المسلمين بتدبير خفي ليحد أعداء الإسلام منفذاً ينفذون من خلاله إلى تفرق وحدة المسلمين وإثارة النزعات الفكرية بينهم، وما شخصية سوسن النصراني وعبد الله بن سبأ اليهودي ومعبد الجهني والجهم بن صفوان والجعد بن درهم إلا نماذج يعرفها كل مطلع ويعرف ما أحدثته من أثر في حينها بين المسلمين. ونشأت حركة علمية في العصر الأموي ونشط نقل الكتب

(١) انظر أئمة المذاهب الأربعة: محمد اسماعيل إبراهيم، ص ٤٧. ٤٨.

(٢) انظر الأئمة الأربعة: أحمد الشرباصي، ص ١٥. وانظر تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون: عمر فروخ، ص ٢٢٣.

العلمية إلى العربية وخاصة كتب الفلسفة اليونانية وبدأت تتميز العلوم عن بعضها فظهر
الفقه والمؤلفات فيه وكذا الحديث والتفسير والكلام وغيره. (١)

٤. الناحية التربوية في عصر الإمام أبي حنيفة:

أ. إدارة التعليم وتمويله: بدأ التعليم حراً فنشأت الكتاتيب ودروس المساجد واكتسبت
الحرية الكاملة في نشر العلم وأخلصت له لأنها كانت بعيدة عن أي توجيه سياسي.
فلم يكن في ميزانية الدولة شيء خاص بالتعليم إلا منح وعطايا، لذا لم تتدخل الدولة
في وضع المناهج أو اختيار المعلمين. ولما تطور التعليم تدخلت الدولة كمؤيدة له
ومكملة للمجهودات الشعبية لنشره فقدمت الدعم المالي اللازم دون تدخل في شؤون
التدريس.

ب. مراحل التعليم: لم تكن في عصر أبي حنيفة المراحل التعليمية المعروفة اليوم وإنما
كانت هناك مرحلة ابتدائية هي مرحلة الكتاتيب أو المعلمين الخاصين، ومرحلة عليا
هي مرحلة التعليم في المسجد الذي كان كالجامعة اليوم. ولم يعرف التعليم الإسلامي
في عصر أبي حنيفة نظام الامتحانات بل كان الطالب ينتقل إلى المستوى التعليمي
الأعلى عن طريق ملاحظة الأستاذ ومراقبته له وتقييمه له. (٢)

المطلب الثاني: المبادئ التربوية عند الإمام أبي حنيفة:

أولاً. مبدأ القدوة في التربية:

أوصى أبو حنيفة تلميذه أن يكون قدوة صالحة يسبق من حوله في الاستقامة
والعبادة والتصرف الحسن، ففي رأيه إن للعالم تأثيراً كبيراً على من حوله باعتباره قدوة لهم
في كل شيء، لذا يرى أن عليه أن يكون شديد الحرص والحذر في كل تصرف يقوم به وأن

(١) انظر أبو حنيفة حياته وعصره وآراؤه وفقهه: محمد أبو زهرة، ص ٩٤-٩٦. وانظر الدول الأموية في الشرق:
محمد الطيب النجار، ص ١٦٣-١٦٤.

(٢) انظر التعليم الإسلامي أهدافه ومقاصده: محمد النقيب العطاس، ص ١٣٤. وانظر التربية الإسلامية التقليدية:
زكي بدوي، ص ١٨.

يحاسب نفسه منذ البداية على سلوكه. كما يلفت انتباهه إلى أمور عليه أن يتجنبها فهو ينصحه بأن لا يخرج إلى الأسواق كثيراً ولا أن يجلس في الطرقات والحوانيت وأن لا يجالس أهل الأهواء والبدع إلا على سبيل النصح والدعوة، كما ينصحه بأن يكون أول الداخلين إلى المسجد عند الأذان فأبو حنيفة يطلب من تلميذه أن يكون قدوة صالحة لغيره في الاستقامة والعبادة وقد كان هو كذلك قولاً وعملاً، فقد تجنب ارتكاب المعاصي والآثام لأنه أدرك أنها لا تأتي إلا بسوء العاقبة، وكان متمسكاً بالطاعات كثير العبادة.^(١) ولو أمعنا النظر في هذا المبدأ لوجدناه وسيلة عظيمة إلى تعليم الأخلاق وغرس الفضائل في النفس خاصة عند الأطفال إذ أنهم يتأثرون بالتقليد والمحاكاة أكثر من تأثرهم بالنصح والإرشاد. ويعتبر مبدأ القدوة في التربية من أفضل الوسائل وأقربها إلى النجاح لذا فكما يجب على الأسرة المسلمة أن تكون قدوة يجب على المدرس ذلك أيضاً كي يقتنع الطلاب بما يتعلمون منه ويعرفوا أن ما يعلمه لهم المدرس في السلوك يمكن تطبيقه، فللمدرس تأثير كبير على التلاميذ ومن هنا وجب عليه أن يكون سلوكه مطابقاً لأقواله، فلا فائدة ترجى من مجرد القول ما لم يكن متبوعاً بعمل يوافقه، فلو نصح الأب أو المعلم الابن أو التلميذ بترك التدخين وهو يدخن فستذهب النصيحة سدى لأنه عندها لا يعد قدوة صالحة قال تعالى: "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون" (البقرة: ٤٤) وقال: "يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" (الصف: ٣-٢). وتقع على واضعي مناهج التربية الإسلامية مسؤولية ملء المناهج بالقيم والأفكار والمثل الإسلامية التي تعج بها شخصية النبي ﷺ وأصحابه والتابعين ومن بعدهم لتكون هذه الشخصيات الرائعة هي القدوة العملية للطلاب.^(٢)

(١) انظر كتاب العالم والمتعلم لأبي حنيفة والفكر التربوي الإسلامي فيه: رضوان السيد، ص ٣٠. وانظر الأئمة الأربعة: أحمد الشرباصي، ص ٦٦.

(٢) انظر التربية الإسلامية وفلاسفتها: محمد عطية الأبراشي، ص ٢٩٤. وانظر مسيرة الفكر التربوي عبر التاريخ: محمود السيد سلطان، ص ٨١.

ثانياً. مبدأ التدرج في طلب العلم:

يعد هذا المبدأ من أهم المبادئ في التربية والتي ينادي بها التربويون اليوم ويرون ضرورتها لتحقيق الأهداف المرجوة في عملية التربية والتعليم سواء كان ذلك في تربية الأبوين لأبناءهم أو عن طريق المناهج الدراسية أو غيرها، وقد أشار القرآن إلى هذا المبدأ، قال تعالى: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) (سورة البقرة: ٢٨٦) فهي تدل على أنه لا بد في التدرج في التعليم والتكليف على قدر استعداد الإنسان وقدرته وطاقته، فالله تعالى لم يحرم الخمر على المسلمين دفعة واحدة بل كان ذلك بالتدرج فبين مضاره أولاً ونفر الناس منه، ثم حذر المسلمين من أداء الصلاة وهم سكارى، وهذا ما أدى إلى قلة تناوله لتأتي بعد ذلك آية التحريم القاطع، فقبل الناس الحكم واستجابوا لربهم. وقد راعى النبي ﷺ هذا المبدأ أثناء تعليم المسلمين وتوجيههم عند الأمر بالصلاة فقال: مروا أولادكم بالصلاة... (المضاجع).^(١) يفهم من الحديث التدرج في تعليم أولاد المسلمين الصلاة كي يتعودوا عليها بعد ذلك ببسر وسهولة. وقد أوصى الإمام أبو حنيفة بمراعاة هذا المبدأ فنصح بتدريس المسائل السهلة المعروفة ثم المسائل الصعبة فالأصعب فقال لتلميذه خالد السميتي: (وخذهم بجلي العلم دون دقيقها).^(٢)

ثالثاً. مبدأ مراعاة الفروق الفردية:

تتم التربية الحديثة بمراعاة هذا المبدأ خاصة بعد أن ثبت يقيناً أن كل إنسان يختلف عن الآخر في قدراته العقلية واستعداداته، ولعل النبي ﷺ أول من نادى بهذا المبدأ عندما قال: (أنزلوا الناس منازلهم).^(٣) فعلينا مخاطبة الطفل بأسلوب مختلف عن مخاطبة الكبير ومخاطبة الجاهل بأسلوب مختلف عن مخاطبة العالم، روي عن علي قال: (حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله).^(٤) وقد لفت أبو حنيفة أنظارنا إلى هذا المبدأ

(١) سنن أبي داود: كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، رقم: ٤٩٥. قال الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٢) انظر مناقب أبي حنيفة: الموفق المكي، ص ٣٦٧.

(٣) سنن أبي داود: أول كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم، رقم: ٤٨٤٢. قال الأرناؤوط: حديث حسن.

(٤) البخاري: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا، رقم: ١٢٧.

ووجوب مراعاته في التربية والتعليم فقال ناصحاً تلاميذه: (وأعط كل من يختلف إليك نوعاً من العلم ينظرون فيه ويأخذ كل واحد بحظ شيء منه).^(١) إن تربيتنا الإسلامية راعت مبدأ الفروق الفردية بيننا فوضعت حداً أدنى من الفروض والواجبات الإسلامية لكل الناس وأعفت بعض الضعاف والمرضى من الفروض والواجبات التي كلف بها بقية الناس كإعفائهم من فريضة الجهاد وكإسقاط الصوم والصلاة عن المرأة حال حيضها ونفاسها مراعاة لظروفها وتكوينها النفسي والجسمي. ومن هنا وجب على المدرس مراعاة هذه الفروق بين تلاميذه أثناء تدريسه، لذا عليه أن يستخدم الوسائل الكفيلة بإيصال العلوم والمعارف إليهم وعليه أن يدرك أن منهم المتفوقين الذين يفهمون من أول مرة ومنهم الضعفاء الذين يحتاجون إلى التكرار.^(٢)

رابعاً. مبدأ الرفق بالمتعلمين:

تنبه علماء التربية المسلمون إلى الأضرار الناتجة عن معاملة المتعلم بالشدة القسوة فنادوا بالرفق بهم، يقول النبي ﷺ: (إن الله يحب الرفق في الأمر كله).^(٣) وقد نادى أبو حنيفة بهذا المبدأ فهو يرى أن تلاميذ الحلقة بالمسجد هم أسرته الحقيقية، لذا فإن اهتمامه بهم يجب أن لا يقتصر على حلقة الدرس بل يتعداها إلى البيت، فكان إذا لاحظ على أحدهم ذكاء أو حرصاً على طلب العلم اهتم به ورعاه حتى يكمل علمه وأثنى عليه حتى يقبله الناس ويثقوا به إذا صار معلماً، فهو هنا قد اهتم بفكرة التدريب والثناء والمكافأة، وقد دعا أبو حنيفة تلميذه أبا يوسف للاهتمام بهذا المبدأ فنصحه قائلاً: "أقبل على متفقهيك كأنك قد اتخذت كل واحد منهم ابناً وولداً ليزيدهم رغبة في العلم".^(٤) فهو هنا يدعو تلميذه إلى أن لا تقتصر علاقته بتلاميذه على حلقة الدرس فقط بل يتعداها إلى الحياة الخارجة عنها، وكان أبو حنيفة قدوة حسنة في ذلك إذ كان يعامل تلاميذه كأبنائه

(١) انظر مناقب أبي حنيفة: الموفق المكي، ص ٣٦٧.

(٢) انظر ديمقراطية التربية الإسلامية: سعيد علي اسماعيل، ص ٣٤.

(٣) البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم: ٦٠٢٤.

(٤) مناقب أبي حنيفة: الموفق المكي، ص ٣٧٣.

فكان يعطيهم من ماله ويتحمل أعباء تعليمهم وتهذيبهم ويساوي بينهم وبين ولده في ذلك كله. والدليل على ذلك ما رواه تلميذه أبو يوسف عن نفسه وكيف ساعده أبو حنيفة بماله وشجعه على مواصلة تعليمه فقد انقطع أبو يوسف عن حلقة شيخه فترة فافتقده أبو حنيفة وعندما عاد سأله عن سبب غيابه فأخبره بأمره وهو الفقر المانع من مواصلة التعلم، وعندما ذهب الناس دفع إليه مئة درهم لينفقها على معيشته وطلب منه أن يداوم على حضور الدرس وأن يخبره عند نفاذ الدراهم وكان أبو حنيفة يدفع إليه كل مدة مئة درهم دون أن يخبره أبو يوسف بنفاذ الدراهم وظل على ذلك حتى أتم العلم واستغنى. ويمكننا أن نعتبر أبا حنيفة أول من ابتكر المنح المالية الدراسية وأول من أجرى رواتب شهرية لتلاميذه.^(١) وقد نصح أبو حنيفة تلميذه خالد السمتي أن يعامل تلاميذه بكل رفق ولين وأن يسامحهم على أخطائهم ويتحمل منهم ما قد يصدر عن أحدهم من أخطاء وأن يعاملهم بسعة صدر ولا يضيق بأحد منهم ويعاملهم كزملاء وأصحاب فقال: (وارفق بهم وسامحهم ولا تبد لأحد منهم ضيق صدر أو ضجر وكن كواحد منهم).^(٢) فمن واجب المربين أن يعطفوا على تلاميذهم حتى يزيدهم رغبة في العلم ويشجعوهم على الاستمرار في التعليم فإذا شعر التلميذ بحب أستاذه له وعطف عليه أصبحت المواد الصعبة أمامه سهلة وأحبها وبذل جهده للنجاح فيها كي يسر أستاذه أما إذا عامله بقسوة فإن هذا يؤدي إلى نفوره من العلم الذي يدرسه له بسبب نفوره منه.^(٣)

خامساً. مبدأ عدم التعصب للرأي:

لقد حرص النبي ﷺ على بناء شخصية أصحابه بتعليمهم عدم التشبث بالرأي وعدم التعصب ضد كل رأي مخالف بل دعاهم إلى استشارة الآخرين من أجل التوصل إلى أفضل الآراء التي تعود بالخير والنفع على المجتمع، وكان ﷺ قدوة لأصحابه في ذلك

(١) انظر التربية الإسلامية نظمها وفلسفتها وتاريخها: أحمد شلبي، ص ٢٩٣. وانظر الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان: مصطفى الشكعة، ص ٦٦.

(٢) انظر مناقب أبي حنيفة: الموفق المكي، ص ٣٦٧.

(٣) انظر التربية الإسلامية وفلسفتها: محمد عطية الأبراشي، ص ١٤٥.

فقد استشار أصحابه قبل بدء معركة بدر وقبل معركة الخندق وأعجب برأي سلمان الفارسي بجحر الخندق وعمل بنفسه في حفره.^(١) وقد اتخذ أبو حنيفة هذا المبدأ أسلوباً له في تعامله مع أصحابه فكان همه الحقيقة، ولا يهمه أن يكون غالباً أو مغلوباً بل كان يعتبر نفسه هو الغالب دائماً ما دام يصل إلى الحقيقة ولو كان الذي أقنعه بهذا الرأي خصماً له في جدل أو مناظرة، وكان لفرط حبه التوصل إلى الحق لا يفرض رأيه على غيره ولا يعتبر رأيه صحيحاً لا خلاف عليه ولا جدال، بل كان يحث الناس على اتباع رأي غيره إن تبين لهم أنه الصواب فكان يقول: (قولنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرنا، فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا)، وعندما قال له بعض أصحابه إن ما يفتي به هو حق لا شك فيه أجابهم بأنه قد يكون خطأ ورفض مقولتهم، وكان تلاميذه يكتبون عنه كل ما يسمعون منه لكنه نهي عن ذلك لأنه قد يغير رأيه إن وجد رأياً أصوب منه، وكان يترك رأيه إن ذكر له حديث ليس عنده حديث يخالفه وليس هناك شك فيه أو إن ذكرت له فتوى صحابي، وذات يوم اجتمع الفقهاء عند الأمير يستفتيهم فذكر كل واحد رأيه ثم ذكر الحسن بن عمار رأيه فقال أبو حنيفة: "أخطأنا وأصاب الحسن"، فقال الحسن: "لو أراد أبو حنيفة أن يتشبث برأيه ويعتبره صواباً ويقنع الأمير بذلك ويجعلني أترك قولي لأمكنه ذلك". فمن يومها عرف الحسن أنه ليس هناك من هو أروع من أبي حنيفة.^(٢) ومن هنا على المرين أن يتبادلوا الرأي مع تلاميذهم ويشجعوهم على إبداء آرائهم وأن لا يتشبثوا بآرائهم بل يكونوا قدوة لتلاميذهم في عدم التعصب الأعمى للرأي.

سادساً. مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أرسل الله رسله وأمرهم بالقيام بهذه المهمة، فلو أهمل هذا المبدأ لعمت الضلالة وانتشر الجهل والفساد، لذا أمر الله المسمين بالتمسك به وعدم إهماله فقال: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (آل عمران: ١٠٤) وقال النبي ﷺ "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن

(١) انظر معجزة الإسلام التبروية: محمود أحمد السيد، ص ١٠٢.

(٢) انظر أبو حنيفة حياته وعصره وآراؤه وفقهه: محمد أبو زهرة، ص ٦٩. وانظر أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح

في الإسلام: عبد الحليم الجندي، ص ١١١.

لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقبله، وذلك أضعف الإيمان".^(١) وقد حذرنا الإسلام من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه سيؤدي إلى أن يعمنا الله بالعقاب. أما الواعظ فهناك صفات يجب أن يتصف بها منها: أنه إذا نهي عن شيء لا يأتيه وإذا أمر بفعل كان شديد الأخذ به، فالواعظ إذا لم تكن أقواله مطابقة لأعماله لم يستفد منه لأن عمله مشاهد بالبصر.^(٢) وقد اهتم أبو حنيفة بهذا المبدأ فهو يرى أن من واجب العالم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر مهما كانت الصعوبات التي ستواجهه، ويلفت نظره إلى أنه بسبب التغيرات الاجتماعية التي تحدث في المجتمع ستظهر أشياء جديدة لم تكن مألوفة وشائعة، وعليه أن يعمل على وضع حلول مناسبة وأن يقترح الأساليب النافعة والمفيدة، كما أن عليه أن يحرص على تأليف وجمع وحدة أفراد المجتمع الإسلامي انطلاقاً من فهمه لمعنى الإسلام الذي يدعو إلى الاجتماع والتضامن والوحدة حتى وإن كان ينكر على إحدى الجماعات الإسلامية موقفاً أو تصرفاً لأنه إنكاره هذا ووقوفه في وجه هذه الجماعة سيؤدي إلى انقسام داخل الأمة الإسلامية ويكون هو سبباً في هذا الانقسام.^(٣) ويرى أبو حنيفة أن على العالم أن يبدأ بدعوة الناس إلى أمور يألّفونها وليس إلى أمور ينكرونها، فإذا كان له رأي يخالفهم فيه فعليه أن لا يفاجئهم بهذه المخالفة حتى لا يتجنبوه ويتمسكوا برأيهم، بل عليه أن يقرر رأيهم في البداية، ثم يبين لهم أن هناك رأي يخالفهم، ويذكر لهم الرأي دون أن ينسبه إلى نفسه ويأتي بالأدلة والبراهين، فإن سأل عن صاحب هذا الرأي نسبه إلى بعض الفقهاء، فإن قبلوا الرأي وألّفوه بعد ذلك يستطيع أن يخبرهم بأن هذا رأيه، وبهذا يصبح محل ثقتهم وإجلالهم واحترامهم.^(٤) يقول أبو حنيفة لتلميذه خالد السمطي موضحاً رأيه: (متى جمع بينك وبين غيرك مجلس أو ضحك وإياهم مسجد وجرت المسائل وخاضوا فيها بخلاف ما عندك لم تبد لهم خلافاً، فإن سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول: فيها قول آخر وهو كذا وكذا والحجة له كذا، فإن سمعوه منك

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، رقم: ٤٩.

(٢) انظر الأخلاق والسير في مداواة النفوس: ابن حزم، ص ٦٣.

(٣) انظر كتاب العالم والمتعلم لأبي حنيفة والفكر التربوي الإسلامي فيه: رضوان السيد، ص ٢٧.

(٤) انظر أبو حنيفة حياته وعصره وأراؤه وفقهه: محمد أبو زهرة، ص ٣٠٨.

عرفوا مقدار ذلك ومقدارك، فإن قالوا هذا قول من؟ قل بعض الفقهاء، فإن استمروا على ذلك وألفوه، عرفوا مقدارك وعظموا محللك).^(١)

ولا يخفى على المربين ما لهذا المبدأ من أهمية في مجتمعا الإسلامي، إذ أن تربية الناشئين على هذا المبدأ يحافظ على فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فيبتعدون عن ارتكاب المعاصي والأخطاء والمحرمات ما دما ننهاهم عنها ونأمرهم باجتنابها ونبين لهم مخاطر اقترافها، إذ أن السكوت عمن يقتترف المنكر وعدم نهيهم عنه سيشجعه على ارتكاب المعاصي، لذا فإن من واجب الكبار أمهات وآباء ومدرسين ومسؤولين في المجتمع أن يغرسوا معنى الإيمان في قلوب الناشئين في مختلف المناسبات بتوجيههم ونصحهم وتحذير سلوكهم وتربيتهم).^(٢)

المبحث الثالث

ابن خلدون وأفكاره التربوية

المطلب الأول: اسمه ونسبه ومكانته العلمية:

أولاً. اسمه ونسبه: هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، يتعقب ابن خلدون أصوله إلى حضرموت فقد ذكر أنه من سلالة الصحابي وائل بن حجر وأنّ أجداده من حضرموت.

ولد في تونس عام (٧٣٢هـ) وشب فيها، وحفظ القرآن الكريم في طفولته، وكان أبوه معلمه الأول، وتخرّج من جامعة الزيتونة، ولي الكتابة والوساطة بين الملوك في بلاد المغرب والأندلس ثم انتقل إلى مصر حيث قلده السلطان برفوق قضاء المالكية، ثم استقال من منصبه وانقطع إلى التدريس والتصنيف فكانت مصنفاته من أهم المصادر للفكر العالمي، تُؤيّد عام (٨٠٨هـ) عن عمر بلغ ستة وسبعين عاماً ودُفِنَ قرب باب النصر بشمال القاهرة تاركاً تراثاً ما زال تأثيره ممتداً حتى اليوم.

(١) انظر مناقب أبي حنيفة: الموفق المكي، ص ٣٦٧.

(٢) انظر التربية الإسلامية: النحلاوي، ص ١٦.

يعد ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع الحديث ومن علماء التاريخ والاقتصاد كما سنوضح. اعتزل ابن خلدون الحياة بعد تجارب مليئة بالصراعات والأحزان على فقد الأعداء من أبويه وكثير من شيوخه إثر وباء الطاعون الذي انتشر في جميع أنحاء العالم سنة (٧٤٩هـ)، تفرغ بعدها أربع سنواتٍ في البحث والتنقيب في العلوم الإنسانية، حتى اعتزل الناس آخر عمره، ليكتب سفره أو ما عرف بمقدمة ابن خلدون مؤسساً لعلم الاجتماع بناءً على الاستنتاج والتحليل في التاريخ وحياة الإنسان، واستطاع بتلك التجربة القاسية أن يمتلك صرامة موضوعية في البحث والتفكير.^(١)

ثانياً. مكانته العلمية:

- أبدع ابن خلدون في كل العلوم التي اشتغل بها وسبق عصره بقرون، نذكر منها:
١. **علم الاجتماع:** يعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع وأول من وضعه على أسسه الحديثة، وقد توصل إلى نظريات حول قوانين العمران ونظرية العصبية، وبناء الدولة وأطوار عمارها وسقوطها. وقد سبقت آراؤه ونظرياته ما توصل إليه لاحقاً بعدة قرون عدد من مشاهير العلماء كالعالم الفرنسي أوجست كونت.
 ٢. **التاريخ:** تجمعت في شخصية ابن خلدون العناصر الأساسية النظرية والعملية التي تجعل منه مؤرخاً حقيقياً، ذلك أنه لم يراقب الأحداث والوقائع عن بعد كبقية المؤرخين، بل ساهم إلى حد بعيد ومن موقع المسؤولية في صنع تلك الأحداث والوقائع خلال مدة طويلة من حياته العملية تجاوزت النصف قرن، وضمن بوتقة جغرافية امتدت من الأندلس وحتى بلاد الشام. فقد استطاع ولأول مرة أن يوضح أن الوقائع التاريخية لا تحدث بمحض الصدفة أو بسبب قوى خارجية مجهولة، بل هي نتيجة عوامل كامنة داخل المجتمعات الإنسانية، لذلك انطلق في دراسته للأحداث التاريخية من الحركة الباطنية الجوهرية للتاريخ. وهكذا فهو وإن لم يكتشف مادة التاريخ، فإنه جعلها علماً

(١) انظر التربية الإسلامية وفلاسفتها: محمد الإبراهيمي، ص ٢٧٣.

ووضع لها فلسفة ومنهجاً علمياً نقدياً نقلها من عالم الوصف السطحي والسرد غير المعلن إلى عالم التحليل العقلاني والأحداث المعللة بأسباب عامة منطقية ضمن ما يطلق عليه الآن بالاحتمية التاريخية، وذلك ليس ضمن مجتمعه فحسب، بل في كافة المجتمعات الإنسانية وفي كل العصور، وهذا ما جعل منه أيضاً أول من اقتحم ميدان ما يسمى بتاريخ الحضارات أو التاريخ المقارن.

٣. علم الاقتصاد: إن النتيجة التي توصل إليها بأن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلهم من المعاش، قادته بالضرورة إلى دراسة عدة مقولات اقتصادية تعتبر حجر الزاوية في علم الاقتصاد الحديث، مثل دراسة الأساليب الإنتاجية التي تعاقبت على المجتمعات البشرية، وانتقال هذه الأخيرة من البداوة إلى الحضارة. يركز ابن خلدون على الصناعة جاعلاً منها السبب الأساسي في ازدهار الحضاري، كما تناول مقولة تقسيم العمل بالتأكيد على أن النوع الإنساني لا يتم وجوده إلا بالتعاون، لعجز الإنسان عن تلبية جميع حاجاته مهما كانت قدرته بمفرده، حيث أن الصنائع في النوع الإنساني كثيرة بكثرة الأعمال المتداولة في العمران، فهي بحيث تشد عن الحصر ولا يأخذها العد، كالزراعة والبناء والحياطة والنجارة والطب. أما القيمة فهي في نظره (قيمة الأعمال البشرية) فهي ما يفيد الإنسان ويقتنيه من الممتلكات، ويأخذ المصنوع قيمته من العمل والجهد الذي بذل لصنعه. فقد تبين أن المكتسبات كلها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية.

٤. الفلسفة: يرى ابن خلدون أن الفلسفة من العلوم التي استحدثت مع انتشار العمران، وأنها كثيرة في المدن. ويحذر ابن خلدون الناظرين في هذا العلم من دراسته قبل الاطلاع على العلوم الشرعية.

ثالثاً: الفكر التربوي عند ابن خلدون:

لابن خلدون مساهمة فعالة في علم التربية والذي لم يكن معروفاً كعلم أكاديمي مستقل مثل اليوم، وقد عملت دراسات كثيرة حول فكره التربوي، ويمكن إجمال أفكاره

التربويّة في نقاط أربع: أولها: أن العلم ينقسم إلى علمين علم نقلي وعلم عقلي. وثانيها: التدرج في التعليم. وثالثها: البدء بالمحسوسات والتدرج حتى الملموسات. ورابعها: يكون تعليم الصبي بداية بعض سور القرآن الكريم وبعض الأشعار حتى تقوى ملكة الحفظ. ويرى ابن خلدون أن للتربية أهدافاً ثلاثة: الأول: إعطاء الفرصة للفكر لكي ينشط. الثاني: إعطاء الإنسان الفرصة لكي يحى حياة طيبة في مجتمع راق متحضر. الثالث: إعطاء الإنسان الفرصة لكسب الرزق وتنمية الخصال الحميدة فيه ويعتبر أن الأساس في التعلّم القرآن الكريم.^(١) وقد قسم ابن خلدون العلوم إلى قسمين: الأول: العلوم النقلية: وهي العلوم التي ينقلها الإنسان عن وضعها، وكلها مستندة إلى الخبر من مصدره الشرعي ولا مجال للعقل فيها إلا إلحاق الفروع بالأصول، ومن هذه العلوم علم التفسير وعلم القراءات وعلوم الحديث وعلم أصول الفقه وعلم التوحيد... الخ. والثاني: العلوم العقلية: وهي التي يهتدي إليها الإنسان بعقله وهي تشمل علم المنطق والعلم الطبيعي وعلم النظر في المقادير (الرياضيات والفلك والهندسة) وقد رتب ابن خلدون العلوم بحسب أهميتها للمتعلم على النحو التالي:

١. العلوم الدينية وهي العلوم المقصودة بالذات مثل القرآن الكريم والحديث الشريف.
٢. العلوم العقلية وهذه أيضاً علوم مقصودة مثل العلم الطبيعي.
٣. العلوم الآلية المساعدة للعلوم الشرعية مثل اللغة والنحو والبلاغة.
٤. العلوم الآلية المساعدة للعلوم العقلية مثل علم المنطق.^(٢) وقد شدد ابن خلدون على استمرارية التعليم من المهد إلى اللحد وأنه ليس هناك حد ينتهي عنده التعليم، وسوف أذكر الآن أهم الآراء التي ذكرها في مقدمته:

١. إن كثرة التأليف في العلوم عائقة على التحصيل: يقرر ابن خلدون أن العقل الإنساني يشوبه القصور، وأن مراتبه تختلف باختلاف البشر، وخاصة في المراحل الأولى

(١) انظر تطور الفكر التربوي: فخري خضر، ص ١٥٨، ١٥٩.

(٢) انظر المرجع نفسه: ص ١٦٠

من حياة الإنسان، وقد ذكر أن عقل الإنسان لا يستطيع أن يستوعب العلوم التي تكثر فيها المصطلحات والمؤلفات. وذكر أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم باستحضار ذلك. ويقصد ابن خلدون هنا، كثرة المؤلفات والمصطلحات في العلم الواحد، بحيث يؤدي ذلك إلى نفور المتعلم من التعليم، يهدف ابن خلدون من وراء هذا الرأي إلى التيسير على المتعلم وبالأخص في بداية عهد الطالب بالتعليم.^(١) مما تقدم يظهر لنا أن ابن خلدون نادى بمراعاة قدرات الطلاب، وأن لا نثقل عليهم بما هو فوق طاقتهم، وأن يتم التعليم ببسر وسهولة حتى يقبل الطلاب التعلم، وأن لا يكون التعليم منفراً لهم. وهذا الذي تنادي به التربية الحديثة اليوم، وقد ظهرت النظريات المتعددة التي تنادي بمراعاة الفروق الفردية بين الطلاب، كما ظهر مبدأ التدرج في التعليم والانتقال من السهل إلى الصعب ومن المحسوس إلى المجرد.

٢. عدم إشغال المتعلم بعلمين في وقت واحد: إن تعليم الطلاب علمين في وقت واحد يشغل الطلاب ويعرضهم للفشل والإحباط، وذلك لأنَّ عقل الإنسان محدود وغير قادر على الإحاطة بأكثر من علم في وقت واحد.^(٢) كما أنه نادى أن يتم تعليم القراءة والكتابة ثم الانتقال إلى تعليم القرآن الكريم وحفظه وفهم معانيه، وهو ينتقد المعلمين في عصره لأنهم يصرون على تحفيظ المتعلمين الصغار القرآن قبل تعلّم القراءة والكتابة، ويقول: (إن القرآن الكريم هو كتاب الله، وليس لنا أن نقلده، وليس له تأثير في اللغة قبل أن يفهم الناشئة معانيه ويتذوقون أساليبه، ويدركون مقاصده، ويكون ذلك بتعليمهم مبادئ القراءة والكتابة، وليس العكس مراعاة للترتيب المنطقي)،^(٣) كما أن تركيز ابن خلدون على حصر التعلم في علم واحد في الزمن الواحد، يؤدي إلى تمرين العقل، ثم يتقبل العلوم الأخرى بسهولة، ويقول علماء التربية في ذلك أن تدريب العقل

(١) انظر المقدمة: ص ١٢٣٠، ١٢٣١. ١

(٢) انظر المقدمة: ص ١٢٢٥. لذا ننصح طلابنا أثناء دراستهم الانتهاء من دراسة المادة كاملة قبل الانتقال إلى الأخرى، لما في ذلك من مساعدتهم على التركيز والفهم والحفظ، وأن لا يدرسوا قسماً من مادة ثم ينتقلون إلى أخرى ثم يعودون إلى الأولى ففي هذا تشتيت للذهن وإضاعة للتركيز.

(٣) المقدمة: ص ١٥٧. ٣

مادة من المواد يجعله قادراً على التفكير في المواد الأخرى ويمكنه في الإجابة في كل مادة، وهذا بسبب انتقال أثر التدريب من هذه المادة إلى المواد الأخرى.^(١)

٣. التدرج في تدريس العلوم للمتعلمين: وهذا من الأشياء التي نادى بها ابن خلدون، وذلك بأن يبدأ المعلم مع طلابه بالبسيط الذي يقبله عقله، ثم يتدرج معهم مستخدماً التكرار مع استعمال الأمثال الحسية، وبذلك يتم للمتعلم الحصول على العلم.^(٢) وقد قرر ابن خلدون ثلاث قواعد عامة للمعلم أولها: أن لا يخلط مباحث الكتاب الواحد بكتاب آخر. ثانيها: أن لا يطيل الفواصل بين درس وآخر. وثالثها: أن لا يخلط على المتعلم علمين معاً.^(٣)

نلاحظ أن ما قاله ابن خلدون لا يختلف عما ينادي به علماء التربية في الوقت الحاضر، من كيفية التعامل مع المتعلم وخاصة في المراحل الأولى، حيث نادى بالاهتمام بالمعاني العامة والابتعاد عن التفاصيل، واستخدام الأمثلة الحسية، وفي ذلك يقول: (يكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب وبالإجمال وبالأمثال الحسية).^(٤) كما أن التكرار الذي طأب به ابن خلدون بقوله: (يحصل العلم في ثلاث تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه)،^(٥) هو ما تنادي به التربية الحديثة، فالمتعلم إذا كرر عملاً معيناً فهذا يسهل عليه التعلم، كما أن تكرار العمل عدة مرات يكسبه نوعاً من الثبات، ويستطيع المتعلم أن يصحح الأخطاء، كما أن التجارب الحديثة تدل على أن الاستمرار في تكرار ما تعلمناه يساعد على ثباته في الذهن، وبعض التجارب تقول أننا ننسى حوالي ٦٠% من المواد التي يتم تعلمها في حالة عدم التكرار.^(٦)

(١) انظر أسس التربية وعلم النفس: أحمد يوسف، ص ٣٥٢.

(٢) انظر المقدمة: ص ١٢٣٣.

(٣) انظر دراسات عن مقدمة ابن خلدون: ساطع الحصري، ص ٤٥٣.

(٤) المقدمة: ص ١٢٣٣.

(٥) المقدمة: ص ١٢٣٣.

(٦) انظر أسس التربية: إبراهيم ناصر، ص ١٢٣.

٤. **عدم الشدة على المتعلمين:** انتقد ابن خلدون أسلوب العقاب الذي كان سائداً في عصره، وطلب من المعلمين استخدام الرحمة واللين مع الطلاب؛ واعتبر أن مجاوزة الحد في العقاب له أضرار على الطلاب ويعمل على إفساد أخلاقه، وبذلك لا يتحقق الهدف من التعليم.^(١) وهذا القول لابن خلدون يظهر رأيه في العقاب، حيث يرفض الشدة على المتعلمين، لأنها مضرّة بالمتعلم وتعمل على إفساد أخلاقه وتؤثر على شخصيته، وتعمل على إكساب المتعلمين سلوكيات غير مرغوب فيها، وتزيد القلق والتوتر والخوف في نفوسهم، وقد أشارت دراسات علماء النفس إلى أنه في حالة عدم تمكن الطفل من التخلص من التوتر النفسي، فإن ذلك يؤدي إلى العدوان والانحراف السلوكي، وقد يؤدي إلى الكذب والسرقة والهروب من المدرسة وغير ذلك من مظاهر الجنوح.^(٢) هناك نظريات حديثة كثيرة تطرقت إلى الابتعاد عن الشدة على المتعلمين واستخدام الثواب كعامل من عوامل التعزيز، وفحواها أن الإنسان إذا اقترن عمله بما ينشر له صدره كالثواب تمكن هذا العمل في نفسه ورسخ في ذهنه، أما إذا اقترن عمله بما ينقبض له صدره كالعقاب فإن هذا العمل لا يتمكن في نفسه ولا يرسخ في ذهنه وذلك على اعتبار أن الإنسان يميل بطبيعته إلى ما يسره، ويتجنب ما يسوؤه.^(٣) ومع أن ابن خلدون عارض الشدة على المتعلمين للآثار السلبية إلا أنه لم يدعو إلى التسامح الكلي مع الأطفال فقد أباح العقاب البدني في الضرورة القصوى، بشرط أن يكون العقاب آخر العلاج وبعد استخدام الترغيب والترهيب والتوبيخ والعزل والإهمال، إذن العقاب البدني مباح لتعديل سلوك معين ولكن في أضيق الحدود، وكوسيلة لردع الطلاب من الوقوع في الأخطاء، ويجب أن يتفاوت في شدته حسب الذنب المرتكب. إن هذا الرأي لابن خلدون في عدم الشدة مع الطلاب يوافق مع ما يذكره علماء التربية وعلم النفس في الوقت الحاضر.^(٤)

٤

(١) انظر المقدمة: ص ١٢٤٣، ١٢٤٤.

(٢) انظر الميسر في سيكولوجية اللعب: أحمد بلقيس وتوفيق مرعي، ص ١٥٥.

(٣) انظر الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية: جورج شهيل، ص ١٠٥.

(٤) انظر أسس التربية وعلم النفس: أحمد يوسف، ص ١٥٣.

٥. كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم تخل بالتعليم: يرى ابن خلدون أنه من العوامل التي تقف في طريق التعليم اختصار كتب العلم، وقد ضرب أمثلة على ذلك بابن الحاجب في الفقه، وابن مالك في قواعد اللغة العربية، وقد انتقد ابن خلدون ذلك لأنّ بعض العلوم تحتاج إلى الإطالة والتكرار، لأنّ فيها مفاهيم ومعان لا يستطيع المتعلم فهمها بدون الإطالة والتكرار، ولأنّ اختصار العلوم يصيبها بالخلل وتصبح عسيرة على الفهم وخاصة لصغار المتعلمين، لعدم وجود الاستعداد والقدرة لفهم المختصرات. ويذهب ابن خلدون أن الاختصار يفسد التعليم ويخل بالتحصيل ويخلط على المبتدئ في التعليم بإلقاء الغايات من العلم وهو لم يستعد لقبولها.^(١) وهذا يوافق الأبحاث التربويّة المعاصرة في أن المتعلم يجب أن يستعد للتعليم، وأن لا يرغب على تلقي العلوم دون الاستعداد الكافي، لأنّ عدم الاستعداد والإرغام يضيع الجهود المبذولة في التعليم.^(٢)

٦. طرق التدريس: لم يطلب ابن خلدون من المعلمين استخدام طريقة واحدة في التدريس، وأجاز لهم استخدام الطريقة التي تناسب قدرات وميول الطلاب، لأنّ التعليم عنده صناعة والصناع يختلفون في طرق صناعتهم ولكل صناعة طرق مختلفة، ويحق للمعلم أن يستخدم كل الطرق أو بعضها لتحقيق الأهداف المرجوة، وهذا الرأي يتفق مع ما يقوله رجال التربية في الوقت الحاضر من أن أحسن الطرق هي التي تناسب المادة الدراسية ومستوى الطلاب، ومع أن ابن خلدون أباح استخدام الطرق التي تناسب المعلم إلا أنه يشجع على استخدام طريقة المناقشة.^(٣) فالتعليم عنده يهدف إلى حصول المتعلم على ملكة العلم ليصبح على درجة عالية من الفهم، وليس فقط حفظه دون فهم وتعمق، لذا انتقد ابن خلدون الطريقة القيروانية التي كانت في زمانه تركز على

(١) انظر المقدمة: ص ١٢٣٢.

(٢) انظر الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربيّة: جورج شهيل، ص ١١٩.

(٣) انظر في الفكر التربوي الإسلامي: لطفي أحمد، ص ١٠٥.

الحفظ بشكل كبير، ووصف الطلاب بأنهم يلتزمون الصمت والسكون التام دون مشاركة.

المطلب الثاني: المنهج التربوي عند ابن خلدون:

يحتل ابن خلدون مكانة متميزة في تراثنا العربي والإسلامي وحتى في الفكر الغربي المعاصر، وينظر إليه على أنه صاحب مشروع ورؤية حضارية خاصة، ولا سيما فيما يتعلق بدراسة التاريخ البشري والمجتمع الإنساني والعمران الحضاري، أضف إلى ذلك عبقرية في الفكر الاقتصادي والتربوي والسياسي وغيرها من الحقول المعرفية، ويشار إليه صاحب منهجية في النظر والتفكير والبحث والتفسير، مثلت في زمانه قفزة إبداعية متميزة ووصفت بعض إنجازاته على الأقل بأنها غير مسبوقة. وصار يذكر في الكتب الحديثة بأنه منشئ علم الاجتماع العمراني. لكن يجهل قدر ابن خلدون كثير من الناس، بل إنهم يعرفونه على أنه عالم اجتماع ليس إلا، ولكن هناك من العلماء من يجد في المقدمة مخزوناً من الاستطرادات الثرية التي تدل على جملة من الأفكار التربوية التي لا تقل أهمية عما توصل إليه البحث التربوي عند الغربيين.^(١) لم يفتر الرجل عن تقديم أشتى الأفكار التربوية لرجال التربية والتعليم في عصره، وهي جديرة بالأخذ في عصرنا؛ لأنها لا تقل أهمية عما يذهب إليه علم التربية الحديثة، وهذا بعد نقده اللاذع للطرائق التعليمية التي كانت سائدة في عصره، وكيفية تأدية المعلمين لها، فهو يقول مثلاً: (وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا، يجهلون طرق التعليم وإفاداته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلحقون له من غايات الفنون في مبادئها).^(٢)

٢

(١) انظر التفكير اللساني في الحضارة العربية: عبد السلام المسدي، ص ٢٠٨، ٢٣٧.

٢

(٢) المقدمة: ص ٥٨٩.

كما حرص ابن خلدون على تحديد منهج خاص بالتربية، ذلك المنهج الذي لا تختلف أسسه ومبادئه عما يدعو إليه العلم التربوي الحديث اليوم، بل يتميز عن المناهج الجديدة ببساطته وتدرجه في المعرفة واستناده إلى الحفظ والذكر وتمسكه ببساطة المعلم، وبنظام صارم للثواب والعقاب. وتظهر معالم منهجه التربوي في الطريقة الناجعة التي رسمها في تعليم الناشئة، وفي تحديده للآداب والشروط الواجب توفرها في المعلم والمتعلم. وقد ذهب إلى أن عملية التعلم تقوم عادة على ثلاثة أعمدة، وهي المعلم والمتعلم والطريقة. وتحقق الأهداف التربوية والتعليمية بمقدار ما يتوفر لهذا الموقف التعليمي من شروط،^(١) وفي ضوء هذا أورد ابن خلدون في أثناء تحديده للمنهج التربوي السليم شروطاً دينية ودينية، ينبغي على المعلم والمتعلم التحلي بها حتى تكون عملية التعليم ناجحة ومثمرة، فمن البديهي أن الإنسان لا يتعلم أية خبرة أو مهارة فكرية إلا إذا كان حاصلاً على الشروط اللازمة للقيام بمثل هذه العملية، وتنحصر هذه الشروط في هذه المبادئ:

أولاً. شروط المعلم (المربي):

١. الإحاطة بمبادئ التعليم وعدم الشدة على المتعلمين: يعد المعلم العنصر الأساس في العملية التربوية، فهو المتصرف في قلوب البشر، فمهمته إذن شريفة إلى الحد الذي تجعله وريثاً للأنبياء، ومن تصدّر لهذه المهمة فقد تقلد أمراً عظيماً يفرض عليه آداباً وشروطاً، كأن يكون المربي قادراً على التعليم، ذا كفاءة، غير مستبد، ولا يكون قاسياً غليظاً مع المتعلم؛ لكي لا يجره إلى الكذب.^(٢) وأن يكون ذا ثقافة عامة تمكنه من إفادة المتعلمين إفادة متنوعة، توسع في الوقت نفسه من أفقه المعرفي وتحفظه من بلبلة أفكارهم بالمعلومات الخاطئة أو المعارضة أو من مغبة التعصب الأعمى ضد العلوم التي لم يعرفها عن قرب أو بعد، فالناس أعداء لما يجهلون كما يقال، وأن يلم بطرائق التعليم

(١) انظر الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق: عبد الأمير شمس الدين، ص ٧٩. وانظر التعلم عند

الغزالي: جمانة البخاري، ص ١٥٥.

٢

(٢) المقدمة: ص ٥٩٧.

ومبادئه ومهاراته، متوقفاً عند مسائله، مستنبطاً فروعه من أصوله، حتى يكون التعليم مزدهراً ومحققاً لأهدافه.^(١)

٢. الإيجاز المفيد في تقديم المسائل العلمية وحسن الانتقاء: دعا ابن خلدون المربين إلى عدم الاستكثار من العلوم الآلية التي لا ينبغي أن توسع فيها الأنظار ولا توسع فيها المسائل، منها على سبيل المثال لا الحصر علم النحو، وبرر ذلك بأن التعمق والاستكثار من مسائله المقفلة سيخرجها عن المقصود، ويصير الاشتغال بها لغواً، فالهدف الأسمى من هذا العلم معرفة صواب الكلام من أخطائه، وإصلاح الألسنة من اللحن أو اللكنة.^(٢) وهو في هذا المذهب ينحّو نحو الجاحظ "٢٥٥هـ" الذي دعا إلى ضرورة تعليم النحو الوظيفي الذي يجري في المعاملات، والتمييز بين النحو كعلم والنحو كتعليم، يقول الجاحظ: (وأما النحو فلا تشغل قلب المتعلم المبتدئ منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشيء إن وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به).^(٣) وعليه فإن الاشتغال والإكثار من المسائل، يصير في رأيه من باب اللغو، كما نبه ابن خلدون أيضاً إلى أن الاختصار المخل سيحدث لا محالة ضرراً في إيصال المعاني، والإكثار منها في العلوم يخل بالتعليم.^(٤)

٣. المتابعة والاستمرار في تلقين العلم وعدم الخلط بين الفنون: ألح ابن خلدون على عدم الانتقال من مسألة علمية إلى مسألة أخرى قبل فهم المتعلم للمسألة الأولى، ولذا يجب عليه الاستمرار في تلقين المسألة الواحدة إلى أن ينتهي منها، ويتحقق أن المتعلم قد استوعبها، وحذر من انقطاع المجالس والتفريق فيما بينها؛ لأن ذلك يؤدي إلى

(١) المقدمة: ص ٢٨٤.

(٢) انظر القواعد الأساسية للغة العربية: أحمد الهاشمي، ص ٤.

(٣) رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون، ص ٣٨.

(٤) المقدمة: ص ٥٨٨.

النسيان أولاً، ويؤول إلى عدم تعلق المسائل بعضها ببعض ثانياً.^(١) كما نبه إلى عدم الخلط بين المسائل، فلا يصح أن يُخلط على المتعلم علمان معاً، لأنّه عنده يندر أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما.^(٢) وهو بهذا يؤكد على الجانب المنهجي في طريقة التلقين، بعدم الخلط بين علمين؛ لأنّ ذلك من شأنه يؤدي إلى خيبة الأمل لدى المتعلم، حيث يصرف باله، ويضعف ملكته في النفس أو يؤخرها على الأقل.^(٣)

٤. **مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين:** فالعوامل النفسية والجسمية والبيئية تؤدي دوراً أساسياً في تحديد حجم التعلم، بحيث يتفاوت ذلك الحجم بين فرد وآخر، فالأفراد يختلفون في درجة الذكاء وفي قدرة الاستيعاب.^(٤) ومراعاة هذا المبدأ أكدّه ألعلم التربوي الحديث، ومن جملة تلك الفروق، ما يلاحظ لدى الناس من أن لكل واحد منهم أسلوباً ينفرد به في الإنشاء الأدبي وفي سرعة تحصيل العلم والمعرفة، ومن هنا طوّل القائمون على عملية التعلم ابتداء من الأنبياء إلى الأساتذة والمربين بأن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم.^(٥)

٥. **الحث على الممارسة والتحلي بالتدرج والتكرار في عرض المادة:** يرى ابن خلدون أن الطريقة الناجعة في تلقين العلوم إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا يُلقَى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم. فيجب على المعلم أن لا يذكر للمتعلّم إلا ما يستطيع تحمّله، مراعيًا قدراته واستعداداته على

(١) المقدمة: ص ٥٨٩.

(٢) المقدمة: ص ٤٢٣.

(٣) الفكر الخلدوني من خلال المقدمة: محمد فاروق النبهان، ص ٢٨٠.

(٤) المقدمة: ص ٥٨٩.

(٥) محاضرات في علم النفس اللغوي: حنفي بن عيسى، ص ٢٢٥.

تلقى تلك المادة العلمية، وأن يبتعد عن التعقيد ويتقيد بالتدرج في عرض أية مسألة علمية، ويكون ذلك ببدء المعلم بالشيء الواضح من العلم قبل الغامض، وبالبسيط قبل المعقد، وبالجزء قبل الكل، وبالعملي قبل النظري، وبالمحسوس قبل المجرد. كما ينبغي على المعلم الاستيفاء بالشرح والبيان فلا يترك مبهماً ولا مغلقاً إلا وضحه، وهذا في رأي ابن خلدون وجه التعليم المفيد والصحيح، ولن يكون مثمراً إلا من خلال التكرار.^(١)

ثانياً. شروط المتعلم:

١. الإصغاء (السمع): إن المتعلم مطالب في بداية تعليمه بالإصغاء لمعلمه واستيعاب العلوم المختلفة عنه قبل أن يتطرق للاختلافات من المذاهب، ذلك أن السمع أو الإنصات هو أبو الملكات اللسانية في نظر ابن خلدون، فالشيء الذي يعين المتعلم على فتح لسانه بالمحاورة والكلام والمناظرة، هو الانغماس الكلي في وسط لغوي عفوي، إذ يسمع ثم يقلد أو يردد ما يسمعه.^(٢) وقد أكد علم التربية الحديث على ضرورة الاهتمام بملكة السمع باعتبارها الحاسة الأولى المساهمة في عملية التعلم، وتسمى عند جمهور العلماء المختصين (الحمام اللغوي أو الانغماس اللغوي)،^(٣) وهي تأتي في المرتبة الأولى؛ ذلك أن الإنسان يسمع قبل أن يتكلم.^(٤) والظاهر لنا جلياً أن الرجل قد أعطى السمع الأولوية في امتلاك ناصية العلم، معتبراً إياه أباً لجميع الملكات؛ ذلك أن الطبيعة وهبت الإنسان لساناً واحداً، ولكنها وهبته أذنين، والحكمة في ذلك هي أن يسمع ضعف ما يتكلم.^(٥) وقد دعا ابن خلدون إلى: (الاهتمام بالمنطوق والمسموع قبل المقروء والمكتوب ومن ثمة العمل على تنمية اللغة الشفهية. وتقديم اللغة المراد

(١) المقدمة: ص ٥٨٩.

(٢) المقدمة: ص ٧٢٣.

(٣) انظر الخطاب اللساني العربي بين التراث والحداثة: بشير ابرير، ص ٣٨.

(٤) المقدمة: ص ٤٥٥.

(٥) نقلاً عن حنفي بن عيسى، المرجع نفسه، ص ٨٩.

تعليمها في شكل حوار يسجل على أشرطة مغناطيسية تتحول بعد ذلك إلى مخابر اللغات. والاعتماد على التكرار الشفهي المكثف من أجل ترسيخ الجمل المثالية. والتكثيف من المحاكاة والحفظ ثم استعمال التمارين).

٢. **الاستعداد:** على المتعلم الاستعداد للتعلم والتفرغ للعلم، والابتعاد عن إغراءات الدنيا وشهواتها، يقول ابن خلدون: (فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجاً ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال والأمثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً).^(١) ولن يتأتى ذلك إلا بإقامة علاقة عاطفية بين المعلم والمتعلم، والتدرج بالمتعلم مع تشويقه للمادة المراد تلقينها، وهذا بعد دراسة نفسيته واستعداداته العقلية.^(٢)

٣. **مرافقة وملازمة شيوخ العلم والرحلة في طلب العلم:** إن ترسيخ ملكة العلم يكون بملازمة رجال العلم، ذلك أن طرائق شيوخ العلم متعددة، فكل طريقته الخاصة في تلقين العلوم، وعلى المتعلم الذي يريد الاستزادة من العلم وتقوية ملكته ملازمة الشيوخ، والرحلة إن اقتضى الأمر للقاء بشيوخ العلم، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم، فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته.^(٣)

(١) المقدمة: ص ٥٨٩.

(٢) انظر المقدمة: ص ٥٩١.

(٣) انظر المقدمة: ص ٥٩٨. وانظر الفكر اللساني التربوي في التراث العربي: محمد صاري، ص ٩٣.

الفصل السادس

إعداد معلم التربية الإسلامية وطرق تدريسها

المبحث الأول

إعداد معلم التربية الإسلامية

تحتل جميع عناصر ومكونات العملية التربوية باهتمام بالغ في جميع أنحاء العالم، ويزداد هذا الاهتمام مع التقدم والتطور الذي يشهده العالم في شتى المجالات، ومع الانفجار المعرفي والتقدم التقني الهائل لم تعد النظرة إلى التربية أنها مجرد خدمات تقدمها الدول لشعوبها تستنزف ثروات البلاد ولا تنتظر عائداً منها، بل صارت عملية استثمارية وإنتاجاً إنسانياً له عائد يسهم في تقدم الدول ورفيها. وعلى الرغم من الأهمية الفائقة للتربية والتعليم فإن الاهتمام بالمعلم وإعداده وبخاصة في الدول النامية لا يزال يحتاج إلى مزيد من العناية والرعاية لما للمعلم وإعداده من تأثير كبير على النشء. فالمعلم هو المسؤول الأول عن تزويد المتعلمين بالمعرفة بالإضافة إلى دوره في غرس القيم والفضيلة والأخلاق الرفيعة في نفوس النشء بالتعاون مع الأسرة. والمعلم هو المنفذ الأول للمنهج والمحقق لأهدافه، وهو محور نجاح العملية التربوية كلها. يحدد التعليم مكانة الفرد في المجتمع، وليس التطور الحضاري للبشرية إلا نتيجة لاستخدام قدرة الإنسان العقلية بجانب قدرته الجسمية.

ليس بخاف عنا أن أسلوب المعلم في التربية يخضع في المقام الأول لمدى رغبته في هذه المهنة الجليلة؛ لأنه يتعامل فيها مع العقل البشري الذي استخلفه الله في أرضه ليعمرها. ومن هنا فإن مهمة المعلم ليست مهمة سهلة أو عادية، بل هي مهمة الرسل الكرام والصالحين، فكان لا بد من الاختيار الصحيح للمعلمين قبل مباشرة العمل. وقد جعل الإسلام للمعلم مكانة خاصة ودعا إلى احترامه، فهو المسؤول عن إعداد الرجال في

الدولة في مختلف المواقع الدينية والسياسية والتعليمية والاقتصادية، وإذا صلح حال المعلم صلح هؤلاء جميعاً وكانوا نافعين لأوطانهم. وتسبق مرحلة إعداد معلم التربية الإسلامية مرحلة أخرى أكثر ضرورة وأهمية هي مرحلة اختيار الطالب الذي سيصبح معلماً للتربية الإسلامية، وإعداد المنهج الدراسي المناسب والمعهد المناسب والقيادة التعليمية الواعية، إن اختيار الطالب قبل انتظامه في دراسة منهج التربية الإسلامية لا بد أن يخضع لمعايير معينة مثل حسن الخلق والتصرف والتقوى والاستقامة بالإضافة إلى التفوق الدراسي العام.

المطلب الأول: صفات معلم التربية الإسلامية ومقومات نجاحه:

للمربي المسلم وظيفتان أساسيتان هما: التزكية وتعني تنمية النفس وتطهيرها والسمو بها إلى خالقها والمحافظة على فطرتها. والتعليم ويتضمن نقل المعلومات والعقائد إلى المؤمنين ليطبّقوها في سلوكهم وحياتهم. ولكي يقوم معلم التربية الإسلامية بواجبه على الوجه الأكمل يجب أن يتحلّى بصفات أهمها: (١)

١- أن يكون ربانياً يستهدف من كل أعماله ودروسه أن يجعل طلابه ربانيين يرون آثار عظمة الله ويستدلون عليها في كل ما يدرسون، ويخشعون لله عند كل عبرة من عبر التاريخ أو سنة من سنن الحياة أو سنن الكون.

٢- أن يكون ذا قدرة متميزة على فهم طبيعة النفوس والتعامل الإيجابي معها على اختلاف ميولها واتجاهاتها، وتتيح له هذه القدرة فهم طبيعة تلاميذه، فيتدرج في نقل المعلومات إليهم حسب طاقاتهم.

٣- أن يكون قدوة حسنة في الأخلاق والتقوى والاستقامة والتصرف في المواقف المختلفة.

٤- أن يعتني بمظهره وملبسه وأن يتصف بحسن السلوك لأنّه يمثل الشخصية الإسلامية.

٥- أن يكون رفيقاً بالمتعلم شفوفاً عليه، وأن يعامله باحترام وتقدير.

٦- أن يمتاز بالصبر والأناة فلا يضجر من بطء فهم التلميذ وحفظه أو من معاناة التعليم.

(١) انظر الفكر اللساني التربوي في التراث العربي: محمد صاري، ص ١٥٥.

٧. أن يتمتع بالذكاء وحسن الإدراك والتمييز.

٨. أن يكون حليماً رزيناً وقوراً وأن يختار من الكلام ما قل ودل، بعيداً عن الخفة والسخف، ذا مروءة ونزاهة.

٩. أن يكون عالماً بالشرعية والسنن والسير وسائر أمور الدين.

١٠. أن يكون حريصاً على تحصيل العلم، محباً للتعلم، مخلصاً لا يبتغي من علمه وعمله إلا مرضاة الله.

المطلب الثاني: إعداد معلم التربية الإسلامية

يقصد بإعداد المعلم ذلك النشاط الذي تقوم به المؤسسة التربوية المتخصصة قبل الخدمة، ويتمثل في تدريبه على تعلم وإتقان مهنة التعليم ليكون قادراً على ممارستها. ومن الأهمية الفائقة اختيار الشخص المناسب لمهنة التعليم اعتماداً على مقومات شخصية أهمها قوة العقيدة والتحلي بالأخلاق الحسنة والرغبة في ممارسة التعليم، وينبغي أن يكون منهج إعداد المعلم مُعيناً له في القيام بواجبه خير قيام، لذلك يجب أن تشمل برامج إعداد المعلمين أربعة أنواع من الإعداد هي: الإعداد الروحي والخلقي، الثقافي، الأكاديمي، والإعداد التربوي. كما ويجب أن تتسم برامج إعداد المعلم بالتوازن السليم بين جوانب الإعداد الروحي والخلقي، والإعداد الثقافي والأكاديمي والتربوي أو المهني، وأن يكون البرنامج متكاملاً ومتربطاً بحيث يؤدي إلى تكوين معلم متكامل الشخصية من جميع الجوانب، ذي قدرة على تحمل مسؤولياته في عالم متغير يشهد تطوراً علمياً سريعاً وانفجاراً معرفياً ضخماً.

أولاً. الإعداد الروحي والخلقي لمعلم التربية الإسلامية:

١. التربية الروحية والخلقية لمعلم التربية الإسلامية:

تقوم التربية في الإسلام على عقد الصلة بين الإنسان وخالقه، وهذه الصلة تمثل الجانب الروحي في الإنسان، وهي التي تسمو به إلى حميد الأخلاق، وتعتبر التربية الروحية

الحلقة الأساسية في سلسلة التربية الإسلامية التي تبدأ بمعرفة الله تعالى وصولاً إلى طاعته وتقواه. فالتربية الروحية تعني زيادة الإيمان بالله ومحبه وخشيته، والطمع في رحمته والخوف من عقابه والإيمان بكتبه ورسوله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.^(١) وفي المفهوم الإسلامي لا قيمة لأي عمل مهما عظم إن لم يتحقق فيه شرطان هما: الإخلاص والمتابعة وهما من سمات الخلق الحسن. وتكمن أهمية التربية الخلقية في الإسلام في سعيها إلى تكوين خير فرد وخير مجتمع. ومن الضروري الاهتمام بالتربية الروحية لمعلمي المستقبل حتى يدركوا مسؤولياتهم ويحبوا مهنتهم ويقبلوا عليها بإخلاص. والتربية الروحية لمعلمي المستقبل تتصدى للأفكار الهدامة والصراعات المذهبية والطائفية التي تسود بين الطلاب، فهي تنمي في نفس المعلم مجموعة من المبادئ السامية كالعدل والإيثار والصبر. والإيمان أساس الأخلاق الحميدة التي هي أساس العلم الصحيح، الذي هو أساس العمل الصالح. وتلتقي أركان الإسلام الخمسة عند الغاية التي بعث بها الرسول ﷺ وهي إتمام مكارم الأخلاق، وتؤثر العقيدة القوية في نفس صاحبها فتدفعه إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.^(٢)

٢. أثر التربية الروحية والخلقية في العملية التعليمية:

أ. في طريقة التدريس: إنَّ قيمة الإنسان الحقيقية تتجلى في إيمانه وأخلاقه وسلوكه لا في مظهره أو ماله أو جاهه، كما ورد في الحديث الشريف: "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".^(٣) ولكي ينال الإنسان رضا الله ويحقق النجاح عليه أن يتحلَّى بالإيمان الصحيح وبالأخلاق الفاضلة لأنَّهما ضرورة لكل من يتقلد مسؤوليّة تعليم وتربية الأجيال. تعد طرق التدريس أحد مكونات المنهج مما يستوجب العناية بها وتطويرها بما يحقق الأهداف التعليمية. والإسلام سبق غيره في هذا المجال، فالقرآن عني بأساليب التعليم المختلفة كالترغيب والترهيب وضرب الأمثال والقصص

(١) انظر الإعداد الروحي والخلقي للمعلم: محمد جميل بن علي خياط، جامعة أم القرى، ص ٦٠.

(٢) منهج التربية الإسلامية: محمد قطب، ص ٤٧، ٧٦.

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، رقم:

القرآني، كما أن السنة مرجع للمعلمين يستمدون منها مختلف طرق وأساليب التعليم. وكان الرسول ﷺ يتدرج مع أصحابه في التعليم مع مراعاة اختلاف المستويات العلمية والفروق الفردية واختيار الوقت والموقف المناسبين، كذلك عدم الإكثار عليهم حتى لا يملوا. ومن هنا يتضح أن أسلوب المعاملة والألفاظ التي يستخدمها المعلم تؤثر تأثيراً كبيراً في تعليم الأفراد. ولقد أهتم المربون الأوائل بالمعلم وأسلوبه وأثره في التعليم، وكتبوا كثيراً عن الصفات التي يجب أن يتحلى بها المعلم والمتعلم.^(١)

ب. في العلاقة بين المعلم والمتعلمين: لا شك أن للتربية الروحية والخلقية تأثيراً كبيراً على علاقة المعلم بالمتعلم من حيث قوة وعمق هذه العلاقة مما يساعد على التفاعل الإيجابي بينهما، وهذا ينعكس بقوة على العملية التعليمية ويسهم في إنجاحها. إن أفضل نموذج للعلاقة الحسنة بين المعلم والمتعلم والأثر الحميد الناتج عنها هو النبي القدوة محمد ﷺ وما تركه من أثر عظيم في الصحابة، فكان منهم العلماء والمجاهدون والمنفقون، جيل لم يشهد العالم مثله لأنَّ الرسول ﷺ قد أعده وربّاه الله الذي بين لنا منهج هذا الإعداد في القرآن والسنة. فإذا التزم المربون بالمنهج الإسلامي في إعداد المعلمين روحياً وخلقياً نشأت علاقة طيبة بينهم وبين طلابهم أساسها المحبة المتبادلة والاحترام والنصح. فليس المعلم في مفهوم التربية الإسلامية ناقلاً للمعرفة فحسب بل هو أب ومرشد وقدوة. ومن ثم فإن العلاقة بين المعلم والمتعلم لا تنحصر في إطار المادة العلمية الضيق، إنما تتجاوزه إلى إطار العلاقة الاجتماعية والتعاون في جميع مجالات الحياة بالإضافة إلى العلاقة العلمية.^(٢) وصفوة القول إن نجاح إعداد المعلمين يتوقف على اختيارهم في ضوء مجموعة من الصفات الشخصية، وعلى تفهمهم واستيعابهم للمهام التي يمارسونها وفق برنامج متوازن يؤدي إلى اكتسابهم الخبرات من الأداء الفعال في العملية التربوية.

(١) منهج التربية الإسلامية: محمد قطب، ص ٨٨.

(٢) انظر علم النفس التربوي في الإسلام: يوسف مصطفى القاضي، ص ٣٧٣-٣٧٥.

ثانياً: الإعداد الثقافي والأكاديمي والتربوي لمعلم التربية الإسلامية:

بعد إعداد المعلم روحياً وخلقياً يُوجَّه الاهتمام إلى إعداده ثقافياً وأكاديمياً وتربوياً. يتضمن الإعداد الثقافي تزويد المعلم بمعرفة شاملة وعامة في الجوانب الأساسية للنشاطات البشرية وبالمعلومات الضرورية التي يحتاج إليها في ميادين المعرفة المختلفة، وتسهم الثقافة العريضة للمعلم في فهم جوانب التقدم الإنساني المختلفة ومعرفة العلاقة بين مادة تخصصه والمواد الأخرى، فضلاً عن الإسهام في تكوين علائق اجتماعية طيبة بين المثقفين والمهنيين. كما أن ثقافة المعلم المتميزة تكسبه ثقة تلاميذه وتساعد على التأثير فيهم بالإضافة إلى الإسهام في توسيع أفقه وإنضاج شخصيته. ويعني الإعداد التربوي تزويد المعلم بمهارات فنية وتعليمية وبأصول مهنة التدريس حتى يكون مؤهلاً لمزاولة هذه المهنة. يجب أن يقوم برنامج إعداد المعلم على أسس علمية وموضوعية تؤكد صلاحية المعلمين ومدى قدرتهم على ممارسة مهنة التعليم، لأنَّ الدور الريادي الذي يقوم به المعلم هو دور أساسي في تحسين وتطوير القيم الأخلاقية والثقافية وإحراز التقدم الاجتماعي والاقتصادي، فالمعلم من خلال التربية يمكنه أن يستغل قدراته وطاقاته الذهنية في تحقيق هذه الأهداف. وهذا يتطلب أن يكون الغرض من برنامج إعداد المعلمين تطوير العلوم العامة والثقافة الشخصية لكل طالب وزيادة قدراته وإمكاناته التي تتيح له أن يعلم ويثقف الآخرين بكفاءة تامة. (١)

ثالثاً: الكفايات التي يحتاج إليها معلم التربية الإسلامية

١. كفايات تتعلق بالجانب النفسي: كالإلمام بطبيعة وخصائص المرحلة التي يدرسها، والإلمام بخصائص النمو لتلاميذ المرحلة التي يدرسها، وتقدير وفهم ميول واتجاهات التلاميذ.

٢. كفايات تتعلق بالجانب المعرفي: بفهم منهج التربية الإسلامية ومعرفة أهدافه في المرحلة المنوط بها، والاستيعاب والتطبيق الجيد لإجراءات وأساليب وطرائق تدريس

(١) انظر التربية وبناء الأجيال: أنور الجندي، ص ٢١٩.

التربية الإسلامية، والفهم الكامل لأهداف كل فرع من فروع التربية الإسلامية على حدة، ومعرفة تحقيق الأهداف التعليمية في ضوء ذلك.

٣. **كفايات خاصة بتخطيط الدروس وإعدادها:** وتشمل الإمام بواجبات ومطالب التدريس الخاصة بالتربية الإسلامية في المرحلة التي يدرسها. والإمام التام بأساليب وإجراءات التقويم. والإمام بكيفية تخطيط وإعداد وتنظيم الدروس وفقاً لطبيعة كل فرع من أفرع التربية الإسلامية. والإمام بكيفية اختيار الوسائل التعليمية الفعالة وعملها وإعدادها. والإمام بكيفية ربط الدروس الجديدة بالدروس السابقة.

١ رابعاً: أبرز المهارات التي يحتاج إليها معلم التربية الإسلامية: (١)

١. القدرة على القراءة الصحيحة للآيات والأحاديث، ثم الفهم الكامل لمعناها الإجمالي.
٢. القدرة على توجيه الأحكام في الآيات الشرعية، والاجتماعية، والقيمية، بالإضافة إلى الحديث النبوي.

٣. القدرة على التوفيق بين الآيات والأحاديث التي يُتَوَهَّم أن بينها تعارضاً.
٤. القدرة على إدراك العلاقة بين آيتين أو حديثين، أو آية وحديث بينهما اتصال في المعنى.

٥. القدرة على الاستعانة ببعض المظاهر الكونية لدعم القضية التي يعالجها.
٦. القدرة على ربط المواقف الحياتية بالقضية الدينية التي يعالجها، أو ربط العبادات والمعاملات بالناحية العملية.

٧. القدرة على توصيل المعلومات بسرعة ودقة.
٨. القدرة على توجيه الطلاب إلى المصادر التي يجدون فيها حلاً لمشاكلهم الدينية.
٩. القدرة على توليد المواقف بما يخدم تدريس التربية الدينية. ولاكتساب كل ما سبق من كفايات ومهارات لا بد من توافر دعائم تكوين الشخصية الناضجة في التربية الإسلامية وهي ثلاث كما يلي:

(١) مرجع سابق، ص ٣١-٣٣.

أ. **الضمير:** ويقصد به الوازع الداخلي الذي يرشد الإنسان إلى الصواب ويوجهه إلى الصلاح والخير، ذلك أن القلب هو الدعامة الأولى وقد عبر القرآن بالقلب عن الضمير، قال تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (الشعراء: ٨٨-٨٩). إن القلب السليم هو عنوان القوة الروحية والطاقة الكافية التي يمد بها الله الإنسان، وهو القوة المعنوية التي تساعد على مواجهة الصعاب والحن التي يتعرض لها الإنسان في الحياة.

ب. **العقل:** وهو يعد الركيزة الثانية الناجحة في مفهوم التربية الإسلامية، ويدعو الإسلام إلى تنميته عن طريق الثقافة المتنوعة الواسعة والعميقة، وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي تحث عقل الإنسان على التفكير والتدبر.

ج. **الإرادة:** الإرادة هي القوة الموجهة والواقية من الانحراف والزلل إلى مهاوي الشر كالفساد والتخريب والعدوان وغيرها. وقد أشاد القرآن بالعزم الصادق في قوله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} (الأحقاف: ٣٥). ولذلك يجب أن تركز البرامج التربوية على الدعائم الثلاث المذكورة آنفاً لتكوين الأفراد الصالحين والمجتمع الفاضل الذي تتحقق فيه العدالة بين الناس.

خامساً. دور معلم التربية الإسلامية في تحقيق أهداف التربية الإسلامية: يعد المعلم العنصر الأساسي في العملية التربوية التعليمية، ويتوقف عليه إلى حد كبير تحقيق أهداف البرامج التعليمية. فوظيفة المعلم لا تقتصر على مجرد تزويد الطالب بالمعلومات بل تتعداها إلى تربية الشخصية والقدرات وإعداد المواطن الصالح. وهذا يتطلب تزويد المعلم بقدر من الثقافة العامة عن نفسه وعن المجتمع الذي يعيش فيه، كذا تزويده بقدر من التخصص والمعرفة بالمادة التي سيقوم بتدريسها، وبالأصول التربوية والنفسية التي تحكم التدريس بصفة عامة وتدریس مادته بصفة خاصة. لقد زادت أهمية معلم التربية الإسلامية في هذا العصر الذي طغت فيه الماديات على الروحانيات، فأصبح مرجعاً يُستقى منه السلوك السليم، ويُعتمد عليه في غرس العقيدة الإسلامية في نفوس النشء مشاركاً في ذلك بعض

المؤسّسات التربويّة، بالإضافة إلى تنمية القيم الرفيعة والأخلاق الفاضلة، والجانب الفكري عند تلاميذه، فضلاً عن المعلومات الواردة في الدرس. وهذا العبء الثقيل الملقى على عاتق مدرس التربية الإسلاميّة تدعمه جهود الباحثين في مختلف التخصصات التربويّة لرفع كفاءة العملية التعليمية. وتزداد مسؤوليّة معلم التربية الإسلاميّة تجاه الطلاب الذين يصلون مرحلة النضوج التي تؤهلهم لفهم جوهر القيمة الأخلاقية. إن الشك والقلق ظاهرتان طبيعيتان في مرحلة الشباب، ويمكن تخفيف تأثيرهما من خلال تنمية إدراك وفهم المراهق وتعريفه بالجوانب الدينية من خلال دروس التربية الإسلاميّة إذا صاحبها عرض شيق وأدلة مقنعة.

إن مهمة المعلم ليست مجرد تزويد المتعلم بالمعرفة الدينية الضرورية فحسب بل عليه تصحيح مفاهيمه الخاطئة كذلك. كما يجب عليه إقناع طلابه بمحاربة الأفكار الهدامة وإشباع رغبتهم لمعرفة الحقيقة. ولكي يؤدي واجبه كاملاً بكفاءة وإتقان، فإن على معلم التربية الإسلاميّة أن يعد نفسه إعداداً مناسباً لهذه المهمة كما يلي:

١- أن يعرف واجباته وأن ينمي معرفته بحاجات تلاميذه المحدودة والمباشرة بأحدث النظريات التربويّة.

٢- أن يكون له أسلوب تعليم متميز، وأن يتيح الفرصة لتلاميذه للاشتراك في الحوار والمناقشة.

٣- أن يكون قادراً على التوجيه والإرشاد الديني والتربوي والتعليمي وإرشاد الطلاب إلى طريق الخير والتقوى والآداب الإسلاميّة، ثم يكافئ الممتازين منهم ولا يستخدم العقوبة إلا في حالة الضرورة.

٤- أن يطبق على نفسه ما يقول لتلاميذه، وأن تتطابق أفعاله مع أقواله.

٥- أن يعرف كيف يجذب انتباه التلاميذ إلى الدرس عن طريق تنويع طرق التدريس حسب الموقف التعليمي.

٦- أن يراعي الفروق الفردية بين تلاميذه ويخاطبهم على قدر عقولهم وأن يبدى الاهتمام برغباتهم وميولهم.

٧- أن يحسن اختيار الأسلوب الذي يصلح لكل موقف من مواقف التدريس موجهاً اهتمامه الأكبر إلى صياغة الدروس في صورة حوار والاستعانة ببعض الأمثال.

٨- أن يجعل مادة التربية الإسلامية محببة إلى نفوس التلاميذ، بإتاحة الفرصة لهم لعرض أفكارهم وآرائهم. والعمل على خفض القلق والتخفيف من الضغوط من حولهم؛ إذ يجد بعض التلاميذ صعوبة في فهم واستيعاب بعض دروس التربية الإسلامية كدروس العقيدة، كما تبدو بعض الدروس جافة بالنسبة لهم. إن واجب معلم التربية الإسلامية تبسيط هذه الدروس باستخدام الكلمات المتداولة في الحياة اليومية، وبضرب أمثال من واقع الحياة.

المبحث الثاني

طرق تدريس التربية الإسلامية

الطريقة هي الخطة التنفيذية التي بواسطتها ينقل المعلم المعلومات والمهارات إلى الطلاب، ويعرفها أحد الباحثين بأنها مجموعة من أوجه النشاط يشترك المدرس وطلابه فيها متعاونين تعاوناً منظماً يؤدي إلى تعلم الطلاب تعلماً خاصاً ويسهم في مساعدتهم على النحو المتكامل المنشود.^(١) ويختار المعلم مسبقاً الطرق والأساليب المناسبة، ويوفر الظروف الملائمة بشكل منظم وفق تخطيط محكم، كما يجب أن يراعي أهمية المشاركة الفعالة من جانب الطلاب حتى يحسوا بدورهم الإيجابي المثمر في عملية التعلم. ويهدف الاجتهاد في اختيار الطريقة المناسبة إلى تحقيق النمو المطلوب للتلاميذ في جميع النواحي، ومن ثم فلا توجد طريقة واحدة مثلى وفعالة في تدريس المواد الدراسية، إنما تختلف الطريقة باختلاف المواقف التعليمية والهدف من كل موقف تعليمي بالإضافة إلى طبيعة المادة نفسها

(١) انظر تدريس الجغرافيا: عبد اللطيف فؤاد إبراهيم، ص ٥٠.

ومستوى الطلاب والإمكانات المتاحة، وعلى أية حال يجب أن تكون الطريقة ملائمة للهدف والمحتوى. ويتعين على معلم التربية الإسلامية اختيار الطريقة الملائمة للهدف المحدد من الدرس، وللمحتوى الذي من خلاله سوف يتحقق ذلك الهدف، كما يجب أن تكون الطريقة مناسبة لمستويات الطلاب. وخلق بمعلم التربية الإسلامية مراعاة عنصري الإثارة والتشويق، فبينما يساعد تنوع طرائق التدريس على التغلب على الفروق الفردية، تهدف الإثارة والتشويق إلى القضاء على السآمة والملل، ولا شك أن اعتماد المعلم على إقامة الدليل من القرآن والسنة وغيرها من شأنه أن يثري الموقف التعليمي ويدعم الفهم السليم الذي يقبل الطلاب على تطبيقه والافتداء به. كذلك يتعين على معلم التربية الإسلامية استثمار وتوظيف بعض الأساليب التربوية في مجال تدريس التربية الإسلامية وبخاصة أساليب القدوة الحسنة والقصص والترغيب والترهيب وضرب الأمثال، وغني عن القول إن الطريقة التي يختارها معلم التربية الإسلامية والأسلوب الذي ينتهجه يتطلبان التخطيط والإعداد الجيدين قبل الشروع في التنفيذ، وفيما يلي أهم طرائق تدريس التربية الإسلامية: (١)

المطلب الأول: طريقة الإلقاء والمحاضرة:

طريقة المحاضرة من أكثر طرائق التدريس استخداماً لقدرتها على إثارة الانتباه وتقديم المعلومات والحقائق التي يصعب الحصول عليها بطريقة أخرى، ومن مزايا المحاضرة أنها تساعد المتعلم على تنظيم المعلومات والحقائق والمقارنة بين الآراء المتباينة وعرضها على نحو سليم، وتعتمد طريقة المحاضرة على الإلقاء والتكرار ويجب على المعلم إعداد الدرس جيداً قبل إلقاء المحاضرة بوقت كاف طبقاً لخطة محددة. يمهّد المعلم للدرس بمقدمة مناسبة يعقبها عرض النقاط الأساسية على الطلاب ثم يتدرج في شرح وتفصيل كل نقطة ثم ينتهي بالخاتمة، وهذه الطريقة بما فيها من اقتصاد في الوقت وقطع شوط كبير في المنهج وعرض الموضوع في شكل مرتب صالحة للاستعمال مع طلبة الجامعات والمعاهد العليا

(١) انظر طرق تدريس التربية الإسلامية نماذج لإعداد دروسها: عبد الرشيد عبد العزيز سالم، ص ٦٩ وما بعدها.

لأنهم قادرون على الانتباه لمدة طويلة وفهم الأفكار المجردة، ولكنها وحدها لا تصلح لتعليم الأطفال الذين يصعب عليهم الانتباه لمدة طويلة وفهم الأفكار المجردة بدون تدعيم بالوسائل المحسوسة وبدون التدرج معهم وتوجيههم. ومن عيوب المحاضرة أنها ذات جانب واحد حيث يقوم المعلم بنقل المعلومات إلى الطلاب بدون مشاركتهم في العملية التعليمية، ولا يسمح المعلم إلا ببعض الأسئلة في وقت محدود.

المطلب الثاني: الحوار والمناقشة والمناظرة:

تعد هذه الطريقة من طرق التدريس الفعالة، وهي تعتمد على طرح الأسئلة للوصول إلى الحقائق، وتتيح هذه الطريقة الفرصة للمتعلم للمشاركة في العملية التعليمية بالأسئلة وإبداء الرأي والاستماع إلى الآراء وتحليلها.

وهذه الطريقة من أقرب الطرق إلى روح منهج التربية الإسلامية وأفضلها، بالإضافة إلى كونها من أهم ألوان النشاط التعليمي للكبار والصغار على السواء، فحياتنا المعاصرة ذات الاتجاهات المختلفة تتطلب الاهتمام بالمناقشة والإقناع واكتساب الفرد القدرة على المناقشة الموضوعية الحرة التي تساعد على أداء واجبه كإنسان في المجتمع.^(١)

وتتمتع طريقة المناقشة بمزايا عدة منها:

١- إيمانها بإيجابية المتعلم وبدوره في العملية التعليمية، وقدرته على التعلم من خلال المناقشة والمشاركة الفعالة.

٢- توطيد العلاقة الطيبة بين المعلم وطلابه، وإشعار المعلم بطلابه بقدرتهم على المشاركة الإيجابية مما يحفزهم على زيادة نشاطهم وفعاليتهم.

٣- إسهامها في تنمية الاتجاهات والقيم والمستويات العليا في الجانب المعرفي بدرجة أكبر من طريقة المحاضرة.

(١) انظر منهج التربية الإسلامية: علي أحمد مدكور، ص ٣٦٠-٣٦١.

٤. تقديم المساعدة الفعالة على اكتساب مهارات الاتصال، لا سيما مهارات الاستماع والكلام وإدارة الحوار، بالإضافة إلى إتاحة الفرصة للدارس لاكتساب أساليب وآداب النقاش القائمة على النظام واحترام الآراء.

٥. العمل على زيادة إقبال الدارس على التعليم والتفاعل مع النشاطات التعليمية من خلال إتاحة الفرصة للدارس ليتحدث في موضوعات تهمه وقضايا تشغل باله وفكره، مما يشعره بقيمة التعليم.

٦. جعل المعلم أكثر إدراكاً لمدى انتباه الطلاب وتجاوبهم مع المناقشة وتقبلهم لموضوعها.

أما المناظرة فتعتمد على تباين الآراء ووجهات النظر وعقد المقارنة بينها واختيار الصحيح منها، كذا تمحيص الآراء وتفنيدها بالمنطق السليم والأدلة المقنعة، وللمناظرة عدة مزايا منها فهي تعمل على تنشيط العقل وتعويده التفكير المنطقي، كما تعمل على تقوية الحجة والتمرن على سرعة التعبير، وتعود المناظرين الثقة بالنفس والقدرة على الارتجال، ولهذا كله غني بها المسلمون عناية كبيرة وعدوها طريقة من طرق التعليم المهمة، وأشاروا إليها في كتبهم الأدبية.^(١) ويستعمل القرآن طريقة الحوار والمناقشة والاستجواب في عدد من المواضع، منها قوله تعالى: {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ، قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} (المؤمنون: ٨٤-٨٧). وقد لجأ الرسول ﷺ إلى استخدام الحوار والمناقشة لتعليم أصحابه شؤون الدنيا والآخرة، وساروا على نهجه من بعده، فأخذ العلماء منهم في البحث والتناظر في قضايا العلم والأدب لتتضح الحقيقة أمامهم، وكان الرسول ﷺ يجيب عن أسئلة المسلمين ويشركهم في المناقشة عن طريق توجيه الأسئلة إليهم وإثارة انتباههم، فقد سأل أصحابه مرة: "أخبروني بشجرة مثلها مثل المسلم تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها".^(٢)

(١) المرجع نفسه: ص ٣٤٠-٣٤١.

(٢) الأدب المفرد: البخاري، ص ١١٠.

المطلب الثالث: طريقة التلقين:

التلقين طريقة ذات اتجاه واحد، حيث يسيطر المعلم على العملية التعليمية، ويتم التركيز في هذه الطريقة على الجوانب النظرية وعلى نقل المعلومات إلى الدارسين.

ويرتبط التكرار بالتلقين إذ يقوم المعلم بتكرار بعض نقاط الدرس عدة مرات حتى يتيقن من فهم الطلبة لها واستيعابهم لمحتواها، وكان الحفظ والاستظهار كوسيلة للتعليم طريقة مألوفة وشائعة في العالم الإسلامي، فقد كان الأطفال قبل أن يتعلموا القراءة والكتابة يحفظون سور قصيرة من القرآن بطريقة التلقين والتكرار.

ومن عيوب هذه الطريقة أنها لا تؤدي إلى الإبداع والابتكار، وعلى الرغم من ذلك فإن تكرار الشيء والتذكير به يساعد على تقليل احتمالات النسيان، ويعبر أسلوب التكرار عن معنى معين أو قضية محددة بعبارات متعددة، إذ إن في التكرار وتغيير الأدلة ما يدفع العقلاء إلى إزالة الشك والإيمان بالحقيقة وقد استخدم القرآن هذا الأسلوب في إثبات الوحداية وعرضها بصور متعددة حتى يسهل فهمها، ويتجلى ذلك في كثير من الآيات،^(١) وقد استخدم الرسول ﷺ أسلوب التكرار في تربية المسلمين كقوله: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه".^(٢)

وقدر الإسلام الأهمية الفائقة للممارسة المتكررة لتثبيت التعلم، فالصلاة التي يؤديها المسلم خمس مرات يومياً هي نوع من الممارسة المتكررة، وهذا من شأنه أن يساعد على تسهيل الممارسة وتحقيق العبادة على أفضل صورة، وقد أدرك المربون المسلمون أهمية

(١) كقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} (الإخلاص: ١-٤). وقوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} (البقرة: ٢٥٥). وقوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} (الأنبياء: ٢٢).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم: ٦٠١٦.

أسلوب التكرار في التربية فحضوا المعلم على اتباعه في المواقف التي تتطلب ذلك من أجل تقريب المعنى للمتعلم من غير إسهاب أو إكثار لا يحتمله ذهن المتعلم. (١)

المطلب الرابع: الطريقة العملية:

تحتوي التربية الإسلامية بعض الأفرع التي يتم تدريسها من خلال استخدام الطريقة العملية وتمثل العبادات أحدها، لأنها تدور حول موضوعات عملية كالوضوء والصلاة، وأحسن طريقة لتعليم هذين الموضوعين، هي اصطحاب التلاميذ إلى المسجد وتدريبهم عليهما، وحتى تتحقق الفائدة المرجوة يقوم المعلم قبل الذهاب إلى المسجد بشرح الدرس، ويبدأ المعلم درس الوضوء والصلاة العملي في المسجد فيتوضأ ويصلي أمام التلاميذ، ثم يقوم كل تلميذ بالوضوء والصلاة. (٢)

المطلب الخامس: التعلم الذاتي:

يقوم المعلم أحياناً بتكليف الطلاب بنشاطات متنوعة لتنمية قدراتهم على البحث والتحليل والاستيعاب، ويتم ذلك من خلال القراءات الخارجية حول الموضوعات المقررة، حتى تتوافر للطلاب خلفية علمية مناسبة قبل البدء في تدريس هذه الموضوعات، كما قد يلجأ المعلم إلى تكليف الطلاب بعرض تلخيصات وافية عن هذه القراءات بعد تدريس موضوعاتها حتى تكتمل الفائدة، ويتم ترسيخ المعلومات في أذهان الطلاب، وتعم الفائدة بمناقشة هذه التلخيصات داخل الصف حيث يتم تبادل الآراء والمقارنة بينها والوصول إلى الحل الأمثل، وقد يكلف المعلم بعض الطلاب بإجراء تحليل نقدي لبعض الكتب في التربية الإسلامية من أجل تنمية القدرة على النقد عند الطلاب، كما قد يكلف مجموعة من الطلاب بالقراءة الواعية المتعمقة في هذه الكتب، والاستعداد لمناقشة هذه التحليلات مع بيان الأسانيد والأدلة.

(١) انظر من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي: كمال المرسي، ص ١٢٦. وانظر التربية الإسلامية

أصولها ومنهجها: عاطف السيد، ص ٧٤.

(٢) انظر طرق تعليم التربية الإسلامية: محمد عبد القادر أحمد، ص ٥٩-٦٠.

المبحث الثالث

خصائص أساليب التربية الإسلامية وطرق التدريس

المطلب الأول: التدرج في التعليم

من الأهمية بمكان التدرج في استخدام أساليب وطرق تدريس التربية الإسلامية بما يتناسب مع إدراك المتعلم ومستواه الفكري، حيث يتدرج المعلم في تناولها من السهل إلى الصعب، ويكرر القرآن خاصية التدرج في الكثير من آياته حتى يتهيأ الإنسان لما يلقي عليه من الأوامر والنواهي، كقصة تحريم الخمر التي بدأت بالإشارة إلى تحريمه، قال تعالى: {تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} (النحل: ٦٧)، ثم قال: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} (البقرة: ٢١٩)، ثم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} (النساء: ٤٣)، ثم جاء التحريم في قوله تعالى: {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (المائدة: ٩٠). وبذلك استطاع القرآن علاج هذه الآفة الخطيرة في المجتمع من خلال التدرج من مرحلة التوجيه إلى الإقناع العقلي إلى مرحلة النهي والتحريم الكامل. وقد استخدم الرسول ﷺ هذه الطريقة في تربية المسلمين، فكان الصحابة يقتربون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل^(١).

٢ ١

المطلب الثاني: مراعاة خصائص الموقف التعليمي:

يجدر بالمعلم أن يراعي خصائص وظروف كل فرد، إدراكاً لما بين الناس من فروق فردية، ففي القرآن نجد أن اختلاف الأساليب القرآنية في تناول نفس القضية ليس إلا دليلاً على مراعاة الاختلافات بين الناس، ويلفت النظر في هذا الإطار مجموعة من الأحاديث الشريفة التي يطلب بعض الأفراد فيها النصيحة، فنجد لكل جواباً يختلف عن

(١) كما في مسند أحمد: أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، رقم: ٢٣٤٨٢.

(٢) انظر الرسالة الخالدة: عبد الرحمن عزام، ص ٣٤.

الآخر وإن كانت جميع الأجوبة تؤدي إلى الخير وتحقيق أهداف العبادة وأسس الدين القويم.^(١) والتربية الإسلامية تحقق لمراعاة الاختلاف بين الأفراد في الاستعدادات والميول والقدرات العقلية، كما أن أساليبها وطرق تدريسها تتميز بالمرونة والقابلية للتطور طبقاً للظروف المتغيرة في إطار تعاليم الدين الإسلامي.

المطلب الثالث: الإيجابية واشتراك المتعلم في الموقف التعليمي:

يوفر المنهج الإسلامي حرية الطالب في المناقشة في حدود الأدب والاحترام، فإيجابية المتعلم واشتراكه في الموقف التعليمي حق من حقوق الطالب فله الحرية المطلقة في إبداء رأيه أمام أستاذه وفي الاختلاف مع أستاذه في الرأي والفكرة إن كان له من الأدلة الصحيحة ما يؤيد موقفه. وتحقق إيجابية المتعلم بالمشاركة بالأسئلة والاستماع والفهم والتساؤل عما لا يدركه من حقائق، وهي تدفع المتعلمين إلى التنافس والتفوق، وتؤدي إلى اكتساب الثقة بالنفس.^(٢) وحتى تكتمل الفائدة، يلجأ على معلم التربية الإسلامية ربط الموقف التعليمي بالحياة الواقعية بحيث تكون جميع المواقف التعليمية التي يمر بها الطلاب ذات صلة وثيقة بواقع الحياة التي يعيشونها. وتشكل بداية الدرس أهمية كبيرة، إذ يمكن للمعلم بواسطتها أن يوقظ أذهان التلاميذ ويجذبهم إلى الدرس، ويمكن أن يبدأ معلم التربية الإسلامية الدرس بمقدمة في صورة موقف أو حدث كمدخل إلى الدرس الجديد. ثم مقدمة تحوي مشكلة محددة تقود إلى الدرس الجديد. ثم توجيه أسئلة تربط الدرس الجديد بالدرس السابق.

وللمعلم أن يختار الأسلوب المناسب لإدارة الدرس، فقد يقوم بشرح المعلومات أو يتيح الفرصة للتلاميذ لربط المعلومات بأنفسهم، ويفرض الموقف التعليمي على المعلم الناجح تنويع طرق تدريسه، وأن يضرب الأمثال التي تقرب المعنى إلى أذهان الطلاب، وينبغي عليه في نهاية كل درس أن يتأكد من مدى فهم التلاميذ للدرس عن طريق توجيه

(١) انظر من الأصول التربوية في الإسلام: عبد الفتاح جلال، ص ١٢٢.

(٢) انظر التربية الإسلامية وفلاسفتها: محمد عطية الإبراهيمي، ص ٢١٠.

أسئلة شاملة لكل عناصر الدرس، وقد يكلف بعض الطلاب بتلخيص الدرس الذي تم شرحه.

المبحث الرابع

طرق وخطوات تدريس أفرع التربية الإسلامية

إن طرق وخطوات تدريس أفرع التربية الإسلامية ليست ذات طابع جامد، بل هي عملية مرنة تتسع للتعرض للجوانب المعرفية والثقافية والأكاديمية التي ينبغي استغلالها استغلالاً كاملاً لإثراء طريقة التدريس والمساعدة في تحقيق الهدف من المنهج الدراسي، كما أن تعدد أفرع التربية الإسلامية لا يعني أن هناك حدوداً فاصلة بين فرع وآخر فكلها تُستمد من القرآن والسنة وتعالج موضوعاً واحداً هو العقيدة الإسلامية. إن الطرق والخطوات التي سنتناولها هنا هي مجرد نماذج يستطيع المعلم أن يسترشد بها في تدريسه، والفرصة متاحة له كي يضيف ما يمكن إضافته من واقع خبرته وتمرسه بالتدريس. ولتحقيق الفائدة المرجوة من تدريس التربية الإسلامية تستدعي الضرورة التركيز على المراجعة المستمرة والتأكيد على قيم بعينها يُراد لها أن تنتشر. وقد جرى تقسيم التربية الإسلامية إلى الأفرع التالية: القرآن، التفسير، الحديث، العقيدة، الفقه، التهذيب، السير والبحوث.

المطلب الأول: تدريس القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو القاعدة التي يرتكز عليها الإسلام عقيدة وتشريعاً وتنظيماً، ويجب على كل مسلم أن يرتبط بالقرآن ارتباط محبة وتوقير، وارتباط تعلم وفهم وإدراك لبعض غاياته ومرامييه، وما يلي بعض الاعتبارات التي ينبغي أن يراعيها كل من يدرس القرآن الكريم ويتوخى فهم جوانب الإرشاد والإصلاح فيه:

- ١- إن القرآن وحدة متكاملة ومن ثم فهو يفسر بعضه بعضاً.
- ٢- معرفة أسباب النزول، فذلك يساعد على تفهم الآية واستيعابها وتفسيرها تفسيراً موضوعياً وأميناً.

٣. الاستعانة بالأحاديث التي يتصل موضوعها بموضوع الآية والتوفيق بينهما إذا كان هناك اختلاف في الظاهر.

٤. الإمام باللغة العربية الفصحى قدر الإمكان.^(١)

المطلب الثاني: تدريس التفسير:

يستطيع المعلم استخدام طرق وأساليب الحوار والمناقشة، والتحليل والاستنباط، وحل المشكلات في تدريس تفسير القرآن. وقد يتبع المعلم الخطوات التالية في تدريس التفسير:

١- يبدأ الدرس بمقدمة لتنشيط أذهان التلاميذ وتشويقهم للدرس. ثم يقرأ الآيات المقرر تفسيرها بصوت واضح.

٣- يشرح الآيات مع إتاحة الفرصة للطلاب للمشاركة في التفسير، وتعد هذه الخطوة أهم أجزاء الدرس.

٤- يوجه المعلم أسئلة للتلاميذ ويشجعهم على التعبير عما فهموه بأساليبهم الخاصة.

٥- يقرأ التلاميذ الآيات جهاراً واحداً تلو الآخر.

٦- على المعلم أن يتيح الفرصة للتلاميذ لاكتساب مهارات التعلم الذاتي والتوصل إلى استنتاجات سليمة.

المطلب الثالث: تدريس الحديث النبوي:

يحتل الحديث المرتبة الثانية بعد القرآن فيما يختص بالتشريع الإسلامي، والحديث يفصل مجمل القرآن أو يقيد مطلقه أو يطلق مقيده أو يوضح مبهمه. ويحقق تدريس الحديث كثيراً من الأهداف التربوية أهمها ما يلي:

(١) انظر طرق تدريس التربية الإسلامية: عبد الرشيد عبد العزيز سالم، ص ١٠٩. وانظر التربية الإسلامية أصولها ومنهجها: عاطف السيد، ص ٨١.

١. تأكيد شخصية المسلم واحترامه من واقع معاملة الله لرسوله ﷺ، فقد اعتبر سبحانه وتعالى ما يقوله الرسول ﷺ من قبيل التشريع من أحكام وعبادات ومعاملات.
٢. إتاحة الفرصة للمسلم للاقتداء بالرسول ﷺ في خلقه وتعامله مع الناس.
٣. إعطاء الرسول ﷺ حقه من مظاهر الإنسانيّة بدون مغالاة أو تهوين.^(١)

المطلب الرابع: تدريس العقيدة:

العقيدة الصحيحة هي التي تحدد هدف الإنسان في هذه الحياة الدنيا باعتباره خليفة الله في أرضه مسؤولاً عن عمارتها وفق منهج الله. والعقيدة في الإسلام طبقاً لما جاء في الحديث عن عمر رضي الله عنه، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره. ويمكن للمعلم أن يستخدم طرق وأساليب الحوار والمناقشة وضرب الأمثال في دروس العقيدة طبقاً للخطوات التالية:^(٢)

١. يبدأ المعلم بمقدمة للدرس في صورة توجيه التلاميذ إلى معجزات الله في الكون أو مراجعة درس سابق.
٢. يقرأ المعلم الدرس ويشرحه مستعيناً ببعض المواقف الحياتية التي يمر بها التلاميذ ويشاهدونها، والتي تكون قريبة الشبه بموضوع الدرس.
٣. يستخدم المعلم الحوار والمناقشة من خلال أسئلة واضحة، ويقدم المشروع فكرة بعد فكرة، كما يمكنه أيضاً أن يستخدم الأسلوب القصصي في رواية قصص الأنبياء مبيناً عزمهم وإصرارهم وصبرهم.
٤. يمكن للمعلم أن يثري المناقشة ببعض الآيات والأحاديث والأساليب المنطقية من أجل إقناع التلاميذ.

(١) انظر المرجع نفسه لعبد الرشيد سالم: ص ٢١٣. وانظر المرجع نفسه لعاطف السيد: ص ٨٣.

(٢) انظر لعباس محمود العقاد: إسلاميات، ٥٨٤/٦. والعقائد والمذاهب: ص ٥٨٤.

٥. يمكن للمعلم أن يثير أسئلة خلال سرد القصة على أن تعقبها مناقشة لاستنباط مغزى القصة.

٦. يستخرج المعلم من النص حقائق ومفاهيم تتصل بالدرس ويربطها بالسلوك السائد في المجتمع وبواقع الحياة.

٧. يقرأ التلاميذ الدرس المقرر، وتعقب القراءة أسئلة يوجهها المعلم إليهم للوقوف على درجة استيعابهم للدرس.

٨. يلخص المعلم الدرس في نهاية الحصة مبيناً الخلاصة التي تم التوصل إليها.

المطلب الخامس: تدريس العبادات:

تشمل العبادات الصلاة والزكاة والصوم والحج، وقد يستخدم المعلم في تدريسها طرق وأساليب الحوار والمناقشة، وحل المشكلات والطريقة العملية، كما أنه قد يتبع الخطوات التالية:

١. البدء بمقدمة لربط الدرس الجديد بالسابق لإيقاظ أذهان الطلاب وإعدادهم لاستقبال الدرس الجديد.

٢. بيان عملي أمام التلاميذ كما في حالتي الوضوء والصلاة، ثم يقوم عدد من التلاميذ بتقليد المعلم، الذي يصحح الأخطاء بمساعدة عدد آخر من التلاميذ.

٣. يشرح المعلم فرائض العبادات الأخرى ثم يقرأ التلاميذ النصوص في الكتاب المدرسي المقرر، ويربط المعلم الدرس بواقع حياة التلاميذ.

٥. يستنبط المعلم الأحكام الفقهية من خلال المناقشة. ثم يراجع الدرس من خلال المناقشة والأسئلة.^(١)

(١) انظر طرق تدريس التربية الإسلامية: عبد الرشيد عبد العزيز سالم، ص ٢٧١.

المطلب السادس: تدريس المعاملات:

تعتبر المعاملات الجانب المعبر عن صدق العقيدة وإخلاص العبادة، وهي بحق الوجه الحقيقي للدين، فالدين المعاملة. إن الإسلام لا يوجب على الناس معاملة تضر ولا ينهاهم عن معاملة تفيد، وإنه يؤدي للمؤمنين به خير ما تؤديه العقيدة الثابتة على تعاقب الأجيال.^(١) ويمكن تدريس المعاملات^١ باتباع الخطوات التالية:

- ١- يبدأ المعلم بمقدمة لتنشيط التلاميذ وتهيئتهم للدرس الجديد.
- ٢- يشرح نقاط الدرس مع توجيه بعض الأسئلة للتلاميذ وإشراكهم في المناقشة لتدريبهم على التفكير السليم.
- ٣- يبين المعلم الصلة الوثيقة بين المعاملات التي تناولها بالشرح والقيم الخلقية والنظرة السوية للإنسان.
- ٤- يقوم بعرض تحليلي للدرس من جميع جوانبه بعد مناقشة التلاميذ، مستنبطاً الأحكام الشرعية في المعاملات مع الاستئناس ببعض المواقف التي تؤكد صدق تلك الأحكام.
- ٥- يقدم المعلم ملخصاً للدرس بمساعدة التلاميذ موضحاً خلاصة الحوار والمناقشة.^(٢)

المطلب السابع: تدريس التهذيب:

يقصد بالتهذيب الآداب الإسلامية ومجموعة الفضائل والقيم وأنماط السلوك التي نريد أن يتحلى بها المجتمع، ويستعان في تحقيق ذلك بالقرآن الكريم والحديث والمأثور من كلام الرسول ﷺ والصحابة والملوك والأمراء والحكماء والبلغاء، والتهذيب يضرب بجذوره في جميع فروع التربية الإسلامية، ويعد القرآن الكريم والتراث العربي رسالة في تقويم الأخلاق وتهذيب النفوس. قد يستخدم المعلم طرق وأساليب الحوار والمناقشة وحل

(١) انظر الإسلاميات: عباس محمود العقاد، ١٣٩/٥.

(٢) انظر التربية الإسلامية أصولها ومنهجها: عاطف السيد، ص ٨٦.

المشكلات والقصة وضرب الأمثال في تدريس التهذيب، وقد يتدرج المعلم في الدرس طبقاً للخطوات التالية:

- ١- يستهل المعلم الدرس بمقدمة يروي فيها قصة أو يضرب مثلاً من واقع الحياة.
- ٢- يشرح الدرس مستخدماً الأسلوب القصصي ثم يناقش التلاميذ في محاور الدرس وكلماته الصعبة.
- ٣- يربط المعلم الدرس بحياة التلاميذ من خلال الأسئلة ومن استنباط مغزى القصة التي رواها لهم.
- ٤- يتيح المعلم الفرصة للتلاميذ لضرب الأمثال وثيقة الصلة بموضوع الدرس.
- ٥- يتم استنباط الدروس التربوية من النص، كذا الأهداف المرجوة وكتابتها على السبورة.
- ٦- يقوم المعلم بتلخيص الدرس وتوجيه بعض الأسئلة للتلاميذ للتأكد من استيعابهم للدرس.^(١)

المطلب الثامن: تدريس السير:

السير مجال خصب للتنمية الدينية وغرس الأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة في نفوس النشء لأنها تروي سيرة وحياة النبي ﷺ وأعلام المسلمين القدوات، ويحقق تدريس السيرة عدة أهداف، منها التغني بالأعاجيد والبطولات الإسلامية في ميدان التضحية لإعلاء كلمة الله، وإحياء القيم الإسلامية، ولتهذيب السلوك وتقويم الأخلاق. قد يستخدم المعلم طرق وأساليب الحوار والمناقشة والقصة، وحل المشكلات، والتمثيلات القصيرة في تدريس السيرة النبوية، كما أنه قد يتبع الخطوات التالية في التدريس:

- ١- يبدأ المعلم الدرس بمقدمة لاستثارة التلاميذ وشحن عقولهم.

(١) انظر طرق تدريس التربية الإسلامية: عبد الرشيد عبد العزيز سالم، ص ٢٠١. وانظر التربية الإسلامية أصولها ومنهجها: عاطف السيد، ص ٨٧.

٢. يستهل مرحلة العرض برواية السيرة النبوية بأسلوب قصصي. وينبغي تقسيم السيرة إلى حلقات تتناول كل منها جزءاً مستقلاً من السيرة تتخلله بعض الأسئلة والمناقشات.
٣. يربط محتوى الحلقة بالواقع الحالي، كما يحاول ما أمكن ربط موضوع الحلقة بموضوعات الحلقات الأخرى وبموضوعات التربية الإسلامية.
٤. يكلف بعض التلاميذ برواية الحلقة، ثم يناقشهم فيها حتى يخلص إلى استنباط الدروس المستفادة من السيرة.
٥. يدون الأفكار الرئيسية على السبورة ويضيف إليها ما استنبطه التلاميذ، ثم يبين النماذج الطيبة والمثل العليا والدروس النافعة المستمدة من السيرة.
٦. يوجه المعلم أسئلة إلى تلاميذه ويجري حواراً مفتوحاً معهم ليتحقق من استيعابهم للدرس.^(١)

(١) انظر التربية الإسلامية أصولها ومنهجها! عاطف السيد، ص ٨٨.

الخاتمة

وبعد أن انتهينا بحمد الله وتوفيقه من عرض فصول هذا الكتاب ومباحثه نقول: إن التربية الإسلامية جزء من رسالة الإسلام، وهي كائن حي ينمو نمواً كاملاً إذا أُتيح له المناخ الملائم في البيئة المناسبة، والتربية الإسلامية تزدهر في المجتمع الذي يتبنى الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة. ذلك المجتمع الذي يربي فيه المعلم النشء على العقيدة الإسلامية والأخلاق الفاضلة لكي يستطيع النهوض وتحمل أعباء الدعوة الإسلامية وتبعات إقامة المجتمع الإسلامية. فللعقيدة الإسلامية أكبر الأثر في نفس الإنسان، فحين يشب الفرد على عقيدة التوحيد وخشية الله والاستعانة به تتولد فيه الملكة الفطرية التي تقبل كل فضيلة وتبتعد عن كل رذيلة حيث تربي في نفسه الوازع الديني الذي يأمره وينهاه، حتى يصير الإقبال على فعل الخير عادة من عاداته. وبهذا ينشأ المجتمع الذي نتمنى جميعاً العيش فيه، مجتمع متحضر يتميز أفراده بالجد والصدق والإخلاص، وحب وطنهم والتضحية في سبيله، ونبذ المصالح الشخصية القائمة على الأنا وحب الذات وعدم الاكتراث بالمصلحة العامة وخير الفرد وسعادته.

الفهارس العامة

أولاً. فهرس المصادر والمراجع:

- . الأئمة الأربعة: أحمد الشرباصي، دار الجيل (بيروت)، د. ط ت.
- . أئمة المذاهب الأربعة: محمد اسماعيل ابراهيم، دار الفكر العربي (القاهرة)، ١٩٧٨ م.
- . إحياء علوم الدين: الغزالي، دار المعرفة (بيروت)، ١٩٨٩ م. دار الكتب العلمية (بيروت)، ١٩٩٢ م.
- . الأخلاق والسير في مداواة النفوس: ابن حزم، دار الآفاق الجديدة (بيروت)، ط ١، ١٩٧٨ م.
- . الأدب المفرد: البخاري (٢٥٦هـ)، ت: سمير بن أمين الزهيري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع (الرياض)، ط ١، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.
- . أساليب تدريس التربية الإسلامية: يوسف الحمادي، دار المريخ (الرياض)، ١٩٨٧ م.
- . أسس التربية: إبراهيم ناصر، دار عمار (عمّان)، د. ط، ١٩٨٩ م.
- . أسس التربية وعلم النفس: أحمد يوسف، لجنة البيان، د. ط، ١٩٥٥ م.
- . الإسلام والمجتمع العصري: صبحي الصالح، دار الآداب (بيروت)، ١٩٨٣ م.
- . إسلاميات: عباس محمود العقاد، دار الكتاب اللبناني (بيروت)، ١٩٧٤ م.
- . أصول التربية الإسلامية: سعيد إسماعيل علي، دار الثقافة للطباعة والنشر (القاهرة)، ١٩٧٨ م.
- . أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع: عبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر (دمشق)، ١٩٧٩ م.
- . أصول التربية ونظام التعليم: علي عبد الواحد وافي وآخرون، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة)، ١٩٥٥ م.

- . الأصول التربويّة في بناء المناهج: حسين سليمان قورة، دار المعارف (القاهرة)، ١٩٧٧.
- . الإعداد الروحي والخلقي للمعلم: محمد جميل بن علي خياط، جامعة أم القرى (السعودية)، ١٩٩٤م.
- . اكتساب اللغة العربية عند الطفل الجزائري: حفيظة تازروتي، دار القصة للنشر (الجزائر)، ٢٠٠٣م.
- . الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان: مصطفى الشكعة، دار الكتاب العربي (بيروت)، ط ١، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- . البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط ١، ١٩٩٣م.
- . بحوث في التربية الإسلاميّة: محمود السيد سلطان، دار المعارف (القاهرة)، ١٩٧٩م.
- . تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون: عمر فروخ، دار القلم (بيروت)، ١٣٩٢هـ.
- . تحفة المودود بأحكام المولود: ابن قيم الجوزية، المطبعة الهندية، ١٣٨٠هـ.
- . تدريس الجغرافيا: عبد اللطيف فؤاد إبراهيم، مكتبة مصر (القاهرة)، د. ط، ١٩٧٥م.
- . التربية الإسلاميّة أصولها وتطورها في البلاد العربية: محمد منير مرسي، عالم الكتب، طبعة مزيدة ومنقحة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.
- . التربية الإسلاميّة أصولها ومنهجها ومعلمها: عاطف السيد، لا بيانات.
- . التربية الإسلاميّة التقليدية أهدافها وأغراضها: زكي بدوي، سلسلة بحوث المؤتمر الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.
- . التربية الإسلاميّة بين الأصالة والمعاصرة: إسحاق فرحان، لا بيانات.
- . التربية الإسلاميّة بين الأصالة والمعاصرة: عبد الغني محمد النووي، دار قطري بن الفجاءة (قطر)، ١٩٨٦.
- . التربية الإسلاميّة نظمها وفلسفتها وتاريخها: أحمد شلي، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة)، ط ٧، ١٩٨٢م.

- . التربية الإسلامية وطرق تدريسها: إبراهيم محمد الشافعي، مكتبة الفلاح (الكويت)، ١٩٨٩.
- . التربية الإسلامية وفلاسفتها: محمد عطية الإبراشي، دار الفكر العربي (القاهرة)، ١٩٧٦م.
- . التربية في الإسلام: أحمد فؤاد الأهواني، دار المعرفة (القاهرة)، ط ٢، ١٩٦٨م.
- . التربية وبناء الأجيال في الإسلام: أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني (بيروت)، ١٩٧٥م.
- . التربية وطرق التدريس: صالح عبد العزيز وآخرون، دار المعارف (القاهرة)، ١٩٧٦م.
- . التربية وطرق التدريس: عبد الرحمن نحلاوي وعبد الكريم عثمان ومحمد خير عرقسوسي، الكليات والمعاهد (الرياض)، ١٣٩٢هـ.
- . التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، دار المعارف (مصر)، ط ٢، د. ت.
- . تطور الفكر التربوي: فخري خضر، دار الرشيد للنشر والتوزيع، د. ط، ١٩٨٢م.
- . التفكير اللساني في الحضارة العربية: عبد الرحمن المسدي، الدار التونسية للكتاب، ط ٢، ١٩٨٦م.
- . التعلم عند الغزالي: جمانة البخاري، المؤسسة الوطنية للكتاب، د. ط.
- . التعليم الإسلامي أهدافه ومقاصده: محمد النقيب العطاس، تر: عبد الحميد الحربي، دار عكاظ للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٠٤هـ / ١٨٩٤م.
- . تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن عمر بن كثير (٧٧٤هـ)، ت: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط ١، ١٤١٩هـ.
- . تكوين العقل العربي: محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، ط ٤، الرباط، ١٩٩١م.
- . الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط ١، ١٩٨٨م.
- . الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه: البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط ١، ١٤٢٢هـ.

- . الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية: أبو الوفا الحنفي، ت: عبد الفتاح الحلوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- . الحضارة الإسلامية: أبو الأعلى المودودي، دار العربية للطباعة (بيروت)، د. ط ت.
- . أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام: عبد الحليم الجندي، ص ١١١. المكتبة النموذجية، د. ت.
- . أبو حنيفة حياته وعصره وآراؤه وفقهه: محمد أبو زهرة، دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.
- . الخطاب اللساني العربي بين التراث والحداثة: بشير ابرير، الملتقى الوطني الثاني بعنوان الصوتيات بين التراث والحداثة، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة سعد دحلب، البليدة، نيسان ٢٠٠٢م.
- . دراسات عن مقدمة ابن خلدون: ساطع الحصري، دار المعارف (مصر)، د. ط، ١٩٥٣م.
- . الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول الهدم: محمد الطيب النجار، دار العلوم للطباعة (القاهرة)، ط ٣، ١٩٧٧م.
- . ديمقراطية التربية الإسلامية: سعيد علي اسماعيل، دار الثقافة للطباعة والنشر (القاهرة)، ١٩٧٤م.
- . الديمقراطية في الإسلام: عباس محمود العقاد، دار المعارف (القاهرة)، ١٩٧١م.
- . رسائل الجاحظ: ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي (مصر)، ط ١، ١٩٧٩م.
- . الرسالة الخالدة: عبد الرحمن عزام، دار الشروق (بيروت)، ط ٤، ١٩٦٩م.
- . روح التربية والتعليم: محمد عطية الإبراشي، دار إحياء الكتب العربية (القاهرة)، ١٩٥٠م.
- . سنن الترمذي: محمد بن عيسى (٢٧٩هـ)، ت: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، ١٩٩٨م.

- سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ)، ت: شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية، ط ١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني (٢٧٣هـ)، ت: شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة العلمية (بيروت)، ط ١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- طرق تدريس التربية الإسلامية: إبراهيم محمد عطا، ط ٢، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة)، ١٩٩٦.
- طرق تدريس التربية الإسلامية نماذج لإعداد دروسها: عبد الرشيد عبد العزيز سالم، وكالة المطبوعات، ط ٣، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- طرق تعليم التربية الإسلامية: محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة)، ١٩٨٥م.
- العالم والمتعلم لأبي حنيفة والفكر التربوي الإسلامي فيه: رضوان السيد، مؤتمر التربية الإسلامية المنعقد في بيروت، مركز التأليف، ١٩٧٩م.
- العدالة الاجتماعية في الإسلام: سيد قطب، دار الشروق (بيروت)، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- العقائد والمذاهب: عباس محمود العقاد، دار الكتاب اللبناني (بيروت)، ١٩٧٤.
- علم النفس التربوي في الإسلام: محمد جميل خياط، دار المريخ (الرياض)، ١٩٨١.
- علم النفس التربوي في الإسلام: يوسف مصطفى القاضي، دار المريخ (الرياض)، ١٩٨١م.
- علو الهمة: محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، دار القمة ودار الإيمان (مصر)، د. ط، ٢٠٠٤م.
- الغزالي: عبده الحلو، دار الحكمة (بيروت)، ط ١، ١٩٦٨م.
- الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق: عبد الأمير شمس الدين، دار اقرأ (بيروت)، ١٩٨٤م.

- . الفكر التربوي عند الغزالي من خلال رسالة أيها الولد: عبد الغني عبود، دار الفكر العربي، ط ١، د. ت.
- . الفكر الخلدوني من خلال المقدمة: محمد فاروق النبهان، دار الرسالة للطباعة والنشر، ١٩٩٨ م.
- . الفكر اللساني التربوي في التراث العربي مقدمة ابن خلدون نموذجاً: محمد صاري، الملتقى الوطني الثاني بعنوان الصوتيات بين التراث والحداثة، جامعة سعد دحلب، نيسان ٢٠٠٢ م.
- . فلسفة التربية الإسلامية: عمر محمد التومي الشيباني، الجماهيرية الليبية (طرابلس)، الشركة العامة للتوزيع والإعلام، ١٩٧٥ م.
- . فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم: علي خليل أبو العينين، دار الفكر العربي (القاهرة)، ١٩٨٠ م.
- . في التربية الإسلامية: عبد الغني عبود، دار الفكر العربي (القاهرة)، ١٩٧٧.
- . في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق (بيروت)، ط ١٠، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.
- . في الفكر التربوي الإسلامي: لطفي أحمد، دار المريخ (الرياض)، د. ط، ١٩٨٢ م.
- . قاموس التربية: فاخر عاقل، دار القلم (بيروت)، د. ط، ١٩٨٣ م.
- . القاموس المحيط: مجد الدين الفيروز آبادي (٨١٧ هـ)، مؤسسة الرسالة (بيروت، لبنان)، ط ٨، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.
- . قراءات في التربية المعاصرة: محمد الهادي عفيفي وآخرون، عالم الكتب (القاهرة)، ١٩٧٣ م.
- . القرآن والنبي عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، د. ط ت.
- . القواعد الأساسية للغة العربية حسب منهج "الألفية" لابن مالك وخلاصة الشراح لابن هشام وابن عقيل: أحمد الهاشمي، دار الكتب العامة (بيروت)، د. ط ت.
- . مجلة البعث الإسلامي: محمد المبارك، العدد ١٠.

- . محاضرات في علم النفس اللغوي: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب وديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر)، ط ٣، د.ت.
- . مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر الرازي (٦٦٦هـ)، ت: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية (بيروت)، ط ٥، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- . مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام: عبد الرحمن الباني، المكتب الإسلامي (الرياض)، ١٩٨٣.
- . مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
- . المسند الصحيح المختصر: مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٦١هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي (بيروت).
- . مسيرة الفكر التربوي عبر التاريخ: محمود السيد سلطان، دار المعارف (القاهرة)، ١٩٧٩م.
- . معالم أصول التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان لابنه: عبد الرحمن الأنصاري، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط ٢٨، ١٤١٧هـ.
- . معجزة الإسلام التربويّة: محمود أحمد السيد، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع (الكويت)، ط ١، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- . المعلم والمناهج وطرق التدريس: محمد عبد العليم مرسى، عالم الكتب (الرياض)، ١٩٨٥م.
- . المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم (دمشق)، ط ١، ١٤١٢هـ.
- . مقدمة ابن خلدون: دار الجيل (بيروت)، د. ط ت.
- . مقدمات العلوم والمناهج: أنور الجندي، محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل، دار الأنصار (القاهرة)، ١٩٧٩.

- من الأصول التربويّة في الإسلام: عبد الفتاح جلال، المركز الدولي للتعليم الوظيفي في العالم العربي، جمهورية مصر العربية، ١٩٧٧.
- من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي: كمال الدين عبد الغني المرسي، دار المعرفة الجامعية، ط ١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
- مناقب الإمام أبي حنيفة: عثمان الذهبي، تعليق: زاهد الكوثري، لجنة إحياء المعارف النعمانية (الهند).
- مناقب أبي حنيفة: الموفق المكي، دار الكتاب العربي (بيروت)، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- المنقذ من الضلال: الغزالي، ت: عبد الحليم محمود، ط ١، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة)، ١٩٦٤م.
- المنهج الإسلامي الجديد: أبو الأعلى المودودي، جمعية التمدن الإسلامي (دمشق)، ١٣٧٥هـ.
- منهج التربية الإسلامية: محمد قطب، دار الشروق (بيروت)، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- منهج التربية الإسلامية أصوله وتطبيقاته: علي أحمد مدكور، مكتبة الفلاح (الكويت)، ١٩٨٧م.
- الميسر في سيكولوجية اللعب: أحمد بلقيس وتوفيق مرعي، دار الفرقان للنشر (عمان)، د. ط، ١٩٨٧م.
- نحو فلسفة عربية للتربية: عبد الغني عبود وعبد الغني النورة، دار الاعتصام (القاهرة)، ١٩٧٩.
- نشأة التربية الإسلامية: سعيد إسماعيل علي، عالم الكتب (القاهرة)، ١٩٧٨.
- الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية: جورج شهيل، د. ط، ١٩٦١.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين ابن خلكان (٦٨١هـ)، ت: إحسان عباس، دار صادر (بيروت)، د. ط، ١٩٠٠.

القسم الثاني

مهارات التّواصل



الدكتور
نجم العلي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله ومصطفاه، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

لقد خلق الله الإنسان بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأسكنه أرضه، وسخر له مخلوقاته، وأسبغ عليه نعمه، ووهبه العقل والتفكير، وأنعم عليه بالجوارح وأقدره على العمل والتغيير، فجعل له سمعًا يدرك به الأصوات، وبصرًا يميز به الأشكال والألوان، وجلدًا يتحسس محيطه خشونة ونعومةً وحرارة وبرودةً، وأقدره على شمّ الروائح وتذوّق الأطعمة والأشربة، وجعل لتلك الحواس صلةً بالنفس واتصالًا مع العقل.

ووهبه نفسًا تدرك المشاعر المختلفة وتستجيب لها بسطًا وقبضًا، وسعادةً وسخطًا، يعبر عنها جسده، أو ينطق بها لسانه.

فباختلاف مشاعر النفس تختلف تعابير الجسد، ضحكًا إذا شعرت بالفرح، وبكاءً إذا شعرت بالحزن، واضطرابًا إذا انتابها القلق، وهدوءً إذا نزلت عليها السوالب. بوسًا إذا ركبها الغضب، وحمرةً في الوجه إذا أحسّت بالخجل، وصفرةً إذا اعتراها الوجع، وفتورًا إذا أثقلها الملل...

فكانت تلك الحواس منافذ العقل إلى المحيط الخارجي، كما أنّ المشاعر نوافذه على الوسط الداخلي، لتنتهي إليه حصيلة معلومات الحواس، وخلاصة انفعالات النفس، فيتخذ قراره في كيفية الاستجابة، وطريقة الردّ قولاً أو فعلاً..

ثمّ إنّ الله تعالى ما خلق البشر عبثًا، وما تركهم - سبحانه - هملاً، بل أرسل إليهم الرُّسل بالحكمة والآيات، وأنزل عليهم الكتب بالحقّ والهدى والبيّنات.

وجعلهم شعوبًا وقبائل أوصاهم في كتابه العزيز بالتعارف المفضي إلى المودة والتآلف، وأمرهم بالتعاون على البرّ والتقوى، وأرشدتهم إلى التواصي بالحقّ والصبر.

وهذه الأوامر تنتظم كالدّر المنضود في قلادة الشريعة الغراء، لنطالع في انتظامها وتكاملها جمال منهج الخالق الرحمن في تكامل علاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

ولما كانت العلاقات الإنسانية تقوم على التواصل بأشكاله المختلفة، وتتعرّز بإتقان مهارات الاتصال المتنوّعة، فقد جاءت هذه المحاضرات في كليّة الشريعة الغراء في جامعة حلب الشهباء، تعزيزًا لقدرات طلابنا في الاتصال، وتمكينًا لمهاراتهم على التواصل الفعّال بما يزيدهم خبرة في حياتهم العملية في شتى الجوانب التربويّة والدعويّة، فضلا عن حياتهم الاجتماعية..

ولما كان هذا القسم الموسوم بـ (مهارات التواصل الفعّال) متممًا لقسم (المنهج التربويّ) فقد قسمت المادة العلميّة إلى مبحثٍ تمهيديّ وثلاثة فصول:

أما المبحث التمهيدي فقد تناول مفهوم الاتصال والتواصل.

وجاء الفصل الأوّل: لبحث في تأصيل التواصل ومشروعيته.

أما الفصل الثاني: فقد تناول عناصر التواصل وأسباب نجاحه وفشله.

وأما الفصل الثالث: فقد درس أقسام التواصل الإنسانيّ وأهمّ مهاراته

مع الرجاء مقرونًا بخالص الدعاء لطلابنا بالتوفيق والنجاح في حياتهم العامة والخاصة.

د. نجم العلي

مبحث تمهيدي

التواصل هو جوهر نجاح أيّ نمط من أنماط العلاقات السويّة بين البشر، وعندما يتسم هذا التواصل بالوضوح والدفع تزدهر تلك العلاقات الإنسانيّة لكنه حينما يعتريه الغموض وسوء الفهم والحذر والبرود فإنّه يفقد فعاليته، مما يؤدي إلى تدهور العلاقات لتنتهي بالقطيعة أو العداء..

تواصلهم. التواصل لها أثرها الكبير في تطوير العلاقات ونجاحها، لأنّ الحياة لا تعتمد على المال أو القوة أو العلم فحسب، فكم من ثريّ غنيّ فشل في الحفاظ على علاقة الزواج، وكم من إنسان ذو منصب فشل في كسب قلوب موظفيه، وكم من أبٍ حاصل على شهادة جامعيّة فشل في تربية أبناءه..

المشكلة في الحقيقة ترجع إلى الفقر في مهارات التواصل.

كثيرة هي الحالات التي استغنت فيها شركات ومؤسسات عن موظفين لديها ليس لعدم امتلاكهم المعلومات والخبرات الفنيّة وإنما لسوء مهارات تواصلهم.

وسوف نبدأ بالدراسة من خلال تحديد المفاهيم:

١- المفهوم اللّغوي:

ترجع كلمة (الاتصال) وكذلك (التواصل) إلى الجذر اللغوي (و ص ل) وله دلالات لغويّة منها^(١):

١- البلوغ إلى الشيء: وَصَلَ الشيءُ إلى الشيءِ وَصُولاً وَتَوَصَّلَ إليه انتهى إليه وَبَلَغَهُ.

٢- الوصل في مقابل القطع: وصل الشيء بغيره فاتصل، ومنه ووصلني بعد الهجر وواصلني.

(١) انظر أساس البلاغة (٢٢ / ٣) للزمخشري، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني - القاهرة - ١٩٩١م

- لسان العرب (١١ / ٧٢٦) لابن منظور، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى

٣- الوصل بمفهوم التابع: في التنزيل العزيز {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ} أي وَصَّلْنَا ذَكَرَ الأنبياء وأقاصيصَ من مَضَى بعضها ببعض لعلهم يَعتَبِرونَ وَاتَّصَلَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ لم ينقطع.

٤- العطية والهبة: ويأتي على سبيل المجاز ومنه: وصله بألف درهم، وهذه صلة الأمير وصلاته.

وهذا يعني أن المعاني والدلالات اللغوية تغطي دائرة واسعة من المعاني في مفهوم الاتصال فهي تفيد الوصول إلى الشخص ومنها وصول الفكرة إلى ذهن السامع، وتفيد بعداً اجتماعياً بمفهوم التواصل الاجتماعي بين الناس في مقابل القطيعة والهجران، وتفيد التواتر والاستمرار والتتابع وعدم التخاذل والفتور، وكذلك يعبر بها مجازاً عن الهبة والهدية التي تفيد قوة العلاقة واستمرارها..

٢- المفهوم الاصطلاحي:

أ- تعريف التواصل: عملية تفاعلية تتم بين طرفين أو أكثر، يتم بواسطتها نقل الأفكار والمعلومات والخبرات والمشاعر، وتبادلها بين الأطراف للوصول إلى هدف معين.

وعلى هذا فالتواصل هو جوهر العلاقات الإنسانية وبه يتحقق تطورها.

وهناك من يزيد في تعريف التواصل بأنه: تبادل المعلومات والرسائل اللغوية وغير اللغوية سواء أكان هذا التبادل قصدياً أم غير قصدي، بين الأفراد والجماعات.

وبالتالي لا يقتصر التواصل على ما هو ذهني معرفي، بل يتعداه إلى ما هو وجداني وما هو حركي وآلي، فهو بذلك تبادل للأفكار والأحاسيس والرسائل التي قد تفهم وقد لا تفهم بنفس الطريقة من طرف كل الأفراد المتواجدين في وضعية تواصلية^(١).

(١) انظر التواصل التربوي - تقنياته وأساليبه ص ٣، بحث منشور على النت إعداد رشيد نوري

ب- الفرق بين الاتصال والتواصل:

١- الاتصال:

يجري الاتصال بين طرف يمثل المرسل وبين طرف أو أطراف أخرى تمثل المستقبل، ولكن الإرسال يكون باتجاه واحد بحيث يهدف المرسل إلى إيصال الرسالة إلى الطرف الآخر والتأثر فيه، دون الأخذ بعين الاعتبار ردة فعله.

٢- التواصل:

يجري التواصل بين طرفين أو أكثر بهدف التوصل لتحقيق هدف التواصل، وذلك عبر مراعاة استجابة كل طرف لرسالة الآخر... فتكون الرسائل متبادلة وليس لها اتجاه وحيد.

وهكذا نجد الاتصال أعم من التواصل، لأنّ التواصل: اتصال تقابله استجابة تمثل اتصالاً جديداً ضمن عملية إنسانية معقدة تشكّل سلسلة من الاتصالات المتبادلة لتحقيق الهدف. وأكثر الدراسات تستعمل الاتصال والتواصل بنفس المعنى، ويمكن أن يقال فيهما ما يقال في الإيمان والإسلام بأنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

فإذا ذكر أحدهما مجرداً عن الآخر فإنه يجمع معنى المصطلح الآخر.

وإذا ذكر في سياق واحد فهذا يفيد افتراقهما ليكون الاتصال هو العملية الأبسط والتواصل هو العملية المعقدة.

ج- مفهوم مهارات التواصل:

إنّ نجاح الإنسان يعتمد على فعاليّة تواصله مع محيطه الاجتماعي وهذه الفعاليّة تختل بدراسته. لآخر وهي بدورها تعتمد على:

- فهم الطوائع البشريّة وهذا يرجع إلى علم النفس وعلم الاجتماع

- سعة صدر الإنسان نفسه وصبره وقدرته على التحمّل وهذا يرجع إلى علم الأخلاق والتركيبية.

- مهارات التواصل التي يمتلكها بالخبرة أو بالتعلّم والتدريب، وهذا ما نحن معنيّون بدراسته.

وعليه يمكن أن نعرّف مهارات التواصل بأنّها: مجموعة القدرات الإبداعية الذاتية أو المكتسبة بالخبرة أو التدريب والتي يستثمرها الإنسان في تواصله مع الآخرين لتحقيق أفضل النتائج.

الفصل الأول

التواصل بين التأصيل والمشروعية

المبحث الأول

التشريع الربانيّ المستفاد من منهج الله في تعامله مع الخلق

نستدلّ في هذا المبحث على مشروعيّة التواصل من خلال ما رضىه الله تعالى لنفسه من الاتصال والتواصل مع خلقه سبحانه وتعالى.

وسوف نعرض لمشروعيّة ذلك من خلال النقاط التالية:

١- الاتصال الإلهي بالخلق ومظاهره

٢- التواصل الإلهي مع الخلق ومظاهره

٣- فتح باب التواصل بالعبادات

المطلب الأول: الاتصال الإلهي بالخلق ومظاهره:

مما لا شكّ فيه أنّ الخالق: هو تعالى غنيّ بنفسه، مستغنٍ عن جميع خلقه، لا تنفعه طاعة الطائعين كما أنّه لا تضرّه معصية العاصين، بل جميع خلقه فقراء إليه سبحانه وتعالى، وفي هذا يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر: ١٥ - ١٧] فالتواصل الإلهي مع الخلق يُعدّ منّة إلهيّة بعد منّة الخلق، وفيه دليل على مشروعيّة التواصل وأنّه لا ينبغي لأحد من الخلق مهما استغنى بنفسه أن يترك التواصل مع غيره.

مظاهر الاتصال الإلهي بالخلق: وتتجلى في أمرين:

أولاً- إنزال الكتب السماويّة

ثانياً- بعثة الأنبياء والمرسلين

إنَّ الله تعالى مع غناه المطلق عن الخلق وافتقارهم المطلق إليه، توجه إليهم بالخطاب وأنزل عليهم الكتاب بالحقّ تلو الكتاب، وأرسل الرسل تترى بالحكمة والهدى والصواب، لكي يُعرّفهم - سبحانه - بذاته العليّة وشريعته المرضية، كاشفًا لهم من أخبار الغيب ما كانوا يجهلون، ومبينًا لهم من الحقائق ما احتارت الأفكار فيه والظنون، وعرفهم مواضع رضاه وسخطه من الأعمال والخلال، لتكون عبادتهم له عن علمٍ، ودعوتهم إلى سبيله على بصيرة.

ولذلك نعى القرآن على من زعم أن لا تواصل بين الله وخلقهِ، وأنَّ الله ما أنزل من كتاب وما أرسل من رسول، فقال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)} وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ { [الأنعام: ٩١، ٩٢]

وأكد البيان الإلهي أنَّ صلة الخالق بخلقهِ ما انقطعت في جميع الأمم بقطع النظر عن الزمان والمكان فقال سبحانه: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر: ٢٤]

المطلب الثاني: التواصل الإلهي مع الخلق ومظاهره:

إنَّ التواصل الإلهي مع الخلق له مظاهر متعددة، وقد كشف لنا القرآن الكريم عددًا من مظاهر هذا التواصل الرباني وصوره، ويمكن أن نختار منها ما يلي:

١- الحوار

٢- المعية الإلهية

٣- التدخل الإلهي

٤- أسباب نزول القرآن الكريم

أولاً- الحوار: الحوار صورة من أرقى صور التواصل لأنه تفاعل بين طرفين يهدف إلى الإقناع بالحجة والبرهان، وهو يظهر في القرآن الكريم جلياً في حوار الله لملائكته وأنبيائه ومخلوقاته بما فيهم إبليس.

أ- الحوار مع الملائكة: ويتجلى في سياق عرض قصة بدء الخلق من سورة البقرة: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة: ٣٠ - ٣٣]

فلاحظ كيف حاور الله تعالى ملائكته الكرام مع أنهم جند من جنوده وخلق من خلقه لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرهم، ليكون ذلك درساً للقادة وولاة الأمور في التواصل مع رعيته ومشاركة جندهم أو أتباعهم أو موظفيهم في الحوار لإقناعهم بأهمية القرار ليتعاملوا معه بقناعة وإيمان.

ب- الحوار مع الأنبياء: لقد حاور الله الأنبياء وهم صفوة الله من خلقه، وأتقى عباد الله لله وأطوعهم لأمره، وقد سجل القرآن الكريم ذلك في مواضع متعددة منها ما يمثل نموذجاً للحوار مع الجماعة ومنها ما يمثل نموذجاً للحوار الفردي:

- **الحوار الجماعي:** كما في قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضُكُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: ٨١].

- **الحوار الفردي:** كالحوار بين رب العالمين وموسى عليه السلام، قال تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ

فِيهَا مَارِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَعَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) { طه: ١٧ - ٣٦ }

خصائص هذا الحوار الفردي وفوائده:

- التنوع: نلاحظ أنّ هذا الحوار تضمّن السؤال والجواب، والطلب والفعل، والدعاء والإجابة.
- التعليم مع التدريب: فهو يأمره بإلقاء العصا ليرى بعينه كيف تنقلب بأمر الله إلى حيّة، وكذلك الشأن في يده حين تخرج بيضاء مضيئة كالشمس فيدرك بذلك أهميّة المعجزات ويأنس بها فلا يقع منه الروح والخوف عند القيام بها بين يدي فرعون وحاشيته، وفي ذلك يقول ابن حيّان الأندلسي: "وَحِكْمَةُ انْقِلَابِهَا وَقْتَ مُنَاجَاتِهِ تَأْنِيسُهُ بِهَذَا الْمُعْجَزِ الْهَائِلِ حَتَّى يُلْقِيَهَا لِفِرْعَوْنَ فَلَا يَلْحَقُهُ دُعْرٌ مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِذْ قَدْ جَرَتْ لَهُ بِذَلِكَ عَادَةٌ وَتَدْرِيبُهُ فِي تَلْقِي تَكَايُفِ النُّبُوَّةِ وَمَشَاقِّ الرِّسَالَةِ، ثُمَّ أَمَرَهُ تَعَالَى بِالْإِقْدَامِ عَلَى أَخْذِهَا وَنَهَاهُ عَنْ أَنْ يَخَافَ مِنْهَا وَذَلِكَ حِينَ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقَّبْ." (١).
- الرفق: نلاحظ في هذا الحوار رفق الله تعالى بعبده ونبيه موسى عليه السلام في تعليمه وتدريبه.
- المساحة الواسعة في التعبير: وهذا من خصائص الحوار الفردي الذي يتميز عن الحوار الجماعيّ بمساحة تعبيرية أوسع تتيح فرصة أكبر للتعبير عن المشاعر أو تبرير

(١) البحر المحيط في التفسير (٧/ ٣٢٣)

الموقف، فنلاحظ أنسَ نبي الله موسى بمناجاة ربّه حتى أنّه جاوز في بعض أجوبته حدود السؤال أنساً ولذّة بمناجاة الله تعالى وذلك أنّه كان يكفيه في الردّ على قوله تعالى: {وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى} أن يجيب بقوله: {هِيَ عَصَايَ}، ولكنّه زاد عليها فقال: {أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفِي بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى} وهذا زيادة في الجواب.

والحكمة منها رغبة موسى عليه السلام في إطالة مناجاته لربه تعالى، وازدياد لذاذته بذلك كما قال الشاعر:

وأملَى عِتَابًا يُسْتَطَابُ فليتنى... أطلْتُ ذنوبًا كي يطولَ عتابُهُ

ت- الحوار مع إبليس: لقد سجّل لنا القرآن الكريم مشهداً حوارياً بين الله تعالى وإبليس اللعين، ليبين لنا أنّ عداوة إبليس في الأصل ليست لله على سبيل النديّة له سبحانه، وإنما لهذا المخلوق البشري سيّدنا آدم عليه السلام، وأنّ الله طرده لهذا الموقف الذي ظهر فيه حسده لآدم أبي البشر وكبره عليه، الأمر الذي حمّله على معصية أمر الله تعالى، فتأمل معي هذا المشهد الحواريّ في قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأعراف: ١١ - ١٨]

وفي هذا تعليم لنا أن لا نغلق باب الحوار مع أي شخص مهما كان عاصياً أو مسرفاً على نفسه.

ث- **الحوار مع المخلوقات:** ومثاله قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: ١١]، ومنها قوله سبحانه: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: ٧٢]

ووجه الدلالة أنّ الله سبحانه وتعالى خاطب مخلوقاته بما فيها الجمادات وأمرها، فانقادت لأمره سبحانه وتعالى مع أنها جمادات، وفي ذلك حجة على بني آدم الذين أكرمهم الله تعالى بالعقل والبيان في أن يستجيبوا لأوامره تعالى بالاختيار كما أنهم مفتقرون إليه سبحانه بالاضطرار.

لكن قد يقول قائل كيف لهذه المخلوقات أن تتكلم؟

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ فِيهِمَا الْكَلَامَ فَتَكَلَّمَتَا كَمَا أَرَادَ سُبْحَانَهُ، وَقِيلَ: هُوَ تَمْثِيلٌ لِظُهُورِ الطَّاعَةِ مِنْهُمَا، وَتَأْثِيرِ الْقُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ فِيهِمَا^(١).

٢- **المعية الإلهية:** وهي تعبر عن اتصال دائم بين الله وخلقه، وهي نوعان:

- **الأول - معية العلم والكشف:** وهي عامة شاملة لجميع خلقه قال تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: ٤]

وقال سبحانه: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَحْوِ ثَلَاثَةِ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧]

أي أنّ الله يعلم كل شيء عن كل شيء، وهو مطلع على كل أحوال الإنسان الظاهرة والباطنة، يعلم الجهر وما يخفى، ويعلم السر وأخفى.

- **والثاني - معية الحفظ واللطف:** وهي خاصة بأوليائه من خلقه، وهي رعاية إلهية مباشرة لعباده المؤمنين؛ منه سبحانه الرعاية والعناية، ومنهم الطمأنينة والثقة به تعالى.

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٨٢)

ومثاله قوله تعالى على لسان موسى وهارون عليهما السلام: {قَالَ رَبَّنَا إِنَّنا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } [طه: ٤٥، ٤٦]

وقد ملأت تلك الطمأنينة الناجمة عن الثقة بمعية الله قلب موسى ﷺ وفاضت على لسانه في أشد الظروف خطورةً كما وصف لنا القرآن الكريم في قوله تعالى: {فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأُنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء: ٦١ - ٦٧]

٣- التدخل الإلهي: هذا التدخل الإلهي يتجلى في نصره الله لأوليائه بعقوبة عامة لأعدائه مع نجاة خاصة لأوليائه، أو بمعجزة يجريها الله على يد نبي من أنبيائه، أو كرامة يظهرها على يد ولي من أوليائه تأييداً لهم وتثبيتاً، وتشريعاً لهم وتكريماً، وقد قص القرآن الكريم علينا نماذج عدة لتدخله سبحانه بالنصر والتأييد منها:

- نصره الله لإبراهيم ﷺ عندما أوقد له النمرود نارا عظيمة، فلما ألقوه بالمنجنيق إليها، قال إبراهيم: حسبي الله ونعم الوكيل^(١)، فجاء أمر الله بنجاته، قال تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠]

- نصره الله لنبي الله هود ﷺ: قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } [هود: ٥٨]

- نصره الله لنبي الله صالح ﷺ: قال ﷻ: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ } [هود: ٦٦]

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، صحيح البخاري (٤/

- وقد بين القرآن الكريم سنة الله تعالى في ذلك بقوله **وَعَلَّكَ**: { حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } [يوسف: ١١٠]

١- أسباب النزول: وتُعرف من سياق الآيات والأحاديث التي حكّت لنا ملابسات نزول بعض آيات القرآن الكريم بحسب الوقائع والأحداث الإنسانية في عهد النبوة، وهي تشفّ عن التواصل الإلهي مع عباده فهو يرى ويسمع، يرفع مظلمة، ويجبر قلباً، ويشرّع حكماً، ويرم أمراً، ويردّ قولاً، ويفند شبهة..

مثاله: **قصة المجادلة**: فقد جاء في أسباب نزول قوله تعالى: { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ.. } [المجادلة: ١، ٢]

ما ذكره الواحدي بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ حَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْلَى شَبَابِي وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي حَتَّى إِذَا كَبِرَ سِنِّي وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ. قال: فَمَا بَرَحْتَ حَتَّى نَزَلَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ: { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ } (١).

ومثاله كذلك **قصة ابن أم مكتوم**: فقد جاء في أسباب نزول قوله تعالى: { عَبَسَ وَتَوَلَّى } (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَعْى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يُخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ } [عبس: ١ - ١١]

ما ذكره الواحدي بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزل { عَبَسَ وَتَوَلَّى } في ابن أم مكتوم الأعشى، أتى إلى النبي ﷺ - فجعل يقول: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَشِدْنِي،

(١) أسباب نزول القرآن لعلي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨ هـ)، تحقيق: كمال بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ (ص: ٤٢٧)

وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ رِجَالٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ - ﷺ - يُعْرِضُ عَنْهُ وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخِرِينَ، فَفِي هَذَا أُنْزِلَتْ {عَبَسَ وَتَوَلَّى} (١).

وبذلك نرى أنَّ القرآن الكريم كان مواكبًا لحياة الناس مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم فحكى لنا أقوالهم وأمر نبيه ﷺ أن يردَّ عليها أو أن يجيب على تساؤلاتهم.

فمن الردِّ على افتراءات المشركين: قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس: ٣٨]

ومن الردِّ على تساؤلاتهم: قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ...} [البقرة: ١٨٩]، وقوله سبحانه: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ...} [المائدة: ٤]

والأمثلة على ذلك كثيرة في كتاب الله تعالى.

المطلب الثالث: العبادة:

إنَّ التواصل الإلهيَّ مع العابدين الطائعين من عباده معروفٌ مقررٌ بالنصوص الشرعية من الكتاب والسنة، وسوف نقتصر على بيان ثلاث عباداتٍ يظهر فيها ذلك التواصل الربانيَّ مع عباده المتلبسين بهذه العبادات: مع المصلِّين في صلاتهم، ومع الدَّاكرين له سبحانه حال ذكروهم، ومع الدَّاعين المخلصين له في دعائهم.

- الصلاة: لقد شرع الله تعالى لعباده الصلاة صلةً بينه وبينهم، وقسم الصلاة عند قراءة فاتحة الكتاب بينه وبين عبده في تواصل إلهيٍّ مجلَّل برحمات الله مع المصلِّين من عباده، ففي صحيح مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ. فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ؟ فَقَالَ: اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}، قَالَ

(١) المرجع السابق (ص: ٤٧٢)

اللَّهُ تَعَالَى: أَتْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: { مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ } ، قَالَ: مُحَمَّدِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ (١).

فالله سبحانه وتعالى يُجيب العبد بعد كل آية يتلوها ليحضر العبد بقلبه مع الله، فهو يسمعه ويجيبه سبحانه وتعالى، وفي هذا فائدة عظيمة للخشوع وحضور القلب.

- **الدُّكْر:** لقد أذن الله سبحانه وتعالى لعباده بذكره جلّ وعلا، وكافأهم عليه بذكر الذّاكر في الملاء الأعلى مع الجزاء الأوفى قال تعالى: { فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ } [البقرة: ١٥٢] فقله تعالى: { فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ } يفتح باباً واسعاً من التواصل الروحي بين الذّاكر وربّه جلّ في علاه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْسِحُ أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً» (٢).

والحديث كما ترى يعمم المسألة فكل قرينة يتقرب بها العبد إلى الله تعالى تُقابل من الله تعالى بمزيد من القبول والرضى الإلهي..

- **الدُّعَاء:** أمر الله سبحانه وتعالى عباده بدعائه ووعدهم الإجابة فقال عزّ من قائل: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦]

والإشارة بالقرب الإلهي من الداعي تدلّ على منتهى اللطف، فالدعاء ليس طقساً

(١) صحيح مسلم كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، حديث رقم ٦٣٣

(٢) صحيح البخاري (٦ / ٢٦٩٤) رقم ٦٩٧٠، صحيح مسلم (٤ / ٢٠٦١) رقم ٢٦٧٥

دينياً لا روح فيه، بل هو صلة حقيقية بين العبد وربّه القريب الذي يسمع ويجب.

وقال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠]

فهذا الأمر الإلهي يدلُّ على أنَّ الدعاء هو جوهر العبادة لأنَّ من تكبر عن دعاء ربّه فهو سوف يستكبر عن سائر العبادات والطاعات، ولذلك جاء في الحديث الشريف عن الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ، ثُمَّ قَرَأَ {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}»^(١).

وفي الحديث الشريف عن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْزِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ»^(٢).

وفي الحديث عن سلمان الفارسي: عن النبي ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»^(٣).

فالدعاء عبادة شرعها الله تعالى لتكونَ باباً لتواصل الخلق مع الخالق تعالى.

المبحث الثاني

مشروعية التواصل المستفادة من أوامر الله لعباده بالتواصل الإنساني فيما بينهم.

لقد شرع الله تعالى لعباده التواصل على أسس من القيم الإيمانية والأخلاقية تحقيقاً لسعادة الدنيا وفلاح الآخرة.

وقد حثت الشريعة الغراء الناس على التواصل، وحضتهم على تقوية أواصر

(١) أخرجه الثلاثة أبو داود (١/ ٤٦٦) رقم ١٤٧٩، والترمذي (٥/ ٢١١) رقم ٢٩٦٩ وقال: حسن صحيح،

وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨) رقم ٣٨٢٨

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٠٩١) في الجهاد والسير باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير رقم ٢٨٣٠

(٣) سنن الترمذي (٥/ ٥٥٦) رقم ٣٥٥٦

العلاقات فيما بينهم، وشرعت لهم من القيم الأخلاقية والسلوكية ما يجعل الإنسان أقدر على فهم أخيه الإنسان واستيعابه..

وإذا أنعمنا النظر في كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم ﷺ فسوف نرى أن كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية جاءت لتعزيز التواصل الإنساني بما يحقق صلاح البشرية وعمارة الأرض ونشر الحق والخير والهدى.

وإذا كان التواصل الإنساني لم يرد بهذا اللفظ في الكتاب والسنة فإنه يندرج تحت الواجبات أو المندوبات التي شرعها الله لعباده في التعارف والتعاون والتناصح... والتي لا يمكن أن تحصل إلا بتواصل الإنسان بأخيه الإنسان، وعملاً بالقاعدة الشرعية: " ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب " يصبح التواصل الإنساني واجباً لتحقيق المصالح ودفع المفاسد؛ وسوف نحاول استجلاء معاني التواصل الإنساني في مجموعة من العبادات التي يمكن أن نطلق عليها مصطلحاً جديداً وهو: " العبادات التواصلية " وأهمها:

١ - التعارف

٢ - التعاون

٣ - التأخي

٤ - التناصح

٥ - النهي عن التقاطع والأمر بالإصلاح بين الناس

٦ - الشورى

المطلب الأول: التعارف

لقد ورد الأمر بالتعارف بين البشر في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات: ١٣]

فإذا كان الاختلاف والتنوع سنة الله في خلقه، فإنه مدعاةٌ للتعارف بين الشعوب والأمم، والتعارف صيغة من صيغ المفاعلة التي تفيد التواصل الإنساني لتحقيق الفهم

الصحيح للآخر، وهو من أهم أسباب التقارب والتآلف بين البشر، وفيه نفى التكبر والتعالي على الآخرين الناجم عن الجهل بهم.

لقد دعانا القرآن الكريم إلى التعارف بعيداً عن كلّ الاعتبارات الشعوبية والقبلية وبين أنّ المكانة الحقيقية للإنسان عند الله تعالى إنما تُقاس بتقوى الله، فلا اعتبار للألوان والأجناس واللغات في تحديد مكانة الإنسان عنده تعالى، بل الاعتبار والكرامة للتقوى التي تتجسّد في إخلاص العبادة للخالق، والإحسان للخلق.

وفي سنن الترمذي عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة، فقال: "يا أيّها الناس، إنّ الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بابائها، فالناس رجالان برّ تقى كريم على الله، وفاجر شقي هيّن على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله: {يَأْيُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (١).

والتعارف بطبيعته يقتضي من الإنسان موضوعياً متجرّداً في تعاطيه مع الآخر وهذا لا يتحقق إلا بمراعاة الأمور التالية:

- ١- أن نسمع الآخر وأن نقرأه قراءة بعيدة عن التعصّب.
 - ٢- وأن نقدر إنجازاته الحضارية وجهوده الإنسانية.
 - ٣- وأن لا نحكم عليه حكماً مسبقاً، يقضي بظلمه وقطيعة أو المبالغة في تعظيمه والتماهي فيه.
 - ٤- وأن لا نحمله مسؤولية مواقف تاريخية صدرت عن أسلافه.
 - ٥- وأن لا نحمله مسؤولية أخطاء بعض أفراد جنسه على سبيل التعميم.
 - ٦- وأن نحيد العوامل النفسية في تقييم عمله، ويكون ذلك بالابتعاد عن الشخصية.
- والأدلة على وجوب الموضوعية والتجرّد من كتاب الله تعالى كثيرة منها:

(١) سنن الترمذي (٥/ ٣٨٩) رقم ٣٢٧٠

- قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} [العلق: ١]،
[٢]

يستفاد من حذف مفعول اقرأ عموم القراءة، وهذا العموم يشمل جميع الكتابات والتجارب الإنسانية، والمنجزات الحضارية للبشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم، فلا يجوز إهمال قراءة الآخر وتجاربه بحجة الاختلاف.. وهذا الانفتاح على القراءة منضبط بمنهج القراءة باسم الخالق العظيم جلّ جلاله، ولا شك أنّ الموضوعيّة القائمة على الإنصاف من أهم سمات هذا المنهج الإلهي في تقدير منجزات الآخرين العلميّة والحضاريّة والأخذ بما بكلّ ما فيه نفع للبشر من حكمة أو اكتشاف أو اختراع، وفي هذا الشأن يقول النبي ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن؛ حيثما وجدها فهو أحقّ بها» (١).

- وقوله سبحانه: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [البقرة: ١٣٤] وهذا توجيه إلهي بعدم الانجراف وراء الأحداث التاريخيّة، فهي ليست أكثر من تجارب يجب أن نأخذ منها العبرة، لا أن نجعلها حاكمة على مواقفنا وعلاقاتنا مع الآخرين.

- وقوله جلّ جلاله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: ٨] فالتوجيه الإلهي في هذه الآية الكريمة بعدم جعل المواقف النفسيّة سبباً في القطيعة الإنسانية أو ذريعةً لظلم للآخرين.

المطلب الثاني: التعاون

التعاون لغةً من صيغ التفاعل، وأصل التعاون من العون والمعونة أي التشارك في بذل المعونة، والتعاون في المفهوم القرآني يعني الاشتراك الإنسانيّ في بذل المعونة وفق التوجيه الربانيّ لجلب المنافع أو دفع المضار.

(١) سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٩٥) رقم ٤١٦٩ من حديث أبي هريرة ؓ.

ولا يكون ذلك الاشتراك إلا بالتواصل وتبادل الخبرات، ولذلك يعدّ التعاون من أهم منتجات التواصل الإنساني وثمراته.

التعاون في نصوص القرآن الكريم:

لقد جاء الأمر الإلهي بالتعاون في قوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: ٢].

وهو أمر صريح بالتعاون ولكنه - كما ترى - موجه إلى الخير والحق والنفع للخلق، وبالمقابل فالآية جاءت بالنهي عن التعاون في مجالات المعاصي والآثام، والبغي والعدوان.

وقد قصّ القرآن علينا بعض صور التعاون لتكون لنا أسوة في الحياة ومنها:

- ما جاء في قصة ذي القرنين في بناء السد: {قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا} [الكهف: ٩٥]

- التعاون بين سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام في تحمل أعباء الرسالة قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي} * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} [طه: ٢٩ - ٣٢] فاستجاب الله دعاءه وآزره بأخيه هارون نبياً. كما جاء في سورة القصص:

{قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْعَالِيُونَ (٣٥)} [القصص: ٣٣ - ٣٥]

أما التعاون في السنة الشريفة:

فالسيرة النبوية طافحة بالأخبار التي تشهد على التعاون بين الصحابة الكرام في أرقى صور التواصل الإنساني المنتج في زمن النبوة ومن أمثلته:

١ - تعاون الصحابة على بناء المسجد النبوي.

٢- وتعاونهم على حفر الخندق في غزوة الأحزاب.

٣- وتعاونهم على تجهيز الجيوش ولاسيما جيش العسرة...

المطلب الثالث: التآخي

التآخي من صيغ المفاعلة وتقتضي المعونة والنصيحة والمحبة، ويرجع التآخي إلى مفهوم الأخوة العام وهي أخوتان أخوة الدين وأخوة الإنسانية.

وقد روي عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال: "الناس صنفان إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق" (١).

والتآخي هنا تفعيل لحقيقة الأخوة الإنسانية بين أفراد البشرية عمومًا، لأنهم جميعًا على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وألوانهم وألسنتهم يرجعون إلى أصل واحد، كلهم أبناء آدم وحواء لا فرق بينهم من جهة الأصل والخلق، والتفاوت في العلم والأخلاق والعمل، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣].

- والأخوة الإيمانية: يشترك فيها عموم المؤمنين، وهي تضيف حقوقًا أخرى للمؤمن على أخيه المؤمن، ومن هذه الحقوق محبة الخير له، والبذل والعون والنصرة والنصيحة...

وقد قرر القرآن الكريم هذه الأخوة بقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: ١٠]

وفي الحديث عن النعمان بن بشير قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى» (٢).

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا (١٠ / ١١) أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: د. يوسف علي طویل، دار

الفكر - دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م

(٢) صحيح مسلم (٤ / ١٩٩٩) رقم ٢٥٨٦

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ
وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ يَكْفُ عَلَيْهِ ضِيَعَتُهُ وَيَحْطُطُهُ مِنْ وَرَائِهِ»^(١)

وعن أنسٍ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ
مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٢).

المطلب الرابع: النصيحة

النصيحة: من النصح وهو في اللغة بمعنى سدّ الخلل في الثوب، ونفي الرّغل أي تصفية
العسل من الشوائب.

واصطلاحاً النصيحة: هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح والنهي عما فيه الفساد^(٣).

قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله: النصيحة كلمة جامعةٌ معناها حياة
الحظّ للمنصوح له، قال: ويُقال هو - أي النصح - من وجيز الأسماء ومختصر الكلام،
وليس في كلام العرب كلمة مفردة يُستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة، كما قالوا في
الفلاح ليس في كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة منه، قال وقيل: النصيحة
مأخوذة من نصّح الرجل ثوبه إذا خاطه، فشبهوا فعل الناصح فيما يتحرّاه من صلاح
المنصوح له بما يسدّه من خلل الثوب، قال وقيل: إنها مأخوذة من نصحتُ العسل إذا
صقّيته من الشمع، شَبَّهُوا تخليص القول من الغشّ بتخليص العسل من الخلط.^(٤)

وفي الحديث الصحيح عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «الدِّينُ
النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»^(٥).

(١) سنن أبي داود (٢/ ٦٩٧) رقم ٤٩١٨

(٢) صحيح البخاري (١/ ١٤) رقم ١٣، صحيح مسلم (١/ ٦٧) رقم ٧١

(٣) التعريفات (ص: ٣٠٩)

(٤) انظر شرح النووي على مسلم (٢/ ٣٧)

(٥) صحيح مسلم (١/ ٧٤) برقم ٥٥

ويتفرّع عن النصيحة:

١- الدعوة إلى الله: بدعوة الناس إلى توحيده سبحانه وتعالى وعبادته والسير على المنهاج الذي ارتضاه لعباده.

ولا يمكن للدعوة إلى الله أن تتم إلا بالتواصل مع الخلق، وتبليغهم رسالة الله لخلقه، وتعليمهم أحكام شرعه، وتذكيرهم بالله واليوم الآخر، وترغيبهم بما أعدّه الله لعباده المؤمنين، وترهيبهم مما توعّد به الكافرين، وذلك يقتضي فتح قنوات التواصل مع الآخرين. والدعوة إلى الله تعالى منهج الأنبياء لا تنقطع بموتهم بل تستمرّ في أتباعهم في كل مكان وزمان لقوله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨]

ولما كانت الدعوة إلى الله سبباً لإنقاذ البشر وطريقاً إلى سعادتهم في الدارين كان الدعاة إلى الله أحسن الناس قولاً وأعظمهم قدراً. قال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: ٣٣]

وفي الصحيح أنّ النبي ﷺ قال لعليّ عليه السلام يوم فتح خيبر: « عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزَلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » (١).

وهذه العبادة العظيمة تحتاج إلى صبرٍ وشجاعة ويقين قال تعالى: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} [الأحزاب: ٣٩]

ولقد أوجب الله على الأمة الدعوة إلى الخير بقوله تعالى { وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [آل عمران: ١٠٤] والخير في هذه الآية يشمل الإسلام بعقيدته وشرائعه وأخلاقه (٢)

٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي فريضة قرآنية تقوم على الاتصال بالناس

(١) صحيح البخاري (١٠٧٧ / ٣) رقم ٢٧٨٣، صحيح مسلم (١٨٧٢ / ٤) رقم ٢٤٠٦ من حديث سهل بن سعد

(٢) انظر تفسير الطبري (٩٠ / ٧)

والتواصل معهم لضمان استقرار حياة المجتمع بعيداً عن الظلم والفساد، قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٠٤]

والآية وإن كانت تأمر بوجود مجموعة تمارس مهامها في هذا الشأن إلا أنّ هذا لا يعني نفي المسؤولية الفردية؛ بل كلّ يقوم بها بحسب علمه وقدرته، وفي هذا الشأن يقول النبي ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(١).

ولكن يجب أن نتذكر دائماً أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج إلى فقه وأدبٍ حتى لا يفضي المنكر إلى منكرٍ أعظم، فطبائع البشر مختلفة، ومعارفهم متفاوتة، والقدرة على التأثير في المخاطب تحتاج بعد الفقه في الدين صدقاً في القول ومهارة في الإقناع.

{وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأعراف: ١٦٤]

٣- التواصي بألوان الخير: والتواصي على صيغة التفاعل أي كلّ واحد منهم يوصي غيره ويوصى من الآخرين، والقرآن ذكر في صفات المؤمنين أنهم يتواصون بأمر عظيمة:

(١) التواصي بالرحمة: أي الرحمة وتكون بسماحة النفس، وحسن الخلق، والتماس العذر، وبذل المال، إعانة المحتاج، وإغاثة الملهوف..

(٢) التواصي بالحق: أي بمعرفته بالدليل والإيمان به والدعوة إليه والثبات عليه

(٣) التواصي بالصبر: أي بالصبر على تعلّم الحق، وعلى مشاق العمل به، وعلى تبعات الدعوة إليه. قال تعالى: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}

[البلد: ١٧]

(١) صحيح مسلم (١/ ٦٩) رقم ٧٨

وقال سبحانه: {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)} [العصر: ١ - ٣]
قال الشافعي: "لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم"
وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله:
■ إحداها: معرفة الحق

■ الثانية: عمله به

■ الثالثة: تعليمه من لا يحسنه

■ الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.
(الَّذِينَ آمَنُوا) وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به، فهذه مرتبة.
(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى.
(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ) وصى به بعضهم بعضاً تعليمًا وإرشادًا، فهذه مرتبة ثالثة.
(وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) صبروا على الحق، ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات
فهذه مرتبة رابعة.

وهذا نهاية الكمال فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملًا لغيره،
وكماله بإصلاح قوته العلمية والعملية فصلاح القوة العلمية بالإيمان وصلاح القوة العملية
بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم
والعمل^(١).

(١) انظر مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٥٦)، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية - بيروت

٤- ترك الكذب لأنه يزور الحقائق ويهدم الثقة، ويفسد التواصل البشري ومصدق ذلك من السنة الشريفة ما روي:

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»^(١)

- وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَا كَانَ خُلُقُ أَبِغَضَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْكَذِبِ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُحَدِّثُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْكَذِبَةِ فَمَا يَزَالُ فِي نَفْسِهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ ﷺ أَخَذَتْ مِنْهَا تَوْبَةً^(٢)

٥- ترك الغش والخديعة في معاملة الخلق فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ مرَّ عَلَى صُبْرَةٍ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟! قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»^(٣).

المطلب الخامس: النهي عن التقاطع والأمر بالإصلاح بين الناس:

لقد نهى الإسلام عن التقاطع الذي هو ضدّ التواصل، وجعله من صفات الفاسقين أي الخارجين عن أمر الله وشرعه فقال عزّ من قائل: {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [البقرة: ٢٦، ٢٧]

وقال سبحانه: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}

[محمد: ٢٢]

(١) صحيح البخاري (٢٢٦١ / ٥) رقم ٥٧٤٣، صحيح مسلم (٢٠١٢ / ٤) رقم ٢٦٠٧

(٢) قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَصَحِيحٌ - سنن الترمذي (٣٤٨ / ٤) رقم ١٩٧٣

(٣) صحيح مسلم (٩٩ / ١) رقم ١٠٢

فلا يجوز قطع العلاقات التي أقامها الله بين الخلق من برّ الوالدين وصلة الرحم والإحسان إلى الجيران وغيرهم ممن يشكلون المحيط الاجتماعي للإنسان إلا بعذر شرعي مقبول.

وفي الحديث الصحيح أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « لَا تَقَاطَعُوا وَلَا تَدَابِرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَكُونُوا إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ »^(١).

والمجتمع المؤمن ينبغي أن يشكل جسداً واحداً يسوده الودّ والعطف والتعاون، ولا يجوز أن تسوده القطيعة والخصومة، فعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى »^(٢)

وقد يعرض في العلاقات الاجتماعية ما يفسدها بين بعض أفراد المجتمع لأسباب مختلفة فكان التوجيه القرآني بالمبادرة إلى الإصلاح بين الأطراف وإشاعة مناخ الودّ والسلام قال تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الحجرات: ١٠]

وقال سبحانه: { لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } [النساء: ١١٤]

ولا شك أن القدرة على الإصلاح بين الناس تحتاج إلى رصيد اجتماعي كبير، بالإضافة إلى مهارات التواصل الفعال لتذويب جليد القطيعة بين المتخاصمين، وترميم جسور التواصل وإعادة العلاقات الودية بينهم إلى مجاريها.

١

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٥) رقم ٢٥٦٣ من حديث أبي هريرة ؓ

(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩) رقم ٢٥٨٥

المطلب السادس: الشورى

اسم مصدرٍ من التَّشاور، والتَّشاور -على صيغة التفاعل- يقع بين اثنين فصاعداً في الأمور المهمة للشخص أو للعائلة أو للمؤسسة صغيرة أو كبيرة، والاستشارة طلب المشورة.

والمشورة تطلب ممن يوثق بعقله وتجربته وإخلاصه، ولذلك تقول العرب: "فلانٌ خَيْرٌ شَيْرٌ"، أي يصلح للمُشاورة. (١)

ولأهمية الشورى فقد أمر الله رسوله الكريم ﷺ بمشاورة أصحابه فقال عز وجل: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: ١٥٩]، فقد أمر الله بها النبي ﷺ، مع أنه أكمل الخلق، فما الظنّ بغيره.

وكذلك فقد أثنى على صنف من عباده المؤمنين ووصفهم بعدة صفاتٍ منها الشورى فقال سبحانه: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [الشورى: ٣٨]

قال الترمذي: وَيُرْوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: « مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ » (٢).

وقد وردت عدّة أخبار في استشارته ﷺ لأصحابه كما حصل في غزوة بدر بالنسبة لموقع الجيش، وفي شأن الأسرى، ومنها أنه لما أراد مصالحة عيينة بن حصن الفزاري حين حاصره الأحزاب في غزوة الخندق على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة ويرجعاً بمن معهما من غطفان عنه، ومنها مشورته لأصحابه في قصّة الإفك، وقد صحّ عنه عليه الصلاة

(١) انظر لسان العرب (٤/ ٤٣٤)

(٢) سنن الترمذي (٤/ ٢١٣) رقم ١٧١٤

والسلام أنّه كان يقول: «أشيروا عليّ» (١).

وبذلك نجد أن الشورى أحد أسباب التواصل مع أهل الرأي والخبرة، سواء كانت المشورة اجتماعية أو اقتصادية أو طبية أو إدارية... وهي مطلوبة شرعاً لأنها تختصر المعارف والتجارب، ولأنّها تُسدّد الفكر وتُصلح العمل وتوفّر الجهد والمال.

ومن جميل ما قيل في الشورى قول بشار بن برد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غصاصة فإن الخوافي قوّة للقوادم

المبحث الثالث

الاحتياج الإنساني للتواصل الاجتماعي

الإنسان اجتماعي بطبعه، يأنس بجنسه، ويستوحش وحده، ومع ذلك فالتواصل ليس ضرباً من الكماليات في حياة الإنسان كما يظن البعض، بل الاحتياج الإنساني إليه أعمّ من ذلك فالتواصل يدخل في الضرورات والحاجيات والتحسينيات.

فهو مفتقر في صغره إلى التربية، وفي شيخوخته إلى الرعاية، وبينهما يحتاج إلى المعلم والمدرّب وأصحاب المهن فضلاً عن الزوج والرفيق وكثير من الأشخاص الذين لا تصلح حياته إلا بوجودهم معه وحوله.

وقد أكّد العلماء على مفهوم الاضطرار الإنساني إلى التواصل، كدليل يعكس الافتقار الذاتي لدى الإنسان، وعدم قدرته على الاستقلال بحياته، وبذلك الافتقار إلى الغير تبطل جميع الادّعاءات بالربوبية ممن زعمها من البشر لنفسه كفرعون والنمرود، وتبطل عقائد من اعتقدها فيهم، أو نسبها إلى من لم يدعها لنفسه كعيسى بن مريم وأمه الصديقة عليهما السلام.

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٧٨٠) رقم ٤٤٧٩

وبذلك الافتقار تتكرّس حقيقة عبوديّة الإنسان لله الغني بذاته عن جميع مخلوقاته.

وفي ذلك يقول الإمام الماورديّ (ت ٤٥٠هـ) في أوّل الكلام عن باب أدب الدُّنيا:

" اَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِنَافِذِ قُدْرَتِهِ وَبَالِغِ حِكْمَتِهِ، خَلَقَ الْخَلْقَ بِتَدْبِيرِهِ وَفَطَرَهُمْ بِتَقْدِيرِهِ، فَكَانَ مِنْ لَطِيفِ مَا دَبَّرَهُ وَبَدِيعِ مَا قَدَّرَهُ، أَنَّهُ خَلَقَهُمْ مُحْتَاجِينَ وَفَطَرَهُمْ عَاجِزِينَ، لِيَكُونَ بِالْغِنَى مُنْفَرِدًا وَبِالْقُدْرَةِ مُحْتَصًا حَتَّى يُشْعِرَنَا بِقُدْرَتِهِ أَنَّهُ خَالِقٌ، وَيُعَلِّمَنَا بِغِنَاهُ أَنَّهُ رَازِقٌ، فَتُذْعِنَ بِطَاعَتِهِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً وَتُقَرَّرَ بِنِقَائِصِنَا عَجْزًا وَحَاجَةً، ثُمَّ جَعَلَ الْإِنْسَانَ أَكْثَرَ حَاجَةً مِنْ جَمِيعِ الْحَيَوَانَ؛ لِأَنَّ مِنَ الْحَيَوَانَ مَا يَسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ عَنِ جَنْسِهِ، وَالْإِنْسَانُ مَطْبُوعٌ عَلَى الْإِفْتِقَارِ إِلَى جَنْسِهِ. " (١).

ويمكن أن نقسّم الاحتياجات الإنسانية إلى:

- ١- الاحتياجات الجسديّة: وتضمّ احتياجات الإنسان إلى الطعام والشراب والمأوى..
- ٢- الاحتياجات النفسيّة: وتشمل احتياجات الإنسان إلى الحنان والاحترام والاستقلال..
- ٣- الاحتياجات العقليّة: وتشمل احتياج الإنسان إلى العلم والمعرفة والتدريب لاكتساب المهارات..

وسوف نتناول هذه الأقسام الثلاثة لندرك أهميّة التواصل في تلبية الاحتياجات الإنسانية، سواء كانت تلك الاحتياجات ضرورةً لبقائه وحفظ نوعه أو حاجةً ملحّةً لصالح حياته واستقرارها، أو تكميلًا له بالارتقاء بإنسانيته إلى أفضل الأحوال الجسدية والنفسية والعقلية.

ومن هنا فلا بدّ للإنسان من التواصل مع الآخرين ضمن دوائر اجتماعيّة تتسع شيئًا فشيئًا بحسب اتساع دوائر الاحتياج لديه.

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ١٥٥)

المطلب الأول: دور التواصل في تلبية الاحتياجات الجسدية:

الإنسان مَطْبُوعٌ عَلَى الْإِفْتِقَارِ إِلَى جَنْسِهِ، وهذه العلاقة اضطرارية كما سبق بيانه، ولذلك عبّر عنه ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) بقوله: "الاجتماع الإنساني ضروريّ ويعبّر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدنيّ بالطبع، أي لا بدّ له من الاجتماع الذي هو المدنيّة في اصطلاحهم وهو معنى العمران " ثمّ يشرح ذلك في كلامٍ في غاية التفصيل - نسوقه لأهمّيّته بطوله-، فيقول:

"وبيانه أنّ الله سبحانه خلق الانسان وركّبه على صورة لا يصحّ حياتها وبقاؤها إلّا بالغذاء، وهده إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله إلّا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفّية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقلّ ما يمكن فرضه وهو قوت يومٍ من الحنطة مثلاً، فلا يحصل إلّا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكلّ واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلّا بصناعات متعدّدة من حدّادٍ ونجّارٍ وفاخوريّ.. وهبّ أنّه يأكله حبّاً من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله أيضاً حبّاً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحبّ من غلاف السنبل، ويحتاج كلّ واحد من هذه آلات متعدّدة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير..، ويستحيل أن تفي بذلك كلّ أو ببعضه قدرة الواحد فلا بدّ من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف. وكذلك يحتاج كلّ واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه لأنّ الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلّها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظّ الإنسان فقدرة الفرس مثلاً أعظم بكثير من قدرة الإنسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته.

ولما كان العدوان طبيعياً في الحيوان جعل لكلّ واحد منها عضواً يختصّ بمدافعتة ما يصل إليه من عادية غيره وجعل للإنسان عوضاً من ذلك كلّ الفكر واليد فاليد مهياة

للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدّة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة، والسيوف النائية عن المخالب الجارحة والتراس النائية عن البشرات الجلّاسية^(١) إلى غير ذلك..^١

فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العُجَم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة، ولا تفي قدرته أيضا باستعمال الآلات المعدة لها فلا بدّ في ذلك كلّ من التعاون عليه بأبناء جنسه، وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركبّه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته، ولا يحصل له أيضا دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات، ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر، وإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة، وتمت حكمة الله في بقاءه وحفظ نوعه، فإذن هذا الاجتماع ضروريّ للنوع الإنسانيّ وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إيّاهم، وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم.^(٢)

وكلام ابن خلدون يُعدّ شرحًا وافيًا لضرورة الاجتماع البشريّ بما يتضمّنه من ضرورة التكامل بين أبناء الجنس البشريّ لتحصيل الاحتياجات الماديّة البشريّة لأنّه مرتبط بمعايش الناس وأرزاقهم ومتطلبات استمرار حياتهم من الطعام والشراب والمسكن والملبس، مما يتطلّب شبكةً من العلاقات الدائمة أو المؤقّته لتحصيل متطلّبات الحياة الماديّة من ماء وغذاء وكساء ودواء وبناء.

وهذا التكامل يقتضي اختلاف الصنائع وتنوّع الحرف، ولا يمكن أن تتكامل هذه الأعمال البشريّة إلّا بعد الاتفاق والتفاهم وهذا لا يتاح إلّا بالتواصل البشريّ بينهم في الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها.. وهذا من حكمة الخالق سبحانه تعالى في خلقه وقد

(١) الصُّلْبَة

(٢) مقدّمة ابن خلدون (١/ص ١٣٧-١٣٨)، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب - دمشق، طبعة

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

بَيْنَهَا فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْمَدُونَ} [الزخرف: ٣٢]

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا} أَي لِيَسْتَعْمَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي حَوَائِجِهِمْ فَيَحْصُلَ بَيْنَهُمْ تَأَلُّفٌ وَتَضَامٌّ يَنْتَظَمُ بِذَلِكَ نِظَامُ الْعَالَمِ^(١).

"قِيلَ: مَعْنَاهُ لِيَسَخَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْأَعْمَالِ، لِحَاجَتِهِمْ هَذَا إِلَى هَذَا، وَهَذَا إِلَى هَذَا."^(٢)

المطلب الثاني: دور التواصل في تلبية الاحتياجات النفسية:

يَمِيلُ الْإِنْسَانُ بِطَبِيعَتِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي فَطَرَهُ اللَّهُ بِأُخْرَى. عَلَيْهَا إِلَى التَّوَاصُلِ مَعَ الْآخَرِينَ، وَإِنْشَاءَ عِلَاقَاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ مَعَهُمْ بِمَا يَتَّحِلُّ لَهُ التَّعْبِيرُ عَنْ نَفْسِهِ، وَيَحَقِّقُ لَهُ ذَاتَهُ، وَيَشْكَلُ أَهَمُّ مَلَامِحِ هَوِيَّتِهِ الْفِكْرِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ..

وَتَعَدُّ الْحَاجَاتُ النَّفْسِيَّةُ مِنَ الْمَحْدَدَاتِ الْهَامَةِ جَدًّا لِلْسُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتِمَّ إِشْبَاعُهَا إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْقِيَامِ بِالِاتِّصَالِ مَعَ الْآخَرِينَ، وَالتَّفَاعُلِ مَعَهُمْ التَّفَاعُلِ الصَّحِيحِ وَالنَّاجِحِ، وَكِفَاءَةِ الْإِتِّصَالِ تَحْدِيدَ مَدَى حَصُولِ الْفَرْدِ عَلَى إِشْبَاعِ كَامِلٍ أَوْ جُزْئِيٍّ لِرَغْبَاتِهِ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ الْإِسْتِقْرَارِ النَّفْسِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ.

وَالْحَاجَاتُ النَّفْسِيَّةُ تَعْتَبَرُ ذَاتَ أَهْمِيَّةٍ كَبِيرَةٍ قَدْ تَفُوقُ أَهْمِيَّةَ الْحَاجَاتِ الْجَسَدِيَّةِ الَّتِي مِنَ الْمُمْكِنِ إِشْبَاعُهَا بِطَرِيقَةٍ أَوْ بِأُخْرَى.

وَالْإِنْسَانُ يَسْعَى دَائِمًا لِتَوْفِيرِ الْحَاجَاتِ النَّفْسِيَّةِ كَالْحُبِّ وَالتَّقْدِيرِ وَالْأَمَانِ وَالْقَبُولِ الْاجْتِمَاعِيِّ عَنْ طَرِيقِ قِيَامِهِ بِالِاتِّصَالِ مَعَ الْآخَرِينَ، وَالْحَصُولِ عَلَى مَا يَرِيدُ بِالْإِعْتِمَادِ عَلَى السُّلُوكِ وَالتَّصَرُّفَاتِ الَّتِي تَصْدُرُ عَنْهُ، وَالَّتِي تُمَثِّلُ رِسَالَتَ إِنْسَانِيَّةٍ تَوْثَّرُ فِي اسْتِجَابَاتِ الْآخَرِينَ

(١) تَفْسِيرُ الْبِيضَاوِيِّ = أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ وَأَسْرَارُ التَّأْوِيلِ (٩٠ / ٥)

(٢) تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ (٧ / ٢٢٦)

لمطالبه بصورة مباشرة أو غير مباشرة، المهم أنّه يعمل جاهدا لكي يحصل على ما يريد ويشعر أنّه في حالة من الاستقرار العاطفيّ والشعور بالأمان والمحبة والقبول الاجتماعيّ.

وتقسم الحاجات النفسيّة الاجتماعيّة إلى:

١- الحاجة للحنان ٢- الحاجة للأمان ٣- الحاجة للاحترام الاجتماعيّ

١. الحاجة إلى الحنان:

الحاجة إلى الحنان حاجة غريزيّة فطريّة تولد مع الإنسان منذ لحظة ميلاده، فالطفل لا يبكي من الجوع فحسب، بل قد يبكي طلباً للحنان الذي يمثّل غذاءً نفسه ودفعاً روحه، ولذلك فالطفل بحاجة لوجود الأمّ معه، يحتاج إلى دفء حضنها لكي يشعر بالحبّ والحنان والاطمئنان.

وبهذا ندرك عظمة التشريع الإسلاميّ في اعطاء الأمّ حقّ الحضانه في السنوات الأولى من حياة الطفل لشدة حاجته إلى أمّه رضاعةً وحناناً.

ومع ذلك فإنّ حاجة الإنسان إلى الحنان لا تنتهي عند سنّ معين، لكنّه في طفولته إليها أحوج، أي أنّ الإنسان طفلاً كان أو شاباً أو شيخاً بحاجة إلى شخص آخر يتبادل معه عمليّة الاتصال والتواصل في حياته اليوميّة بما يشبع حاجته من الحنان..

ومصادر الحنان تختلف وتتنوّع فالأم هي المصدر الأوّل للحنان في حياة الإنسان، ثم الأبّ والإخوة في مراحل نمو الطفل، وتشكّل العائلة الأوسع على نطاق الأقارب ولاسيما الجدّات والأجداد ثم العمومة والخؤولة مصدراً من مصادر الحنان المهمّة.

ولما كان التعليم حاجة إنسانيّة فإنّ خروج الأفراد لطلب العلم شكّل شبكة علاقات اجتماعيّة جديدة تجسّدت في المؤسّسات التعليميّة من رياض الأطفال إلى المدارس والمعاهد والجامعات، ولذلك كان على هذه المؤسّسات أن تنهض بالواجب التربوي لتشكّل مصدراً جديداً للحنان التربوي.

وكذلك مع استقلال الإنسان بحياته بعد الزواج فإنّ كلاً من الزوجين ينتظر من الآخر تواصلًا يُلبّي له احتياجه من الحنان ويعوضه عن الفاقد الأسروي، ولذلك فقد ركّز القرآن الكريم على الجوانب النفسيّة للزواج (السكينة والمودة والرحمة) باعتبارها الجانب الأهمّ في الحياة الزوجيّة قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: ٢١] إنّ عدم تلبية الحاجة النفسيّة للحنان من خلال التواصل الصحيح في التوقيت المناسب سوف ينعكس سلبيًا في حياة الفرد وفي علاقاته الإنسانيّة والاجتماعيّة وطريقة تواصله مع الآخرين لاحقًا..

٢- الحاجة إلى الأمان:

من أهمّ وسائل تحقيق الأمان النفسيّ للفرد شعوره بالانتماء إلى جماعة تُشعره بالطمأنينة وتقدّم له الحماية، فالرغبة الملحة بالانتماء الاجتماعيّ تأتي استجابةً لمشاعر الخوف والقلق وبحثًا عن الحاجة إلى الاستقرار والأمان. وهنا يأتي دور الاتصال الصحيح مع الأسرة والأقارب والجيران والأصدقاء لتأمين شبكة علاقات آمنة ومستقرّة في حياة الفرد.

وفي معظم الحالات يتمّ الجمع بين الحاجة إلى الحنان والحاجة إلى الأمان فيما يُسمى "بالأمان العاطفيّ" وأخطر مراحله هي مرحلة الطفولة المبكرة، ولكي يصل الطفل إلى الأمان العاطفيّ فإنّه يتبادل عمليّة الاتصال في البداية مع الأمّ التي تعتبر المسؤولة الأولى عن توفير هذه الحاجة الأساسيّة والضروريّة، والتي يؤدي عدم إشباعها إلى ظواهر غير عاديّة لدى الطفل من الخوف والانطواء، وعدم القدرة على المواجهة في أي موقف من المواقف الاجتماعيّة ليتسم بالحنبل وضعف الشخصية. وقد تظهر لديه في بعض الأحيان سمات العدوانيّة في التعامل مع الآخرين.

وهذه الحاجة يتعلم الطفل الوصول إليها عبر قيامه بالاتصال والتواصل مع أفراد الأسرة والبيئة المحيطة التي يعيش فيها والتي يؤدي عدم حصول الطفل عليها نتيجة فقدان الأم أو بعده عنها إلى شعوره بعدم الأمان والاستقرار النفسي والهدوء، الأمر الذي ينعكس سلبيًا على قدرته على التعلم واكتساب الخبرات، لأنّ الشعور بعدم الأمان والاستقرار النفسي يجعل الفرد في حالة شرود ذهنيّ، ويحصر تفكيره في موضوع واحد وهو في هذه الحالة عدم الأمان.

ولقد اتفق الكثير من علماء النفس على أن مقدار الأمان العاطفي الذي يحصل عليه الطفل في السنوات الأولى من عمره ينعكس على المدرسة وأساليب سلوكه وتكيفه في الأعمار اللاحقة.

وأكدت الدراسات والأبحاث التي أجريت في هذا المجال على أن الفروق الكبيرة التي تظهر بين شخصيات الأطفال تعود إلى نوعيّة المعاملة العاطفيّة التي يلقيها ويمرّ بها كلّ طفل في طفولته؛ فمثلاً عمليّة حضن الأطفال والتحدّث إليهم تؤدي إلى إنتاج شخصيّة قويّة تتصف بالانفتاح والشجاعة والثقة بالآخرين والتعامل معهم بكرم وسخاء.

بينما يكون الأطفال الذين يعيشون في جوّ غير طبيعيّ يفتقر إلى الدفء مثل الملاجئ غير قادرين على إقامة علاقات عاطفيّة متينة مع الآخرين؛ كما أن لعمليّة الحرمان العاطفيّ وعدم وجود الاتصال الإنسانيّ السليم تأثيره الضار على بعض جوانب النمو الأخرى مثل نوع الحرّيّة العقليّة الضروريّة لحالات الإبداع والتفكير السويّ.

٣- الحاجة إلى الاحترام الاجتماعيّ:

في بعض الأحيان نطلق على هذه الحاجة اسم الحاجة إلى الجاه أو الاستحسان من قبل الآخرين، خصوصًا أثناء التعامل والاتصال معهم الذي يحدث في عموم المراحل العمريّة وفي جميع المجالات؛ لأنّ الفرد بطبيعته كائن اجتماعيّ لا يستطيع العيش بدون التفاعل مع الآخرين والاتصال بهم؛ وأثناء هذه الفعاليات يسعى الفرد إلى الحصول على الاستحسان والقبول وذلك من خلال ما يقوم بإنجازه من أفعال وأعمال لها علاقة مباشرة

مع المجتمع، لأنَّ الإنسان يرغب في أن يشعر بأنَّه في شخصه، وفيما يقوم به من أعمال في موضع استحسان الآخرين.

وهذا الأمر يبدأ في الأسرة ويكون للأبوين الدور الأكبر في تكريس هذا الشعور لدى الطفل، وبانتقال الطفل إلى المدرسة فالمعلم هو المسؤول عن إشباع هذه الحاجة لدى التلاميذ، وهذا يعني أنَّ على المعلمين أن يكونوا على درجة عالية من الوعي والإدراك الكامل لمسؤولياتهم في هذا المجال خصوصاً إذا كان المعلم هو الذي يضع المعايير السلوكية لبقية الأطفال ليسيروا عليها.

ومما يجدر ذكره أن الاحترام الاجتماعيّ يلعب دوراً حاسماً في توجيه الفرد نحو السلوك المقبول اجتماعياً؛ وهو السلوك الذي يعود بالنفع عليه وعلى جميع الأفراد من حوله، من ناحية أخرى فإنَّ الاحترام الاجتماعيّ يشجع الفرد على الانفتاح على المجتمع، والتوسّع في دوائر الاتصال بالآخرين.

إنَّ خسارة الإنسان للاحترام الاجتماعيّ، وفشله في الحصول على تقبّل الآخرين له، ولا سيما أولئك الذين لهم أهميّة خاصة في حياته وفي المجتمع الذي يعيش فيه، غالباً ما يقوده إلى الانحراف السلوكي وأقلّها الخروج عن قواعد اللباقة الاجتماعية.

٤ - الحاجة إلى الاستقلال وتحقيق الذات:

مع أنَّ الإنسان يولد ضمن منظومة العلاقات الاجتماعية الأسرية التي مهمتها أن تقدّم له ما يشبع احتياجاته النفسية والمادية إلا أنَّه مع مرور الوقت يميل إلى الاستقلال، ويشعر بالفخر كلّما استطاع أن يقوم بنشاطاته دون مساعدة أحد، فالطفل يفخر بقدرته على الأكل بنفسه، والمشي بمفرده، وهكذا كلّما نضج فإنّه يصبح أكثر ميلاً للاستقلال عن غيره بهدف تحقيق الذات، وبناء منظومة علاقات جديدة تحقّق له الشعور بالتميّز، لذلك يسعى إلى القيام بما يحقّق له دوراً مركزياً، فيعمل لإيجاد شركة جديدة تحمل اسمه، ويسعى لتكوين أسرة خاصة له، و يعمل على بناء شبكة من الصداقات والمعارف ممن يحترمونه ويعترفون بتميُّزه..

فالنشاطات الإنسانية ترتبط بصورة مباشرة أو غير مباشرة بمفهوم الذات وبمستوى الطموح لدى الفرد، فالتفوق العلمي (ضمن المؤسسة التعليمية أو خارجها) أو النجاح الاقتصادي (الزراعي أو الصناعي أو التجاري) أو الجدارة القيادية في الإدارة (للمؤسسة أو فريق العمل) أو الحضور الاجتماعي الفعال (زعامة، وجاهة..). كلّ هذه الأمور تؤدي إلى اشباع الاحتياج النفسي للإنسان في تحقيق ذاته، وهي مرتبطة مع حاجتنا النفسية الأخرى التي تحدثنا عنها من قبل.

فتحقيق الذات يدفع الإنسان إلى الاتصال بالآخرين ونجاحه لا يتوقف على تحصيله العلمي وتراكم الخبرات المهنية فحسب، بل يعتمد كذلك على كفاءة الاتصال الفعال وعلى مهارات التواصل مع الآخرين.

والفشل في الحصول على تقدير الذات يعني الفشل في عملية الاتصال مع الآخرين في الدوائر الاجتماعية المحيطة بالفرد؛ وهذا الفشل قد يكون سببه عدم قدرة الفرد على التواصل الصحيح مع من حوله من الأفراد، أو قد يكون سببه عدم استعمال الفرد للوسائل والرسائل الصحيحة التي تؤدي إلى تحقيق الأهداف المنشودة أو لأنها لم تكن مناسبة في مثل هذه المواقف.

والخلاصة:

إنّ التواصل الاجتماعي يلبي الاحتياجات النفسية للإنسان من حنان وأمان وتقدير وتحقيق للذات.

في حين يؤثّر ضعف التواصل سلبيًا على الصحة النفسية للإنسان، بما ينعكس على طريقة تفكيره ومواقفه وطبيعة سلوكه

المطلب الثالث: دور التواصل الإنساني في تلبية الاحتياج العقلي للإنسان

لقد وهب الله الإنسان نعمة العقل الذي هو أداة حفظ المعلومات وآلة التفكير، ولكن لما كانت المعلومات هي المادة الخام لعمله، كان لابدّ من الاتصال بالآخرين

للحصول عليها، فالحاجة للتحصيل المعرفي تفرض على الإنسان التواصل مع الآخرين..

١

وفي الحديث: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ» (١).

وفي قصة موسى مع الخضر عليهما السلام أبلغ عظة في ضرورة التواصل في تحصيل العلم وأهمية الصبر على طلبه والأدب مع المعلم..

فهذا نبي كريم من أولي العزم خرج في طلب العلم وصرح بأنه سيمضي في البحث عن معلمه (الخضر عليه السلام) دون كلل مهما قطع من مسافات أو احتاج من وقت في سبيل ذلك {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} [الكهف: ٦٠]

فلما لقيه طلب إليه أن يأذن له بمتابعته ليستفيد من علمه، وقد كان له ما أراد بعد أن شرط عليه الخضر عليه السلام بأن لا يسأل عن شيء حتى يبينه له بنفسه، ثم كان من أمرهما ما قصّه علينا القرآن الكريم.

ووجه الشاهد أنه لو استغنى أحد عن طلب العلم لاستغنى عنه نبي الله موسى عليه السلام.

إذاً لا بدّ لتلبية الاحتياج العقلي من التحصيل العلمي ولا يتحقق الأخير إلا بالتواصل المباشر أو غير المباشر بين الإنسان ومعلميه.

إنّ علمية التواصل لإشباع الاحتياج العلمي تبدأ منذ الطفولة المبكرة حيث يبدأ الطفل بالتعرف على جسده وعلى محيطه وعلى الأشياء من حوله، معتمداً في ذلك على المحيط الأسري، قال الله تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: ٧٨]

تقوم الأم بالتعاون مع الأب وأفراد الأسرة بتقديم متطلبات الطفل المعرفية بالتعرف على أسماء الأشياء وعلى بعض الوظائف الحيوية لجسمه وبعض مهارات الاعتماد على

(١) صحيح البخاري (١ / ٣٧) معلقاً في كتاب العلم باب العلم قبل القول والعمل

الذات كنطقٍ المفردات والجمل، والجلوس والوقوف والمشي والأكل بنفسه وغير ذلك... ومع نمو الدماغ تتطور القدرة على المحاكاة في التصرفات، وتبدأ مرحلة تعلم العادات من المحيط الاجتماعي.

وفي مرحلة جديدة من نمو الدماغ يتطور الاحتياج العقليّ إلى معرفة الأسباب والعلل، وهنا يأتي دور المدارس والجامعات في الإجابة عن التساؤلات الملحة للكائن الإنسانيّ وتقديم إجابات مقنعة تعتمد على التجربة والبرهان.

وعموماً يسهم التباين المعرفيّ بين البشر لتفاوت السنّ (تراكم الخبرات) أو بسبب التخصص العلميّ أو المهنيّ في تعزيز الحاجة للتواصل الإنسانيّ، وبذلك تغدو عملية التحصيل العلميّ حاجة ملّحة لتحقيق الذات وتطوير الواقع.

ومراعاة للتحصيل الأمثل في تلبية الاحتياج المعرفي فقد حثّ الإسلام على طلب العلم والصبر على ذلك، والأدب في طلب العلم، وقد وُضعت في ذلك كتب كثيرة هدفت إلى تحقيق التواصل الفعّال بين المعلّم والمتعلّم منها:

- ١- أخلاق العلماء للأجري.
- ٢- أدب الإماء والاستملاء للسمعاني.
- ٣- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي.
- ٤- الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي.
- ٥- أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح
- ٦- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة.
- ٧- تحرير المقال في آداب وأحكام يحتاج إليها مؤدّب الأطفال / لابن حجر الهيتمي.
- ٨- اللؤلؤ النظيم في روم التعلم والتعليم للشيخ زكريا الأنصاري - رحمه الله
- ٩- الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين، للإمام أبو الحسن القابسي
- ١٠- أدب الطلب ومنتهى الأرب للشوكاني.

وأخيرًا:

لا شك أن تلبية كل هذه الاحتياجات النفسية والعقلية والمادية ستؤدي إلى التواصل بين أفراد المجتمع لتحقيقها، ولكن بنفس الوقت ستؤدي إلى تعارض المصالح وتضاربها بين الناس بسبب التنافس والحرص على المكاسب وحب التملك ونزعة الرياسة وغيرها من الغرائز المركبة في الطبع البشري؛ ولكن التواصل الفعال يضمن للمجتمع الإنساني تحقيق أكبر قدر من النفع العام وأقل قدر من الضرر الخاص.

معادلة القنافذ:

ثمة قصة متداولة تتلخص بوجود مجموعة من القنافذ في غابة شديدة البرودة، مما جعلها تعاني البرد الشديد، فاقتربت من بعضها وتلاصقت طمعًا في شيء من الدفء، لكن أشواكها المدببة آذنتها، فابتعدت عن بعضها، فأوجعها البرد القارس، فاحتارت ما بين ألم الشوك في التلاصق، وعذاب البرد القارس، وبعد سلسلة من عمليات الاقتراب والابتعاد ووجدوا في النهاية، أن الحل الأمثل، هو التقارب المدروس، بحيث تحقق القنافذ أقصى قدر من الدفء والأمان، مع أقل قدر من الألم ووخز الأشواك.

الفصل الثاني

التواصل: عناصره، وشروط نجاحه، وأسباب فشله

المبحث الأول

عناصر عملية التواصل

سوف نحاول في هذا المبحث حصر عناصر التواصل وتمثيلها تمثيلاً يجعلها أقرب ما تكون إلى الواقع الحقيقي لعملية التواصل، ومن ثمّ سوف نحلّل كلّ عنصر من عناصر هذه العملية لنعرف دوره، وأهميته في هذه العملية التواصلية الإنسانية.

المطلب الأول: عملية التواصل

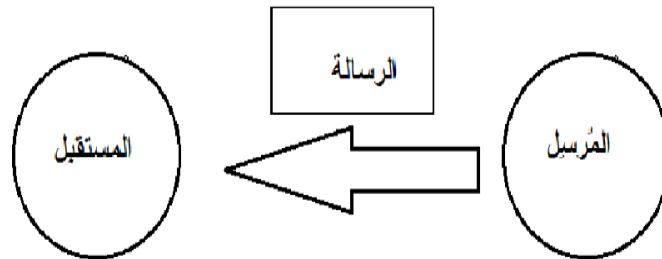
لقد كان الباحثون ينظرون إلى الاتصال - قبل أكثر من نصف قرن - على أنّه رسالة يوجهها شخص إلى آخر؛ بما يشبه إعطاء حقنة دوائية، حيث يقوم المرسل بوضع أفكاره ومشاعره في رسالة، ثم يرسلها من خلال وسيلة معينة (حديث، رسم، كتابة... إلخ) إلى مستقبلٍ يقوم بدوره بتلقيها.

وإذا ما قُدِّرَ للرسالة أن تمضي من المرسل إلى المستقبل من غير عوائق (تشويش)، فإنّه يكون قد كُتِبَ لها النجاح.

ولذلك عبّروا عن عملية التواصل بثلاثة عناصر فقط:

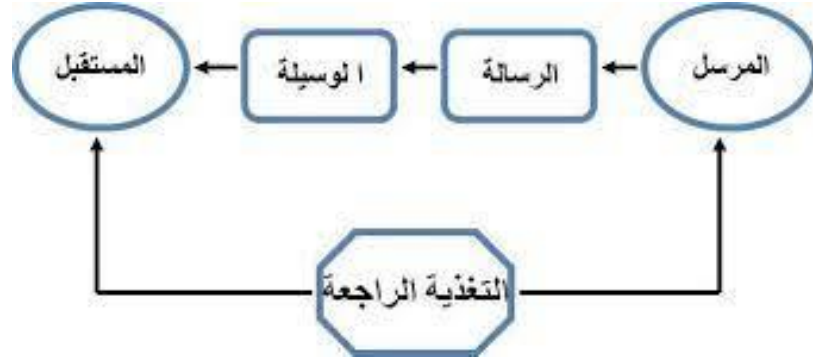
المرسل - الرسالة - المستقبل

ويتم تمثيلها عادة في اتجاه واحد بما يتناسب مع مفهوم الاتصال:



ولكن لاحظ العلماء وجود عنصرين آخرين مهمّين في عملية التواصل وهما:

- قناة الاتصال أو وسيلة الاتصال التي يتمّ عن طريقها إرسال الرسالة.
 - والتغذية الراجعة العكسيّة التي تمثّل ردّة فعل المستقبل أو صدى الرسالة.
- ولذلك تمّ تمثيل عملية التواصل بعناصرها الخمس كما يلي:



إلا أنّ الدراسات الحديثة ذهبت إلى أنّ ثمة عناصر أخرى تدخل في عملية التواصل

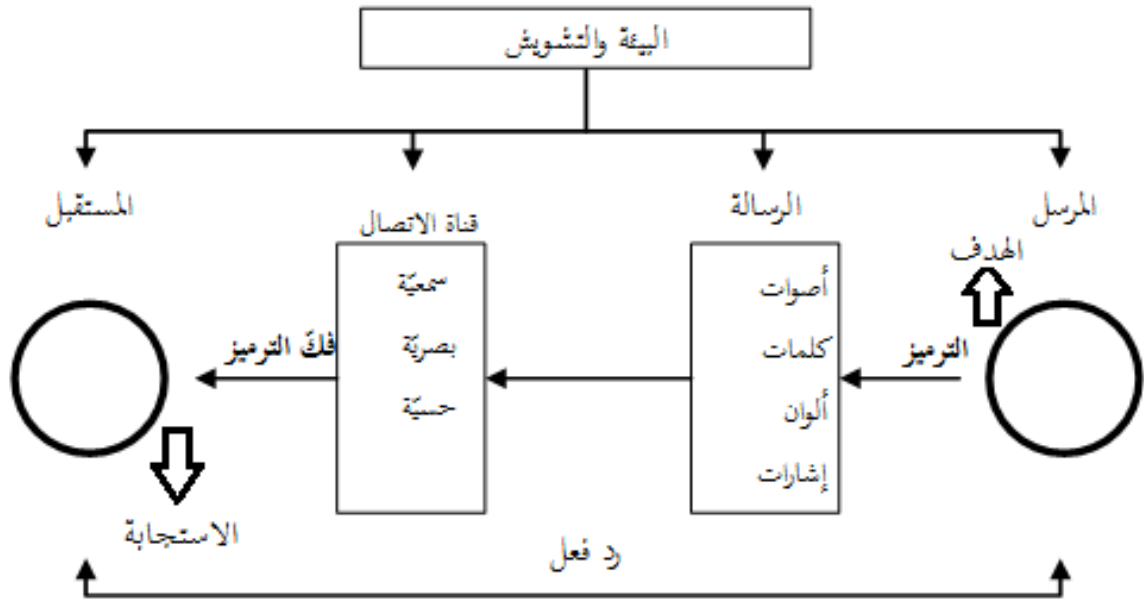
وهي:

- الهدف من الرسالة
 - والاستجابة الناتجة عن الرسالة وهي أعمّ من التغذية الراجعة
 - و بيئة التواصل
 - والتشويش الذي يمكن أن تتعرض له عمليّة التواصل
- وبذلك تتكوّن عملية التواصل من تسعة عناصر وهي:

- | | |
|-----------------|--------------------------------|
| ١- المرسل | ٢- الهدف |
| ٣- الرسالة | ٤- وسيلة أو قناة التواصل |
| ٥- المستقبل | ٦- التغذية الراجعة من المستقبل |
| ٧- بيئة الاتصال | ٨- الاستجابة |
| ٩- التشويش | |

وسوف نمثل جميع هذه العناصر في هذا النموذج الذي يحاكي عمليّة التواصل

الإنسانيّ.



أركان عملية التواصل:

بملاحظة أنّ هدف التواصل وترميز الرسالة يرجعان إلى المرسل وأنّ فكّ الترميز والاستجابة بما فيها التغذية الراجعة العكسيّة ترجع إلى المستقبل. وأنّ قناة الاتصال أو الوسيلة والبيئة ترجع إلى طبيعة الرسالة. وأنّ هذه العناصر الثلاثة لا يمكن أن يتمّ التواصل بها، بملاحظة ذلك كلّ نفهم سرّ التركيز على هذه العناصر الثلاثة، ولماذا كان التمثيل البسيط لعملية التواصل يقتصر على: المرسل والرسالة والمستقبل. ولذلك فسوف نطلق على مجموعها مصطلح أركان التواصل.

المطلب الثاني: تحليل عناصر عملية التواصل

١- المرسل: هو العنصر الأوّل من عناصر عملية الاتصال، وهو مصدر الرسالة التي يترتّب عليها التفاعل في موقف الاتصال.

فمثلاً المعلّم في الموقف التعليمي هو الذي يقوم بصياغة الرسالة أي وضعها في صورة ألفاظ أو رسوم أو رموز بغرض الوصول إلى هدف محدد.

٢- الهدف: لما كان المرسل عاقلاً فإنّ لرسالته غايةً محدّدة في تحقيق هدف معين، لأنّ الرسائل العشوائية المتكررة التي لا تملك بوصلة الهدف تنم عن مشكلة نفسيّة أو

عقلية لدى المرسل.

والهدف قد يكون:

- تعليميًا: بغية إيصال معلومة علمية.
 - أو تربويًا: بغية تعزيز قيمة أخلاقية.
 - أو تدريبيًا: بغية تطوير مهارة سلوكية أو مهنية.
 - أو تسويقيًا: بغية إقناع الآخر بعقد صفقة ما.
 - أو دعائيًا: لجذب الآخر إلى فكرة أو مكان أو شيء ما.
- وقد يجمع الهدف أكثر من غاية في الرسالة الواحدة.

٣- الرسالة: هي المعلومات أو المفاهيم أو المهارات أو القيم أو المشاعر التي تصدر عن المرسل بوعي أو بغير وعي منه إلى المستقبلين، لتحقيق هدف ما أو كردة فعل بغير قصد، وتتم صياغتها باللغة اللفظية، أو غير اللفظية، أو بمزيج من اللغتين وفقًا لطبيعة محتوى الرسالة وطبيعة المستقبلين.

وعليه فالرسالة تقسم إلى: مقصودة وغير مقصودة

أ- الرسالة المقصودة: وهي تمرّ بمرحلتين: (التحضير - الإرسال)

المرحلة الأولى - التحضير: هي مرحلة تصميم الرسالة في ذهن المرسل بما يتوافق مع الهدف من جهة، ومع طبيعة المستقبل وثقافته من جهة أخرى.

والرسالة الناجحة هي التي يتم تحضيرها جيّدًا لتجيب على خمس أسئلة:

أ. ماذا أريد من هذه الرسالة؟ (الغاية)

ب. متى أريد ذلك؟ (الزمان)

ج. أين أريده؟ (المكان)

د. كيف أريد أن يتحقق؟ (التصور)

هـ. لماذا أريده؟ (الهدف)

مثال: مدرّس مادة التجويد في المدرسة في محاضرة- الإدغام بلا غنة - يوجّه رسالة تعليميّة تدريبيّة لطلابه

الغاية: اتقان الطلاب تلاوة القرآن الكريم

الزمان: وقت الدرس وفق برنامج الدوام

المكان: القاعة الصفيّة في المدرسة

التصوّر: القاعدة التجديدية مع مثالين عن الإدغام بلا غنة مع تكرار كلّ مثال ثلاث مرات.

الهدف: تحقيق تقدّم ملحوظ في تعلّم الطلاب حكم الإدغام بلا غنة والتدرّب على أدائه.

مثال آخر: رسالة تهنئة نصيّة إلى صديق بمناسبة زواجه بواسطة الجوال

غايتي: تعزيز علاقة الصداقة

الزمان: اليوم مساءً

المكان: في منزلي

التصوّر: أبدأ بالتحية ثمّ بالتهنئة ممزوجةً بمشاعر الفرح، ثم أختم بالدعاء لهما بالسعادة والذريّة الصالحة.

الهدف: أداء واجب شرعيّ واجتماعيّ

المرحلة الثانية- الإرسال: وهي مرحلة تنفيذ عملية نقل الرسالة من ذهن المرسل إلى الخارج أي تنفيذ ما سبق تحضيره.

وتحتاج الرسالة المقصودة إلى أمرين: الترميز - مرونة التعديل

١- الترميز: تبدأ مع بداية مرحلة الإرسال عمليّة تشفير الأفكار والمفاهيم المجردة في ذهن المرسل إلى لغة الرسالة لفظيّة كانت أو غير لفظيّة.

والترميز: هو التشفير كما يرد في بعض المراجع، ويعدّ ضرورة من ضرورات علميّة التواصل، لأنّ الأفكار والمشاعر والقيم المجردة لا يمكن نقلها مباشرة إلا بعد ترميزها أو تشفيرها إلى لغة مفهومة لدى المتلقي الذي يعيد بدوره تفكيك الترميز اللفظي أو غير اللفظي لتصل إلى ذهنه رسالة المرسل بما تحمله من المفاهيم والأفكار والمشاعر...

ولذلك فإنّ مهارات الترميز وفكّ الترميز تعدّ من أهم عوامل الفاعليّة في عمليات التواصل، وتتمثّل في حسن البيان وحسن الفهم، وهذا يتجلى في اتقان المهارات اللغويّة سواءً كانت منطوقة أو مكتوبة، وفي الإشارات والتعابير الجسديّة وهو ما سوف يعالجه الفصل الثالث من هذا المقرر.

٢- مرونة التعديل: قد يحتاج المرسل إلى التعديل في الرسالة المصممة وفقاً للموقف الاتصالي، بما يضمن تواصلاً أكثر فاعليّة، ولهذا يجب أن يمتلك المرونة الكافية لتعديل تصميم الرسالة بما يتناسب مع الظروف والأشخاص.

مثال: أعدّ خطيب الجمعة خطبةً مصمّمة مدّة زمنيّة تساوي ١٥ دقيقة، ولكن مع بداية الخطبة انقطعت الكهرباء في يوم شديد الحرارة دون توفّر بدائل للطاقة الكهربائية، فالواجب يقتضي أن يستجيب الخطيب للظروف الجديدة بتعديل تصميم الرسالة (خطبة الجمعة) إلى فكرة رئيسة واحدة مختصرة الوقت بما يتناسب مع الموقف الجديد.

مثال آخر: طرق باب جاره الجديد فلم يفتح له الباب، بعد قليل خرج جاره فتوجّه إليه ليعاتبه بشدة، لكنه اكتشف بعد لحظات أنّ جاره أصمّ لا يسمع، فعليه أن يُعدّل تصميم الرسالة من العتب مع الغضب إلى الترحيب والتودّد، وأن يُعدّل طريقة الترميز من الكلام إلى الإشارة أو الكتابة..

ب- الرسالة غير المقصودة: وهي التي تصدر من المرسل دون وعي منه، ودون هدف، فلا يدرك ما يصدر عنه من رموز لفظيّة كعبارات تُفُلت منه في لحظات فرح أو حزن أو غضب.. أو غير لفظيّة كتعبيرات الوجه أو إشارات الجسد، أو طبقة الصوت ونحوها...

وبناءً على وجود القصد وعدمه فإننا أمام أربع حالات:

١- قد يرسل شخصٌ إلى آخر رسالة بقصد ويستقبلها الآخر بقصد، وبالتالي فإنّ الاتصال يكون غالباً مؤثراً.

٢- وقد يرسل شخصٌ رسالة بدون قصدٍ لآخرٍ يستقبلها عن قصد كمن يتنصت على محادثة خاصة بين اثنين.

٣- وقد يُرسل شخصٌ رسالة عن قصد إلى آخر غير منته لها فلا يتفاعل معها.

٤- وقد يرسل شخصان رسائل ويستقبلانها دون قصد منهما بذلك، ويتمثل هذا بشكل كبير في الرسائل غير اللفظية كنوع ملابسنا ولونها ومظهرنا العام وتعابير وجوهنا.

٤ - **قناة الاتصال أو الوسيلة:** لما كانت الرسالة لا تنتقل إلا بوسيلة سمعية أو بصرية أو حسية كالنطق أو الكتابة أو الإشارة، فقد تمت إضافة عنصر جديد هو وسيلة التواصل أو قناة التواصل: وهي الأداة التي تحمل الرسالة من المرسل إلى المستقبل.

وتختلف القناة باختلاف نوع التواصل، فقد تكون القناة:

١- سمعية فقط: تعتمد على الترميز الصوتي الذي ينتقل إلى سمع المستقبل

٢- أو بصرية فقط: تعتمد على الترميز الصوري (كتابة- رسم - ألوان- إشارات) الذي يتم التقاطها بعين المستقبل

٣- أو سمعية وبصرية: تجمع بين الترميز الصوتي والرمز الصوري

٤- أو حسية: تعتمد على اللمس أو الشم أو التذوق، وقد تشترك مع السمعية أو مع البصرية أو معهما جميعاً.. وذلك كمن يشم رائحة طيبة تنبعث من قارورة عطرٍ وُضعت خلفها لوحة تحمل صورةً لنوع من الزهور، في الوقت الذي يسمع صوت صاحب المحلّ يُسمي له العطر والوردة استخلص منها عطر القارورة.

ففي هذا المثال: رسائل صاحب محل العطر: اتخذت قناة شمية بصرية سمعية.

ولكلّ قناة وسائطها من دماغ المرسل إلى دماغ المستقبل، فعلى سبيل المثال: القناة

السمعية في الاتصال الشخصي المباشر تتألف من الوسائط التالية:

١- حنجرة المرسل ٢- الوسط الهوائي الناقل ٣- أذن المستقبل.

ولكن عندما يكون الاتصال غير مباشر سوف نُضيف وسائط جديدة مثل الهاتف أو مكبر الصوت، أو مسجل الصوت، وقد يكون الوسيط إنساناً آخر يسمع الكلام ثم ينقله..

وتعدّ الحواس الخمس مع بعض أعضاء الجسد أهمّ وسائط القنوات الناقلة للرسالة في عملية الاتصال، أمّا الأجهزة كالمكبرات والمجهرات والإذاعات والتلفاز والانترنت.. فإنّها تلعب دوراً مساعداً في زيادة مساحة الاتصال...

٥- المستقبل: هو من يتلقى الرسالة سواء كان فرداً أو مجموعة أشخاص.

ودور المستقبل يتمثل في فك رموز الرسالة وفهم محتواها، لكن إذا توقفت عملية الاتصال عند هذا الحدّ أي بوصول الرسالة إلى المستقبل، دون تفاعلٍ مع استجابته للرسالة، فنحن نقف عند النموذج التقليدي للاتصال الذي يقوم على التلقين فقط بقطع النظر عن ردّة فعل المستقبل تجاه الرسالة..

وتصبح المسألة أشبه بقراءة كتاب لمؤلف ميتٍ، لا يمكن أن تسأله عن أيّة معلومة مما كتب، ولا تقدر على انتقاده، ولا تستطيع أن توجه له ملاحظة..

أمّا النموذج الحديث فيراعي أثر الرسالة في المستقبل لأنّ الرسالة عندما تصل إلى المستقبل أو المتلقي ويحلّ رموزها فإنّها سوف تحدث لديه استجابة ما.. تُعبّر عن موقفه مما فهمه من الرسالة الواردة إليه، هذه الاستجابة سوف ترجع إلى المرسل برسالة أخرى تسمى التغذية الراجعة وهي عنصر جديد مهم في عملية التواصل.

٦- الاستجابة: تمثّل موقف المستقبل من الرسالة أو من المرسل أو من عملية الاتصال ككل، وهي تحدّد درجة قبول الرسالة أو رفضها، كما تكشف عن فعالية التواصل من خلال سرعة الاستجابة وبطئها.

والاستجابة من المستقبل تقابل الهدف من المرسل، وغالبا ما يتم تقييم عملية

التواصل بقياس استجابة المستقبل على هدف المرسل.

والاستجابة تظهر بنفسها أحياناً أو بما يدلّ عليها، تظهر بنفسها في المجالات السلوكيّة العمليّة، فإذا كان الهدف من الرسالة تحفيز المستقبل على الصدقة لصالح جمعية خيريّة فبادر إلى ذلك فهذا يعني قبول الرسالة.

ولكن قد يكون الهدف ترفيهيّاً، كرسالة تتضمن فكاهة ما، في هذه الحالة لا يستطيع المرسل أن يعرف حقيقة الاستجابة عند المستقبل، ولكنه قد يرى أثرها بابتسامة أو ضحكة.

وكذلك قد يكون الهدف توجيهيّاً في رسالة وعظيّة تنهى عن الغيبة مثلاً، في هذه الحالة لا نستطيع تقييم الاستجابة لدى المتلقي لأنّ الاستجابة ستظهر في مواقف لاحقة تكشف مدى قناعته وتقبله لهذه الموعظة، ولكن يمكن أن نرى أثر الموعظة في وجه المتلقي وفي إيماءات رأسه بالموافقة على مضمون الرسالة.

ولذلك فإنّ الاستجابة يمكن أن تمثل التغذية الراجعة بنفسها أو بأثرها أو بكليهما معاً.

٧- التغذية الراجعة: وهي الترجمة الحرفيّة (feedback) ويطلق عليها مصطلح (رجع الصدى)، وتمثل ردّة فعل المستقبل على رسالة المرسل.

وكما أسلفنا فإنّ استجابة المستقبل مرتبطةٌ بأمرين: بالفهم الصحيح للرسالة وبالموقف من المرسل، لذلك تختلف الاستجابة بحسب المستقبل:

- فمنهم من يفهم الرسالة ويقبلها
- ومنهم من يفهم الرسالة ويرفضها
- ومنهم من يقبل الرسالة دون فهم
- ومنهم من يرفض الرسالة دون فهم

وبكلّ الأحوال سوف يقوم المستقبل بعد وصول الرسالة بالتأثر بها برّدّة فعلٍ ما، بحيث يصبح المستقبل مُرسلاً فيقوم بنفس عمل المرسل من خلال تحويل الاستجابة العقلية

أو النفسية إلى رسالة يتم ترميزها بلغة مناسبة لفظية أو غير لفظية، ثم يُعيد لها إلى من أرسل إليه الرسالة، فيصبح المرسل هنا مستقبلًا..

تمثل التغذية الراجعة التفاعل والاستمرارية بين عناصر الاتصال، وتجعل عملية الاتصال دائرية حيوية ومستمرة، وللتغذية الراجعة فائدة كبيرة في الموقف التواصلية التربوي أو التعليمي.

وتختلف المدة الزمنية لرجع الصدى (feedback) بين أنواع الاتصال، ففي الاتصال الشخصي تكون التغذية الراجعة مباشرة وواضحة، ويمكن للمرسل الأول أن يحظى بها مباشرة خلال عملية الاتصال، أما في الاتصال الجماهيري عن طريق الراديو أو التلفاز فرجع الصدى يكون متأخرًا، ولا يتم أثناء عملية الاتصال ويكون مؤجلًا لفترة من الزمن.

ولكن غياب عنصر رجع الصدى في عدد من الاتصال الجماهيري لا يعني عدم وجوده أو عدم أهميته، فمع تطور التقنيات في حياتنا واختراع الانترنت والهاتف زادت سرعة رجع الصدى في الاتصال الجماهيري بحيث أصبح يمكن للمتلقي عرض وجهة نظره من خلال الهاتف أو غيره أثناء عملية الاتصال الجماهيري.

وقد يكون رجع الصدى (feedback) إما إيجابيًا أو سلبيًا، فرجع الصدى الإيجابي يعبر عن تأييد المتلقي للمرسل وإعجابه به، وهو يعتبر دعم وتأييد للمرسل سواء كان عن طريق الاتصال اللفظي بقول ذلك، أو عن طريق الاتصال الغير لفظي من إيماء الرأس والابتسام أثناء عملية الاتصال، أما النوع الآخر وهو رجع الصدى السلبي فهو العكس تمامًا، فالمتلقي يكون معارض للمرسل وغير مؤيد له، ويظهر له الإعراض والإنكار.

٨ - بيئة الاتصال: ولما كانت عملية التواصل لا تحدث في الفراغ وإنما في بيئة معينة كالمدرسة أو الأسرة أو الجامعة أو المسجد، ولكل بيئة خصائص محددة يجب مراعاتها للوصول إلى الاتصال الفعال فإنه يمكن أن نضيف البيئة كعنصر من عناصر الاتصال. وعليه يمكن أن نعرف بيئة الاتصال بأنها الظروف الزمانية والمكانية مع مراعاة

الظروف الاجتماعية، السياسية والثقافية، التي تتم فيها العملية الاتصالية.

والحكمة تقتضي أن يختلف الأسلوب باختلاف بيئة التواصل، ولا يمكن أن يكون الأسلوب واحدًا في هذه البيئات المختلفة:

- ❖ اجتماع عمل
- ❖ محادثة مع صديق
- ❖ مهمّة تعليم
- ❖ جلسة تدريب
- ❖ جلسة خاصة مع بعض الزملاء
- ❖ لقاء عام

والأمثلة الآتية تنبّه على تأثير بيئة الاتصال في الاتصال:

- فالاتصال بين المدير وموظفيه داخل أوقات الدوام يختلف عنه خارج أوقات الدوام
- وعلاقة المعلم مع الطالب في المدرسة تختلف عنها خارج المدرسة أو في الأسرة على فرض المعلم أحد أقارب الطالب.
- وبيئة الاتصال هي التي تجعل الخطاب الديني الموجه للمؤمنين في المسجد، مختلفًا عن الخطاب الديني الموجه للمشكّكين خارج المسجد.
- وهي التي تجعل مناقشة قصّة مسرحيّة أو قصيدة غزليّة مع إنسانٍ فقد عزيزًا منذ وقت قريب في غاية السماحة.

٩- التشويش: هو أيّ عائق يمنع وصول الرسالة إلى المتلقّي أو يؤثر على وصولها كاملةً إليه سواءً كان هذا العائق حسيًا أو دلائليًا.

والتشويش قد يكون:

- داخليًا ناتجًا عن أحد عناصر عمليّة الاتصال كالتشويش الناتج عن قناة الاتصال أو عن البيئة أو عن المستقبل..

- أو خارجيًا ناجيًا عن تدخل عنصر مفاجئ في عملية التواصل، كمرور قطار أو طائرة أو انقطاع الصوت أثناء البث، أو ضعف شبكة الانترنت..

وأصل فكرة إدخال التشويش كعامل مهم في عملية التواصل بدأت بملاحظة المشاكل الفنية لقنوات الاتصال مثل التشويش الصوتي الناتج عن خطوط شبكات الهاتف السلكية، والتشويش في صورة التلفاز الناتج عن خلل في اللاقط أو في أجهزة تقوية الإشارة.

ولكن تبين لاحقًا أن جميع عناصر الاتصال يمكن أن تكون سببًا في التشويش، وممانعة التواصل الفعال.

والسؤال الذي يطرح نفسه، إذا كان التشويش يمانع التواصل، بل هو مسؤول عن إعاقته، فلماذا نعدّه عنصرًا من عناصره؟

والحقيقة أنّ التشويش ليس عنصرًا مساعدًا في التواصل، بل التشويش يمثل الإعاقات التي تواجه عملية التواصل وتحدّ من فعاليتها، ومع ذلك فالتشويش مُنتشر في بنية عملية التواصل في جميع عناصرها ومفاصلها.

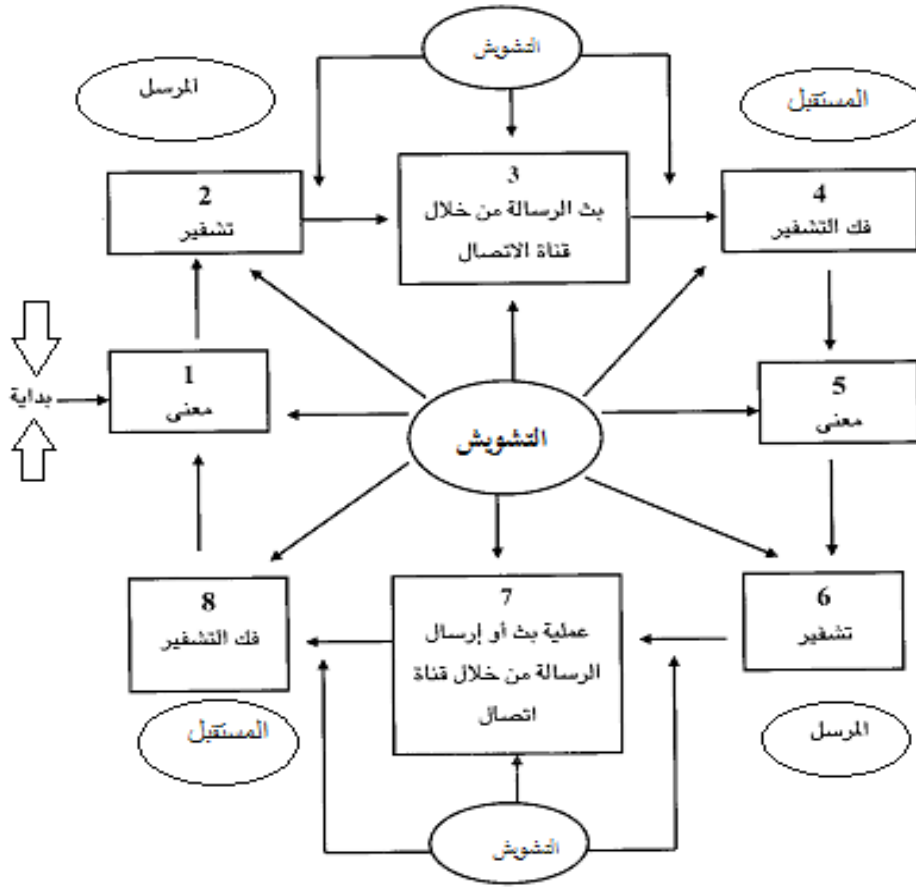
فالتشويش يمكن أن يحضر في هدف المرسل وفي أفكار سالتة وفي طريقة ترميزه اللفظي أو غير اللفظي وفي مشاكل نطقه أو ضعف التعبير بالإشارة وغيرها أو في قناة الاتصال وتجهيزاتها أو في بيئة الاتصال أو في سمع المستقبل أو بصره أو في طريقة فكّه للترميز وفهمه له أو طريقة استجابته، ثمّ يتكرر الأمر في التغذية الراجعة العكسية.

وعليه يصحّ أن يقال أنّه ليس عنصرًا مستقلًا وبالوقت نفسه ليس عنصرًا مساعدًا ولكنه ممكن أن يحضر في كلّ مرحلة من مراحل الاتصال ويظهر في أي عنصر من عناصره.

ولذلك فالأصحّ أن نعدّ التشويش مُعاملًا عكسيًا لكفاءة الاتصال أو لفاعلية التواصل، بانخفاضه تزداد كفاءة الاتصال وفاعليته، وبزيادته تنخفض الكفاءة والفاعلية.

ولذلك فإنّ القيمة الرقمية المثالية لمعامل التشويش في التواصل الفعّال النموذجي مساوية للصفر.

وتتركز جهود الخبراء والمهندسين والفنيين وجميع الباحثين في مجال التواصل الإنساني وتقائته على تطوير الأدوات والأساليب التي تسهم في تخفيض احتمالية وجود التشويش، وفي انقاص قيمته الإجمالية إلى أخفض قيمة ممكنة.



نموذج متكامل لعملية التواصل

وأخيراً يمكن أن نقسم التشويش إلى طبيعي ومصطنع، فالتشويش الطبيعي ما نتج عن طبيعة عناصر الاتصال وظروف الاتصال وتجهيزاته، والمصطنع ما افتعله من يرغب في منع التواصل بين أطراف الاتصال، وقد يكون من أحد أطراف الاتصال أنفسهم.

المطلب الثالث: التواصل في التحصيل العلمي والمهني:

لابدّ لتلبية الاحتياج العقليّ من التعليم والتدريب وهما بحاجة إلى التواصل بغرض التحصيل العلميّ والمهنيّ؛ ويقسم هذا التواصل إلى قسمين: مباشر وغير مباشر

أ- التواصل المباشر: وله أنواع:

١- **التواصل البصريّ:** وصورته أن يقوم المعلّم أو المدرّب بأداء مهارة ما، ثمّ يطلب من المتعلّم أو المتدرّب تكرارها، ويستعمل في تربية المهارات العمليّة كحرف البناء من عمارة وبلاط ونجارة..، وحرف الزراعة من فلاحة وبذار أو غرس وحصاد..، وكمهارة الصيد وغيرها من المهارات التي تعتمد على المراقبة البصريّة والتدريب تحت نظر المعلّم..

٢- **التواصل السمعيّ:** وصورته بأن يقرأ المعلّم ويسمع الطالب، ثمّ يعيد الطالب ويسمع المعلّم ويصحّح له، وهذه الطريقة تُعرف بالمشافهة، وهي الطريقة المستعملة في تعليم تلاوة القرآن الكريم وتحفيظه، وفي مجالس رواية الحديث الشريف؛ ولكن غالبًا ما يقرأ الشيخ ويسمع الطالب فيصحّح نسخته على نسخة الشيخ، أو يقرأ أحد الطلاب من نسخته أو من نسخة كتاب الشيخ والشيخ يصحّح له..

٣- **التواصل السمعيّ البصريّ:** صورته أن يقوم المعلم بشرح قاعدة نحويّة ثمّ يقوم بكتابة مثالٍ على اللّوح وإعرابه، أو يشرح قاعدة في الرياضيات ثمّ يقوم بحلّ مسألة تطبيقية، ثمّ يطلب من الطالب أن يعيد الشرح ويُعرب على اللّوح عبارةً أخرى مشابهة أو يحلّ مسألة أخرى مُقاربة.. وهذا هو النمط الحديث في التعليم لأنّه يزيد نسبة التواصل بين الطالب والمعلّم.

ب- التواصل غير المباشر

١- **التواصل بالمراسلة:** بأنّ يؤلّف كتابًا علميًّا أو كتابًا أدبيًّا أو ديوانًا شعريًّا أو أن يكتب بحثًا أو مقالةً، ثم يرسله إلى شخصٍ أو جهةٍ أكثر تخصصًا لإبداء الرأي وكتابة الملحوظات، فيقوم المرسل إليه بقراءة الرسالة (كتابًا أو بحثًا أو مقالًا...) ويدوّن

ملحوظاته ويرسلها إلى المرسل، لترجع إلى الكاتب أو الباحث ليستفيد من إرشادات وملحوظات النقاد في إعادة بناء منتجه الأدبي أو العلمي.. وهذه الطريقة المتبعة في مجالات البحث العلمي في تحكيم الأبحاث العلمية، مع مراعاة السريّة في معرفة اسم صاحب البحث وأسماء لجان التقييم ليكون التحكيم أكثر حياديّة ونزاهة..

٢- التواصل بواسطة التفاعل الإلكتروني: من خلال وسائل التواصل الحديثة، كالتفاعل مع الدروس العلميّة ومقاطع الفيديو التعليميّة، حيث يقوم الناشر برفع مقالته أو محاضراته على النت، ويقوم المتلقي بالاطلاع عليها، ويُتاح له تسجيل تقييمه أو تعليقه عليها بما يُسهم في تحسين مستوى التواصل العلمي بين المعلّم والمتعلّم.

٣- التواصل بواسطة الاختبارات والتقييمات الورقيّة أو الإلكترونيّة: غالباً تتبع هذه الطريقة في أساليب التعليم المفتوح أو التعليم الحرّ حيث يطلع الطالب على المقررات ثمّ يقدم الاختبار الورقيّ أو الإلكترونيّ عبر نوافذ معتمدة من الهيئات والمؤسّسات التعليمية، ومثالها اختبارات اللّغة الإنكليزيّة TOEFL واختبارات قيادة الحاسوب ICDL.

المبحث الثاني

شروط نجاح التواصل

تحدّثنا في المبحث السابق عن عناصر التواصل وموقعها من هذه العلميّة الإنسانيّة المعقّدة، وذكرنا أن التشويش يمثّل معامل رداءة الاتصال، وأنّ واجبنا يتمثّل في تخفيض قيمة معامل التشويش، وهذا يتطلّب منا فهمًا دقيقًا لشروط نجاح التواصل العامة والخاصة بكلّ عنصر من عناصر الاتصال.

المطلب الأوّل - الشرط العام لنجاح التواصل:

لا يمكن أن يتكلّل التواصل الإنسانيّ بالنجاح إلا إذا كان واضحًا من منطلقه إلى مستقرّه.

ولذلك يمكننا أن نقول أنّ الشرط العام لنجاح التواصل هو **الوضوح**.

والوضوح لا يحتاج إلى توضيح، فهو الشفافية التامة ما بين المرسل والمستقبل، بحيث تصل الأفكار والمشاعر كما هي دون زيادة أو نقص.

وعليه فإنّ جميع الإشكالات التي قد يتعرض لها التواصل، والتيسمات: على جودة الاتصال وكفاءة التواصل والتي غالبًا ما تتسبب في رسالة خاطئة أو استجابات خاطئة إنّما ترجع إلى **معامل التشويش** الذي ينعكس بآثره السلبي على الوضوح وجودته.

ولن يتحقق شرط الوضوح في عملية التواصل إلا إذا بتوفر ثلاث سمات:

١ - منطقيّة التفكير

٢ - السلامة من الخلل

٣ - الانسجام بين الهدف ومضمون الرسالة

١ - منطقيّة التفكير:

أي اعتماد أنساق فكرية تضمن ارتباطاً علمياً بين المقدمات والنتائج للوصول إلى هدف المرسل بما يسهم في وضوح الأفكار، وتجنّب الوقوع في المغالطات الفكرية. فالمنطقية سمة فكرية تضمن سلامة إعداد الرسالة وتسهم في حسن عرضها، وهذا يتطلب ما يلي:

١ - الترتيب المنطقي في عرض الرسالة، لأنّ تأخير ما يستحقّ التقديم، وتأخير ما حقّه التقديم قد يعرّض المرسل إلى مقاطعة المستقبل أو جمهور المستقبلين بما يؤدي إلى زيادة التشويش في عملية التواصل وقد ينتهي بها إلى الفشل.

٢ - التوافق المنطقي بين مقدمات الرسالة ونتائجها، لأنّ عدم التوافق يحول الرسالة إلى مغالطة فكرية مموجة.

٣ - وحدة التوافق، فالتطرّق إلى مواضيع ثانوية أثناء عرض الرسالة يؤدي إلى شتات ذهني لدى المستقبل.

٤- التوافق بين الكلام ولغة الجسد، لأنَّ الاختلاف بينهما يؤدي إلى تناقض الرسالتين.
فمثلاً **التوافق**: كأن يقول: فلان رجل طويل ويمدُّ يده إلى الأعلى فوق رأسه
(رسالة متوافقة).

والتخالف أن يقول: فلان رجل طويل ويشير بيده نحو الأسفل (رسالة محيرة)،
لأنَّ التناقض إمّا وقع غلطاً، أو قصداً، فإن كان التخالف بالغلط فلا مرجح بين الدلتين
اللفظية والجسدية

وإن كانت التخالف بينهما مقصودا: فيكون على سبيل التهكم بالقصر. ولا يمكن
أن نعرف ذلك إلا بمراعاة سياق الكلام.

٢- السلامة من الخلل:

التواصل عملية متكاملة، ولذلك فإنَّ وجود خلل ما في أية مرحلة من مراحلها
سوف ينعكس على وضوحها، ويزيد في معامل التشويش؛ ولذلك يجب أن نتأكد سلامة
علمية التواصل بمراعاة الأمور التالية:

أ- سلامة الإرسال: للإرسال طرائق مختلفة بحسب طبيعة الرسالة

- فإذا كانت الرسالة صوتية وجب على المرسل أن يراعي فيها سلامة النطق من حيث
مخارج الحروف والحركات الإعرابية وحسن اختيار الكلمة القريبة للفهم.
- وإذا كانت الرسالة كتابية وجب على المرسل الكتابة بشكل صحيح متوافق مع قواعد
الإملاء، مع ضبط ما يلزم ضبطه من الحروف، كما يجب عليه أن يراعي علامات
الترقيم لكيلا تختلط الجمل والمعاني، وعليه تحسين الخط لتسهيل قراءة الرسالة.
- وإذا كانت الرسالة غير لفظية يجب اختيار التعبير المناسب للحالة، فالتعبير بالابتسامة
لا يتوافق مع رسالة الرفض أو الانزعاج.

ب- سلامة قناة التواصل: يجب أن يُراعى فيها:

- اختيار قناة التواصل المناسبة لتحقيق الغرض من التواصل، فمكبرات الصوت مهمة في
القاعات الكبيرة، أو في الجموع الغفيرة، ولكنها مزعجة في الأماكن الضيقة والأعداد

القليلة، والاتصال بالهاتف الجوال قد يكون أوضح من الهاتف الأرضي، وهذا الأخير قد يكون أوضح من الاتصال من خلال الانترنت في شبكة ضعيفة..

- الانتباه إلى التشويش الناتج عن قناة الاتصال نفسها، إمّا لسوء صنعتها، أو لخلل خارجي قد يطرأ أثناء استعمالها، مما يعيق التواصل ويتسبب بعدم وصوله إلى الغاية المرجوة منه.

مثاله في الأدوات الكتابية: سوء صناعة القلم الذي قد يؤدي إلى تداخل حروف الكتابة، أو سوء صناعة الورق بإنقاص كثافة المادة مما يجعل الورقة تشفّ عن الكتابة في الوجه الآخر للصحيفة، مما يؤدي إلى تشويش في القراءة حال الكتابة على الوجهين معاً، ومثاله في الأدوات الصوتية: وجود صفير في جهاز مكبر الصوت، أو وجود طنين وتشويش في جهاز الهاتف مما يجعل الكلمات المرسلّة متقطّعة وغير متكاملة بما يشوش على السماع.

ت- سلامة الاستقبال:

الاستقبال جزء مهمّ من عمليّة التواصل، وسلامة أعضاء الاستقبال المتمثلة بالحواس الخمس في غاية الأهمية

- ففي الرسائل الصوتيّة يجب أن نتحقّق من قدرة المستقبل على السّماع الجيّد، وفي حال معرفة المرسل بوجود مشكلة سمعيّة لدى المستقبل يجب تداركها في الإرسال أو في اختيار وسيلة التواصل المناسبة.

- وفي الرسائل المرئيّة يجب أن ننتبه أيضاً إلى سلامة بصر المستقبل، وإن كان لديه مشكلة بصريّة فما هي الحلول المتوفرة لدى المستقبل؟ أو ما هي الخيارات التي يجب اعتمادها من المرسل في حال وجود مشكلة استقبال بصرية؟.

- وفي الرسائل الحسيّة الأخرى التي تعتمد على اللمس أو الشم أو الذوق لا بدّ من سلامة الحواس وإلا فشلت عمليّة الاستقبال، وبالتالي لن نحصل على تواصل صحيح.

٣- الانسجام بين الهدف ومضمون الرسالة:

الهدف هو المحرك الأساسي لعملية التواصل، والرسالة لابد أن تسير في الاتجاه الصحيح الذي يلي الغاية من إرسالها، ويتحقق ذلك بتوافق مضمون الرسالة مع الهدف المنشود من عملية التواصل، لأن الاختلاف بينهما سيؤدي إلى استجابة سلبية.

فمثلاً إذا كان الهدف (الاحتواء النفسي)، فيجب أن تركز الرسالة على إيجابيات المستقبل وميزاته، وأن تعمل على فتح نوافذ الأمل لديه، ليتمكن من تجاوز إخفاقاته، أما أن يعمد المرسل إلى أسلوب اللوم وكلمات التقرير أو أن تكون الرسالة ضرباً من النقد اللاذع فهذا سيضعف المشكلة لدى المتلقي.

ولذا يجب أن يميز المرسل بين التواصل بهدف الاحتواء النفسي، وبين التواصل بغاية النصح أو التقييم فلكل أوقاته المناسبة وظروفه الخاصة.

ومن هنا ندرك فداحة الخطأ التربوي في أن تتحول جلسة الاحتواء النفسي للأبناء أو الطلاب في حالة انكسارهم النفسي لأسباب دراسية أو اجتماعية.. إلى جلسات لوم أو توبيخ أو انتقاد أو تحليل لأسباب إخفاقاتهم، فهذا الأسلوب المتشاكس مع الهدف من التواصل غالباً ما يفوت على الأهل فرصة ذهبية في إصلاح سلوكيات أولادهم، لسبب بسيط هو أنهم تعجلوا جلسة النصح والعتب والنقد قبل أوانها، فالرسالة يجب أن تقدم رسائل دعم نفسي، وأن تركز على ما يجبر خواطرهم ويحقق هدف الاحتواء النفسي.

إنّ البشر عموماً والأطفال على وجه الخصوص، يحتاجون في ظروف الانكسار والخيبة إلى الدعم النفسي، ويبحثون عن محتضن قلوبهم ويجبر خواطرهم، عن أولئك الذين يحبونهم بلا شروط وبلا مقابل..

لذلك أعطهم ما يبحثون عنه من عاطفة واحتضان، وثق أنهم سيعطونك لاحقاً ما تريده منهم من جد واجتهاد.. لكن يجب أن تفرّق بين الأحوال التي تتطلب رسائل الدعم النفسي، والأحوال التي تتطلب رسائل التأديب والتقويم.

المطلب الثاني- الشروط الخاصة بأركان عملية التواصل:

ثمّة شروط خاصة بأركان عملية التواصل التي يؤدي غيابها إلى انقطاعات في عملية التواصل وانغلاقاتٍ في مساراتها الدائريّة.

ولذلك سوف نعالج الشروط الخاصة بكلّ ركنٍ منها:

أولاً- الشروط الخاصة بالمرسل:

يجب أن تتوفر في المرسل مجموعة من الصفات والخصائص لينجح في التواصل مع الآخرين:

- ١- أن يكون متمكناً من تخصصه العلميّ.
- ٢- أن يكون قادراً على تحديد الهدف أو الأهداف من رسالته.
- ٣- أن يراعي في عملية التواصل ترتيب الأهداف والتدرّج فيها بحسب طبيعة المستقبل أو بحسب الشريحة المستهدفة.
- ٤- أن يكون قادراً على الترميز الصحيح، والتعبير الجيّد عن رسالته.
- ٥- أن يختار قناة الاتصال المناسبة.
- ٦- أن يكون مُطلعاً على خصائص الشريحة المستهدفة برسائله من حيث العمر، والمستوى الاجتماعيّ والثقافيّ والاقتصاديّ.
- ٧- أن يختار بيئة الاتصال الملائمة.
- ٨- أن يكون قادراً على فكّ رموز التغذية الراجعة من المستقبل، وإعادة بناء الرسالة بما يتناسب مع الموقف الجديد للتواصل.
- ٩- أن يكون قادراً على بناء مواقف تواصلية جديدة، تتسم بالمرونة وعدم الانفعال.

ثانياً- الرسالة: لنجاح الرسالة يجب أن تحقّق الشروط الآتية:

- ١- أن تكون هادفة: فالرسائل غير الهادفة ضربٌ من السُخف أو الجنون، لأنّ العاقل يصون كلامه عن العبث. ومع التكرار ينعكس أثر الرسالة على المرسل، فيسقطُ من أعين الناس، ولا يأبه بعدها أحدٌ إلى رسائله.

٢- أن تكون ملائمة للمستقبل: فالرسالة يجب أن تراعي حال المستقبل، وفتته العمرية، وقدراته الفكرية، ومستواه الثقافي.

قال عليّ عليه السلام: "حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ" ^(١)

٣- أن تكون واضحة: لأنّ الغموض يؤدي إلى سوء الفهم، أو سوء الظنّ، مما يؤدي إلى استجابة سلبية، ويستدلّ على أهميّة الوضوح في الرسالة بقوله تعالى: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٢٤٢]، بقول موسى عليه السلام الذي حكاه القرآن الكريم عنه: {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ....} [القصص: ٣٤]

ووجه الشاهد في الآية الأولى: أنّ الله تعالى عندما خاطب الخلق بيّن لهم رسالته، وجعلها آياتٍ بيّنا لكي لا يشتبه عليهم الأمر.

ووجه الشاهد في الثانية: أنّ موسى عليه السلام سأل الله تعالى أن يكلف أخاه هارون معه بالرسالة لأنّه أفصح لساناً وأقدر منه على التوضيح والبيان وهذا الأمر في غاية الأهمية لإقامة الحجّة على فرعون وجنوده.

٤- أن تكون صحيحةً في السياق المعرفي: لأنّ الخلل المعرفي يضرب الثقة بالمرسل، ولذلك فأيّ رسالة معرفيّة ينبغي أن تحمل السّمة العلميّة، ويتحقق ذلك بأحد أمرين:

- بدقّة العزو إلى المصدر الذي تمّ النقل منه.

- أو بقوة الدليل العلميّ على الفكرة

ولذلك فإنّ منهج الاستدلال -لدى أهل العلم- يقوم على قاعدة في غاية الأهميّة

ألا وهي قولهم: "إن كنتَ ناقلاً فالصّحّة، وإن كنتَ مدّعياً فالدليل"

٥- أن تكون صادقة في المجال الوجداني: لأنّ الكذب العاطفيّ سهل الاكتشاف، تبوح به تعابير الوجه ونظرات العين، وتفضحها فلتات اللسان مهما حاول الإنسان ستره، قال تعالى في شأن المنافقين: {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ

(١) صحيح البخاري (١/ ٥٩) رقم ١٢٧

وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ { [محمد: ٣٠]

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

عيناك قد دلتا عينيَّ منك على أشياء لولاهما ما كنت أدريها
تظلّ في نفسك البغضاء كامنةً والقلب يضمُّها والعينُ تبديها
والعين تعرفُ من عينيَّ مُحَدِّثها إن كان من حزبا أو من أعاديها
ولذلك فإنّ العبارات والكلمات العاطفيّة التي لا رصيد لها تحطُّ من قيمة الرسالة،
وتحوّلها إلى نوع رخيص من المجاملات.

٦- أن تكون مدّة الإرسال مُتناسبةً مع حال المستقبل: ذلك أنّ أغلب الناس لا صبر
لهم على تأخّر المرسل في إيصال فكرة الرسالة، فالمقدّمات الطويلة تستنزف صبر
السامع، وكذلك الإطناب المُملّ أو التشعّبات الجانيّة بعيداً عن موضوع الرسالة.
ويستدلّ لذلك من السنّة الشريفة بحديث عائشة رضي الله عنها أنّ النبيّ صَلَّى الله
عليه وسلّم كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَخْصَاهُ^(١).

وبقولها: مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْرُدُ سَرْدَكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ
يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ بَيْنَهُ فَصْلٌ يَحْفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إِلَيْهِ^(٢).

٧- أن تراعي التوقيت المناسب للمستقبل: فالنفس الإنسانيّة يعتريها السأم ويعرض لها
الملل، لذلك وجب على المرسل أن يتحينَ الفرص المناسبة لإرسال رسائله.

فقد كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ يُذَكِّرُ النَّاسَ فِي كُلِّ خَمِيسٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِ
الرَّحْمَنِ لَوَدِدْتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ. قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ أَيُّيَّ أَكْرَهُ أَنْ أُمْلِكُكُمْ،
وَإِنِّي أَتَحَوَّلُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَحَوَّلُنَا بِهَا مَخَافَةَ السَّأَمَةِ عَلَيْنَا^(٣).

٨- أن تقدم الرسالة بقوالب جذابة، وتمتلك القدرة على إثارة الانتباه:

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٣٠٧) رقم ٣٣٧٤، صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٨) رقم ٢٤٩٣

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٦٠٠) رقم ٣٦٣٩ قال أبو عيسى: حديث حسن.

(٣) صحيح البخاري (١/ ٣٩) رقم ٧٠

- ففي الرسائل الصوتية: تتمثل القوالب الجذابة بحسن الصوت، وبراعة الاستهلال، وجمال اللغة، واتقان السبك، وبلاغة التشبيه..
- وفي الرسائل المكتوبة: تتمثل القوالب الجذابة في حسن الخط، وجودة الورق، مع ما سبق من براعة الاستهلال وجمال اللغة وغيرها من المحسنات اللغوية المشتركة..

ثالثاً- المستقبل:

المستقبل هو المستهدف من عملية التواصل، ولنجاحها يُشترط في المستقبل:

١- القدرة على فك الترميز: أي فهم معاني العبارات وإدراك دلالات الإشارات.

ويُشترط في المستقبل فهم الرسالة لا أكثر، ولذلك فإنه لا يلزم في حقه أكثر من الإدراك مع التمييز لما يسمعه أو لما يراه أو لما يُحسّ به.

فالارتباط التعليمي متاح في السنوات الأولى من الطفولة، ولكن يجب أن يكون ثمة تناسب بين الرسالة وبين الشريحة المستهدفة.

ولذلك فإن علماء الحديث الشريف اشتراطوا في تحمّل الرواية (التلقي) شرطاً واحداً ألا وهو التمييز، واختلفوا في تحديد سنّ التمييز لاختلاف قدرات الأطفال أنفسهم ولتباين درجات اختلاف المميّز نفسه عن غيره، فإدراك الألوان الرئيسة يمكن أن يكون متاحاً في السنوات الأولى من عمر الطفل في السنة الرابعة أو الخامسة، فيمكن أن يميّز الأحمر من الأصفر والأبيض من الأسود، وهو كذلك فإنه يستطيع تمييز ملامح المشاعر الرئيسة فيفرق بين تعابير الفرح و تعابير الحزن، أو تمييز إشارات المداعبة من إشارات الغضب.

ولذلك فقد أخرج البخاريّ حديثَ مُحَمَّدِ بْنِ الرَّبِيعِ وهو من صغار الصحابة قَالَ: عَقَلْتُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَحَّةً مَجَّهَا فِي وَجْهِهِ، وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ مِنْ دَلْوٍ^(١) أَخْرَجَهُ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ بِأَب: متى يصحّ سماع الصغير؟

(١) صحيح البخاري (١ / ٤١) رقم ٧٧

فمحمود بن الربيع كان طفلاً ابن خمس سنوات، واستطاع أن يميّز النبي ﷺ من غيره، وأن يميّز مجّة الفم من افراغ اليدين، وأن يميّز الدلو من غيره من الآنية، وأن يميّز مداعبة الرسول ﷺ له من سائر أحواله الشريفة ﷺ.

أما إدراك معاني الكلام فتختلف القدرة على فهمه باختلاف القوّة الترميزيّة في بناء عباراته من جهة، وباختلاف المخزون اللغويّ واختلاف المعارف والخبرات لدى المتلقي من جهة أخرى.

مثال ذلك: ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده والشيخان في صحيحيهما واللفظ لأحمد عن الشّعبيّ قال: أَخْبَرَنَا عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ، قَالَ عَمَدْتُ إِلَى عِقَالَيْنِ أَحَدُهُمَا أَسْوَدُ وَالْآخَرُ أَبْيَضُ، فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وَسَادِي، قَالَ: ثُمَّ جَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِمَا فَلَا تُبَيِّنُ لِي الْأَسْوَدَ مِنَ الْأَبْيَضِ وَلَا الْأَبْيَضَ مِنَ الْأَسْوَدِ؛ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي صَنَعْتُ، فَقَالَ: «إِنْ كَانَ وَسَادُكَ إِذَا لَعْرِضُ إِنَّمَا ذَلِكَ بَيَاضُ النَّهَارِ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ». (١)

يظهر في هذا المثال أثر الترميز في النصّ القرآنيّ فقد عبّر عن بياض النهار وسواد الليل بالخيطين الأبيض والأسود.

طريقة تفكيك الترميز اللغويّ:

حَمَلُ عَدِيٍّ الْخَيْطَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، فَأَخَذَ بظَاهِرِ الْآيَةِ، وَعَلَّلَ الْعُلَمَاءُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي لُغَةِ قَوْمِهِ إِسْتِعَارَةُ الْخَيْطِ لِلصُّبْحِ.

وَتَرَجَّمَ عَلَيْهِ ابْنُ حَبَّانَ " ذَكَرُ الْبَيَانِ بِأَنَّ الْعَرَبَ تَتَفَاوَتْ لُغَاتُهَا " وَأَشَارَ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ عَدِيًّا لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ فِي لُغَتِهِ أَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ وَبَيَاضَ النَّهَارِ يُعَبَّرُ عَنْهُمَا بِالْخَيْطِ الْأَسْوَدِ

(١) صحيح البخاري (٤ / ١٦٤٠) رقم ٤٢٣٩، صحيح مسلم (٢ / ٧٦٦) ١٠٩٠، مسند أحمد بن حنبل (٤ / ٣٧٧) رقم ١٩٣٨٩ واللفظ له.

الاستجابة: أخذ عديّ بظاهر الكلام فاتخذ عقالين أحدهما أبيض والآخر أسود، ووضعهما تحت وسادته، وجعل يقارن بينهما لعله يتبين له الفرق بينهما كدليل على دخول الفجر، لكنّه لم يحصل له التفريق المطلوب بين العقالين فحصل لديه إشكال.

التغذية الراجعة: راجع النبي ﷺ ليضعه بصورة ما استشكل عليه، لأنّ النبي ﷺ هو المسؤول عن تبليغ القرآن الكريم وعن تبيان معانيه، وبناءً على هذه التغذية الراجعة قام النبي ﷺ بتصويب الفهم الظاهري غير المراد.

فبين له أن التعبير القرآنيّ ليس مراداً على ظاهره، وإنما هو كناية عن بياض النهار الممتدّ في سواد الليل، ولو كان المطلوب أن نضع الخيطين المقصودين تحت الوسادة، فهذا يعني أننا بحاجة إلى وسادة عريضة جداً تغطي المشرق كلّ.

ولذلك قال له: «إِنْ كَانَ وَسَادُكَ إِذَا لَعَرِيضٌ» وَمَعْنَاهُ: إِنْ جَعَلْتَ تَحْتَ وَسَادِكَ الْخَيْطَيْنِ الَّذِينَ أَرَادَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى وَهُمَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فَوْسَادُكَ يَغْلُوهُمَا وَيُعْطِيَهُمَا، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ عَرِيضًا (٢).

وهنا ننبه على أنّ بعضهم جعل قوله ﷺ: «إِنْ كَانَ وَسَادُكَ إِذَا لَعَرِيضٌ» في مقام التّهمك بالسائل، وأنّه تعريض بعرض القفا وأنّه صفة تدلّ على الغباء، وفي بعض الروايات نصّ صريح بهذا اللفظ، ومع ذلك فحملها على السخرية والتّهمك تأويل باطل لا تنهض به اللّغة ولا يساعد عليه سياق الحديث، ولا يليق بمقام ألطف الخلق تبليغاً وأرفقهم تعليمًا ﷺ. (٣)

(١) فتح الباري - ابن حجر (١٣٣ / ٤)

(٢) شرح النووي على مسلم (٦٦ / ٤)

(٣) حَمَلَهُ بَعْضُ النَّاسِ عَلَى الذَّمِّ لَهُ عَلَى ذَلِكَ الْفَهْمِ وَكَانَتْهُمْ فَهَمُوا أَنَّهُ نَسَبَهُ إِلَى الْجَهْلِ وَالْجَفَاءِ وَعَدِمَ الْفَقْهَ، وَعَضَدُوا ذَلِكَ بِقَوْلِهِ " إِنَّكَ عَرِيضُ الْقَفَا " وَلَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا قَالُوهُ لِأَنَّ مَنْ حَمَلَ اللَّفْظَ عَلَى حَقِيقَتِهِ اللَّسَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْأَصْلُ إِنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ دَلِيلُ النَّجْوَزِ لَمْ يَسْتَحِقَّ ذَمًّا وَلَا يُنْسَبُ إِلَى جَهْلٍ. فتح الباري لابن حجر (٤ / ١٣٣)

(١٣٣)، وهذا قول أهل التحقيق وقد صوّبه النووي شرح النووي على مسلم (٦٦ / ٤)

٢- القابلية: قابلية التواصل شرط في تأسيس عملية التواصل ونجاحها لأنَّ الشخص الذي يرفض انشاء تواصل مع الآخرين أو لا يرغب في اتمام عملية التواصل فإنه سوف يرفض الرسالة، وفي حال وصلته فإنه سوف يسعى لتجاهلها، وعدم الاكتراث بها..

ولا شيء أكثر صعوبة من محاولة إسماع من لا يريد أن يسمع، وإفهام من لا يريد أن يفهم، وهذه كانت معاناة الأنبياء مع أقوامهم، وبهذه المعاني افتتحت سورة فصلت: {حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} [فصلت: ١ - ٥]

ولعمري كم كانت مهمة النبي ﷺ صعبةً ومعاناته شديدةً في تبليغ رسالة الله للمشركين الذين يحملون كل هذا الإصرار على رفض سماعه أو لقائه، قال تعالى: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ} [النمل: ٨٠، ٨١]

وكذلك فقد صوّر لنا القرآن الكريم ردّة فعل قوم نوح على دعوة نبيّ الله نوح عليه السلام في قوله تعالى حكاية عنه: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا} [نوح: ٥ - ٧].

لقد قوبلت دعوة نوح المتكررة ليل نهار لمدة ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا بالرفض التام والتكذيب المطلق، والفرار الحسي والاستكبار النفسي، وقد اقترفوا في الإعراض عنه وسائل تمنع السماع بوضع الأصابع في الأذان، وأساليب تحجب رؤية البصر بتغطية الرؤوس كاملة بما يلبسون من ثياب، وأساليب تمنع اللقاء به عليه السلام، وذلك بالابتعاد المكاني بالفرار أو بالابتعاد النفسي بالاستكبار.

أساليب التشويش على عملية التواصل: وقد حفل القرآن بقصص أفراد يمثلون هذا النموذج من المستقبل ويبن أساليبهم في تعطيل عملية التواصل ومن هذه الأساليب:

أ- منع المرسل من الكلام بالمنع الحسي المباشر أو بتسكيته.

قال تعالى: { أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } [إبراهيم: ٩]. قَالَ مُقَاتِلٌ: فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِ الرسل يسكتونهم بذلك^(١).

ب- تعطيل قناة الاتصال كالأذن والعين كما مرّ في قصّة نوح. { وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا } [نوح: ٧]

ت- الفرار من بيئة الاتصال: قال تعالى: { إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } [النمل: ٨٠]

ث- النهي عن الاستماع والتشويش على السامعين في مهمّة مزدوجة لمنع التواصل الشخصي أو الجماهيري بالتشويش على رسائل المرسل قال تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ } [فصلت: ٢٦].

المطلب الثالث: أسباب فشل التواصل بين المرسل والمستقبل

أولاً- أسباب ترجع إلى المرسل:

١- **الأسباب الطبيعيّة:** ترجع إلى طبيعة النفس الإنسانيّة التي تنفر من التواصل والاقتراب

من القبيح أو الضار أو من كليهما ومن صورها:

- نفور النفس من التواصل مع المريض مرضاً مُعدياً
- نفور النفس من التواصل مع منتن الرائحة.
- نفور النفس من التواصل مع المجنون والمسحور، وذوي الأمراض النفسيّة والعصبية.
- نفور النفس من التواصل مع سيء السمعة والأخلاق.

(١) تفسير البغوي - إحياء التراث (٣ / ٣١)، وثمة أقوال أخرى للمفسرين في بيان هذه الآية.

- تُفُور النفس من التواصل مع الكَذَّاب الأَفَّاك.
 - تُفُور النفس من السماع لمتكبرٍ أو مزهوٍّ بنفسه معجبٍ بها.
 - تُفُور النفس من التواصل مع أهل السَّحر والدَّجل والشَّعوذة.
- وبذلك نفهم الحكمة الإلهية في عصمة الأنبياء من الأمراض المنقّرة، وعصمتهم من الذنوب والمعاصي.

ونفهم في الوقت نفسه أسباب إصرار الكفار على إلصاق تهمة الكذب أو السحر أو الدجل أو الجنون وغيرها من الصفات المنقّرة بالأنبياء عليهم السلام، وما ذاك إلا بغرض تنفير الناس من دعوتهم وصدّهم عن الاستماع إليهم أو التواصل معهم، قال تعالى: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [ص: ٤] وقال سبحانه: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ} (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الذاريات: ٥٢، ٥٣]

والإنسان إذا كان صحيح القصد في طلب الحقّ فإنّه لا يصرفه عنه شيء من الأمراض الجسديّة، ولكنّه في المقابل شديد الحذر ممّن وُصمّ بسحرٍ أو كذبٍ أو كبرٍ فإنّ أمثال هؤلاء لا يؤتمنون على الحقيقة ولا يوثق بالتواصل معهم.

ثانيًا- أسباب ترجع إلى الرسالة:

- ١- تعقيد الترميز لغويًا كان أو غير لغويّ.
- ٢- ضعف الصوت أو عدم وضوح الإشارة بسبب المسافات البعيدة أو ضعف التجهيزات الصوتيّة والبصريّة.
- ٣- التناقض في المحتوى الفكريّ للرسالة
- ٤- عدم التناسب بين مستوى الرسالة الفكريّ والشريحة المستهدفة.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "ما أنت بمحدثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة." (١)، ويروى عن النبي ﷺ: "أمرنا - معاشر الأنبياء - أن نكلّم الناس

(١) رواه مسلم في مقدّمة صحيحه، صحيح مسلم (١/ ١٠)

على قدر عقولهم" (١).

ثالثاً- أسباب ترجع إلى المستقبل:

يمكن أن نقسمها إلى أسباب نفسية وأسباب فكرية:

أ - الأسباب النفسية: لأمراض النفس انعكاس واضح على السلوك الإنساني، ولا سيما في التواصل مع الآخرين، ويمكن أن نلخص أهم الأسباب النفسية لدى المستقبل والتي تؤدي إلى فشل الاتصال بما يلي:

١- الكبر: من أخطر الأمراض النفسية التي تجعل المستقبل يرفض كل رسائل النصيحة أو النقد أو الحوار لأنه يرى المرسل دونه في العلم والفهم والمكانة.. قال تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر: ٤٢، ٤٣]، فالاستكبار حملهم رفض الدعوة والنفرة منها، وثمة فرق كبير بين التألق الشخصي والكبر النفسي ففي الحديث عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» قال رجل: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ».

٢- الحسد: الحسد داء نفسي خطير، يجعل الحاسد ينكر فضل المحسود، وينتقص قدره، ويرفض قوله، ولذلك فإن عملية التواصل سوف تتعرض لعقبة كبيرة لدى المستقبل تكمن في عدم قدرة الحاسد (المستقبل) على الاعتراف بالحق، والتسليم له مع تمام المعرفة واليقين. فالحسد حمل اليهود على رفض رسالة الإسلام التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ وتكذيبها، قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ

(١) لسان الميزان لابن حجر (٦/ ٢٧٤) بسند ضعيف

إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَمُوا وَاصْطَفُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ { [البقرة: ١٠٩] ، فقد عرفوا أنه رسول الله معرفةً تامةً بأوصافه في كتابهم ولكنهم كفروا برسالته حسداً، قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٤٦]

٣- **العناد والجحود:** فمتى أصاب هذا المرض الإنسان فإنه لن ينتفع بالرسائل الموجهة إليه ما دامت لا تتفق مع هواه ونزغات نفسه، ولذلك فإن الله تعالى بين حقيقة موقف كفار قريش من دعوة رسول الله محمد ﷺ في قوله الكريم: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: ٣٣]

٤- **العصية:** وهي نزعة تحمل صاحبها على الميل الشديد إلى جنسه وقومه وإلى عاداتهم وأفكارهم والانحياز لهم في الحق والباطل، وهذه العصية هي الحمية الجاهلية بعينها قال تعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الفتح: ٢٦]

وقد قال الشاعر دريد بن الصمة فيها:

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ... غَوِيْتُ وَإِنْ تَرَشُدُ غَزِيَّةُ أَرَشُدِ

وقد سئل عليُّ بنُ الحسينِ (عليه السلام) عنِ الْعَصِيَّةِ؟ فَقَالَ: " الْعَصِيَّةُ الَّتِي يَأْتُمُ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا، أَنْ يَرَى الرَّجُلُ شَرَارَ قَوْمِهِ خَيْرًا مِنْ خِيَارِ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَلَيْسَ مِنَ الْعَصِيَّةِ أَنْ يُحِبُّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ، وَلَكِنْ مِنَ الْعَصِيَّةِ أَنْ يُعِينَ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ "

فلا شك أن المستقبل إذا كان ذا عصبية ضد موضوع الرسالة كان شديد العناد

والحمية عن معتقدات قومه وعاداتهم يرى قبيحهم حسناً، وشرهم خيراً، وباطلهم حقاً..

ب- **الأسباب الفكرية:** وهي الأسباب التي تتعلق بأمراض التفكير المنحرف، وأهمهما:

١- **التقليد الأعمى:** وقد أخبرنا القرآن الكريم أنّ التقليد الأعمى هو أهمّ أسباب نفور كفّار قريش من الدعوة واتباعهم منهج التقليد الأعمى للآباء والأجداد قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة: ١٧٠]

٢- **الجهل:** الجهل من أهمّ أسباب التشبث بالموقف والعناد عليه ورفض النقاش فيه، والإنسان عدوّ ما يجهل فإذا علم أبصر، قال تعالى: {أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنبياء: ٢٤].

٣- **الاغترار بأشياء لا تصلح للاستدلال بها:** كالاغترار بكثرة أهل الباطل وقلة أهل الحق، أو بالثروة الكثيرة والعافية في البدن، فيظن أن ذلك دليل صحة مذهبه ومكانته عند ربّه كما في قصة قارون وقصة صاحب الجنتين مع صاحبه، والاغترار بكثرة الأولاد كما حصل ونعيمهم على سيّدنا محمد قلة الولد.

الفصل الثالث

أقسام التواصل الإنساني ومهاراته

التواصل الإنسانيّ يشتمل على جميع وسائل التعبير الإنسانيّ من لغة وإشارة ولباس وطقوس وعادات ومن طراز معماريّ ومعابد وحصون وقلاع ورسوم ومنحوتات وجميع الأشكال الثقافية والمنتجات الحضاريّة ومميزات الهوية والانتماء كافة.

ويمكن أن نقسم التواصل بحسب تطوّره في حياة الإنسان إلى:

- ١- التواصل غير اللّغويّ: وهو يقسم بدوره إلى التواصل غير اللّفظيّ والتواصل اللّفظيّ.
- ٢- التواصل اللّغويّ.

المبحث الأوّل

التواصل غير اللّغويّ

تمهيد:

أوّل طريقة يعبّر الإنسان فيها عن وجوده وهو جنين في بطن أمه هي لغة الجسد من خلال دقات قلبه التي تدلّ على حياته، ثمّ تتطور هذه اللّغة ليعبّر بحركات جسده داخل رحم أمّه، ثمّ يخرج إلى الدنيا وهو لا يحسن الكلام فيستعمل تعابير جسده في التواصل مع محيطه، فإذا تعلّم النطق كانت لغة الجسد داعماً له أحياناً، أو بديلاً عنه أحياناً أخرى.

وتستمر هذه اللّغة معه طوال حياته بأساليب كثيرة إلى أن يرسل جسده عند الموت آخر رسالة جسديّة تدلّ على موته بتوقّف دقات قلبه.

إنّ لغة الجسد هي اللّغة الإنسانيّة الأبسط في التعبير عن حياة الإنسان وعافيته، واحتياجاته، وفرحه وحزنه، ورضاه وغضبه، وسكينته وقلقه، وسائر أحواله.

ولكي تدرك أهمية لغة الجسد عليك أن تتذكر أنّ الممثل المشهور تشارلي تشابلن (١٨٨٩ - ١٩٧٧م) قدّم عددًا من الأفلام باستعمال لغة الجسد واستطاع أن يتواصل مع الجمهور بفعالية خلال فترة انتاج الأفلام الصامتة. وأنّ لغة الإشارة هي اللغة البديلة عن النطق التي يستعملها الصمّ والبكم للتعبير والتواصل مع الآخرين.

ومن المهم أن نعرف كذلك أنّ القدماء استعملوا لغة الجسد للتعرف على المواصفات النفسية للشخص بما يُعرف عند العرب بعلم الفراسة وهو علم تُعرف منه أخلاق النَّاس من أحوالهم الظاهرة من الألوان والأشكال والأعضاء، وبالجملة الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن^(١).

ولقد بيّن الجاحظ أهمية الدلالة بلغة الجسد مُنفردة بنفسها أو مُشتركة مع اللفظ فقال: " أمّا الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمنكَب، إذا تباعدَ الشخصان، وبالتَّوب وبالسَّيف، وقد يتهدّد رافعُ السَّيف والسَّوط، فيكون ذلك زاجراً، ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً، والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العونُ هي له، ونعم الترجمانُ هي عنه؛ وما أكثرَ ما تنوب عن اللفظ، وما تُغني عن الخطّ، وبعدُ فهل تعدو الإشارةُ أن تكون ذاتَ صورةٍ معروفةٍ، وحليّة موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها، وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفقٌ كبير ومُعونة حاضرة، في أمورٍ يستُرّها بعضُ النَّاس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارةُ لم يتفاهم النَّاسُ معنى خاصّ الخاصّ، ولجَهلوا هذا الباب البتّة، ولولا أن تفسيرَ هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسرَها لكم، وقد قال الشاعر في دلالات الإشارة:

أشارتْ بطَرْفِ العين خيفةً أهلِها إشارةً مدْعورٍ ولم تتكلّم

(١) أبجد العلوم (٢/ ٣٩٦) لصديق بن حسن القنّوجي، ت: عبد الجبار زكار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٩م

فأيقنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قد قال مرحباً وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيمِّم ()

وقد بيّنت الدراسات الحديثة أنَّ رسائل التواصل الإنسانيّ تؤثر في المتلقّي بنسبة ٧٠% بواسطة المفردات اللغويّة، وبنسبة ٣٨% بطريقة الكلام ونبرات الصوت، و بنسبة ٥٥% من خلال لغة الجسد (٢).

وهناك دراسة أخرى ترى أنَّ الرسالة التي يرسلها المرسل تصل إلى المستقبل بنسبة ٢٠% عن طريق التواصل اللفظي، وبنسبة ٨٠% عن طريق التواصل غير اللفظي (٣).

المطلب الأوّل: تعريف لغة الجسد وأساليب التعبير الجسديّة

تعريف لغة الجسد: هي التعابير الجسديّة الإراديّة وغير الإراديّة التي يقوم بها الإنسان بأساليب مختلفة للتعبير عن حياته وحاجاته ومشاعره وخصائصه.

أساليب التعبير في لغة الجسد: تقسم إلى أساليب لا إراديّة وأساليب إراديّة:

١- أساليب لا إراديّة: وهي التي لا سيطرة للإنسان عليها، ويمكن أن نقسمها إلى:

أ- حركيّة كالارتعاش عند القلق، وتسارع دقات القلب عند الخوف أو الاضطراب النفسيّ، توسّع حدقة العين أو تضيقها أو ازدياد عدد طرقات العين.

ب- لونية: كصفرة الوجه عند الوجل، وحمرة عند الخجل، وامتقاعه بالسواد عند الغيظ.

وقد درس العلماء قديماً هذه الأعراض الجسديّة للبشر في علم الاختلاج، وهو فرع من فروع علم الفراسة.

ويبحث عن كيفية دلالة اختلاج أعضاء الإنسان من الرأس إلى القَدَم على أحواله

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ (١/٧٧-٧٨)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة.

(٢) وهي خلاصة دراسة قام بها عالم النفس الأمريكي ألبرت ميهرايين؛ نقلاً كتاب أسرار لغة الجسم وكيفية إدارة الجسم البشري تأليف مستور سالم أبو تالات، مطبعة سامي - الإسكندرية - طبعة عام ٢٠١٠م. وانظر مهارات الاتصال الفعال مع الآخرين مدحت محمد أبو نصر ص ٩٠ المجموعة العربية للتدريب والنشر - القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٢م

(٣) انظر مهارات الاتصال الفعال، مدحت أبو النصر ص ٩١

والأحوال التي ستقع عليه^(١).

١

٢- أساليب إرادية: أي تلك التعابير التي تقع من الإنسان بقصده وإرادته ومنها:

(١) الإيماءات والإشارات: بحركة خفيفة مقصودة في الرأس أو العين أو الحواجب أو

الفم أو اليد....، ويُقال فيها: أومأ برأسه أو بعينه أو أشار بيده أو بأصبعه..

(٢) الحركات: كحركة اليدين والرجلين ضرباً أو تصفيقاً.

(٣) الوضعيات: كوضعية الجلوس، والوقوف، والمشي وغيرها.

(٤) طريقة استعمال أعضاء الجسد: فنظرة المدهوش تختلف عن نظرة الغضبان أو نظر

الشامت، وطريقة التصفيق تختلف بين المعجب والمستهزئ والمجامل، والضرب على

الطاولة يختلف بين من يضربها غضباً ومن ينقرها طرباً.

(٥) المسافات: المسافة بين شخصين لها دلالتها على طبيعة العلاقة بينهما، فكل ما

كانت المسافة أضيق كانت العلاقة أكثر خصوصية بينهما، لأنَّ محيط الشخص يعتبر

من خصوصيته التي لا يسمح لأي أحدٍ بولوجها.

(٦) لغة الأشياء المصاحبة للجسد:

- كاللباس بأشكاله وألوانه وهيئة لبسه وغالباً ما تُعرف به أحوال الإنسان من الفقر

والغنى، والفرح والحزن وغيرها.. وقد يعكس انتماءات دينية كزِيّ العلماء أو رجال

الدين أو غير ذلك مما تعارفت على ارتدائه جماعة معيّنة.

- أو الزينة من ذهب وفضة وغيرها التي يعبر فيها الإنسان عن جنسه ذكراً أو أنثى، أو

عن حالته الاقتصادية.

- أو أشكال القلائد والرموز التي يعبر بها الإنسان عن انتماءاته الدينية أو القومية أو

ميوله الشخصية.

- وكذلك نوع قصّة الشعر وشكل الشارب واللحية وغيرها.

(١) انظر أبجد العلوم (٢/ ٢٩) لصديق بن حسن القنّوجي، ت: عبد الجبار زكار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد

القومي، دمشق ١٩٨٩م

المطلب الثاني: لغة الجسد في القرآن الكريم والسنة الشريفة

لا أدلّ على أهميّة لغة الجسد في الدلالة والتواصل الإنسانيّ من استعمال القرآن الكريم والسنة الشريفة لها في حكاية أحوال الناس في الدنيا والآخرة.

١

أولاً: أمثلة من القرآن الكريم^(١):

■ قال تعالى: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة: ١٢] فقد عبّر عن الخزي والذلّ الذي لحقهم بانتكاس الرأس، يُقال: نكس رأسه، إذا طأطأه لأنّه كمن جعل أعلى الشيء إلى أسفل. ونكس الرؤوس علامة الذلّ والندامة، وذلك مما يُلاقون من التقرّيع والإهانة..

■ وقال سبحانه: {قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا} [الإسراء: ٥٠، ٥١] فعبّر عن تعجبهم واستهزائهم بإنغاض رؤوسهم وهو هزّها للأعلى وللأسفل.

■ وقال كذلك: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} [المنافقون: ٥] فعبّر بتلوّية الرأس وهي إمالة عن استخفافهم وكبرهم.

■ وقال: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ} [لقمان: ١٨] فعبّر بالتصعير من الصعر وهو داء يصيب البعير فيلوي عنقه عن حالة الالتفات بالخذّ أي إمالة عن يكلّمه للدلالة على الإعراض الناشئ عن كبر.

■ قال تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا

(١) للتوسع انظر سيميائية لغة الجسد، د وليد محمد السراقبي - منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب - وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٨م.

يَحْكُمُونَ} [النحل: ٥٨، ٥٩] واسوداد الوجه امتقاعه لشدة الغم والحزن وقد عبّر به عند شدة غضبهم وحزنهم، وعبّر بالتواري والاعتزال لبيان شدة خجلهم واحراجهم من الناس.

■ وقال سبحانه: {وَبَشِّرُوهُ بَعْلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [الذاريات: ٢٨، ٢٩] فعبر بصك الوجه أي لطمه للدلالة على منتهى عجبها المقترن بالإنكار.

■ وقال عز وجل: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} [عبس: ١، ٢] فعبر بعبوس الوجه وهو تقطيعه وتجهمه المقترن بالتوليّ وهو الاعراض والانصراف للدلالة على الغضب أو الرفض.

■ وقال تعالى: {فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ} [الأحزاب: ١٩] فعبر بدوران العين أي بدوران الحدقة في العين التي اتسعت عن شدة الخوف.

■ وقال تعالى: {أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا} [الكهف: ٤٢] فعبر بتقليب اليدين عن منتهى الخسارة وغاية الحسرة.

■ وقوله سبحانه: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} [البقرة: ١٩] فعبر عن شدة الحذر والخوف من الرعد بجعل المنافقين أصابعهم من قبيل المجاز المرسل وهو التعبير بالكلّ وإرادة الجزء أي رؤوس أصابعهم في آذانهم وهي دلالة على شدة خوفهم ورفضهم سماع صوت الرعد الذي يمثل الوعيد الإلهي المخيف للمنافقين والتكاليف الربانيّة التي تقاعسوا عنها لذلك أدخلوا أصابعهم في آذانهم.

تدريب:

١- يُصنّف الطالب الأمثلة السابقة وفق أساليب التعبير الجسديّة الإرادية واللاإرادية وأنواعهما.

٢- يأتي الطالب بأمثلة قرآنيّة أخرى للاستدلال بلغة الجسد.

ثانيًا: أمثلة من السنّة الشريفة:

■ قال أنس بن مالك: « كَانَتْ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ إِذَا هَبَّتْ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ. »
() ١

أي عُرِفَ قلقه وخوفه من معالم وجهه الشريف كالصفرة المعبرة عن الخوف من أن تكون هذه الريح عذابا أرسله الله لقومه صلى الله عليه وسلم.

■ وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي حَدَرِهَا وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ. » () ٢

فدلّ على أنّ الصحابة كانوا يعرفون رضى النبي ﷺ وسخطه من تغير وجهه الشريف.

■ وقد جاء في وصف هند بن أبي هالة للنبي ﷺ: « أزج الحواجب: سوابغ في غير قرن، بينهما عرق يُدرّهُ الغضب. » () ٣

أي إذا غضب النبي ﷺ امتلأ العرق دماً فيرتفع ويظهر () ٤

■ وفي قصة توبة كعب بن مالك قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يَبْرِقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: «أَبَشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتِكَ أُمُّكَ» قَالَ: قُلْتُ أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: « لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ »، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ

(١) صحيح البخاري (٣٥٠ / ١) رقم ٩٨٧

(٢) صحيح البخاري (٢٢٦٣ / ٥) رقم ٥٧٥١، صحيح مسلم (١٨٠٩ / ٤) رقم ٢٣٢٠، واللفظ له.

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (سيرة ٢ / ٣٧٩)

(٤) أسد الغابة ط الفكر (١ / ٣٤)

مِنْهُ.

■ وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «عَدَا يَهُودِيٌّ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَارِيَةٍ فَأَخَذَ أَوْضَاحًا كَانَتْ عَلَيْهَا وَرَضَخَ رَأْسَهَا، فَأَتَى بِهَا أَهْلَهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ فِي آخِرِ رَمَقٍ وَقَدْ أُصِمَتَتْ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ قَتَلَكَ فُلَانٌ لِعِغْرِ الَّذِي قَتَلَهَا فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَنْ لَا، قَالَ: فَقَالَ لِرَجُلٍ آخَرَ غَيْرِ الَّذِي قَتَلَهَا فَأَشَارَتْ أَنْ لَا، فَقَالَ: فَقُلَانٌ لِقَاتِلِهَا فَأَشَارَتْ أَنْ نَعَمْ؛ فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَضَخَ رَأْسَهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ»^(١).

فدلّ على أن الإشارة بالرأس كانت جواباً للأسئلة الموجهة للجارية، وهذا الحديث يدلّ على أنّ لغة الجسد إذا كانت مُفهِمَةً فإنّها تقوم مقام النطق باللسان.

■ وعن أبي جحيفة قَالَ: أَخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَرَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَدِّلَةً فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فَقَالَ: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ. قَالَ: مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، فَأَكَلَ فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: فُؤُ الْآنَ. قَالَ فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ سَلْمَانُ»^(٢).

فقد فهم سلمان من تبدّل أم الدرداء في لباسها وزينتها أي أنّها كانت تلبس لباساً رثاً، فقد أرسلت رسالةً بلغة جسد من خلال هيئة اللباس أنّ الوضع غير طبيعيّ في البيت؛ لأنّ الأصل في المرأة أن تحتّم بإصلاح لباسها بمقتضى الأنوثة ومراعاةً لحقّ الزوج، ولكن لما كان زوجها منهمك في عبادته يصوم النهار ويقوم الليل كلّ لبست ثياباً رثّةً وأهملت زينتها كأنها تقول: زوجي في شغل عني فلمن أترين؟!

■ وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فَقَالَ

(١) صحيح البخاري (٢٠٢٩ / ٥) رقم ٤٩٨٩ واللفظ له، صحيح مسلم (١٢٩٩ / ٣) رقم ١٦٧٢

(٢) صحيح البخاري (٦٩٤ / ٢) رقم ١٨٦٧

الْمُشْرِكُونَ: إِنَّهُ يَفْقَهُمُ عَلَيْكُمْ وَقَدْ وَهَنَهُمْ حُمَّى يَثْرِبُ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَزْمُلُوا الْأَشْوَاطَ الثَّلَاثَةَ وَأَنْ يَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ، وَلَمْ يَمْنَعُهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ أَنْ يَزْمُلُوا الْأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِبْقَاءَ عَلَيْهِمْ» (١).

■ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «إِنَّمَا سَعَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَمَلَ بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ لِيُرِيَ الْمُشْرِكِينَ قُوَّتَهُ» (٢).

وَالْمُرَادُ بِالسَّعْيِ هُنَا شِدَّةُ الْمَشْيِ، الرَّمْلُ هُوَ أَسْرَعُ الْمَشْيِ مَعَ تَقَارُبِ الْخُطَى (٣)، وهذه الحركة كانت رسالةً بليغةً بلغة الجسد للمشركين على جَبَلِ فُعَيْقِعَانَ (٤) وهم يراقبون المسلمين في عمرة القضاء معتقدين أنَّ المسلمين قد أوهنتهم حمى المدينة المنورة، فجاء الرد بلغة الجسد برسالة مفادها: نحن أقوىاء، وفي عافية، وجاهزون لخوض غمار المعارك، فلا تسوّلنّ لكم أنفسكم نقض الصلح.

تدريب:

١- يُصنّف الطالبُ الأمثلة السابقة وفق أساليب التعبير الجسديّة الإرادية واللاإرادية وأنواعهما.

٢- يأتي الطالبُ بأمثلة أخرى من الحديث الشريف للاستدلال بلغة الجسد.

المطلب الثالث: الوجه في لغة الجسد

أولاً- أهميّة الوجه: الوجه مرآة الانفعالات، ومكنز الدلالات، وهو أقدر أعضاء الجسد على إرسال الرسائل غير اللفظيّة.

يتكوّن الوجه من ثلاثٍ وأربعين عضلة: أربعةٌ منها للمضغ، والأربعون الباقية مختصةٌ

(١) صحيح البخاري (٢/ ٥٨١) رقم ١٥٢٥

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٥٩٤) رقم ١٥٦٦، صحيح مسلم (٢/ ٩٢٣) رقم ١٢٦٦ واللفظ له.

(٣) انظر شرح النووي على مسلم (٨/ ١٧٥)

(٤) فُعَيْقِعَانَ هو جبل بمكة. قيل: سمّي به لأنّ جُزْهُماً لما تحاربوا كثُرت قَعْقَعَةُ السِّلَاحِ هناك. انظر النهاية في

غريب الأثر لابن الأثير (٤/ ١٣٤)

بالتعبيرات الوجهية^(١).

وقد رصد الاختصاصيون بلغة الجسد آلاف التعابير التي تظهر على الوجه إلا أن هناك تعابير أساسية حصرها د. بول إيكمان^(٢) بسبعة وهي:

- ١- السرور ٢- الحزن ٣- الغضب ٤- الخوف
- ٥- الدهشة ٦- الازمئزاز ٧- الازدراء

والوجه الخشبي أو المسطح هو الوجه الذي لا يعطي أيّ تعبير في عمليات التواصل مع الآخرين، ولذلك فإنّ من عيوب الإلقاء أن يرسل الإنسان رسائله اللفظية كأنّه مدياع دون أن يدعمها بتعابير الوجه التي تعدّ الأكثر تأثيراً في المتلقي.

كذلك يجب أثناء التواصل مراقبة رسائل الوجه عند المتلقي، وهنا أيضاً قد تواجه بصنف من المتلقين يمتلكون وجوهاً خشبية تحافظ على تعبير واحد مما يزيد في صعوبة التواصل معهم.

وإذا كانت تعابير الوجه تتسم غالباً بالصدق لأنّها انعكاس لانفعالات النفس، إلّا أنّه من الجدير بالذكر أن نعلم أنّها قابلة للتمثيل كذلك، بل إنّ بعض الناس يمتلكون القدرة على تمثيل كثير من التعابير حتى الحزن المقتزن بذرف الدموع الكاذبة (دموع التماسيح) وذلك:

لغايات مهنية تتعلق بطبيعة العمل كالتمثيل في الأعمال الفنية والمسرحية.

(١) انظر William Shiel، "Medical Definition of Facial muscle"،

www.medicinenet.com، Retrieved 8-4-2019. Edited.

(٢) الدكتور بول إيكمان (بالإنجليزية: Paul Ekman) (مواليد ١٥ فبراير ١٩٣٤) هو نفساني أميركي رائد في دراسة علاقة المشاعر بتعابير الوجه. ألف "أطلس المشاعر" الذي احتوى على أكثر من عشرة آلاف تعبير للوجه وعلاقتها بما يفكر ويحس به الشخص. كسب شهرة "أعظم كاشف للكذب بشري". انظر موسوعة ويكيبيديا على الرابط

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A8%D9%88%D9%84_%D8%A5%D9%8A%D9%83%D9%85%D8%A7%D9%86

أو غايات اجتماعية كالمعاملة في الأفراح والأحزان.

أو غايات تعليمية أو تربوية تهدف إلى التأثير في الطلاب أو السماعين.

أو لغايات شريرة مأكرة كالنصب والاحتيال في الأموال والتغريب بالرجال أو النساء أو الأطفال في عمليات الخطف والاعتداء الجنسي.

لذلك يجب أن ننتبه خلال تواصلنا لاحتمال كذب التعابير، يقول أبو الطيب

المتنبي:

وجاهلٍ مدّه في جهله ضحكي حتى أتته يدُ فراسةٍ وفمٌ

إذا رأيت نيوبَ الليثِ بارزةً فلا تظننَّ أن الليثَ يبتسمُ

وبما أنّ العين وملحقاتها، والفم والشفتان أهم أعضاء الوجه لذلك سوف ندرس الأدوار التواصلية لها بشيء من التفصيل.

ثانيًا - العين:

١ - أهميتها: العين من أهم أعضاء الوجه وهي من أهم منافذ المعلومات إلى الدماغ،

وأصدقها لذلك فإنّ الإنسان يثق بما يرى أكثر مما يُروى له، حتى قالوا في المثل: "ليس

الخبر كالعيان" وكما قال الشاعر:

يَا ابْنَ الْكَرَامِ أَلَا تَدْنُو فَتُبْصِرَ مَا... قَدْ حَدَّثُوكَ فَمَا رَأَيْ كَمَنْ سَمِعَا (١)

والعين مسؤولة عن قراءة معظم رسائل الجسد باستثناء الرسائل اللمسية كالمصافحة والعناق أو الضرب وغيرها، وباستثناء الرسائل السمعية للجسد كنبرات الصوت أو صوت النفس.

وقد حاول العرب قديمًا التفريق بين نظرة وأخرى بفروق دقيقة (٢):

فإذا نظر الإنسان إلى الشيء يستحسنه وجعل يُملّي نظره منه، قيل: رنا له.

(١) أحد الشواهد النحوية، انظر شرح ابن عقيل (١٣ / ٤)

(٢) انظر نهاية الأرب في فنون الأدب (٢ / ٤٤ - ٤٦)

فإذا نظر الإنسان إلى الشيء بمجامع عينيه وأتبعه بصره يتعهده، قيل: قد رَمَقَه.

فإذا نظر من جانب أذنه، قيل: لَحَظَه.

فإذا نظر إليه بعجلة، قيل: لَمَحَه.

فإذا رماه ببصره مع حدة، قيل: حَدَجَه بطرفه.

فإن نظر إليه بشدة وحدة، قيل: أَرَشَقَه وأَسَفَّ النظر إليه.

وفي حديث الشعبي أنه كره أن يُسَفَّ الرجلُ إلى أمه وأخته وابنته.

فإن نظر إليه بمؤخر عينيه نظر المتعجب أو الكاره المبغض، قيل: شَفَنَه يَشْفِنُه،
وقيل نظره نظراً فيه اعتراض^(١).

والشَّقُون: العَيُور الذي لا يَفْتُر طَرَفَه عن النظر من شدة الغيرة والحذر

فإن أعاره لحظ العداوة، قيل: نظر إليه شِزْراً.

فإن نظر إليه بعين المحبة، قيل: نظر إليه نظرة ذي علق.

فإن نظر إليه نظرة المستثبت، قيل: تَوَضَّحَه.

فإن نظر إليه واضعاً يده على حاجبه مستظلاً بها من الشمس ليستبين المنظور

إليه: قيل استكفَه واستوضحَه واستشرفَه.

فإن نشر الثوب ورفع له لينظر إلى صفاقته (سماكته): قيل استشَقَّه.

فإن نظر إلى الشيء كالللمحة ثم خفي عنه، قيل: لَاحَه لَوْحَةً.

قال الشاعر: وهل تَنْفَعُنِي لَوْحَةٌ لو أَلَوْحُهَا

فإن نظر إلى جميع ما في المكان حتى يعرفه، قيل: نفَضَه نفْضاً.

فإن نظر في كتاب أو حساب، قيل: تَصَفَّحَه.

(١) لسان العرب (١٣ / ٢٤٠)

فإن فتح عينيه لشدة النظر، قيل: حدّق.

١

وحَدَّقَ الرجل إذا أدار حَدَقَتَه في النظر (١)

فإن لألأهما، قيل: برّق. يقال: برّق فلان بعينه تبريقاً إذا لأاً بهما من شدة النظر

قال الشاعر:

٢

وطففت بعينها تبريقاً نحو الأمير تبتغي تطليقاً (٢)

فإن غاب سواد عينيه من الفزع، قيل: برّق بصره.

فإن انقلب حُملاق عينيه، قيل: حمّلق.

وقيل: حمّلق الرجل إذا انقلب حُملاق عينيه من الفزع

٣

رأت رجلاً أهوى إليها فحمّلت إليه بماقي عينها المتقلب (٣)

فإن فتح عين مُفزع أو مهّدّد، قيل: حمّج. والتّحميج فتح العين وتحديد النظر كأنه

٤

مبّهوت (٤)

٥

فإن حقّق النظر إلى الشيء وأحدّ النظر، قيل: حدّج (٥).

فإن كسر عينه عند النظر، قيل: دنّقش وطرّفش.

٦

ودنّقش وطرّفش الرجل إذا نظر وكسر عينيه (٦)

فإن فتح عينه وجعل لا يطرّف، قيل: شخص. وفي القرآن العزيز: {واقترَبَ الوعدُ

الحقُّ فإذا هي شاختة أبصار الذين كفروا} [الأنبياء: ٩٧].

فإن نظر إلى أفق الهلال ليراه، قيل تبصّره، وباصّرتَه إذا أشرفتَ تنظر إليه من

(١) لسان العرب (١٠ / ٣٨)

(٢) لسان العرب (١٠ / ١٤)

(٣) لسان العرب (١٠ / ٦٩)

(٤) لسان العرب (٢ / ٢٤٠)

(٥) لسان العرب (٢ / ٢٣٠)

(٦) لسان العرب (٦ / ٣٠٢)، لسان العرب (٦ / ٣٠٢)

وهذا الشراء اللغويّ في توصيف نظرات العين يعكس أهميتها في الدلالة على حال الناظر والمنظور إليه وطبيعة المنظور فيه.

٢- التواصل البصريّ:

وهو ما يُعرف بلغة العيون، حيث تعدّ العين من أكثر أعضاء الوجه نصيباً في التواصل غير اللفظيّ وأداةً لوظيفة التراسل، تسدّ رسائلها مسدّ اللفظ وتقوم مقامه.

وتظهر أهميتها في رجع الصدى أو التغذية الراجعة من المتلقي، وفي هذا الشأن يقول الحسن: "حدّث القوم ما حدّثوك بأبصارهم وأصغوا إليك بأسماعهم، فإذا رأيتهم يلتفتون يميناً وشمالاً، فاعلم أنّ للقوم حوائج." (١)

فينبغي على المتكلّم أن يراقب عيون جمهوره، وينتبه إلى رسائلها فإنّها في غاية الأهميّة، وفي ذلك يقول عبد الله بن مسعود: "حدّث القوم ما حدّثوك بأبصارهم، وأقبلت عليك قلوبهم، فإذا انصرفت عنك قلوبهم، فلا تحدّثهم"، قيل: وما علامة ذلك؟ قال: "إذا التفت بعضهم إلى بعض، ورأيتهم يتشاءمون، فلا تحدّثهم." (٢)

كما للتواصل البصريّ أهميّة كبيرة في معرفة صدق المرسل من كذبه لأنّ لغة العين لا تقبل التزوير، وقد حظي التواصل البصريّ في الأدب العربيّ بمكانة كبيرة، فقليل فيه الكثير من الأشعار الدالة على معانيه وأهميته. قال الشاعر:

عيناك قد دلتا عينيّ منك على	أشياء لولاهما ما كنت أدريها
تظللّ في نفسك البغضاء كامنةً	والقلب يضمّرها والعين تبديها
والعين تعرف من عينيّ محدّثها	إن كان من حزبا أو من أعاديها

(١) لسان العرب (٤/ ٦٤)

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥١/ ١٦٧)

(٣) شرح السنة ٣١٣/١، البغوي: الحسين بن سعود ت(٥١٦)، تحقيق وتخريج: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير

الشوايش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣/١٩٨٣

وقال محمودُ الورّاق:

إِنَّ الْعُيُونَ عَلَى الْقُلُوبِ شَوَاهِدٌ فَبَغِيضُهَا لَكَ بَيْنٌ وَحَبِيبُهَا
وَإِذَا تَلَا حَظَّتِ الْعُيُونَ تَفَاوُضَتْ وَتَحَدَّثَتْ عَمَّا تَجْنِ قُلُوبُهَا
يَنْطِقْنَ وَالْأَفْوَاهُ صَامِتَةٌ فَ يَخْفَى عَلَيْكَ بَرِيئُهَا وَمُرِيْبُهَا

- وقال آخر: ترى عينها عيني فتعرف وحيها... وتعرف عيني ما به الوحي يرجع

- وقال آخر: وعينُ الفتى تُبدي الذي في ضميره... وتعرفُ بالنجوى الحديثَ المعَمَّسا

- وقال آخر:

العينُ تُبدي الذي في نفسِ صاحبها من المحبة أو بُغْضٍ إذا كانا
والعينُ تنطق والأفواه صامتة حتَّى ترى من ضمير القلب تَبَيَّانا (١)

٣- مهارات قراءة النظر:

أ- اتجاه النظر ومدلولاته:

○ النظر إلى الأعلى في جهة اليمين: يُشير إلى محاولة التخيّل بأن يُنشئ صورة لم يرها أو مشهدًا لم يحضره، فيبتكر صورة أو مشهدًا؛ أي أنّه يكذب، أو يحاول الكذب.
○ النظر إلى الأعلى في جهة اليسار: يُشير إلى محاولة التذكّر؛ أي يقول الحقيقة، أو يحاول أن يقولها.

○ النظر إلى اليمين: يُشير ينشئ صوتًا لم يسمعه من قبل؛ أي يبتكر خبرًا، فهو يكذب في نقل الكلام، أو يحاول الكذب.

○ النظر إلى اليسار: يتذكر صوتًا سمعه؛ أي أنه يقول الحقيقة، أو يحاول ان يقولها.

○ النظر إلى الأعلى: يُشير إلى نسيان المعلومات، أو عدم القدرة على تذكرها.

○ النظر إلى الأسفل: تُشير إلى التأمل والتفكير، ويمكن أن تُشير إلى حالة الانكسار والخضوع.

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ (١/٧٨-٧٩).

- النظر إلى أسفل جهة اليمين: يُشير إلى أنّه يتحدث عن أحاسيس ومشاعر داخلية.
- النظر إلى أسفل جهة اليسار: يشير إلى أنّه يتحدّث إلى نفسه.



ب- دلالات قطع التواصل البصري:

- أولاً - من جهة المرسل: قد تدلّ على الخجل، أو النسيان، أو التخيّل..
- ثانياً - من جهة المستقبل: تدلّ على عدم الرغبة بالاستماع أو المتابعة، وقد يكون ذلك بسبب الخجل، أو لغاية تجميع الأفكار.

ج- آليّة النظر أثناء التحدث والاستماع:

الحالة الأولى (أنا المرسل): من المهم أن يتركز نظرك على مثلث رأسه في نقطة التقاء الحاجبين، وقاعدته فوق الشفة العليا.

الحالة الثانية (أنا المستقبل): من المهم أن يتركز نظرك إلى المرسل في منطقة الفم، وفي كلا الحالتين فإنّ:

نظرة السيطرة: تكون في وسط الجبهة فوق العينين، لأنّ النظر في جبهة الآخر يعطي شعورا بالسيطرة، ويعطي انطبعا بالجدية.

نظرة القبول: تكون تحت العينين، وعموماً فإنّ النظر أسفل عيني المتحدث يعطي انطبعا بالقبول والتعاطف.

المواقع السليّة للنظر:

في عمليّة التواصل يجب أن ننتبه إلى موقع النظر على جسد الطرف الآخر، لأنّها تشوش غالباً على رسائل التواصل وأهم هذه النظرات المشوشة:

- ١- النظرة الحميميّة: وتكون في منطقة الصدر.

- ٢- النظرة الشهوانيّة: وتكون في منطقة الحوض والفخذين.

- ٣- النظرة المربكة: وتكون في الجبهة فوق العيون وهي نظرة السيطرة.

٤- مهارة قراءة العين:

- حركة الرموش: معدل حركة الرموش الطبيعيّة هي من ١٢ - ٢٠ مرة في الدقيقة؛ لكن عندما يكذب الإنسان ترمش عيناه بسرعة أكبر لأنّ هناك عضلة قريبة من مجرى الدمع تتحرك بشكل لا إراديّ عند التوتر مما يسبب حركة العضلات المحركة لرموش العين.

- حدقة العين: من المعلوم أنّ حدقة العين تتّسع في الظلام، وتضيق في النور؛ ولكن أثبتت الدراسات أنّ حدقة العين تتّسع وتضيق بحسب الاهتمام أيضاً.

○ حالات اتساع حدقة العين (مشاعر ايجابية قوية):

- عند رؤية شخص أو شيء نحبّه.
- عند سماع شيء يسعدنا أو نختّم به كثيراً.
- عند الشعور بالإثارة والابتهاج.
- عند القيام بأنشطة إيجابية يُسعدنا أدائها (إيجاد حلّ لمشكلة، اكتشاف شيء جديد.. إلخ)

○ حالات ضيق حدقة العين (مشاعر سلبية قوية):

- عند رؤية شخص أو شيء نكرهه.
 - عند الشعور بالغضب أو الضيق الشديد.
 - عند سماع شيء يبعث الضيق أو البغضاء في النفس.
- **بياض العينين:** تكون قزحيّة العين في المنتصف تماماً بين الجفن العلويّ والسفليّ بحيث يظهر بياض العين في جانبي الحدقة فقط، فلا يظهر فوقها أو أسفل منها، وهي دلالة على الصحة العقلية والاستقرار النفسيّ.
- إذا ظهر البياض أسفل القزحيّة بشكل مؤقت، فهذا يعني أنّ الشخص متوتّر ويعاني ضغطاً نفسيّة، فإذا ظهر البياض في عينٍ واحدة، فإن كان تحت العين اليمنى فهو يتعرض لضغوط في حياته العملية، وإن كان تحت اليسرى فهو يتعرض لضغوط في حياته الشخصية.
 - إذا ظهر البياض أسفل القزحيّة لمدة طويلة، فهذا يدلّ على وجود خللٍ أو اضطراب مستمرّ في الجهاز العصبيّ، أو خلل في مشاعر هذا الشخص مما قد يؤثّر على تفكيره وقراراته، وهذه السمة تجدها واضحة في الأشخاص الذين تعرضوا لكارثة أو مشكلة طويلة الأمد (أثناء الحروب، أو بعد الدمار الناتج عن إعصار أو زلزال، أو عند طفل لديه مشاكل أسريّة كبيرة ومستمرة.. إلخ).
 - إذا ظهر البياض أسفل القزحيّة لمدة طويلة وبدأ الجفن العلويّ يُخفي جزءاً من

القزحيّة، فهذا يدلّ على أنّ الشخص يخفي أو يكتُم شيئاً ما غير الذي يظهره، وقد تختلف نظرتَه للأمور عمّا يراه العالم من حوله، فما يؤمن به أو ما يعتقدُه هو أكثر وضوحاً في عقله من كلّ الذي حوله، ويركّز عليه أكثر من كلّ الذي حوله، وقد يكون على حافة الانفجار أو على حافة استخدام العنف إذا ما ظهرت عليه علامات الغضب الشديد مع استمرار الضغط النفسيّ عليه، وهذه السمة تجدها واضحة لدى مدمني المخدرات وغير الأسوياء نفسيّاً من المجرمين.

■ إذا ظهر بياض العين فوق القزحيّة، فهذا يدلّ على تعرّض الشخص للضغط النفسيّ مع استعداده ليكون عدوانيّاً وعنيفاً وقاسياً أيضاً، كأنّه مستعد ليخوض قتالاً أو معركة بمنتهى العنف والعدائيّة (لاحظ عيون لاعبي الملاكمة أو المصارعة أثناء المباريات العنيفة).

■ إذا ظهر بياض العين حول الحدقة في جميع الاتجاهات، فهذا يدلّ على انفصال الشخص عن وعيه وغياب إدراكه بالعالم من حوله، فهو في هذا الوقت يكون غير واعٍ بأفعاله وقراراته، وهو أمر خطير ويدلّ على أنّ هذا الشخص يتعرّض لصدمة نفسيّة قويّة جداً وتحت تأثير هذه الصدمة يمكنه أن يفعل أي شيء (أن يؤذي أو يخرّب أو يدمر.. إلخ) وهو غير مدرك بالمرّة.

- **حركة الحواجب:** للحواجب قيمة كبيرة في لغة الجسد، إلا أنّها تعطى إشارات أكيدة وربما تكون من أكثر اللغات التي نقابلها بل ونتعامل بها باستمرار..

■ رفع الحاجبين معاً عند السؤال عن القبول أو الرفض إشارة إلى الرفض، وقد يصاحب بإمالة الرأس نحو الأعلى إذا كان الرفض شديداً.

■ رفع كلا الحاجبين وخفضهما مع الابتسامة نوع من أنواع التحيّة عند غالب الشعوب.

■ ضمّ الحاجبين مع إغلاق العينين معاً (الغمز بالعينين) تودد بريء علنيّ، وغالباً ما يكون بين الآباء وأبنائهم أو الكبار والصغار عموماً.

■ ضمَّ أحد الحاجبين مع إغلاق العين (الغمز بعين واحدة) يشير إلى أمر خفي وغالبا غير بريء.

■ رفع أحد الحاجبين دون الآخر دليل على عدم تصديق ما سمعته للتو.

■ رفعهما معًا عند سماع خبر دليل الدهشة والتعجب وعدم التصديق.

■ رفع الحاجبين مع زَمْ الشفاه أيضا دليل على محاولة السيطرة على مشاعر الغضب.

■ اقتراب الحاجبان إحداهما من الآخر مع زَمْ الشفتين دليل على محاولة التركيز والتحكم في الانفعال.

■ إذا صاحب الوصف الأخير ابتسامة خفيفة، فذلك يدل على عدم تقبُّل الكلام الذي سمعه للتو أو عدم تصديقه مع الحرص على عدم جرح مشاعر المتحدث.

■ عقد الحاجبين مع الضغط على العينين وإحداث النظر يدلّ على الغضب المسيطر عليه.

■ عقد الحاجبين مع رفع الجفنين غضبٌ مؤكّد غير قابل للسيطرة.

هـ- مهارة توزيع النظر:

على المتحدث إلى مجموعة من الناس أن ينتبه إلى عدم تثبيت النظر إلى السقف أو إلى الأرض، فهذا يقطع التواصل معهم، ويعطي انطباعات سلبية عن المتحدث كخوفه من مواجهتهم أو تعاليه عليهم.

ويجب أن ينتبه إلى عدم تثبيت النظر إلى شخص بعينه لأنّ ذلك يعطي انطباعات لدى الباقين بعدم الاهتمام، والأمثل أن يوزع نظراته عليهم جميعًا ليشعروا بالاهتمام، ولكن يجب أن يكون التوزيع هادئًا لأنّ سرعة تغيير النظرة تعطي انطباعات عن قلق المتحدث.

ولا مانع من أن تخصّ الأشخاص المركزيين بمزيد من النظر والاهتمام دون اهمال الباقين.

ويجب أن يتعد بنظره عن الأشخاص المشاغبين كي لا يشوشوا عليه ويقطعوا تركيزه في موضوع حديثه.

والمسافة المناسبة لمخاطبة الجمهور أن يبتعد الخطيب مسافة كافية تمكنه من التواصل البصري مع أكبر عدد ممكن من السامعين، مما يجعل عددًا كبيرًا منهم يظنون أنه ينظر إليهم كل على حدة أثناء حديثه.

ثالثًا: **الفم والشففتان**: يدخل الفم مع الشفتين في كثير من تعابير الوجه كالسرور والحزن والمحبة والاشمئزاز والغضب والتعجب وغيرها... وأهم هذه التعابير:

١- التَّبَسُّمُ وَالضَّحْكُ

ورد هذان التعبيران الجسديان في مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: { حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } [النمل: ١٨، ١٩]

وقال تعالى في حق زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام: { وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ } [هود: ٧١]

وقال عز وجل: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ } [الزخرف: ٤٦، ٤٧]

وقال سبحانه: { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ } [المطففين: ٢٩، ٣٠]

وكذلك فقد وردا في عددٍ من الأحاديث النبوية الشريفة حتى أن البخاري رحمه الله عقد لهما في صحيحه بابًا في كتاب الأدب، فقال: **بَابُ التَّبَسُّمِ وَالضَّحِكِ**، وأورد تحته مجموعة من الأحاديث في مشروعية التبسم والضحك وآدابهما؛ فذكر في الباب تسعة أحاديث وفي جميعها ذكر التبسم أو الضحك، وأسبابها المختلفة لكن أكثرها للتعجب، وبعضها للإعجاب، وبعضها للملاطفة^(١).

(١) انظر فتح الباري لابن حجر (١٧/ ٢٥٧)

والضَّحْكُ أَعَمُّ مِنَ التَّبَسُّمِ، فَكُلُّ تَبَسُّمٍ ضَحْكٌ، وَلَيْسَ كُلُّ ضَحْكٍ تَبَسُّمًا، لِذَلِكَ قَدْ يُطْلَقُ الضَّحْكُ أحياناً ويراد به التَّبَسُّمُ.

وفي تعريفهما والتمييز بينهما قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: التَّبَسُّمُ مَبَادِي الضَّحْكِ، وَالضَّحْكُ انْبِسَاطُ الْوَجْهِ حَتَّى تَظْهَرَ الْأَسْنَانُ مِنَ السُّرُورِ، فَإِنْ كَانَ بِصَوْتٍ وَكَانَ بِحَيْثُ يُسْمَعُ مِنْ بُعْدٍ فَهُوَ الْقَهْقَهَةُ وَإِلَّا فَهُوَ الضَّحْكُ، وَإِنْ كَانَ بِلَا صَوْتٍ فَهُوَ التَّبَسُّمُ، وَتُسَمَّى الْأَسْنَانُ فِي مُقَدِّمِ الْقَمِ الضَّوَاحِكِ وَهِيَ الثَّنَايَا وَالْأَنْيَابُ وَمَا يَلِيهَا وَتُسَمَّى النَّوَاجِدُ (١).

أ- خصائص التَّبَسُّمِ والضَّحْكِ في لغة الجسد:

■ التَّبَسُّمُ والضَّحْكُ الطَّبِيعِيَّانِ وَالْمَرْضِيَّانِ:

التَّبَسُّمُ والضَّحْكُ من مظاهر التأثير النفسي الطبيعي بسماع خبر أو رؤية مشهد، وقد يحدث أحدهما أو كلاهما عند تذكُّر الخبر أو الموقف الذي يستدعي ذلك التأثير، وأحياناً يحصل لدى البعض بمجرد تخيل الموقف.

وأما الحالة المرضية: بعض الأشخاص يستمرّون بالتَّبَسُّمِ أو الضَّحْكِ في جميع المواقف حتى التي تتطلب التَّجَهُّمَ أو الوجوم، بما يعطي انطباعاً بأنَّهم منفصلين عن الواقع ويشير بوضوح إلى مشكلة عقلية أو نفسية.

■ الابتسامة عطاء:

الابتسامة رسالة إيجابية بشكل عام وسرّ من أسرار النجاح الاجتماعي والقبول العام، وهي من أهم مظاهر الدعاة إلى الله وتعكس طلاقة الوجه وبشره. قال عبد الله بن الحارث: «رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» (٢).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ» (٣).

وروي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّكُمْ لَنْ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَسْعُهُمْ

(١) فتح الباري لابن حجر (١٧ / ٢٥٧)

(٢) مسند أحمد (٢٩ / ٢٤٥) رقم ١٧٧٠٤، سنن الترمذي (٥ / ٦٠١) رقم ٣٦٤١ وقال حسن غريب.

(٣) صحيح مسلم (٤ / ٢٠٢٦) رقم ٢٦٢٦

مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحَسَنُ الْخَلْقِ»^(١).

وكان ابنُ عمر - رضي الله عنهما - يقول: البرُّ شيءٌ هَيْنٌ: وجهٌ طليقٌ وكلامٌ لَيِّنٌ. (٢)

٢

وما أصدق قول القائل:

٣

وما اكتسب المحامد طالبوها... بمثل البشر والوجه الطليق (٣).

■ **الابتسامة مُعدية:** إذا ابتسمت لإنسان فسوف يبتسم لك، فهل الابتسامة معدية؟

أجرى البرفيسور ألف ديمبرج من جامعة Uppsala بالسويد تجربة أظهرت أن العقل اللاواعي له تحكّم مباشر في عضلات الوجه.

وباستخدامه جهاز يلتقط الاشارات الكهربيّة من أنسجة العضلات، قام بقياس عضلات الوجه لدى ١٢٠ متطوعاً عند مشاهدتهم صوراً لوجوه سعيدة وغاضبة.

وكان يطلب إليهم أن يعبسوا أو يبتسموا أو يجعلوا وجوههم بدون تعبير أثناء مشاهدة هذه الصور؛ فأظهرت النتائج أنه لم يكن للمتطوعين تحكّم كامل في عضلات الوجه. فبينما كان من السهل التجهّم عند مشاهدة صور رجل غاضب، كان الابتسام أصعب كثيراً. وعلى الرغم من أنّ المتطوعين كانوا يحاولون عمدًا (في الوعي) التحكم في ردود أفعالهم الطبيعيّة، كانت ارتعاشات عضلات وجوههم تقول شيئاً آخر، فكانوا يعكسون كالمراة التعبيرات التي يرونها، حتى عندما كانوا يحاولون عدم فعل ذلك.

ويعتقد البروفيسور راث كامبل، من يونيفرسيتي كوليدج لندن University College

(١) أخرجه البزار كما في مجمع الزوائد (٢٢/٨)، قال الهيثمي: فيه عبد الله بن سعيد المقبري، وهو ضعيف. أبو نعيم في الحلية (٢٥/١٠)، والحاكم (٢١٢/١)، رقم (٤٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٣/٦)، رقم (٨٠٥٤).

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٥٧١، تحقيق: د ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير، ط ١، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م

(٣) غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة لابي إسحاق جمال الدين محمد بن إبراهيم الكتبي المعروف بالوظاوط (ص: ٢٢)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلميّة - لبنان، ط ١ - عام ٢٠٠٨ م

London، أن هناك خلية عصبية عاكسة في المخّ تثير الجزء المسؤول عن التعرّف على الوجوه والتعبيرات، وتسبب رد الفعل فوراً مماثلاً.

ولهذا تعتبر الابتسامة المستمرة شيئاً مهماً كجزء من ذخيرة لغة الجسد لديك. حتى عندما لا تشعر أنك ترغب في الابتسام، لأنّ التبسّم يؤثر مباشرة على مواقف الآخرين. وعلى طريقة استجابتهم لك وتفاعلهم معك^(١)

■ الابتسامة العفوية والمصطنعة:

قد تصدر الابتسامة بشكل عفويّ عند السرور أو الاستحسان لأمر أو والرضى به، وقد تكون مصطنعةً للمجاملة الاجتماعية، وقد تكون عن مكر ودهاء وتخفي وراءها مشاعر غيظ أو غضب ومنها ما أشار إليه أبو تمام بقوله:

قد قَلَصْتُ شَفَتَاهُ مِنْ حَفِيزَتِهِ... فَخِيلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْبِيسِ مُبْتَسِماً

وصاغه المتنبي بقوله:

وَجَاهِلٍ مَدَّةً فِي جَهْلِهِ ضَحِكِي حَتَّى أَتَتْهُ يَدُ فَرَّاسَةٍ وَفَمُ
إِذَا رَأَيْتَ نِيَوْبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنِّي أَنَّ اللَّيْثَ يَبْتَسِمُ

■ ما يذم في الضحك:

من المهم أن لاتمنع نفسك من الضحك الانفعالي الطبيعي، ولكن يذم في

الضحك:

- كثرته: لأنّ ذلك يشعر بهزلية الشخص، وعدم قدرته على التحكم بنفسه أو انفصاله عن الواقع.

- المبالغة فيه: بزيادة فتح الفم أو زيادة رفع الصوت إلى درجة القهقهة، أو بطول مدّة

الضحك، ومن صفات النبي ﷺ الضحك المعتدل فقد كان "جُلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ وَيَقْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الْعَمَامِ"^(٢).

٢

(١) المرجع الأكيد في لغة الجسد - آلان وباربارا بيبز ص ٧١

(٢) من وصف هند بن أبي هالة لرسول الله ﷺ - الثقات لابن حبان (٢/ ١٤٧)، تاريخ دمشق لابن عساكر (٣/

■ الابتسامة والصحة الإيمانية:

الابتسامة الدائمة تعدّ من سمات الرضى عن الله، ومن علامات حسن الظنّ بالله، وتشفّ عن نظرة التفاؤل بالقادم، والقناعة بالواقع، والرضى عن الفائت، وصاحب الابتسامة الدائمة لا تصرفه السلبيات عن النظر إلى الإيجابيات، ولا يقيم الكأس بنصفها الفارغ بل ينظر إلى نصفها الممتلئ، وهو لا يقارن بمن هم فوقه في أمور الدنيا أي بالغنى والجاه والجمال والصحة والأولاد بل يقارن نفسه بمن هم دونه ليحمد الله دومًا ويتسمّى رضى عن الله. وفي الحديث: (انظرْ إلى من تحتك، ولا تنظر إلى من فوقك، فإنّه أجدر أن لا تزدرى نعمة الله عندك)^(١).

من الجميل أن تنقل بابتسامتك عدوى التفاؤل للآخرين، وأن تنشر بينهم ثقافة القناعة والرضى عن الله. ومن أجمل دعوات التبسم في الأدب العربيّ المعاصر ما جاء على لسان الشاعر إيليا أبو ماضي^(٢):

قال: السَّماءُ كَثِيبةٌ وَتَجَهَّمَا	قُلْتُ: اِبْتَسِمْ يَكْفِي التَّجَهَّمُ فِي السَّما
قال: الصِّبا وَلِيّ، فَقُلْتُ لَهُ: اِبْتَسِم	لَنْ يُرْجَعَ الْأَسْفُ الصِّبا الْمُتَصَرِّما
قال: الَّتِي كَانَتْ سَمَائِي فِي الْهَوَى	صَارَتْ لِنَفْسِي فِي الْعَرَامِ جَهَنَّمَا
خَانَتْ عُهُودِي بَعْدَ مَا مَلَكْتُهَا	قَلْبِي فَكَيْفَ أُطِيقُ أَنْ أَتَبَسَّما؟!
قُلْتُ: اِبْتَسِمْ وَاطْرَبْ فَلَوْ قَارَنْتَهَا	قَضَّيْتُ عُمْرَكَ كُلَّهُ مُتَأَلِّما
قال: الْعِدَى حَوْلِي عَلَتْ صَيَحَاتُهُمْ	أَأَسْرُ وَالْأَعْدَاءُ حَوْلِي فِي الْحِمَى؟!
قُلْتُ: اِبْتَسِمْ لَمْ يَطْلُبُوكَ بِذَمِّهِمْ	لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ أَجَلٌ وَأَعْظَمَا
قال: اللَّيَالِي جَرَّعَتْنِي عَلَقَمًا	قُلْتُ: اِبْتَسِمْ وَلَيْنَ جَرَّعَتْ

(١) صحيح ابن حبان (٧٦ / ٢) رقم ٣٦١

(٢) إيليا بن ضاهر أبي ماضي. (١٨٨٩م - ١٩٥٧م) من كبار شعراء المهجر. ومن أعضاء (الرابطة القلمية) فيه. ولد في قرية (المحيثنة) ببلدان. وسكن الإسكندرية (سنة ١٩٠٠م). وأولع بالأدب والشعر حفظاً ومطالعةً ونظماً. وهاجر إلى أميركا (١٩١١م)، عمل في جريدة (مرآة الغرب) ثم أصدر جريدة (السمير) (سنة ١٩٢٩م). له عدة دواوين شعرية: (تذكار الماضي - ط) و (ديوان أبي ماضي - ط) و (الجدائل - ط) و (الخمائل - ط).

فَلَعَلَّ غَيْرَكَ إِنْ رَأَى مُرَمِّمًا طَرَحَ الْكَابَّةَ جَانِبًا وَتَرَمَّمَا
أَتَرَكَ تَغْنَمَ بِالتَّبَرُّمِ دِرْهَمًا أَمْ أَنْتَ تَخْسَرُ بِالْبِشَاشَةِ مَغْنَمًا؟!
يَا صَاحِ لَا خَطَرَ عَلَى شَفَتَيْكَ أَنْ تَتَشَلَّمَا، وَالْوَجْهَ أَنْ يَتَحَطَّمَا
فَإِضْحَكُ فَإِنَّ الشُّهْبَ تَضَحُّكَ وَالْذُّجَى مُتَلَاظِمٌ وَلِذَا نُحِبُّ الْأَنْجُمَا

ب- وأخيرًا - من فوائد الابتسامة وبشاشة الوجه:

- ١- يبدو الوجه أكثر جمالاً وجاذبيةً.
- ٢- تشجع الآخرين على فتح اتصال جديد.
- ٣- تذيب الجليد بين الأشخاص وتفتح الباب لتواصلٍ شفيف.
- ٤- تُلطف جوَّ الحوار أو التفاوض وتحسِّن ظروف جوِّ العمل.

٢- التقبيل:

التقبيل من وظائف الشفتين وهو من خصائص البشر، فالحيوانات عمومًا لا تمارس التقبيل، والتقبيل رسالة تعكس حالةً من الخصوصية بين الطرفين، ويعكس حالة تقاربٍ أو قرابةٍ بينهما.

والقبلة بين الزوجين قد تنهي حربًا ضروسًا قبل أن تبدأ، والقبلة بين الأخوة تغني عن جرائد من الاعتذار، والقبلة بين الأصحاب تطوي سجلات من العتب. والتقبيل يقع بين أفراد الجنس الواحد وبين أفراد الجنسين.

ويقسم التقبيل بحسب الغرض منه إلى:

- ١- التقبيل بغرض اللذة: جوازه محصور في إطار الحلال (العلاقة الزوجية):
هو مستحبٌ لما هو معروف من هديه ﷺ في معاشرته أزواجه (١).
- ٢- التقبيل بغرض إنسانيٍّ (كالا احترام والتعاطف والمودة والرحمة والحنان...):
- وهو مستحبٌ بين الزوجين فالحياة الزوجية ليست مجرد غريزة شهوانية، بل هي مودة

(١) انظر زاد المعاد (٤ / ٢٢٨)

ورحمة، ولا توجد رسالة أبلغ في الاحترام من قبلة الرجل رأس زوجته بعد يوم طويل من العمل في البيت وتربية الأولاد، أو من قبلة تطبعها الزوجة على يد زوجها الحشنة بعد يوم طويل من التعب والكدح في سبيل الرزق.

- وهو مستحبٌ كذلك بين المحارم من الأقارب والأرحام كقبلة الأب لابنته، وقبلة الأخ لأخته، وابن الأخ لعمته، وابن الأخت لخالته، وبالعكس، فهذه القبلة تعزز أواصر العلاقات الأسرية، وتضفي جوًّا من المودة والحنان على علاقات القرابة. ومما يدلّ على مشروعيتها:

- أنّ النبي ﷺ كان إذا دخلت عليه -ابنته فاطمة- قامَ إليها فأخذ بيدها، وقبلها، وأجلسها في مجلسه. (١)
- وقد صحّ أنّ أبا بكر رضي الله عنه دخل على أهله، فإذا عائشة ابنته مضطجعة قد أصابتها حمى فقبلها في خدّها. (٢)

٣- التقبيل بغرض التقرب إلى الله: كاستحباب تقبيل يد الأب والأمّ برًّا بهما.

وموضع القبلة يعبر عن طبيعة العلاقة:

- ١- التقبيل في الفم يعبر عن علاقة حميمية.
 - ٢- التقبيل في الخدّ يعبر عن علاقة قرابة قريبة جدًّا، ويكون بين الآباء والبنات، والأبناء والأمهات.
 - ٣- التقبيل في الجبين والرأس يعبر عن قرابة مع احترام ويكون بين الشخص وأعمامه وأخواله، وعماته وخالاته.
 - ٤- التقبيل في اليد للاحترام ويكون للأمهات والآباء والعلماء الربانيين.
- وأخيرًا فالقبلة: يمكن أن تعبر عن: غريزة الإنسان من جهة، وعن عاطفته وإنسانيته من جهة ثانية، وعن رقيه وأخلاقه وتديّنه من جهة ثالثة.

(١) سنن أبي داود (٢/ ٧٧٦) رقم ٥٢١٧

(٢) انظر صحيح البخاري (٣/ ١٤٢٦) رقم ٣٧٠٤

٣- ملامح أخرى للشفيتين:

- مطّ الشفتين إلى الخارج: أحد ملامح الحزن وسوء المزاج، وكذلك أحد رسائل اللامبالاة، فإن كان المطّ على هيئة إنشاء الصغير تدلّ على الاستغراب أو التكذيب.
- العضّ على الشفتين: يشير إلى التوتر أو الخوف أو القلق.
- فتح الشفتين مع اغلاق الفكين: يشير إلى الغضب والاضطراب.
- فتح الشفتين مع فتح الفم: أحد ملامح الدهشة أو الاستغراب أو تكذيب المتحدث.

- ترطيب الشفتين باللسان أثناء الحديث: يشير إلى قلق المتحدث أو خوفه لأنّ الجفاف ناتج عن إفراز هرمونات تؤدي إلى الإحساس بالجفاف، وقد يكون ذلك علامة على كذب المتحدث لأنّ الكاذب يخاف أن يكشف السامع كذبه، ولذلك فإنّ بعض الصحفيين والسياسيين يستعملون مُرطّب الشفاه قبل الظهور الإعلامي.

المطلب الرابع: لغة اليد والأصابع

- اليد من أهم وسائل التعبير في لغة الجسد، فهزّت اليد في المصافحة مع قوة ضغطها يمكن أن تعبر عن مقدار حفاوة في العلاقات الودية بين الأهل والأقارب والأصدقاء، ويمكن أن تعبّر عن القوة والسيطرة أو الخضوع في علاقات العمل والتفاوض.
- لطالما كانت اليد المبسوطة مرتبطة بالصدق والسلام والكرم والنظافة، ولذلك فإنّ رفع اليد المبسوطة تستعمل للتحية أو تستعمل لأداء القسم، وفي بعض ثقافات الشعوب تُوضع اليد المفتوحة على القلب عند الإدلاء بالشهادة أو القسم للدلالة على الصدق.
- وللأصابع مع اليدين دور مهمّ جدًا في لغة الإشارة العامة، وفي لغة الصم والبكم على وجه الخصوص وقد وضع العلماء رموزًا كثيرة بالأصابع للأحرف والكلمات في هذه اللغة وهي ليست موضع دراستنا وإن كانت تدلّ على أهميّة اليد والأصابع في لغة الجسد.
- وقد يوصل الإنسان رسالته بالإشارة دون حاجة إلى النطق، وقد يدعم العبارة بالإشارة ليزيد وضوحها وتأثيرها في السامع.

وتقسم حركة اليد والأصابع إلى:

١- حركة إرادية: وهي الإشارة المقصودة وهي كثيرة جدًا ومنها:

- هز القبضة للتهديد أو لإظهار القوة.
- التلويح باليد والأصابع مفتوحة للتوديع.
- الإشارة بالإصبع المسبحة إلى التوحيد.
- الإشارة بالسبابة والوسطى إلى علامة النصر أو الشهادة.
- الإشارة بالإبهام إلى علامة الموافقة (like):

وتعرف عند العرب بالضؤيط؛ قال الثعالبي: فإذا قَبَضَ أَصَابِعُهُ وَرَفَعَ الإِبْهَامَ خَاصَّةً فَهُوَ الضُّؤِيطُ^(١). ودلالاتها عند العرب على تحقق القبول التام، فقد جاء في تاريخ الإمام يحيى بن معين: «سمعتُ عباسًا يقول: سمعتُ أحمد بن حنبل يقول وهو على باب أبي النضر وسأله رجل فقال: يا أبا عبد الله ما تقول في محمد بن إسحاق وموسى بن عبيدة الربذي؟ فقال: أما موسى بن عبيدة فكان رجلًا صالحًا حدث بأحاديث منكير. وأما محمد ابن إسحاق فيُكتب عنه هذه الأحاديث يعني المغازي ونحوها.. فإذا جاء الحلال والحرام أردنا قومًا هكذا، قال أحمد بن حنبل بيده وضَمَّ يديه، وأقام أصابعه الإبهامين»^(٢)

- الإشارة بالسبابة إلى الشفتين للتسكيت.

- وضع الأصابع في الأذنين إشارة لرفض السماع والتواصل مع الآخر.
- الإشارة بالسبابة إلى العين لتقول للآخر إنه تحت المراقبة.
- العقد بين السبابة والإبهام مع فتح باقي الأصابع للتهديد.
- وضع الخاتم في البنصر له دلالات تتعلق بالخطبة والزواج، والإشارة بالإصبع الذي فيه الخاتم رسالة للآخر إلى وجود ارتباط.

(١) فقه اللغة للثعالبي ص ١٣٤، الباب التاسع عشر، الفصل الثامن "في تَفْصِيلِ حَرَكَاتِ اليَدِ وَأَشْكَالِ وَضْعِهَا وَتَرْتِيبِهَا".

(٢) تاريخ الإمام يحيى بن معين، رواية الدوري، تحقيق: د. أحمد محمد نور سيف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - مكة المكرمة، الطبعة الأولى: ١٣٩٩ - ١٩٧٩ (٢٤٧/٣) رقم الترجمة (١١٦١).

٢- حركة غير إرادية:

- اهتزاز الأصابع: أو ما يعرف بالرجفان دليل على وجود مرض أو جوع شديد أو وجود قلق أو خوف شديدين
- انفتاح الكفين خلال التحدث باتجاه الأعلى: من أهمّ الدلالات التي تعكس مدى صدق المتحدث. لذلك نجد حرص الكثير من الزعماء ورؤساء الدول على الحفاظ على وضعيّة اليد والذراعين بانفتاح، بينما من يحاول إخفاء يده في جيبه أو وراء ظهره أو حاجز يخفي شيئاً في حديثه، فاعلم أن الأمر ينقصه الكثير من الحقيقة.
- انفتاح اليدين بحيث يكون الكف باتجاه الأسفل: له دلالة ممارسة السلطة والرغبة في السيطرة، واشتهر بها هتلر والكثير أيضاً من الزعماء والقياديين ورجال الأعمال.
- وضع اليد اليمنى فوق اليسرى: من أشهر حركات اليد في المواقف الرسميّة عندما يشعر الشخص بالوحدة أو الصمت. يميل إليها الشخص في وقفة ثبات ليستمد دعمه لنفسه والحفاظ على هدوئه النسبي. وتدلّ أيضاً على الاحترام والتقدير حين يكون الشخص في حالة جلوس واسترخاء في ملامح الوجه فتساعد على تسلسل الأفكار.
- تكثيف اليدين أمام الصدر: دليل على الاستعداد للدفاع عن النفس، وقد يكون دليلاً أيضاً على الانغلاق على الذات وعدم الرغبة في الانخراط بالمحيطين في محاولة دائماً لحماية الذات.
- فرك راحتي اليدين بعضهما ببعض: من الحركات اللاإرادية التي تصدر من الشخص في حالة التشوق لمعرفة خبر ما أو توقع نتائج يتوق إليها.
- تشابك أصابع الكفين: قد يدلّ على التوجّس والترقب، خاصة اذا صاحبته ملامح أكثر جدية مع ارتفاع اليدين بهذه الهيئة لتستقر تحت الذقن فقد يصل إلى قمة الاحباط وتقلّ بانخفاضها نحو الصدر وما يليه.
- السير ووضع اليدين في الجيوب مع الانحناء باتجاه الأمام: يدلّ على حالة من الاكتئاب وضعف التواصل مع المحيط الخارجي، فتفكير الشخص وتركيزه حينها يكون

محصوراً في داخله.

- **تقابل أصابع اليدين بعضها ببعض:** يشتهر بها المديرون في الاجتماعات والمحاورون لدلالاتها على الثقة والعمق، وتساهم أيضاً في تبديد التوتر والقلق، وتساعد على تسلسل الأفكار.

- **قبضة اليد المغلقة:** تدلّ كثيراً على التوتر والغضب، ويعاني صاحبها في حينها من توقف سلسلة الأفكار وقد يستخدمها البعض في شحن الآخرين بالغضب والثر.

- **ظهور الإبهام من وضعيّة اليد في الجيب أو تركه حرّاً مع قبض باقي الأصابع:** دلالة على الشعور بالذات والاعتزاز بالنفس، ويظهر كثيراً لدى الأثرياء وأصحاب النفوذ.

- **لمس الأنف وتغطية الوجه:** تميل حركة اليد لدى الكاذب بلمس الأنف أو محيط الذقن وأحياناً كثيرة قد يخفي الوجه براحة اليد.

- **لمس الرقبة:** وضع الشخص اليدين أو إحداها على رقبته أثناء الحوار، فيدلّ هذا على أنّ الشخص بدأ يقتنع بكلام الذي أمامه، وبدأ بالتخلّي عن موقفه.

- **إشهار السبابة:** من أشهر علامات التهديد التي قد يقع فيها المحاضرون والمتحدثون في وجه الآخرين والتي تجعل الجمهور في حالة الحضور في نفور إذا اعتاد تكرارها وقد يفقد المتحدث القدرة على التأثير ويلقى حالة من الرفض لا يعلم مصدرها.

ولا تعدّ هذه مجمل حركات اليد، بل الأشهر تأثيراً والتي يترجمها الإنسان بشكل غير إرادي في أغلب الأحيان ليحاكي ما بداخله من أفكار ومشاعر. وبالتالي درسها المتخصصون لجعلوها عادات حميدة يقتدى بها أو لتجنب السيئ منها خاصة إذا كان في موقف قيادي مؤثر.

المطلب الخامس - الساحات الشخصية أو مناطق النفوذ:

الساحة الشخصية: هي المنطقة التي تحيط بالفرد ويعتبرها ملكاً له وجزءاً منه، والتي يسمح للناس بالدخول فيها حسب قوة علاقته بهم .

وقد ظهر هذا المفهوم المعروف باسم Proxemics - التقارب الجسدي - في عالم لغة الجسد على يد البروفيسور إدوارد هول Edward T. Hall في عام ١٩٦٦م، في دراسة تقيس المسافة الفيزيائية بين الناس في سياقات اجتماعية مختلفة .

هذه الساحات مرتبطة بمستوى الأمان والثقة مع الآخرين، فلكل إنسان ساحاته التي يسمح للبعض بدخولها بحسب طبيعة علاقته بهم.

إنّ التعدي على الساحة الشخصية يُعدّ الاستراتيجية المفضّلة لدى معظم من يريدون إظهار سيطرتهم على الآخرين، ولهذا الغزو أثر كبير على الناحية النفسية إذ يسبب ضغطاً نفسياً كبيراً، وكثيراً ما يلجأ المحققون لهذا الأسلوب كي يفقدوا المتهمين توازنهم ويسرعوا من اعترافهم .

نفس الأسلوب يلجأ له الأشخاص المسيطرون والعدائيون الذين يريدون أن يمتلكوك، لذلك عندما تجد نفسك في وضع كهذا عليك أن تجد طريقة فيزيائية لمنع من يتعدى عليك، مثل الابتعاد أو الحديث من وراء حاجز أو تجنب الاتصال المباشر بهم أو ضمان وجود طرف ثالث عند الحاجة للقاء.

لكن قد لا يكون الأمر سلبياً جداً دائماً، قد يكون أحدهم معجباً بك أو راغباً بصداقتك ولأجل هذا يتعدّى ساحتك الشخصية بشكل بسيط وتدرجي، إذا كنت تبادلته الشعور فلا تقلق كثيراً، هو يريد أن يكون بقربك فحسب وأن ينتقل إلى مسافة شخصية أقرب إليك، وليس راغباً بالسيطرة عليك أو امتلاكك.

أقسام الساحات الشخصية:

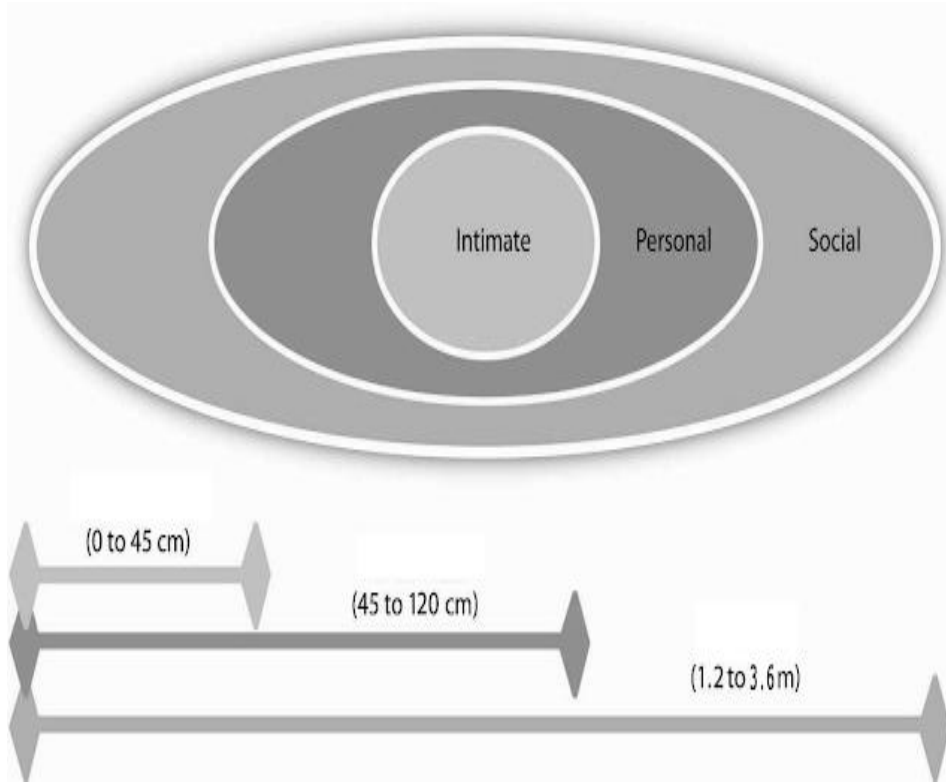
تقسم الساحات -بحسب هال- إلى أربع ساحات:

- الساحة الحميمية: (من ١٥ سم إلى ٤٥ سم) وتُعرف وهي محجوزة للمحبوبين والعائلة والأطفال فحسب.

- ساحة الصداقة: (من ٤٥ سم إلى ١,٢ م) وهي مخصصة للأصدقاء والزملاء، ونستطيع أن نلاحظ هذه المسافة كثيراً في حياتنا اليومية.

- **الساحة الاجتماعية:** (من ١,٢ م إلى ٣,٦ م) وهي المسافة مخصصة للمعارف الجدد، أو للغرباء، الناس الذين لا نشعر حقاً بالثقة اتجاههم، مثل المسافة بين الزبون والبائع، أو المسافة الموجودة في مقابلة عمل أو المسافة الموجودة عند التعرف إلى زميل دراسي جديد.

- **ساحة الجمهور:** (أكثر من ٣,٦ م) وهي مخصصة للجمهور، عند إعطاء محاضرة أو تقديم عرض أو الحديث إلى جمهور عام.



المطلب السادس - استعمال مهارات لغة الجسد في دعم عمليات التواصل اللفظي:

أثناء التواصل اللغوي مع الآخرين من المهم أن نستعمل مهارات لغة الجسد في تدعيم الرسائل اللفظية من جهة وفي كسب الثقة والمودة من جهة أخرى، ومن ذلك:

١- **الابتسامة اللطيفة:** استثمر الابتسامة في سوق التواصل الإنساني ولن تخسر أبداً، لا تدخل مركز عملك إلا مبتسماً، ولا تدخل على أسرتك إلا مبتسماً، ولا تفاوض إلا وأنت مبتسم.

٢- **النظرة الودودة:** للنظرة اللينة الودودة دور كبير في نجاح عملية التواصل، لذلك لا تصرف نظرك عن المستقبل، النظرة رسالة اهتمام وقطع التواصل البصري بإغماض العين لأكثر من اثنتين أو إبعاد النظر إلى أماكن أخرى غالبا ما يفسد عملية التواصل. ومن المهم حسن توزيع النظرات أثناء التحدث إلى الجمهور.

٣- **الوقوف الواثق:** انتصاب القامة أثناء الوقوف أمام الجمهور يعطي إحساسًا بالثقة بالنفس ويشعر بالتمكّن، ولكن من المهم أن تميل بوزنك إلى الأمام لأن ذلك يُشعر باهتمامك بمن تتحدث إليهم.

٤- **الحركة المرنة:** تحرّك من وراء طاولتك أو منصتك، امشِ بين جمهورك إن استطعت، لأنك بذلك تتنازل عن مساحات نفوذك، والجمهور سيقدر لك ذلك ويقابلك بمزيد من الودّ.

٥- **اليد المبسوطة:** تحدّث وتفاعل مع كلامك بيدين مبسوطتين، فاليد المفتوحة تشي بسماحة النفس وانفتاحها على الآخر.

٦- **المظهر اللائق:** لأناقة المظهر أثر كبير في تشكيل الانطباع الأولي عن الشخص، لذلك لا تخرج إلى مقابلة الناس قبل أن تنظر في المرآة، تأكّد من تسريحة شعرك، انتبه لنظافة أنفك، ونظافة أسنانك من بقايا الطعام، ونظافة أظافرك، أما بالنسبة للباس فهو يغطي تقريبا ٩٠% من مساحة جسدك، لكن يجب أن تعرف أنّ نوع اللباس وشكله ولونه قد يساعدك في انجاح عمليات التواصل الإنساني وقد يشكّل إعاقة للتواصل، وأناقة اللباس ترتبط بأمور:

١- **النظافة:** لأنّ النفوس تنفر من القذر والأوساخ، وتنجذب للإنسان النظيف.

٢- **البساطة:** وهي لا ترتبط بثمن الأقمشة بل ترتبط ببساطة تصميمها.

٣- **التناسق اللوني والحجمي:** أ-التناسق اللوني: بحيث يراعى في ألوان الثياب تناسبها مع لون البشرة، وتناسب ألوان قطع الثياب نفسها مع بعضها.
ب-التناسق الحجمي: في تناسب الطول والعرض مع حجم أعضاء الجسم.

المطلب السابع: التواصل اللفظي غير اللغوي

يحتاج الطفل بعد ولادته إلى عدّة شهور من التدريب لينطق بكلمة بسيطة مثل ماما، ولكنّه من اللحظة الأولى في حياته يبدأ بالبكاء دون سابق تعليم أو تدريب، ليكون البكاء أوّل تعبير صوتي عن وجوده، إنه بهذا البكاء يبدأ بتشغيل رثيته وتنظيفهما، ويستدرّ رحمة أمّه وتعاطف المجتمع من حوله.

وإذا كان بكاء حديثي الولادة في عرف الأطباء أمرًا طبيعيًا يدلّ على صحّة الطفل، إلا أنّه يشكّل علامة إنسانيّة فارقة لأنّه غير معهود عند حديثي الولادة من باقي أنواع الحيوانات، ومع مرور الوقت طوّر الإنسان مهاراته مستفيدًا من خصائص جسده، فاستعمل:

- ١- الصراخ للدلالة على وجود خطر
- ٢- النحيب للدلالة على وجود حزن
- ٣- العويل للدلالة على وجود مصيبة
- ٤- الزغاريد للدلالة على الفرح
- ٥- النحنحة أو القحة للتنبيه على وجوده
- ٦- الدندنة للدلالة على الطرب
- ٧- الصفير للفت النظر
- ٨- التصفيق لطلب شخص كالخادم أو النادل، والتصفيق للتعبير عن الحماس أو الرضى كالتصفيق للشاعر أو المغني.
- ٩- ضرب الجرس لإعلان بدء الدرس أو دخول وقت الصلاة عند بعض الديانات
- ١٠- زمور الإسعاف (واو - واو) للدلالة على مرور سيارة إسعاف.

المطلب الثامن: مهارة قراءة لغة الجسد بين المرأة والرجل

يمكن أن يُعبّر عن هذه المهارة بقوة الملاحظة أو قوة الحدس أو سرعة البديهة في التقاط رسائل الجسد، وبشكل عام تعدّ المرأة أمهر من الرجل في قراءة لغة الجسد وهو ما

يُعرف " بحدس المرأة" فهي تمتلك قدرة خاصة على فك الشيفرات غير اللفظية وعلى رؤية التفاصيل الصغيرة بدقة، ولذلك قليل من الرجال يمتلكون القدرة على الكذب على زوجاتهم في حين تستطيع معظم النساء خداع أزواجهن دون أن يشعرن بذلك.

في جامعة هارفارد تم عرض فيلم قصير لحوار بين رجل وامرأة بدون صوت وطلبوا من المشاركين في الاستبيان أن يفسروا ما دار بينهما اعتماداً على لغة الجسد، فكانت النتائج أنّ النساء المشاركات استطعن قراءة الموقف بدقة ٨٧%، بينما أحرز الرجال دقة ٤٢% فقط.

كما تبين أن الرجال الذين يعملون في قطاع التربية والتمريض ممن لهم رعاية للأطفال يمتلكون دقة مقاربة للنساء في قراءة لغة الجسد.

يبدو أنّ المرأة ولا سيما الأمّ تتعزز ملكتها الفطرية (الحدس) لأنها تعتمد على لغة الجسد في تربية الطفل والتعرف على احتياجاته فهي تمارس لغة الإشارة وقراءة تعابير الجسد مبكراً.^(١)

المبحث الثاني

التواصل اللفظي (اللغوي) ومهاراته

لقد أكرم الله الإنسان بالناطقة للإفصاح عما في نفسه من معان وأفكار وعن الأشياء المحيطة به مما أدى إلى تشكل اللغات الإنسانية،

ولذلك فقد امتنّ الله تعالى بعد نعمة الخلق بنعمة النطق: قال تعالى:

{الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} [الرحمن: ١ -

٤]، فالبيان هو النطق الظاهر الذي يترجم عن المعنى الباطن. قال الشاعر:

إنّ الكلام لفي الفؤاد وإنّما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

ولذلك فإنّ ارتباط التفكير وهو النطق الداخلي (المعاني) بالنطق الخارجي

(١) المرجع الأكيد في لغة الجسد - آلان وباربارا بيبز - مكتبة جرير ط ١ - ص ١٣ - ١٤

(الألفاظ) يعبر عن القوة العقلية للإنسان، فالجاهل قد يلبس زي العلماء، ولكن ذلك لا يجعل منه عالماً، وإن أراد أن يقال يوصف بذلك لأنه سيفتضح أمره عند النطق والكلام؛ لذلك قالوا: المرء تحت طي لسانه لا تحت طيلسانه ولذلك ينسب إلى أرسطو قوله: " تكلم كي أراك".

والتواصل اللفظي يقسم إلى:

- ١- تواصل لفظي غير لغوي: وقد سبق بيانه
- ٢- تواصل لفظي لغوي: تكون الرسائل فيه لغوية كالكتب والخطب والحوار المتبادل، ولكن لما كان التواصل اللفظي اللغوي هو الأعظم انتشاراً والأكثر بياناً في الحياة الإنسانية كان لا بد من التركيز على هذا النوع من التواصل.

المطلب الأول: التواصل اللغوي

أ- ما هي اللغة؟

يعرفها ابن جني بأنها: " أصوات يُعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (١)
هذه الأصوات هي ألفاظ وُضعت للدلالة على الأشياء والمعاني، وبالتالي فالأصوات التي لا تدل على معنى لا تدخل في اللغة.
وعليه فالأصوات:

إما مستعملة: مثل كلمة (بحث) لها معنى معجمي يدل عليها.

أو مهملة: غير مستعملة، مثل الكلمات (حبث) و(ثبح) و(حشب) و(بشح) و(حشب) لا معاني لها في اللغة العربية ولا تجدها في المعاجم فهي ألفاظ مهملة.
ب- طرق التعبير اللغوي:

يمكن أن يعبر الإنسان لغوياً عن نفسه بطريقتين: ١- النطق ٢- الكتابة

(١) الخصائص لابن جني (١/ ٣٣) تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب - بيروت

١- **النطق:** وهو الأصل في التعبير اللغويّ لأنّ اللغة أصوات تواضع الناس على معانيها. ونلاحظ أنّ التعاريف المعاصرة اعتبرت اللغة منظومة من الرموز الصوتيّة المتفق على دلالتها.

وبالتالي فإنّ المرسل (المتكلّم) يقوم بترميز أفكاره ومشاعره التي يريد الإفصاح عنها لغويّاً (بالأصوات) لتنتقل إلى المستقبل الذي يقوم بدوره بفكّ الشيفرة أو الترميز اللغويّ ليفهم مراد المرسل.

وبالتالي فالتواصل اللغوي المنطوق يقوم على ركيزتين: الأولى: الكلام، والثانية: الاستماع، ولكلّ منهما مهارات تساعد على تعزيز التواصل الفعال.

٢- **الكتابة:** وهي اختراع إنسانيّ يوثّق النطق البشريّ برموز مرسومة وفق منظومة متّفق عليها، وتعدّ الكتابة بديلاً عن النطق يقوم مقامه فضلاً عن وظيفته التوثيقية. وبالتالي فالكاتب يقوم بعملية الترميز على مرحلتين:

١- يرّمز أفكاره بما يقابلها (نطقاً)

٢- ثمّ يقوم بترميز المنطوق رسماً (كتابةً)

والقارئ يقوم بفكّ الترميز على مرحلتين:

١- يفكّك الشيفرة الكتابيّة إلى ما يقابلها نطقاً

٢- ثمّ يفكّك الرمز اللفظيّ إلى ما يقابله من المعاني.

وعليه فالتواصل اللغويّ المكتوب يقوم على ركيزتين: الكتابة والقراءة، ولكلّ منهما مهارات تساعد على تعزيز التواصل الفعال.

ج- ساهم أغراض التواصل اللغويّ:

١- التواصل الإنسانيّ الاجتماعيّ الذي يعبر عن إنسانيّة الإنسان ومشاعره وتعاطفه وأشواقه وتعلّقه بالآخرين وأنسه بهم..

٢- نقل الأفكار والمشاعر والمعارف والتجارب والخبرات.

٣- الإقناع وكسب التأيد.

٤- توثيق النشاط الإنسانيّ.

ح- أنواع التواصل اللغويّ:

١- الرواية (نقل الخبر): والأخبار منها النصوص الدينية كالقرآن الكريم والحديث

الشريف ومنها الأخبار الإنسانيّة كالتاريخ والأشعار والخطب..

٢- القصّة: ويطلق على القصص الطويلة منها مصطلح (رواية) لكن بالمفهوم الأدبي.

ويمكن تعريفها بأنّها:

حكاية تروي فصلاً من وجوه النشاط والحركة في حياة الإنسان.

وتقسم القصة من حيث صلتها بالوقائع والأشخاص إلى:

أ: القصة الواقعيّة التاريخيّة وهذا الذي ذكر في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة.

ب: القصة الواقعيّة المعبرة عن مثل ما يجري في الواقع، فهي ليست توثيقاً لما حدث وإنما

مقاربة لما يحدث في الحياة الإنسانيّة.

ج: القصة الأسطورية: هي القصص التاريخيّة والدينيّة غير الحقيقيّة.

د: القصة الخيالية: هي قصص مستقبليّة تقوم على الخيال والتوقعات ومنها قصص الخيال

١

العلمي. (١)

٣- الحوار: الحديث المتبادل بين شخصين أو أكثر..

٤- الخطابة: وهي فنّ التحدّث إلى الجمهور.

خ- أنواع الصياغة اللغويّة: (النثر - الشعر)

١- النثر: هو الكلام الفنيّ الجميل، المنشور بأسلوب جيّد لا يحكمه النظم الإيقاعيّ -

كما هو حال الشعر - ويتفاضل بحسن اختيار المفردات اللغويّة، والعرض المنطقيّ

(١) الدراسات الأدبية في القرآن الكريم للدكتور نور الدين عتر ص ٢٢١-٢٢٢، مطبوعات جامعة دمشق،

ط ١٠٧: ٢٠٠٧-٢٠٠٨م

المقنع، وبجلاء المعاني، وقوة التأثير في المتلقي.

٢- الشعر: كلامٌ موزونٌ مقفى، يدلّ على معنى، ويستعمل لأغراض متعدّدة كالمديح والهجاء والغزل والفخر..

ونلاحظ أنّ النثر هو الصياغة الأكثر شيوعاً في مختلف أنواع التواصل اللغوي، وفي شتى المجالات الدينيّة والعلميّة والسياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والأدبيّة..

المطلب الثاني: مهارات التواصل اللغوي

أولاً- مهارات التواصل اللغويّ المشتركة بين المنطوق والمكتوب:

هذه المهارات هي في أصلها علوم لغويّة، ولكن الانتفاع بها يحصل بإتقان استعمالها ولذلك أطلقنا عليها مصطلح المهارات، وهي: النحو والصرف والبلاغة

١- النحو: هو العلم بالقواعد التي يُعرّف بها أحكام أو آخر الكلمات العربيّة في حال تركيبها، من الإعراب والبناء والإفراد والتثنية والجمع والإضافة وغير ذلك.

والجهل بهذا العلم يوقع الناطق أو الكاتب في اللّحن والغلط، فقد يرفع ما حقّه النصب أو يجرّ ما حقّه الرفع وبذلك يلتبس المعنى، ويختل نظام الكلام مما يشكّل عائقاً في فهم الرسالة، ولذلك فإنّ علم النحو من أهمّ المهارات التي يحتاجها الناطق بالعربيّة أو الكاتب بها على حدّ سواء.

٢- الصرف: هو علم يدرس التغيير الذي يطرأ على بنية الكلمة وصيغتها، وما يطرأ عليها من تغيير، كالزيادة أو النقصان، أو الإبدال والقلب، وغير ذلك.. وبهذا العلم تعرف أبنية الكلمات ومصادرها كالمصادر الصريحة والميميّة والصناعيّة ومشتقاتها كاسم الفاعل والمفعول وأحرف الزيادة، ووجوه نطق الفعل في جميع أحواله، وغير ذلك من التغيرات التي تطرأ على الكلمات في بنيتها..

والجهل بهذا العلم يفسد على الناطق والكاتب رسالته ويوقع المتلقي في مطبّات سوء الفهم أو الحيرة في مراد المتكلّم مما يجعل الاتصال اللغويّ قاصراً عن غايته، ولذلك فإنّ معرفة هذا العلم مهارة يحتاجها الناطق بالعربيّة أو الكاتب بها على حدّ سواء.

٣- **البلاغة:** وتشتمل على ثلاثة أنواع من العلوم: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

أ- **علم المعاني:** يختصّ بالتركيب وأنواعها أي الجمل الخبريّة والإنشائيّة، وما قد يلحقها من التقديم والتأخير والذكر والحذف والإيجاز والإطناب والتوكيد.. ودلالاتها المعنويّة..

ب- **علم البيان:** هو العلم الذي يُمكن الإنسان من التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة، ويُقسم إلى: الحقيقة والمجاز، والتشبيه بأنواعه والكناية وسائر فنون التصوير الفنيّ التي تعطي للكلام جاذبيّة لدى المستمع بما فيها من تصوير وتشويق وإثارة للذهن والمشاعر.

ت- **علم البديع:** هو العلم الذي يجمع بين الجمال المعنويّ المتعلّق بمعاني الألفاظ، وبين الجمال اللفظيّ المتعلّق بأشكال الألفاظ أو نطقها واختلافها في المعنى أو اتفاقها فيه، ويشتمل على المحسنات اللفظيّة كالجناس والسجع، والمحسنات المعنويّة مثل: التورية والطباق والمقابلة وحسن التعليل والمبالغة..

ولكلّ مما سبق تفصيلات في مظانها من علوم العربيّة ولا مجال لذكرها هنا ولذلك اكتفينا بالإشارة السريعة إليها.

ثانيًا- مهارات التواصل اللغويّ الخاصة بالمكتوب:

١- **مهارة الإملاء:** إنّ التواصل الكتابي الفعّال يحتاج إلى صحّة الكتابة الإملائيّة لأنّ الخطأ في رسم الكلمة يؤدي إلى الخطأ في فهمها، وتعلّم قواعد الإملاء في الكتابة لا يقلّ أهميّة عن تعلّم قواعد النطق ومخارج الحروف في الكلام.

٢- **مهارة الضبط بالشكل:** إنّ ضبط الكلمات بالشكل يزيل إبهامها، فالكلمات قد تتشابه في الرسم وتختلف في الضبط بالشكل، وتركها مجردة عن الشكل قد يُوقع القارئ في لبس وحيرة، كما أنّ الضبط بالشكل مهمّ في الكلمات المعربة التي تتغيّر حركتها الإعرابيّة بحسب موقعها من الجملة، وبالتالي فالضبط يفتقر إلى معرفة النحو

والصرف معًا.

٣- علامات الترقيم: هي رموز تُكتب في ثنایا النص، تُعين القارئ في معرفة مواضع الوقف، وفهم ما يقرأ، لأنها تشير إلى مضمون الجمل، وتدُلُّ بوضوح على أنَّ الكاتب يتمتّع بذهن مرتّب، وعلى أنَّ الفكرة واضحة في ذهنه، وتيسر على القارئ معرفة مراد المتكلّم.

فجملّة: جاء زيد.

تختلف عن جملة: جاء زيد؟

وتختلف كذلك عن جملة: جاء زيد !

فالأولى للإخبار، والثانية للاستفهام، والثالثة للتعجب.

وبالنتيجة: علامات الترقيم تقدّم النصّ المكتوب بصورة أقرب ما تكون إلى نصّ مسموع، وتحوّل النصّ إلى مقاطع صوتية، تتنوع طرق أدائها بحسب علامات الترقيم، فالجملة التي تليها إشارة استفهام تُقرأ بطريقة مختلفة عن الجملة التي تليها إشارة تعجب، والجملة التي تنتهي بنقطة تُقرأ يوقف عليها ساكن، بخلاف الجملة التي تنتهي بفاصلة بحيث تتيح للقارئ التقاط نفس خفيف ليتابع قراءته..

٤- حسن الخطّ: المراد بحسن الخطّ وضوحه في الدرجة الأولى ويزاد حسنًا بجماله

وحسن ترتيب فقراته، وانتظام المسافات بين كلماته وكذلك بين سطور.

إنّ حسن الخطّ في التواصل الكتابي كالفصاحة في التواصل اللساني، ولذلك قالت

العرب: "حسن الخطّ أحد الفصاحتين" (١).

ويُروى عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قوله: (الخطّ الحسن يزيد الحقّ

٢

وضوحاً) (٢).

(١) أدب الدنيا والدين للماورديّ (ص: ٦١) ت: محمد أبو الخير السيد، ومحمد الشرقاويّ، مؤسسة الرسالة -

بيروت، ط: ١: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا لأحمد بن علي القلقشندي (٣/ ٢٥)، تحقيق: د. يوسف علي طويل، دار

الفكر - دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧

إنَّ وضوح الخطِّ يُيسِّر قراءة الرسالة، ويريح بصر القارئ، كما أنَّه لا يُنكر أثر الخطِّ الجميل على نفسيَّة القارئ، وقد قال بعضهم: **حسن الخطِّ لسان اليد وبهجة الضمير**^(١).

في المقابل فإنَّ رداءة الخطِّ تؤثر على وضوح الرسالة، وتؤثر على نفسيَّة القارئ بسبب:

- ١- المشقَّة التي يتكلَّفها في فكِّ رموزها.
- ٢- نفرة النفس من قبح الخطِّ وسوء الترتيب، لأنَّ النفس بطبعها تنفر من القبح وتنجذب للجمال.
- ٣- إحساس القارئ بعدم مبالاة المرسل برسالته أو بالمرسل إليه، وهذا يفقد القارئ الحماس والرغبة في قراءة الرسالة.

وقد قال أبو العباس المبرِّد: **رداءة الخطِّ زمانة الأدب**^(٢).
ومن هنا نعلم أنَّ الاهتمام بالخطِّ يتم على أساس أنه وسيلة للاتصال وأداة للتعبير، وليس هدفا في ذاته.
إنَّ الوضوح في الخطِّ هو الهدف الذي يجب أن نركز عليه في تعليمنا وتدريبنا لأبنائنا في المدارس.

قال العلامة الماوردي رحمه الله: **وَلَمَّا كَانَ الْخَطُّ بِهَذَا الْحَالِ وَجَبَ عَلَى مَنْ أَرَادَ حِفْظَ الْعِلْمِ أَنْ يَعْجَأَ بِأَمْرَيْنِ:**

أَحَدُهُمَا: تَقْوِيمُ الْحُرُوفِ عَلَى أَشْكَالِهَا الْمَوْضُوعَةِ لَهَا.
وَالثَّانِي: ضَبْطُ مَا اشْتَبَهَ مِنْهَا بِالنُّقْطِ وَالْأَشْكَالِ الْمُمَيَّزَةِ لَهَا.

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٦١) وعزاه إلى علي بن عبيد.

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٦١)

ثُمَّ مَا زَادَ عَلَى هَذَيْنِ مَنْ تَحْسِينِ الْخَطِّ وَمَلَا حَةَ نَظْمِهِ فَإِنَّمَا هُوَ زِيَادَةٌ حَذَقٍ بِصُنْعَتِهِ
وَلَيْسَ بِشَرْطٍ فِي صِحَّتِهِ. (١)

أما جمال الخطِّ بمعناه الفنيّ، فيجب أن نتعاهده بالرعاية لدى الموهوبين في دراسة نظريّة وتدريب علميّ بإشراف مختصّين بفنّ الخطِّ الذي يُعنى بمختلف ضروبه كالثلث والفارسيّ وغيرها فإنّه كضروب اللحن والمقامات في فنّ الغناء، وهذا يدخل في الفنون وفي هذا السياق قد يكون الجمال في شكله التزيينيّ العام الذي يرسم على هيئة الطيور أو الزهور أو الأشجار.. فغالبًا ما يكتنف الغموض عبارته المكتوبة مما يكلف القارئ مزيدًا من المشقّة الممزوجة بالمتعة في حلّ رموزها، فتشبه بذلك جمال الأحجية في غموض لغزها ولذّة العقل في كشف سرّها.. وبذلك يتضح لنا الفرق بين فنّ الخطِّ وهو حرفة متخصصة وحسن الخطِّ وهو مهارة لازمة لكلّ كاتب.

مهارة حسن الخطِّ في عصر الكتابة الرقمية:

لقد قدّمت الثورة الرقمية خدمةً جليّةً في مجال الخطوط حيث أصبحت معظم الخطوط متاحةً بشكل رقميّ في برنامج معالجة النصوص (word) أو البرامج الرقمية الشبيهة بما يتيح لك أن تكتب نصًّا، وأن تحرّره إملائيًّا، ثم تختار له الخطّ المناسب، كما يتيح البرنامج ضبط الكلمات بالشكل، ووضع علامات التقييم، وإضافة المسافات البادئة لبيان بداية الفقرات، والتحكّم بحجم الخطِّ ولونه ونوعه، والتحكّم بمسافة التباعد بين السطور، واستعمال ميزات محاذاة النصّ يمينًا أو يسارًا أو توسيطه في منتصف الصفحة أو ضبطه بحيث يحقق محاذاة النصّ يمينًا وشمالًا معًا، وهنا يمكن أن يضيف البرنامج مسافات بين الكلمات عند الضرورة بحيث تكون كلّ فقرة في منتهى التنسيق.

وبالتالي في عصر الكتابة الرقمية نستطيع أن نقول أننا تجاوزنا الميزات الفردية في حسن الخطِّ ووضوحه، ولكن على الكاتب أن يعتني بمهارات تنسيق النصوص.

(١) المرجع السابق

ثالثاً- مهارات التواصل اللغوي الخاص بالمنطوق:

الخطابة- الإلقاء

أولاً- الخطابة:

يمكن تعريف الخطابة بأنها: فنّ مشافهة الجمهور بخبرٍ أو فكرة للتأثير فيهم بالإقناع أو الاستمالة.^(١)

والخطابة من أقدم أساليب التواصل البشريّة، ولها مكانتها الرفيعة في ثقافات الأمم السابقة، وحسب الخطابة شرفاً أنّها وظيفة قادة الأمم من المرسلين والأنبياء والعلماء والأمرء وكبار الساسة.

وتتجلى أهميّة مهارة الخطابة بالنسبة للخطيب في أنّها تشكّل:

١- فرصةً للنجاح الاجتماعيّ بتحقيق الاتصال العام بالجمهور، وبناء جسور التواصل معه.

٢- فرصةً لإتقان مهارة الاتصال بالجمهور والتأثير فيهم.

أ- أهداف الخطابة:

للخطابة أهداف عامة بحسب المرجعيّة الفكرية التي ينطلق منها الخطيب، ويمكن أن نرجع أهداف الخطابة في الإسلام إلى أمرين اثنين: تزكية النفوس وتنوير العقول:

١- التزكية: أي تزكية النفوس بالحثّ على الخير والتنفير من الشرّ وإثارة حماسة السامعين

لتحقيق ذلك؛ قال تعالى: {وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [النساء: ٦٣]
وعَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْعَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ.. الحديث (٢).

٢-التنوير: أي تنوير العقول ببيان الحقّ، وكشف الباطل، وتفنيد الشبهات بالإقناع،

(١) انظر فن الخطابة ومهارات الخطيب، د. إسماعيل علي محمد، دار الكلمة- القاهرة، ط ٥: ١٤٣٧هـ-

٢٠١٦م، ص ١٤

(٢) سنن الترمذي (٥ / ٤٤) رقم ٢٦٧٦

وتعليم الجاهل، وتنبية الغافل.

ولذلك فقد كان النبي ﷺ يختم الخطب المهمة كخطبة الكسوف وخطبة الحج بقوله: «أَلَا هَلْ بَلَغْتُ» (١).

ب- شروط الخطيب الناجح:

١- **التمكن العلمي:** أي الإحاطة المعرفية الجيدة بالتخصص الذي يتناوله في خطابه بشكل عام أي العلوم الدينية في الخطب الدينية أو العلوم السياسية في الخطب السياسية وهكذا.. فإن أحوجه الأمر لأن يتكلم في غير اختصاصه فعليه أن يحاول الإلمام بموضوع الخطبة على الأقل، وإلا افتضح الخطيب بجهله على رؤوس الأشهاد.

٢- **التمكن اللغوي:** أي المعرفة الواسعة باللغة ومفرداتها وصحة مخارجها وفصاحة ألفاظها، والتمكن من النحو والصرف ووجوه البلاغة وجمال التراكيب. وكم من خطيب سقط من أعين جمهوره لضعف لغته وكثرة لحنه وركاكة تراكيبه.

وكم من خطبة صحيحة المعاني ضاعت قيمتها المعرفية بركاكة المباني، وبجهل الخطيب بلغة التواصل.

ومن المهم أن يعتمد الخطيب المتمكن لغة صحيحة سهلة ميسورة، بعيدة عن التنطع والتكلف والتقعر وأن لا يستعمل الحوشي المهجور من في اللغة.

٣- **الإيمان بما يقول والقناعة به:** لأن فاقده الشيء لا يعطيه، فلن تبلغ رسائل الخطيب مبلغها من السامعين ما لم تخرج منه وهي تحمل بصمات قناعته، ورائحة إيمانه الصادق بها، وكما قيل: ما خرج من القلب يصل إلى القلب وما خرج من اللسان لا يجاوز الآذان.

٤- **الشجاعة والثقة بالنفس:** لأن الخطيب المتردد يضعف رسائله في حين يتمكن

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٥٩٩) رقم ٤١٤٤ من حديث أبي بكر، صحيح مسلم (٢/ ٦١٨) رقم ٩٠١ من حديث السيدة عائشة.

الخطيب الشجاع رابط الجأش من الوصول إلى نفوس السامعين ونيل ثقتهم بما يجعلهم أكثر قناعة بما يقول.

ولكن يجب أن نؤكد على أنّ ثقة الخطيب بنفسه مرتبطة بكلّ ما سبق من المكنة العلميّة واللغويّة وبالإيمان بما يقول.

فالضعف المعرفي يجعل الخطيب مترددا في طرح الأفكار حذرا في مناقشة الموضوع خجلا من ضحالة مادته العلمية؛ والضعف اللغويّ يجعله خجلا من كثرة سقطاته في رفع المنصوبات وجرّ المرفوعات وغيرها من الأخطاء النحويّة أو الصرفيّة أو الغلط في نطق الشواهد القرآنيّة والحديثيّة والإخلال بوزن الأبيات الشعريّة..

فإذا كان الخطيب ضعيف المعرفة، وركيك اللّغة ولكنه مع ذلك يتسم بالشجاعة والثقة بالنفس فهو أحد ثلاثة:

✓ إما دجال له مصلحة في لفت وجوه العوام إليه لما آرب خبيثة.

✓ وإما جاهل أخذته الحميّة فأطلقت لسانه بغير علم.

✓ أو أحمق يتكلّم ولا يبالي بما يقول وبما يقال فيه.

ت- سمات الخطبة الناجحة:

١- **الخطبة الهادفة:** كلام العاقل في الأصل ينبغي أن يكون بعيدا عن العبث، فلا يجوز أن يكون الكلام فقط لغاية الكلام؛ كما لا يجوز أن تكون الخطبة بلا هدف منشود أو غاية مرجوة.

ولكن بالمقابل قد تتنوع الأهداف وتتعدد في الخطبة الواحدة لكن يجب أن تصب جميع هذه الأهداف في هدف رئيسي هو غاية الخطبة.

٢- **الخطبة المحضّرة جيّدا:** وهي الخطبة التي تحققت فيها آثار التمكّن المعرفيّ (المعلومات الصحيحة مقرونة بالأدلة والبراهين والشواهد والأمثلة) وآثار التمكّن اللغويّ بتحضيرها كتابةً مع قراءتها أو بتحضيرها حفظاً مع القائها تجريبياً.

ويجب أن أنبه على أمر خطير يتعلّق بما يُعرف بالخطبة الارتجاليّة أي غير المحضّرة أنّ

الناس قد يقبلون منك خطبة ارتجالية في موقف طارئ ومناسبة مفاجئة، ولكنهم لن يتقبلوا أن ترتجل في خطبة الجمعة أو مناسبة معروفة الموعد لأنّ الارتجال هنا ضرب من الاستخفاف بالجمهور.

وفي الحالة الأولى أي عندما يكون الارتجال مسوّغاً (مبرراً) فإنّ الجمهور يتسم بالتعاطف مع الخطيب المرتجل ويتغاضى عن زلاته العلميّة واللغويّة ويتغافل عن ارتبائه لأنّهم يقدرّون الموقف وعنصر المفاجأة.

أما في الحالة الثانية: أي عندما يكون الارتجال غير سائغ (غير مبرر) فإنّ الجمهور يكون متشددًا مع الخطيب يحصي عليه زلاته ويعدّ أخطائه ولا يسوغ له ارتبائه؛ لأنّ ذلك يحمل على تقصير الخطيب في حقّ نفسه واستخفافه بجمهوره.

ث- طرق بناء الخطبة:

١- طريقة من الشجرة: بأن يبني الخطيب خطبته بناءً منطقيًا يبدأ بجذور الفكرة الرئيسة أي الأسباب البعيدة ثم الأسباب القريبة ثم يخلص إلى النتيجة التي يريد قولها. أو البدء بالكليات وصولاً إلى الفروع ثم التركيز على فكرة بعينها.

وتستعمل في:

- المحاضرات العلميّة
- الجمهور المختصّ
- عند توفر الوقت المناسب

٢- طريقة الثمرة: بأن يعتمد الخطيب إلى الفكرة الرئيسة مباشرة، ويعطي النتيجة النهائيّة بأدلتها والردّ المباشر على كلّ ما يرد عليها من إشكالات.

وتستعمل في:

- خطب الطوارئ كالخطب في زمن الأوبئة أو شدّة الحر أو البرد أو أحوال الحرب والخوف.
- الجمهور العام: عوام الناس لا صبر لهم على التأميل والتعقيد فالحكمة تقتضي الدخول

المباشر إلى الموضوع

● الوقت الضيق: للخطب المحددة بدقائق معدودة، أو للمداخلات المختصرة في المحاضرات والندوات العامة.

٣- الطريقة المدمجة: يمكن الدمج بين الطريقتين بالبدء بالفكرة الفرعية موضوع الخطبة ثم التأصيل لها للوصول إلى الكليات الكبرى أو الأسباب العامة..

ج- مهارات الخطبة الناجحة:

١- حسن الإلقاء بإتقان مهارات استعمال الصوت؛ بما يكسبه قوّة السيطرة على الموقف وهذا ما سنعرض له في مهارات الإلقاء.

٢- حسن الافتتاح: أو ما يُعرف ببراعة الاستهلال وهو ما يشكّل الانطباع الأوّل لدى السامعين، ويكون بالمقدمة الشائقة وبالطريقة الإبداعية التي يدخل فيها الخطيب إلى الموضوع، ويجب أن تحمل المقدمة في ثناياها فحوى الفكرة الرئيسة للخطبة تمهيداً لها، وأن تشتمل على مفردات وعبارات جذابة للمستمعين، وأن تكون رشيقة موجزة.

من أساليب جذب الجمهور في افتتاح الخطاب^(١):

- المجاملة: مجاملة الجمهور بالثناء عليهم دون مبالغة: كقول الخطيب يسعدني أن أقف بين يدي نخبة من المثقفين، أو يخاطبهم بصفات يحبونها: يا معاشر المؤمنين، يا حراس الدين وحماة العقيدة، أو يحییهم بمثل قوله: حيّ الله هذه الوجوه المشرقة بالإيمان.

- السؤال: أن يفتح خطبته بسؤال ليثير حفيظتهم لمعرفة الجواب، ويدخلهم في حالة من العصف الذهنيّ بما يجعلهم يشعرون بالشاركة مع الخطيب في موضوع خطبته.

- الإحصاءات: إن افتتاح الخطبة بأرقام إحصائية دقيقة تفيد في إحداث صدمة معرفية لدى الجمهور وتستفز انتباههم لأهمية موضوع الخطبة وجديّة الخطيب في الطرح.

- الاقتباس: بأن يستفتح الخطيب بآية كريمة أو حديث شريف أو قول مأثور لأحد العلماء أو العظماء، وهي طريقة شائعة لها قبولها عند الجمهور.

(١) انظر قوّة الكلمة، تأليف دوروثي ليدز، ترجمة: عبد الرحمن توفيق، سلسلة إصدارات بيملك، ص ١٥٤-١٥٧

- التجربة الشخصية: بأن يفتح الخطيب كلامه بقصة شخصية تجذب انتباه الجمهور ليخص منها إلى مشكلة الخطبة ويعالجها لاحقًا.
- القصة: لا ينكر أثر القصة في جذب الجمهور، ولكن يجب أن تكون موجزة تركز على الرسالة التي يريد الخطيب أن يوصلها للسامعين.
- المقارنة: المقارنة بين أمرين أو حالين يجذب انتباه الجمهور كافتتاح الخطبة بعقد مقارنة بين حال العرب قبل الإسلام وحالهم بعد الإسلام، أو المقارنة بين معاملتين كالبيع والربا، أو بين مفهومين كالتمسك والتواكل.
- التحدي: الاستفتاح بالتحدي يثير حماس الجمهور ويحول الخطيب إلى بطل المشهد، كأن يفتح خطبته بقوله: أتحدى الجميع بأن يجدوا في الإسلام ما يدعو إلى التقليد الأعمى، أو بأن يستطيع أحد أن يأتي بترجمة لآية قرآنية في كل لغات الأرض أوجز وأفصح من هذه الآية...

ومن الأساليب الخاطئة في افتتاح الخطبة^(١):

- التمييز بين الحضور بالتحية والشكر: باستثناء الخطابات الرسمية التي لها بروتوكولاتها الخاصة بها، فإن التركيز على أشخاص دون آخرين يجعل الخطيب يبدو متملقًا في نظر كثير من الحاضرين، ويسبب غضب من يجد نفسه أهلاً لأن يخصّه بالتحية.
- الاعتذار: التودد للجمهور بالاعتذار أسلوب خاطئ لأن ذلك سيعطيهم انطباعاً بأن الخطيب ضعيف، ويهز ثقتهم به. كقول الخطيب: لست أهلاً لهذا الموقف ولكن...، أو أن يفتح بقوله: لم يتح لي الظرف بأن أحضر جيداً لهذا اللقاء.
- التبرير: ليس على الخطيب في أي محفل أن يشرح أسباب وجوده، ولماذا وقع عليه الاختيار ليخطب فيهم، لأنّ قسمًا من الجمهور يعلم ذلك والقسم الآخر غير مهتم للأمر فلا ينبغي أن يضيع وقته في تقديم المسوغات.
- مدح الذات المباشر: بأن يفتح خطبته بالثناء على نفسه وبإظهار مكانته وعلمه

(١) انظر المرجع السابق ص ١٥٧

وفضله كأن يقول: لقد أنفقت شطر عمري في طلب العلم وأكرمني الله بالتلقي عن كبار العلماء حتى صرت أحد أساطينه وأعلامه.. فإن ذلك الكلام وأمثاله يظهر بمظهر المتكبر والمعجب بنفسه ويسقطه من أعين الجمهور.

- **مدح الذات غير المباشر:** كأن يفتتح الخطيب كلامه بقوله: هذا الموضوع لا يتصدى له إلا المتبحر بالعلم المتمكن من علوم الشريعة، أو يفتتح بالشكوى من صعوبة الموضوع الذي يتحدث عنه وبصعوبة الوصول إلى مصادره، لأنه بذلك يلفت النظر إلى نفسه وجهده على حساب الموضوع نفسه.

٣- **حسن انتقاء الأدلة والأمثلة:** بحيث يتعد الخطيب عن التعميم في الأحكام، ويجتنب الأغاليط المخالفة للمنطق، والأحاديث الموضوعة، والأقوال الشاذة، والأساطير والخرافات ويعتمد على الأدلة الصحيحة والإحصائيات الدقيقة؛ بما يجعله يكسب ثقة الجمهور واحترامهم.

٤- **حسن العرض وسلاسة الانتقال من فكرة إلى أخرى:** على الخطيب أن يرتب أفكاره ترتيباً منطقيّاً بحيث ينتقل من العام إلى الخاص أو العكس، أو من الكلّي إلى الجزئي أو العكس، أو ينتقل من المشكلة إلى أسبابها، أو من الأسباب إلى نتائجها.. إنّ تشتت الخطيب في ترتيب أفكاره يدفعه للشroud بعيداً عن موضوع خطبته مما يعرضه لنقد الجمهور وإحساسهم بالضيق معه.

أما سلاسة الانتقال بين أجزاء الخطبة وأفكارها فتتم **بموجّهات** تقود الجمهور إلى الفكرة الجديدة وهي:

١- **موجّهات مباشرة:** وهي جميع الكلمات التي تفيد بانتهاء فكرة وبداية فكرة جديدة كأن يقول الخطيب: إضافةً إلى ما سبق فلا بد بيان كذا وكذا، أو فضلاً عن ذلك فإنّ...، أو بناءً على ما سبق...، أو بعد ذلك، أو وبعيدا عن هذا كله، أو أخيراً

١- **موجّهات المقارنة:** ويكون بالاعتماد على المقارنة بين ما سبق وبين ما سيقوله الخطيب؛ كأن يقول: وبالمقارنة مع كذا..، أو بعكس ذلك، أو بالطريقة نفسها، أو

والصورة النقيضة...

٢- **موجّهات السؤال:** بأن يستعمل السؤال للانتقال من فكرة لأخرى كأن يقول:

والسؤال الآن ما السر في كيت وكيت؟ ثم ينتقل ليشرح هذا السر...، أو يسأل: لماذا قلنا ما سبق ما دليلنا عليه؟ ثم يسوق دليله؟؟

٤- **موجّهات العرض:** بأن يعرض على الجمهور الانتقال إلى مسألة جديدة، كأن يقول:

بعد أن فرغنا من المشكلة ما رأيكم أن نستعرض أهم أسبابها؟

٥- **موجّهات الاستدكار لبعض ما ورد مجملًا:** إذا عرض الخطيب أفكاره الرئيسة

مجملًا في مقدمة الخطبة فبوسعه أن يفصل بين الأفكار باستدكارها قبل الانتقال إليها، كأن يقول: قلت لكم في بداية الخطبة كيت وكيت، أو يقول: ولعلكم تذكرون ما عرضنا له في مقدمة الكلام.. وهكذا.

٦- **موجّهات الوقف:** الوقف أحد الموجهات الشائعة لأنّ الصمت عند انتهاء الفكرة

لثلاثة أو أربع ثوانٍ يهيئ الجمهور لتلقي فكرة جيدة؛ كأن يصمت الخطيب بعد عرض المشكلة ثم يبدأ بقوله: أما الأسباب فهي..

٧- **حسن الختام:** براعة الاختتام لا تقل أهمية عن براعة الاستهلال لذلك قيل: "فنّ

الابتداء فنّ عظيم ولكن الأعظم منه فنّ الانتهاء" وذلك لأنّ الخاتمة تلخّص الخطبة وتجمع شتاتها، وبراعة الاختتام تظهر بالإيجاز والتكثيف، وإعادة صياغة الفكرة الرئيسة بعبارة فصيحة بليغة، بحيث يترك انطباعًا قويًا في عقول الجمهور ونفوسهم بما يجعل الخطبة أطول عمرًا في ذاكرتهم وأعمق أثرًا في نفوسهم.

طرق سيئة للختام:

١- قصة طويلة مملة

٢- فتح موضوع جديد وعدم القدرة على اتمامه

٣- التشاؤم وفقدان الأمل

٤- الاعتذار عن الإطالة أو عن نسيان بعض الأفكار المهمة

ثانيًا: الإلقاء

الإلقاء: أحد طرق الاتصال اللفظي مع الجمهور، وهو أعمّ من الخطابة، ويحتاجه الخطيب والمحاضر والمسرحي والمدّرب...
ويمكن تعريفه: بأنّه فن النطق بالكلام على بطريقة توضّح ألفاظه ومعانيه^(١).
وحسن الإلقاء يعتمد على قدرة الإنسان على استعمال مهارات الأداء الصوتي.
ويجب أن نأخذ بالحسبان أنّ مصداقيّة المتحدث عند جمهوره تعتمد بنسبة ٨٤% على طريقة الأداء الصوتي.

مهارات الأداء الصوتي:

- مهارة التحكم بطبقة الصوت
- مهارة التحكم بمعدل سرعة الكلام
- مهارة التحكم بنبرة الكلام
- مهارة الوقف والابتداء

١- مهارة التحكم بطبقة الصوت:

طبقة الصوت تختلف من إنسان لآخر، كما يمكن للإنسان أن يتحكّم بمستوى طبقة صوته رفعًا أو خفضًا من خلال الضغط على الحبال الصوتيّة.
ولما كان الصوت عبارة عن اهتزازات تنتقل في الأوساط الماديّة والهواء منها، فإنّ طبقات الصوت تتفاوت بحسب الضجيج الذي يحدثه الصوت، وتقاس شدّته بالديسبل db.

وبهذا المقياس يمكن تصنيف الأصوات إلى أصوات مؤذية، وأصوات مزعجة، وأصوات مريحة، وأصوات غير مفهومة.

(١) فن الإلقاء، عبد الوارث عسر، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ص ٥

نوع الصوت	شدته بالديسبل db
الصوت المؤذي	أكبر من 90
الصوت المزعج	70-90
الصوت المريح	10-70
الصوت غير المفهوم	0-10
الصمت	0

ونورد بعض الأمثلة على هذه الأنواع بحسب مصدرها ومستوى أمانها على الإنسان:

الشدة بالديسبل	مصدر الصوت
	المستوى الآمن
صفر	أخفض صوت يمكن للأذن البشرية سماعه، يقارب درجة السكون
٣٠	الهمس
٤٥	طنين محرك الثلاجة
٦٠	المحادثة العادية
٧٠	صوت الغسالة
	مستوى الخطر
٨٥ إلى ٩٠	ضوضاء المرور القوية، مخفف الشعر
٩٥	الدراجة النارية
١٠٠	المثقب الكهربائي
١٠٥	مشغل الموسيقى "MP3" على أعلى قوة

١١٠	المنشار الكهربائي
١٢٠	صفارة الإسعاف
١٤٠	محرك طائرة عند الإقلاع
١٦٥	المفرقات والأسلحة النارية
١٨٠	الإطلاق الصاروخي

فالأصوات التي تبلغ شدتها ٩٠ ديسبل أو أكثر تشكّل خطرًا على الأذن، إذ أنها تؤدّي إلى ضرر مؤقت أو دائم في السمع، وذلك عبر:

- إحداث ثقب مباشر في طبلة الأذن.
- تدمير العظيّمات في الأذن الوسطى.
- حدوث أضرار في الخلايا الشعرية في الأذن الداخلية وموتها.

ولذلك على الإنسان عند الإلقاء:

- أن يعرف طبقة صوته لأنّ الناس يتفاوتون في طبيعة أصواتهم.
- أن يراعي وجود أجهزة تضخيم الصوت.
- وأن يراعي عند الإلقاء رفع شدة صوته أو خفضها بحيث يكون واضحًا للجمهور وبنفس الوقت أن لا يكون مزعجًا لهم.
- أن يغيّر طبقة صوته بين فينة لأنّ الصوت إذا كان بوتيرة واحدة يضعف التركيز عند الجمهور ويسبب لهم الملل.
- أن يراعي عند الانفعالات النفسية كالحماس أو الغضب أو الفرح تغيير طبقة الصوت بما يمثّل تحاوبًا صوتيًا مع الانفعالات النفسية.

٢- مهارة التحكّم بمعدّل سرعة الكلام:

يتفاوت الناس في سرعة النطق بالكلمات، فالإنسان قادر على التكلم من ٦٠ حتى ٢٥٠ كلمة في الدقيقة، ولكن هناك أرقام قياسية في سرعة النطق وصلت إلى أكثر

من ٦٠٠ كلمة في الدقيقة.

لكن الإلقاء البطيء يصيب السامع بالملل، والإلقاء السريع يعثره الخلل، لذلك يجب أن تكون سرعة الكلام معتدلة بينهما، وتُعتبر السرعة الطبيعيّة للإنسان في الإلقاء حوالي تسعين كلمة في الدقيقة الواحدة.

كما أنّ سرعة الإلقاء تعطي رسالة سلبية بعدم أهميّة الكلام أو بأنّ المتحدث لديه أشياء أكثر أهميّة تنتظره بعد لقائه بجمهوره.

وبما أنّ سرعة الإلقاء قابلة للتحكم والسيطرة فإنّ التحكم بها يحتاج إلى قيادة لها مهاراتها.

أ- قيادة الإلقاء:

سوف نتخيل الإلقاء كعملية قيادة سيارةٍ يستقلّها الجمهور، وعلينا أن نقوم معهم بجولة في شوارع الموضوع الذي نتحدث عنه، سنحتاج في مجال السرعة إلى المهارات التالية:

- ١- التسارع: زيادة معدل سرعة تدفق الكلمات شيئاً فشيئاً.
- ٢- التباطؤ: إنقاص معدل سرعة تدفق الكلمات شيئاً فشيئاً.
- ٣- المرونة: أي القدرة على زيادة معدل السرعة (التسارع) والقدرة على تخفيضها (التباطؤ) بحسب ما يقتضيه الموقف.
- ٤- الكبح: أي القدرة على الوقف التام في اللحظة المناسبة.

ب- نصائح في قيادة سرعة الإلقاء:

- ١- انتبه لمعدل سرعة كلماتك فإنّها قد تبدو غير مفهومة للجمهور.
- ٢- استعمل أكثر من سرعة خلال كلامك لأنّ الإلقاء بسرعة واحدة أي ما يمكن أن نسميه (رتابة الإلقاء) يفقد الجمهور حماسه.
- ٣- ابدأ بسرعة معتدلة ثمّ زد في سرعة الإلقاء شيئاً فشيئاً بحسب حاجته للسرعة، لأنّ البداية البطيئة جدّاً محبّطة للجمهور وتجعلك تبدو كروبورت آلي، كما أنّ البدء بسرعة

كبيرة يجعلك كمذيع في سوق البورصة ويعطي رسالة سلبية بأنك مستعجل ولديك ما هو أهمّ من الحديث إلى جمهورك.

٤- قبل أن تصل إلى مقولتك الجوهرية توقّف لبرهة، ثم زد في سرعة حديثك، فإذا وصلت للأهم تكلم ببطءٍ مع رفع الصوت، ثم اندفع في آخرها بسرعة قوية، ثم اكبح كلامك في نهايتها لتصل إلى وقفة صامتة تتيح للجمهور الإحساس بأهمية المقولة.

٥- زد سرعتك في الإلقاء عند ما تستشهد بفكاهة

٦- خفض سرعتك عندما تعرض أفكارًا معقدة أو عند نطق جملة مهمة

٣- مهارة التحكم بنبرة الكلام:

لكلّ إنسان بصمة صوت تختلف عن الآخر، ولكن في الإلقاء هناك مهارات تتعلق بإظهار المشاعر وبالتركيز على الرسائل التي تريد إيصالها وتعميقها في عقول السامعين ونفوسهم.

ولذلك يجب ان تتوافق نبرات الصوت بما يتوافق مع مضمون الكلمات سواءً كانت في ساحة الإدراك العقلي أو كانت في ساحة الإدراك العاطفي، فالحقائق العلمية تحتاج حدة في الصوت، ومشاعر الحزن والتأثر يعبر عنها بخفض نبرة الصوت..

نبرة الصوت تجعلنا نميز الكلام الخبري من الكلام الإنشائي لأنّ لكل واحد منهما نبرات تميّزه.

لكن في الكلام الخبري: اضغط على فعل القول واسم القائل عندما تنقل خبراً عنه واضغط مرةً أخرى على الكلمة المهمة فيما نقلته عنه.

وفي الكلام الإنشائي: يجب أن تختلف نبرة صوتك بحسب نوعه: السؤال والدعاء والتعجب والتحريض وغيرها..

نبرة الصوت معنيّة كذلك بنقل المشاعر فنبرة الكلام في الأفراح تختلف عن نبرة الكلام في الأحزان.

٤- مهارة الوقف:

الوقف في الإلقاء في غاية الأهمية لأنه يفصل بين الجملة من جهة وهو يعبر عن علامات الترقيم بسكتات لطيفة، ويفصل بين المقاطع بسكتات أطول. من المهم أن نعرف أنّ الوقف الخاطئ ينجم عنه ابتداء خاطئ بالضرورة ما لم يتم تدارك الأمر بإعادة إلقاء العبارة حتى تمام المعنى.

أ- أسباب الوقف الصحيح^(١):

- (١) انتهاء المعنى: عند الانتهاء من بيان فكرة فرعية نحتاج للانتقال إلى فكرة فرعية أخرى إلى وقف لمدة ثانية واحدة، ولكن عند الانتقال من فكرة رئيسة إلى فكرة رئيسة أخرى فإننا نحتاج إلى وقف من ٢-٣ ثانية.
- (٢) إبراز أهمية العبارة أو الفكرة التي تحملها العبارة: وهي تعطي فرصة للسامع في التفكير والتأمل ومدتها من ٢-٣ ثانية.
- (٣) إعطاء فرصة للجمهور لفهم العبارة: وهذه الوقفة تمنح الجمهور فرصة في استرجاع ما قلته، ومدتها ثانيتان.
- (٤) التعبير عن المشاعر: وذلك لإعطاء فرصة للمستمعين للتفاعل مع حالة المتحدث الوجدانية وهي تمتد من ٢-٤ ثانية.

ب- أسباب الوقف الخاطئ:

- (١) عدم فهم المعنى.
- (٢) عدم التفاعل الصادق مع العبارة.
- (٣) عدم مراعاة الجمهور وكأنّ المتكلّم يتحدث إلى نفسه.
- (٤) انقطاع النفس، وفي هذه الحالة يجب على المتكلّم أن يعيد قراءة الجملة أو يصلها بما قبلها ليفهم السامع أنّ المعنى لم يكتمل.

(١) انظر كتاب "فن التحدّث إلى الآخرين بلباقة"، دورثي ليدز، دار الفاروق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م، ص: ٨٢

ت- الوقفات المستحسنة عند الإلقاء:

- ١- بعد الافتتاح وفي الخطابة الدينيّة تظهر بالوقف بعد قول الخطيب أما بعد.
- ٢- بعد الانتهاء من فكرة وقبل الانتقال إلى فكرة أخرى.
- ٣- قبل السؤال وبعده.
- ٤- بعد الاقتباسات المهمة
- ٥- بعد العبارة الختاميّة وقبل أن تقول وشكراً أو أقم الصلاة في خطبة الجمعة.

ث- نصائح في مهارات التوقف^(١):

- ١- احذر التوقف في وسط الجملة فهو يفسد المعنى
- ٢- لا تساوي بين الوقفات في المدة فالوقفات بعد الفقرات الرئيسة أطول من الوقفات بين الفقرات الفرعية.
- ٣- لا تتوقف لفترة طويلة في الفكرة الواحدة لأنّها قد توهم الجمهور أنك انتقلت إلى فكرة جيدة.
- ٤- حضر جيداً لما تقول فإنّ التوقف للاستذكار يزعزع الثقة بك، وإذا ارتج عليك انتقل إلى فكرة أخرى.
- ٥- احذر التوقف للردّ على الجوال فهذا يشعر الجمهور بالاستخفاف بهم.
- ٦- اعطِ الوقفات الرئيسة حقّها لأنّها قد تبدو لديك أطول مما يحس به الجمهور.
- ٧- لا تملأ الوقفات بترديد (آآ... آآآ) فإنّها مزعجة وتضعف الثقة بك.
- ٨- توقّف عند التصفيق.
- ٩- توقّف عند الضجيج أو عند حدوث إزعاج أو عند وجود خلل في أجهزة الصوت.

(١) انظر كتاب "فن الإلقاء الرائع"، إنتاج شركة الإبداع الفكري، الكويت، ط٣ - ٢٠٠٤م، ص: ١٩١

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ١- أبجد العلوم، صديق بن حسن القنّوجي، تحقيق: عبد الجبار زكار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ، دمشق ١٩٨٩م
- ٢- أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماورديّ (ت: ٤٥٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الخير السيد، ومحمد الشرقاويّ، مؤسّسة الرسالة- بيروت، ط ١: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م
- ٣- أساس البلاغة، محمود جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني - القاهرة - ١٩٩١م.
- ٤- أسباب نزول القرآن، علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري (ت: ٤٦٨هـ)، تحقيق: كمال بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ
- ٥- أسرار لغة الجسم وكيفية إدارة الجسم البشري تأليف مستور سالم أبو تالات، مطبعة سامي - الإسكندرية- طبعة عام ٢٠١٠م.
- ٦- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ
- ٧- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة.
- ٨- تاريخ ابن معين (رواية الدوري)، أبو زكريا يحيى بن معين البغدادي (ت: ٢٣٣هـ) تحقيق: د. أحمد محمد نور سيف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - مكة المكرمة، الطبعة الأولى: ١٣٩٩ - ١٩٧٩م
- ٩- تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت: ٥٧١هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

- ١٠- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ
- ١١- تفسير البغوي أو معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت: ٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ
- ١٢- تفسير ابن كثير أو تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م
- ١٣- تفسير البضاوي أو أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر الشيرازي البضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت
- ١٤- تفسير الطبري أو جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م
- ١٥- التواصل التربوي - تقنياته و أساليبه، بحث منشور على النت إعداد رشيد نوري
- ١٦- الثقات، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م
- ١٧- الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي - بيروت
- ١٨- جامع العلوم والحكم، ابن رجب (ت: ٧٩٥هـ)، تحقيق: د ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير، ط ١، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م
- ١٩- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب - بيروت

- ٢٠- الدراسات الأدبية في القرآن الكريم للدكتور نور الدين عتر، مطبوعات جامعة دمشق، ط ١٠: ٢٠٠٧-٢٠٠٨ م
- ٢١- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني (ت ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت
- ٢٢- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر
- ٢٣- سيميائية لغة الجسد، د وليد محمد السراقي- منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب - وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٨ م.
- ٢٤- شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر - دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٥
- ٢٥- شرح النووي على صحيح مسلم أو المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى ابن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢ هـ
- ٢٦- شرح السنة، الحسين بن سعود البغوي (ت: ٥١٦)، تحقيق وتخرّيج: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣/١٩٨٣
- ٢٧- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: د. يوسف علي طويل، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ م
- ٢٨- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧
- ٢٩- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

- ٣٠- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت
- ٣١- غرر الخصاص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة لابي إسحاق جمال الدين محمد بن إبراهيم الكتبي المعروف بالوطواط، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلميّة- لبنان، ط١- عام ٢٠٠٨م
- ٣٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ
- ٣٣- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ
- ٣٤- فقه اللغة وسر العربية، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م
- ٣٥- فن الإلقاء، عبد الوارث عسر، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ١٩٩٣م
- ٣٦- فن الإلقاء الرائع، انتاج شركة الإبداع الفكري، الكويت، ط٣- ٢٠٠٤م
- ٣٧- فن التحدّث إلى الآخرين بلباقة، دورثي ليدز، دار الفاروق للنشر والتوزيع،
- ٣٨- فن الخطابة ومهارات الخطيب، د. إسماعيل علي محمد، دار الكلمة- القاهرة، ط٥: ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م
- ٣٩- قوّة الكلمة، تأليف دوروثي ليدز، ترجمة: عبد الرحمن توفيق، سلسلة إصدارات بيمك
- ٤٠- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى
- ٤١- لسان الميزان، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، المحقق: دائرة المعارف النظامية - الهند، الناشر: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م

- ٤٢- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت - ١٤١٢ هـ
- ٤٣- المرجع الأكيد في لغة الجسد - آلان وباربارا بيبز، مكتبة جرير، الطبعة الأولى: ٢٠٠٨ م
- ٤٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م
- ٤٥- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية - بيروت
- ٤٦- مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب - دمشق، طبعة ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م
- ٤٧- مهارات الاتصال الفعّال مع الآخرين، مدحت محمد أبو نصر، المجموعة العربية للتدريب والنشر - القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٢ م
- ٤٨- مهارات الاتصال الفعّال، عبد النبي عبد الله الطيب، أمواج للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، عام ٢٠١٨ م.
- ٤٩- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م
- ٥٠- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد النويري (ت: ٧٣٣هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ

دقق الكتاب علياً:

الدكتور

علي محمود عكام

الدكتور

عبد الكريم الخطيب

الدكتور

محمد دادو

دقق الكتاب لغوياً:

الدكتور

أحمد ياسوف

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة
لمديرية الكتب والمطبوعات الجامعية